

رحلة التغيير
في رحاب سيرة الأمين صلى الله عليه وسلم
رحلة مع النفس الإنسانية ومداخل التغيير فيها
عبر سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم
محمد رسول الله
أمل أحمد طعمة

الطبعة الأولى ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م

بِسمِ اللّهِ الرّحمَنِ الرَّحِيمِ

رحلــةُ التغييرِ

في رحاب سيرة الأمين ﷺ

رحلةٌ مع النّفسِ البشريّةِ ومداخلِ التغييرِ فيها
عبرَ سيرةِ المُصطفى ﷺ

أمل أحمد طعمة

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

سورة آل عمران : (٣١)

اهداءٌ و رجاء

أقفُ بجسدي بعيداً عنكَ، إذ يُبعدُني المكانُ والزّمان ! لكنّ روحي تأبى إلا أنْ تحاولَ الاقترابَ مِنْ شخصِكَ العظيم . . .

سيدّي رسولَ الله . . .

يُسربلُني حيائي . . و يُطمِعُني بالدّنوّ منكَ صفاتُ عظيمٍ مثلِكَ . .

سيّدي . . يلُفّني خجلي و تُدنيني ذراتٌ من حبك نُثرت في قلبي لشخصِكَ الكريم بعدَ أن تنسّمتُ عبيرَ سيرتكَ الزّكيّة .

سيّدي . . . . ما بينَ بُعدٍ و قُربٍ أضعُ بين يديكَ هديّةً متواضعةً، أطمعُ أن تكون آيةً بيني وبينَك تعرفُني بها يومَ العرض . . سائلةً المولى عزّ وجلّ القبولَ والرّضا . . . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

عندَ وهجِ الظّهيرةِ وتزاحمِ الأحداثِ وتثاقلِ الأقدامِ والالتصاقِ بالأرض..

عندَ انشغالِ الفكرِ وتشتُّتِ الذّهنِ وكثرةِ الصّيحاتِ وتناقضِ الأقوال..

عندما تفتقدُ الأرضُ القلبَ المُحبَّ الّذي يُلصقُ جبهتَهُ شوقاً وولهاً..

عندما تبحثُ الكلماتُ عنْ صدقِ ادّعائِها.. وتحارُ المشاعرُ في إخلاصِ صاحبِها..

وعندما يكثُرُ اللّغطُ والهرْجُ والمَرَجُ وتفقِدُ السّماءُ في عيونِ النّاسِ سرَّ صفائِها وجمالَ أفقِها..

عندَ كلِّ ذلك.. مَنْ للمسْلم يا رسولَ الله؟

أنا مِنْ زمانٍ فقدَتْ فيه الكلمةُ مصداقيّتَها، وباتَ المَسلمُ غريباً بين بني جِلْدَتِه.. لا هو قادرٌ على مجاراةِ أهلِ عصرِهِ في أخلاقٍ ومبادئَ تقولبَتْ بأشكالٍ غربيّةٍ غريبةٍ حتى نسيَ النّاس أصولَها، وسُمِّيَتْ باسمِ (الحضارةِ الغربيّةِ).. فالصّدقُ أخلاقٌ مهنيّةٌ يتحلّى بها الموظّفُ ومديرُهُ باسمِ المَدنيّة، والمسلمُ قدْ غيّرَ عُنْوانَهُ.. فلا عدْتَ تعرفُ

سِمَتَهُ ولا تشتَمُّ رائحتَه.. ولا غدا المسلمُ قادراً على التشبّهِ بأجدادِهِ الأفذاذ! فلم يبقَ لهَ مِنْ صفاتِ الشّبهِ إلا الاسم !

فإلى أينَ يذهبُ المسلمُ يا رسولَ الله ؟!

أويتُ إلى كهفِ سيرتِكَ علّي أتنسّمُ مِن عبيرِها ما يشدُّ همّتِي، ويعيدُ لقلبي طهرَه ولعقلي صفاءَه ولروحي حياتَها..

فإذا المقارنةُ اشتدّتْ والمفارقةُ تعاظمتْ، فأنخْتُ هامتي بينَ يدي ربي، وأنزلتُ حاجتي عندَه وانطلقَ لساني يردّدُ دعاءَ الحبيبِ المُصطفى ﷺ:

إنْ لم يكُنْ بكَ غضَبٌ عليَّ فلا أُبالي إلا أنَّ عافيتَك هي أوسعُ لي، أعوذُ بنورِ وجْهِكَ الّذي أشرقَتْ بهِ الظُّلُماتُ وصلُحَ عليهِ أمرُ الدّنيا والآخرةِ مِنْ أن ينزلَ بي غضبُكَ أو يحلَّ عليَّ سخطُك.

فتحرّكَ القلمُ هامساً في أذنِ شبابِ هذا العصرِ.. ناشراً عبَقاً مِنْ سيرَتِهِ الشّريفةِ مشفوعةً برحلةٍ إيمانيّةٍ وحديثِ نفْسٍ لشابٍّ من هذا الزّمنِ يحملُ فكرَه وشكلَه، فطَبَعَتْهُ بسمْتٍ غريب، إلا أنّ القلبَ بعدَ طولِ التّيْهِ سيظلُّ يبحثُ عنْ سرٍّ جُبِلَ به قلبُه يحِنُّ إلى طورِ سينائِه، وعنْ حقيقةٍ اُستودِعَتْ في فطرتِه.. لازالتْ تناديه أو تصرخُ حيناً.. حتى تجدَ متنفّساً لها أو هواءً في زمنٍ لا تعرفُه.

حتّى إذا ذاقتْ طعماً كانتْ قد نسيَتْه، واشتمّت أريجاً كان في القديم ريحُها انساقَتْ وراءَهُ، ونفَضَتْ غُبار السّنين وعادَتْ إلى بريقِها

المنسيّ قديماً.

هذا الهواءِ هو نسيمُ سيرتِك يا سيّدي يا رسولَ الله، وتلكَ الواحةُ هي واحتُك الشريفةُ بكلِّ عبيرها وجمالها.

وهي تقبَلُ كلَّ مَنْ أتى إليها مخلصاً فاتحاً قلبَهُ وعقلهُ لنورِها ينهلُ مِنْ نقاءِ مَشرَبِها وصفاءِ غديرِها، فلا شروطَ غيرُ الصّدقِ والإخلاصِ في الطّلب. عندها فقط يعودُ للفطرةِ نقاؤُها وللقلبِ سلامتُه وللعقلِ هُداه وللرّوح سعادتُها؛ فإنْ بالغْتَ في الصّدق انسكبَتْ في القلبِ المعاني الّتي بها فتحَ المسلمون قلوبَ العالمِ قبلَ أن تُسَلَّ سيوفُهم، وانسابَ في روحك معدِنُ الصّفاءِ الّذي به تعرُجُ روحُكَ إلى أصلِ منْبِتِها الّذي اشتاقَتْ إليهِ بعدَ طولِ انحباسٍ وبُعد.. فإذا الهيئةُ غيرُ الهيئة، والسّمْتُ ما عاد يشبهُ سيرَتَهُ الأولى، فكأنَّ الشّكلَ واحدٌ، لكنّ المعدِنَ والجوهرَ قد صِيغَ مِنْ جديدٍ وصُبِغَ بصبغةِ اللهِ، ومَنْ أحسنُ مِنَ اللهِ صِبْغَة ؟

هذا التغيّرُ ليس عجيباً، فقد حدثَ زمنَ الصّحابةِ الكرام وفي أزمانٍ مختلفة، فالصّلحُ مع ربِّ السّماءِ بلمحةٍ أو أقلّ، فهو الّذي ينادي كلَّ ليلةٍ ألا مِن تائبٍ فأتوبَ عليه، ألا مِن مستغفرٍ فأغفرَ له.. وهو القائل على لسان حبيبه المصطفى ﷺ :"من أتاني يمشي أتيتُهُ هرولَةً.." فسبحانَ الّذي يقبَلُ القليلَ ويجازي بالكثير.

و بعدَ كلِّ هذا العطاءِ الرّبّانيّ أنّى لقلبٍ يتنكّبُ عنْ دربِه!

قد خسرَ مَنْ فاتَهُ وصْلُ الحبيبِ الحقيقيّ الّذي لا يموتُ ولا يفنى، الوفيُّ الودودُ الّذي مدَّ حبالَ الوِدّ عن غنىً وقوّة، وتقرّبَ إلى العبدِ وهو ربُّهُ وخالقُهُ رأفةً ورحمةً مِنْ غيرِ حاجةٍ لعبادتِنا أو تقرُّبِنا إليه. قد خابَ مَنْ لم تكنْ لَهُ عندَ مَنْ بيدِه ملكوتُ السّمواتِ والأرضِ ذرةٌ من ودّ، أو نوىً مِن طاعةٍ.

فهلمَّ إلى الواحةِ اليانعةِ الّتي تعيدُ للألوانِ بهاءَها، وللأطعمةِ طعمَها الأصيلَ مِنْ غيرِ كدَرٍ، بعيداً عنِ الموادِ المُستَحدَثةِ الّتي تلاعبَتْ في حمضِها النّوويِّ فغُيِّرتِ الصفاتُ واختلطتِ الطعوم..

وعندئذٍ فقط تتغيّرُ الأرضُ غيرُ الأرضِ وتعودُ صورةُ المسلمِ الأوّلِ، فتتعرّفُ عليهِ الأرضُ الّتي اشتاقَتْ إليه والسّماءُ الّتي افتقدَتْ مناجاةَ سَحَرِه وأنينَ شوقِه.

فهلمَّ إلى نبعِ العطاءِ وسرِّ الحياةِ الأبديّةِ ومفتاحِ السّعادةِ في الدّارَيْن.

منهجُ الكتابِ وطريقةُ عرضِه

منهجُ الكتاب :

الكتابُ ليسَ كتابَ سيرةٍ محض، ولا كتابَ خواطرَ وحوارٍ مع الذّاتِ فقط. إنّهُ كتابٌ يبتكر طريقةً جديدةً في عرضِ سيرةِ المُصطفى ﷺ ، فهو يُزاوِجُ بينَ كتبِ السّيرةِ مِن حيثُ عرضِ أحداثِ السّيرةِ متسلسلةً كاملةً مع دقَّتِها مِن مصادرِها المعروفةِ وبين الحوارِ معَ الذّاتِ (المونولوج الداخلي) لشخصٍ هو بطلُ القصّة.

فهو يُزاوِجُ بينَ السّيرةِ وهذا النَّوعِ مِنَ الأدبِ.

وجهةُ الكتابِ:

الكتابُ موجهٌ إلى فئة الناشئةِ والشبابِ الذين هم أملُ المستقبلِ ومعولُ التّغييرِ ونواةُ نهضةِ الأمّـة. فهو يتكلمُ بلسانِ شابٍ مثلِهم، يعيشُ عصرَ التقنيّةِ المتقدّمةِ والتحدّياتِ الكثيرةِ والمُغرياتِ المُشتّتةِ لمكامنِ قوّتِهِ.

طريقةُ عرضِ الكتابِ:

في بدايةِ كلِّ فِقْرَةٍ مِنَ الكتابِ سنتناولُ أحداثَ السّيرةِ المُنتقاةِ مِنْ كَتبِ المعاصرين مثلِ (الرّحيقُ المختوم) للمباركفوري و(فقه السّيرة)

للغزالي و(فقه السيرة) للبوطي و(السّيرةُ النبويّة) للنّدوي و(السّيرة النبويّة) للصلاّبي لدقّة مصادرِهم مِن كتبِ الحديثِ والسّيرةِ، وموثقةٌ مِن أُمَّاتِ كتبِ السّيرةِ مثل (السّيرة النبوية) لابن هشام و(تاريخ الطّبريّ)، وكتب الحديث مثل صحيح البخاري ومسند الإمام أحمد.

ثمَّ تأتي أفكارُ بطلِ القصّةِ الّتي يستقيْها مِنَ الوقائعِ والأحداثِ ويسقطُها على واقعِهِ في سياقِ حديثِ نفسٍ وحوارٍ معَ الذّاتِ، أو خواطرَ وعِبَرٍ مِنَ الأحداثِ. وقد تمَّ تمييزُ خواطرِ بطلِ القصّةِ الشّابِّ بخطٍّ مختلفٍ عن المُستخدَمِ في كتابةِ أحداثِ السّيرةِ.

فالأسلوبُ جديدٌ لم يُستخدم مِنْ قبلُ في تقديمِ سيرةِ رسولِ اللهِ ﷺ، رجوتُ فيها أن تكونَ أحداثُ السّيرةِ النّبويّةِ أقربَ للنّفسِ وحوارِها مع ذاتِها مِن أجلِ التّغييرِ، وتخاطبُ العقلَ والقلبَ مِن أجلِ ترسيخِ القيمِ والفكرِ المستنبطَيْنِ مِن سيرةِ الحبيبِ المُصطفى ﷺ، وتذكّي مشاعرَ الحبِّ للهِ ورسولِهِ ﷺ .

نسألُ اللهَ القَبولَ والتّوفيقَ والهدايةَ والرّشادَ.

واللهُ مِن وراءِ القصدِ

العبدةُ الفقيرةُ إلى الله

أمل طعمة

٤/٢/٢٠١٢ م

الموافق ٢٤/ربيع الأول ١٤٣٤ هـ

بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيْم

رحلةٌ في ليلةٍ

أينَ جوازُ السّفر؟... أينَ حاسبي المحمول؟... أينَ وضعْتُ ساعتي؟...
لقد كانَتِ البارحةُ في الدّرجِ الأوّلِ مِن الخزانةِ... أينَ هي الآن ؟
لقدْ بحثْتُ عنها... آه .. وجدتها ....

أنا جاهزٌ الآنَ للسّفر.

- هل توضّأتَ قبلَ السّفر ؟

- آه نسيْت.

-كيفَ وأنتَ قادمٌ إلى رسولِ الله ﷺ ؟

لقدْ هزّتْني تلكَ العبارةُ الّتي ألقاها أخي على مسمعي، وأحسسْتُ كأنّي مِنْ كوكبٍ آخرَ لا يُمتُّ لتلكَ العبارةِ بصِلةٍ ..

(كيفَ وأنتَ قادمٌ على رسولِ اللهِ ﷺ ؟)

سؤالٌ بدا وكأنّهُ فصَلني عن ذاكَ اللّغَطِ والصّخَبِ الّذي كنتُ أعيشُهُ قبلَ قليلٍ، لكنّهُ بدأَ يزدادُ إلحاحاً حتّى تشكّلَ بصيغٍ مختلفةٍ.. هل أعرفُ النّبيّ ﷺ حقَّ المعرفة؟ هل أنا مدرِكٌ حقّاً أنّي سأفِدُ إلى عظيمٍ

مثلِه لهُ عندَ اللهِ منزلة عظيمة؟ ولماذا يتوجّبُ عليَّ معرفتُه؟!

صدمتْني تلكَ الأفكارُ، وكأنّها تطرقُ عقلي للمرّةِ الأولى! و مازالت تُلحُّ عليّ، وبتُّ حقّاً أريدُ أن أعرفَ الجوابَ بصدقٍ مِن دونِ مواربة.

شعرْتُ بالدّوار، إنّه ليسَ دوارَ السّفر، إنّهُ ثِقَلُ الأسئلةِ الّتي لم أجدْ لها جواباً يريحُ عقلي.

تمنّيْتُ لو أنّ لديَّ وقتاً لأعودَ فأقرأَ سيرتَهُ قبلَ القدومِ إليه، ودِدْتُ لو تعرّفْتُ على شخصِهِ ﷺ قبلَ الوِفادةِ إليه...

آه...كم ذهبَتْ أوقاتٌ كثيرةٌ مِنْ غيرِ طائلٍ.... ليتَها تعودُ فأعرفُهُ قبلَ أن أقفَ بينَ يديه... ماذا عسايَ أن أقول ؟

ماذا يجبُ أن يسمعَ منّي؟... ماذا عليّ أن أهديَهُ حتى أتقرّبَ منه ؟

لقد قرأْتُ كثيراً حولَ مهاراتِ التّواصلِ وخبَرْتُ الكثيرَ عنها، لكنّني أشعرُ أنّي غيرُ قادرٍ على التّواصلِ معه... إنّ أولى خطواتِ التّواصلِ أن أعرفَه. ماذا يحبُّ ؟ وماذا يكره ؟ ما هدفُه ؟ ما صفاتُه؟....

أليستْ هذهِ هي المعلوماتُ الّتي تفيدُ الإنسانَ كي يتعرّفَ على شخصٍ ويبني تواصُلاً معه ؟

هذا ما تعلّمتُه... ولكنْ هل حقّاً أعرفُ الإجابات؟!

ألقيْتُ رأسيَ المُثْقلَ بالأفكارِ، وأرسلْتُ جفونيَ هرباً مِن تلكَ الأسئلةِ...

لا أدري كم مرَّ مِن الوقتِ قبلَ أن أستيقظَ على صوتِ جارٍ لي في مقعدِ الطّائرةِ وهو يقولُ بصوتٍ لطيفٍ : تفضّلْ هذهِ هديّةُ القادمِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ .

أفقْتُ وكأنّي في حُلم... فإذا هو كتابٌ حولَ سيرةِ رسولِ اللهِ ﷺ، شكرْتُهُ بكلماتٍ مُتلعثمةٍ ممزوجةٍ بالفرحِ والاستغرابِ معاً...

كتابُ سيرةِ رسولِ اللهِ ﷺ !.. ترى كم أحتاجُ مِنَ الوقتِ لأقرأَه؟ جيّد.. عددُ صفحاتِهِ لا يتجاوزُ المئتين... عظيم... كم بقيَ مِنَ الوقتِ للوصول ؟ أظنُّ أنّنا لن نتمكّنَ مِنَ الدّخولِ مساءً إلى الرّوضةِ، وغداً صباحاً سيكونُ أولُ لقاءٍ معَه... لا بأسَ يمكنُني فعلُ ذلك... لديَّ الوقتُ الكافي لقراءةِ سيرتِهِ قبلَ أن يبزُغَ الفجرُ.

وددْتُ لو أنّي أملكُ هديّةً لأكافئَ ذلكَ الشّخصَ على هديّتِهِ الرّائعةِ، لقدْ جاءَتْ في وقتِها تماماً. لن أضيّعَ وقتاً سأبدأُ مِنَ الآن .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

الفصلُ الأوّلُ : مِنَ الميلادِ إلى البعثةِ

- روى مسلمٌ بسندِهِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنّهُ قال : ((إنّ اللهَ اصطفى كنانةَ مِنْ ولدِ إسماعيلَ، واصطفى قريشاً مِنْ كنانةَ، واصطفى هاشماً مِنْ قريشٍ، واصطفاني مِنْ بني هاشمٍ))[1] .

حقّاً إنّهُ خيرُ خلقِ اللهِ نسباً، كيف لا وهو رسولُ اللهِ ﷺ .

ولادتُهُ :

- في عامِ الفيلِ[2] ، أي العامُ الّذي حاولَ فيهِ أبرهةُ الأشرمُ غزوَ مكّةَ وهدمَ الكعبةِ، فردَّهُ اللهُ عنْ ذلكَ بالآيةِ الباهرةِ الّتي وصفَها القرآنُ، وكانَتْ على الأرجحِ يومَ الاثنينِ لاثنتَيْ عشْرةَ ليلةٍ خلَتْ مِنْ شهرِ ربيعٍ الأوّلْ .

وقدْ وُلدَ يتيماً ، فقدْ ماتَ أبوهُ عبدُ اللهِ وأمّهُ حاملٌ بهِ لشهرينِ حسب، فعنِي به جدّهُ عبدُ المطّلبِ واسترضعَ لهُ - على عادةِ العربِ إذْ ذاك - امرأةٌ مِنْ بني سعدِ ابنِ بكرٍ يُقالُ لها حليمةُ بنتُ أبي ذُؤيب .

---

[1] - مسلم حديث : ٤٣١٨

[2] - السّيرةُ النبويّةُ لابنِ كثيرٍ (٢٠٣/١)

وقدْ أجمعَ رواةُ السّيرةِ أنَّ باديةَ بني سعدٍ كانتْ تُعاني إذْ ذاكَ سنةً مُجدِبَةً، قد جفَّ فيها الضّرعُ، ويبِسَ الزّرعُ ، فما هو إلا أن صارَ محمّدٌ ﷺ في منزل حليمةَ واستكانَ إلى حِجْرها وثديِها حتّى عادَتْ منازلُ حليمةَ مِنْ حولِ خبائِها مُمْرِعةً مخضرّةً، فكانَتْ أغنامُها تروحُ منها عائدةً إلى الدّارِ شِباعاً ممتلئةَ الضَّرْعِ .

وقد حصلَتْ أثناءَ وجودِهِ ﷺ في باديةِ بني سعدٍ (حادثةُ شقّ الصّدرِ) الّتي رواها مسلم ، ثمَّ أُعِيْدَ بعدَها إلى أمِّهِ، وقدْ تمَّ لهُ مِنَ العمرِ خمسُ سنواتٍ[١] .

كنْتُ أظنُّ أنّ الإنسانَ إذا لم يحظَ بحظٍّ وافرٍ مِن الحُبِّ والحنانِ منذُ نعومةِ أظفارهِ فإنَّ ذلكَ قد يؤثّرُ سلباً على اتّزانِهِ العاطفيّ، أو ما يدعُونَهُ اليومَ بالذّكاءِ العاطفيّ أو الانفعاليّ أو الاتزانِ الانفعاليّ؛ لكنّهُ ﷺ وُلِدَ يتيماً و لم يرَ والدَهُ، و لم يؤثّرْ ذلك على شيءٍ مِن رحمتِهِ الّتي سمعْتُ عنها.

حقّاً إنَّ هذا لَمُواساةٌ عظيمةٌ لكلِّ يتيمٍ في الدّنيا، فلا يجزعُ، ولا يبالي، فرسولُ الأمّةِ كانَ يتيماً ورَغْمَ ذلكَ سطّرَ إنجازاتٍ خالدةً. ثمَّ

[١] – جاءَ في الرّحيق المختومِ أنّ حادثةَ شقِّ الصّدرِ كانَتْ في السّنةِ الرّابعةِ أو الخامسةِ ، معلّقاً أنّ هذا ما ذهبَ إليهِ عامّةُ أهلِ السِّيَرِ، إلا أنّ ابنَ إسحاقٍ قالَ: إنّها وقعَتْ في السّنةِ الثّالثةِ. انظر ابن هشام ١/١٦٥،١٦٤

قفزَ سؤالٌ في ذهنِي، تُرى لماذا أجدبَتْ باديةُ مرضعتِهِ حتّى إذا جاءَتْ برسولِ اللهِ ﷺ غدتْ خضراءَ يانعةً؟ و لِمَ حدثَتْ حادثةُ شقِّ الصّدرِ؟ أليسَ اللهُ بقادرٍ على أن يكونَ قلبُ رسولِهِ أبيضَ ناصعاً ولا حاجةَ لتلكَ الحادثةِ ؟...

آه.. عرفْت، إنّهُ يمثّلُ إعلاناً إلهيّاً وإرشاداً سماويّاً لتنبيهِ النّاسِ إلى قيمةِ ذاكَ الرّضيعِ، وأنّهُ مختلفٌ عنْ غيرِهِ.

إنّهُ قدَرُ اللهِ، فإذا أرادَ أنْ يهيّئَ للنّاسِ شخصاً ليعيدَهُم إلى جادّةِ الصّوابِ هيّأَ لهُ البيئةَ، وجعلهَا تستعدُّ لاستقبالِه، وتتنبَّهُ لبركاتِه وأفضالِه .

ولعلَّ يُتْمَهُ ﷺ يعطيْهِ القوّةَ والصّلابةَ، وليتربّى بعيداً عنِ البذخِ والتّرف. إذاً ليسَ مِنَ الحكمةِ أن يُعطَى الطِّفلُ كلَّ ما يريدُهُ، وأنْ يَنعمَ برفاهيةٍ زائدة؛ إنَّ الرَّفاهِيَةَ والتَّرفَ لا يصلُحانِ لتنشئةِ عظيمٍ أو رجلٍ ناجحٍ .

هذا قانونٌ تربويٌّ يجبُ أنْ يُضافَ إلى قواميسِ وقوانينِ التربيةِ الحديثةِ؛ لقدْ ظننْتُ أنّي إنْ بالغْتُ في العطاءِ للطّفلِ فأعطيْتُهُ كلَّ ما يرغبُ فإنّي أكونُ والداً خيِّرَاً كريماً، وأنَّ ذلكَ مِنْ آثارِ نعمةِ اللهِ عليّ أنْ أعطاني فأظهرْتُ هذا العطاءَ في الإغداقِ على ابني، حقّاً قد أخطأْتُ، فعظيمٌ مثلُهُ ﷺ لو كانَ الإغداقُ عليهِ صائباً لأغدقَ عليهِ

ربُّهُ، وهو الّذي بيدِهِ خزائنُ السّمواتِ والأرض.

ولمّا أصبحَ لهُ مِن العمرِ ستُّ سنواتٍ ماتَتْ أمُّهُ آمنةُ، وما إنْ تحوّلَ الرَّسولُ إلى كفالةِ جدِّهِ عبدِ المطّلبِ حتّى وافَتْهُ هو الآخرُ منيَّتُهُ، فماتَ وقدْ تمَّ للنّبيِّ ﷺ ثماني سنواتٍ ، فكفِلَهُ عمُّهُ أبو طالبٍ؛ وقدْ كانَ جدُّهُ حفيًّا بهِ[1] يُجْلِسُهُ على فراشِهِ في ظلِّ الكعبةِ، ويُلاطفُه .

أحسسْتُ بالحزنِ والأسى يُداخلان قلبِي، فلم يلبَثْ مع أمِّهِ سوى عامٍ واحدٍ، لم يتنعّمْ بأمِّهِ إلا هذهِ السنةَ، ثمّ تحوّلَ إلى رعايةِ جدِّهِ، ولم يكدْ يألَفُ جدَّهُ وطباعَهُ وعاداتِهِ حتّى إذا استأنسَ بهِ قُبِضَ جدُّه، فانتقلَ إلى بيتٍ آخرَ لهُ مِنَ العاداتِ والتقاليدِ ما هو مختلفٌ عنْ جدِّهِ وأمِّهِ ومرضعتِهِ.

ثماني سنواتٍ تنقّلَ أثناءَها رسولُ ﷺ بينَ أربعةِ بيوتاتٍ، لكلِّ بيتٍ شخصيّاتُهُ المختلفةُ ونظامُ حياتِهِ المغايرِ لما اعتادَهُ، وهو في البيوتِ

[1] – حفيّاً به أي يحتفلُ بوجودِه معه و يكرمُه، حتّى إنّ أبناءَ عبدِ المطّلبِ كانوا لا يجرؤون على الجلوسِ على فِراشِ والدهم، وكان رسول الله ﷺ يقعدُ على فراشِهِ، فإذا نهرَهُ أحدُهُم قال عبد المطلب: دعُوا ابني هذا فو الله إنّ له شأناً" (ابن هشام ١/١٦٨) .

كلِّها مُحبَّبٌ إلى أشخاصِهِ .

ربّما أكسبَهُ ذلكَ ﷺ مرونةً وتكيُّفاً معَ الظُّروفِ جميعِها، وهـذا بُعـدٌ جديدٌ مِنْ أبعادِ شخصيّتِهِ ﷺ.

- رحلتُه الأولى إلى الشّامِ ثمّ كدحُهُ في سبيلِ الرّزقِ :

لمّا تمَّ لهُ ﷺ مِن العمرِ اثنتا عشْرةَ سنةً سافرَ عمُّهُ أبو طالبٍ إلى الشّامِ في ركْبٍ للتّجارةِ ، فأخذَهُ معَهُ؛ ولمّا نزَلَ الرّكبُ بُصرى مرّوا على راهبٍ هناكَ يُقالُ لهُ" بَحِيرا "، وكانَ عليماً بالإنجيلِ خبيراً بشوؤنِ النّصرانيّةِ، وهناكَ أبصرَ بَحِيْرا النّبيَّ ﷺ، فجعلَ يتأمّلُهُ ويكلّمُهُ ، ثمّ التفتَ إلى أبي طالبٍ فقالَ له :

ما هذا الغلام منكَ ؟

فقالَ : ابني (وكانَ أبو طالبٍ يدعوه بابنِهِ لشدّةِ محبّتِهِ له وشفقتِهِ عليه) . فقالَ لهُ بَحِيْرا : ما هو بابنِكَ، وما ينبغي أنْ يكونَ أبو هذا الغلامِ حيّاً . فقالَ : هو ابنُ أخي . قالَ: فما فعلَ أبوه ؟ قالَ: ماتَ وأُمُّه حُبلى بهِ . قالَ بَحِيْرا : صدقْتَ. فارجعْ بِهِ إلى بلدِهِ، واحذرْ عليهِ يهودَ، فو اللهِ لئِنْ رأَوْه هُنا ليَبْلغنّهُ شرّاً ، فإنّهُ كائنٌ لابنِ أخيكَ هذا شأنٌ عظيمٌ. فأسرعَ بِهِ أبو طالبٍ عائداً إلى مكّةَ .

ثمَّ أخذَ رسولُ اللهِ ﷺ يستقبلُ فترةَ الشّبابِ مِن عُمرِهِ، فبدأَ بالسّعيِ للرّزقِ وراحَ يشتغلُ برعيِ الغنمِ، ولقدْ قالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ عن نفسِهِ فيما بعدُ :"ما بعثَ اللهُ نبيّاً إلا رعى الغنمَ "، فقالَ أصحابُه : وأنت؟ فقالَ : " نعمْ كُنْتُ أرعاها

على قراريطَ لأهلِ مكّةَ". [1]

إعلانٌ إلهيٌّ آخرَ، لكنَّهُ اجتازَ شبهَ الجزيرةِ العربيّةِ، وبلغَ بلادَ الشّامِ، وتوثيقٌ دينيٌّ مِنْ دينٍ سماويٍّ بنبوّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وتحذيرٌ لعمّهِ أبي طالبٍ الّذي سيقومُ بعبءِ حمايةِ رسولِ اللهِ ﷺ، فلابدَّ مِن تنبيههِ إلى الأخطارِ الّتي ستُحدقُ برسولِ اللهِ ﷺ ليحتاطَ ويأخذَ بأسبابِ الحذرِ والأمانِ. أمّا عملُهُ ﷺ منذُ صغرِهِ فذلكَ أيضاً قانونٌ تربويٌّ آخرُ .

إنّهُ ﷺ أعظمُ مَنْ أنجزَ في حياتِهِ، ولا بدَّ أنَّ تربيتَهُ هي أفضلُ الطُّرقِ لتربيةِ العظماءِ والموهوبين.

هذه الخاطرةُ ما زالَتْ تلحُّ عليَّ بشدّةٍ: إنَّ تربيتَهُ ﷺ لابدَّ أنْ يُصاغَ منها نظريّةٌ للتّربيةِ، فالتّربيةُ الغربيّةُ أغفلَتْ الجانبَ الرّوحيَّ للإنسانِ، وقطعتْهُ عنِ الجانبِ السّماويِّ العُلويّ.

أمّا تربيتُهُ ﷺ فقد صَبغَتْ عظماءَ، ما أعطى أحدٌ للإنسانيّةِ خيراً ونفعاً وعطاءً مثلَما أغدقُوا، وأعطَوا.

كنْتُ أظنُّ أنَّ ترفيهَ الشّابِّ واستمتاعَهُ بفترةِ شبابِهِ ليأخذَ حظّهُ مِن الرّاحةِ والدَّعةِ واللّهوِ هي مِنْ أسبابِ كمالِ شخصيّتِهِ و اتّزانِها،

[1] - صحيح البخاري : حديث (٢١١٣)

لكنّي أجدُ الآنَ في شخصِ رسولِ اللهِ ﷺ الّذي صنعَهُ اللهُ بيدِهِ، لا يدعُ لَهُ وقتاً للتّرفُّهِ والكسلِ والخمولِ، بل يُشرِكُهُ في خبراتِ الحياةِ والعملِ منذُ صِغرِهِ. فتعريضُ الشّبابِ لخبراتِ علمٍ وعملٍ ينمّي شخصيَّتَهُم ويزيدُ من صلابةِ عودِهم، إلا أنَّ عملَهُ في رعي الغنمِ كانَ فيهِ من الصّفاءِ والطُّهرِ وعدمِ الاختلاطِ برفاقِ السّوءِ، ممّا يمكنُ أنْ يكونَ مؤشّراً هامّاً على طبيعةِ وشروطِ الخبراتِ الّتي يمكنُ أنْ يُشاركَ بها النّاشئةُ والشّبابُ. فقد يشاركِ النّاشئةُ في أنشطةٍ وخبراتِ حياةٍ لا تتوافرُ فيها البيئةُ السّليمةُ لتنشئتِهم فيكونُ ضرُّها أكثرَ مِنْ نفعِها. سأسجل ذلك في مفكرتي كأحد الأنشطة التي أتمنى أن أسعى في تحقيقها من أجل توفيرِ مناخٍ صحيٍّ ملائم للناشئة والشباب، يتوافرُ فيهِ الطُّهرُ والصّفاءُ وتعليمُ المهاراتِ الشّخصيّةِ والحياتيّةِ والفكريّةِ بعيداً عن الاختلاطِ أو رفاقِ السّوءِ.

- حِفْظُ اللهِ تعالى له :

حَفظَهُ اللهُ تعالى مِنْ كلِّ ما قدْ ينحرفُ إليهِ الشّبّانُ مِنْ مظاهرِ اللّهوِ والعبثِ . قالَ ﷺ فيما يرويهِ عن نفسِهِ :

" ما همَمْتُ بشيءٍ ممّا كانُوا في الجاهليّةِ يعملونَهُ غيرَ مرّتين، كلُّ ذلكَ يحولُ اللهُ بيني وبينَهُ ثمَّ ما همَمْتُ بهِ حتّى أكرمَنيَ اللهُ بالرّسالةِ. قلْتُ ليلةً للغلامِ الّذي يرعى معي بأعلى مكّة : لو أبصرْتَ لي غنمي حتّى أدخلَ مكّةَ وأسمرَ بها كما يسمرُ الشّبابُ ، فقالَ: أفعلُ ، فخرجْتُ حتّى إذا كنْتُ أوّلَ دارٍ بمكّةَ سمعْتُ عزفاً فقلْتُ: ما هذا ؟ فقالوا: عُرْسٌ ، فجلسْتُ أسمعُ ، فضربَ اللهُ على أذنيَّ، فنِمْتُ فما أيقظَني إلا حرُّ الشّمسِ ، فعُدْتُ إلى صاحبي، فسألني فأخبرْته ، ثمَّ قلْتُ لهُ ليلةً أخرى مثلَ ذلكَ ودخلْتُ مكّةَ فأصابني مثلُ أوّلِ ليلةٍ ، ثمّ ما همَمْتُ بعدَهُ بسوءٍ "[1] .

ألقيْتُ رأسي خلْفاً وأغمضْتُ عينيَّ وأخذَتِ الصُّورُ والأصواتُ لشخصياتٍ كثيرةٍ أعرفُها رأيْتُها تجُولُ أمامَ عينيّ ، فهذا شخصٌ

[1] - رواه ابنُ الأثيرِ ورواه ابنُ الحاكمِ عن علي بنِ أبي طالبٍ وقالَ : صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ .

يتكلّمُ وقدِ انتفخَتْ أوداجُهُ : أعطِني نصّاً شرعيّاً يحرّمُ الغناءَ والعزفَ وآخرُ يصرُخُ : لماذا تظنُّ أنَّ اللّهوَ والسَّمرَ لا يجوز؟

بالغْتُ في إغلاقِ عينيّ وكأنّي أرغبُ في التّخلُّصِ مِن تلكَ الأصواتِ لأستمتعَ بالهدوءِ، لتسيطرَ على خاطِري فكرةٌ واحدةٌ : لو كانَ في الغناءِ واللّهوِ الّذي لا يتضمّنُ معانيَ راقيةً – بل تبتذلُ الكلماتُ لتثيرَ الشّهواتِ – منفعةً ما منعَ اللهُ نبيّهُ ﷺ مِنَ القيامِ بهِ قبلَ التّكليفِ الإلهيّ بالرّسالةِ.

- تجارتُهُ بمالِ خديجةَ وزواجُهُ بها:

كانَتْ خديجةُ ـ كما يروي ابنُ الأثيرِ وابنُ هشامٍ ـ امرأةً تاجرةً ذاتَ شرفٍ ومالٍ، تستأجرُ الرّجالَ في مالِها وتضاربُهم إيّاهُ بشيءٍ تجعلُهُ لهُمْ منْهُ، فلمّا بلغَها عنْ رسولِ اللهِ ﷺ صدقُ الحديثِ وعِظَمُ الأمانةِ وكرمُ الأخلاقِ، أرسلَتْ إليهِ ليخرجَ في مالِها إلى الشّامِ تاجراً وتعطيهِ أفضلَ ما كانَتْ تعطي غيرَهُ، ومعَهُ غلامُها ميسرةُ وقد قبلَ محمّدٌ ﷺ هذا العرضَ فرحلَ إلى الشّامِ عاملاً في مالِها ومعَهُ ميسرةُ فحالفَهُ التّوفيقُ في هذهِ الرّحلةِ أكثرَ مِن غيرِها، وعادَ إلى خديجةَ بأرباحٍ مضاعفةٍ، فأدّى لها ما عليهِ في أمانةٍ تامّةٍ ونُبْلٍ عظيمٍ. ووجدَ ميسرةُ مِنْ خصائصِ النّبيّ ﷺ وعظيمِ أخلاقِهِ ما ملأَ قلبَهُ، دهشةً له، وإعجاباً بهِ فروى ذلكَ لخديجةَ.

فأعجبَتْ خديجةُ بعظيمِ أمانتِهِ، ولعلّها دُهِشَتْ لما نالها مِن البركة بسببه، فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها (نفيسةِ بنتِ مُنيةَ)، فذهبت إليه تفاتحه أن يتزوج خديجة، فرضي ﷺ بذلك، وكلّمَ في ذلك أعمامَهُ فخطبوها لهُ [1] مِنْ عمّها

[1] - انظر الرحيق المختوم للمباركفوري، ص ٥١.

عمرو بنِ أسد . وتزوّجَها ﷺ وقد تمَّ لهُ مِنَ العمرِ خمسةٌ وعشرون عاماً ولها مِنَ العمرِ أربعون.

وقد تزوّجَتْ خديجةُ قبلَ زواجِها مِن رسولِ اللهِ ﷺ برجلين الأوّلُ عتيقٌ بنُ عائذٍ التميميّ ، ثمّ خلفَهُ عليها أبو هالةَ التّميميّ واسمُهُ هندُ بنُ زرارة .

وروى البخاريُّ ومسلمٌ أنّ علياً رضيَ اللهُ عنهُ سمعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : "خيرُ نسائِها مريمُ بنتُ عمرانَ وخيرُ نسائِها خديجةُ بنتُ خويلدٍ "[1] .

وروى أحمدُ والطّبرانيّ من طريقِ مسروقٍ عنْ عائشةَ قالَتْ :"كَانَ النَّبيُّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ ، أَثْنَى عَلَيْهَا ، فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ، قَالَتْ : فَغِرْتُ يَوْمًا فَقُلْتُ : مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشّدْقِ، قَدْ أَبدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا ، قَالَ: " مَا أَبدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا ، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ " [2] .

هزَّتْني معاييرُ رسولِ اللهِ ﷺ في الحُكْمِ بينَ نسائِهِ، فلم يقُلْ كانَتْ

[1] – الضميرُ في نسائِها عائدٌ كما–تدلُّ روايةُ مسلمٍ–إلى السّماءِ بالنّسبةِ إلى مريمَ وإلى الأرضِ بالنّسبةِ لخديجةَ .

[2] – مسند الإمام أحمد، حديث مرفوع ، رقم الحديث: ٢٤٣٠٢ .

أكثرَ مالاً أو نسباً. وهزّني صفاءُ وِدِّ السّيّدةِ خديجةَ لزوجِها ودعمُها لهُ ومساندتُها مِنْ غيرِ مِنّةٍ أو إنقاصٍ مِن قدْرِ زوجِها الّذي يصغُرُها سنّاً وخبرةً في الحياةِ، إنّها بالفعلِ مثالُ الزّوجةِ الحكيمةِ المُحبّةِ الّتي حازَتْ على قلبِ وعقلِ رجلٍ عظيمٍ مثلِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وأخذَ بلبّي وفاءُ رسولِ اللهِ ﷺ لزوجتِهِ بعدَ وفاتِها دونَ أن يطعنَ ذلكَ في رجولَتِهِ. فآلافُ القصصِ نجدُها حولَنا تزخَرُ بصورٍ غيابِ الوفاءِ أو العطاءِ معَ المَنِّ.

قيمٌ كثيرةٌ ضاعَتْ في زحمةِ الحياةِ، ووسْطَ إعلامٍ و مسلسلاتٍ صنعَتْ أزواجاً وبيوتاً غيرَ متحابّةٍ، فقيرةً في الانسجامِ بينَ أفرادِها، صوّرَتِ العلاقةَ بينَهم كالصّراعِ بينَ الأندادِ أيّهم يغلبُ و يثبتُ رأيَهُ بغضِّ النّظرِ عنْ صحّتِهِ! فالمهمُّ أنْ تُثبتَ المرأةُ ذاتَها.. ولكنْ كيفَ؟ وهل مِنْ أجلِ تحقيقِ الغايةِ الّتي مِنْ أجلِها أُقيمَتِ الأسرةُ!..

لقد شوّهُوا حقّاً صورةَ الأسرةِ السّعيدةِ الّتي تكونُ نواةً لمجتمعٍ متفاهمٍ متعاضدٍ رغمَ اختلافِ أفرادِهِ إلا أنَّ الهدفَ الواحدَ يجمعُهُ، ويصهرُهُ ضمنَ صورةٍ واحدةٍ وسياجٍ واحدٍ مِنْ أجلِ إعمارِ الكونِ ونشرِ الخيرِ للإنسانيّةِ.

صورةٌ حقّاً تحتاجُ إلى مَنْ ينفضُ عنها الغبارَ ليعيدَ ألَقَ تلكَ القيمِ

الجميلةِ إلى حياتِنا، لترسمَ حياةً أسعدَ وواقعاً أفضلَ .

- اشتراكُهُ ﷺ في بناءِ الكعبةِ :

الكعبةُ أوّلُ بيتٍ بُنيَ على اسمِ اللهِ ولعبادةِ اللهِ وتوحيدِهِ ، بناهُ أبو الأنبياءِ إبراهيمُ عليهِ السلام بعدَ أن عانى من حربِ الأصنامِ وهدْمِ المعابدِ الّتي نُصِبَتْ فيها . بناها بوحيٍ مِنَ اللهِ تعالى وأمرٍ لهُ بذلك ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1] وقدْ تعرّضَتِ الكعبةُ بعدَ ذلكَ للعوادي التي أوهَتْ بنيانَها وصدّعَتْ جُدرانَها، وكانَ مِنْ بينِ هذهِ العوادي سيلٌ عَرِمٌ جرفَ مكّةَ قبلَ البعثةِ بسنواتٍ قليلةٍ ، حيثُ زادَ ذلكَ مِنْ تصدُّعِ جدرانِها وضَعفِ بنيانِها، فلم تجدْ قريشٌ بدّاً من إعادةِ تشييدِ الكعبةِ حرصاً على ما لهذا البناءِ مِن حُرمةٍ وقداسةٍ خالدةٍ .

ولقد شاركَ الرسولُ ﷺ قبلَ البعثةِ في بناءِ الكعبةِ وإعادةِ تشييدِها مشاركةً فعّالةً، فلقد كانَ ينقلُ الحجارةَ على كَتفِهِ ما بينَها وبينَهُ إلا إزارُهُ، وكانَ له مِنَ العمرِ إذ ذاك خمسٌ وثلاثون سنةً في الأصحِّ.

وروى البخاريُّ في صحيحِهِ مِنْ حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي اللهُ عنهُ قالَ :

---

[1] - سورة البقرة : ١٢٧

"لمّا بُنِيَتِ الكعبةُ، ذهبَ النّبيُّ ﷺ والعباسُ ينقلانِ الحجارةَ فقالَ العبّاسُ للنّبيّ ﷺ:"اجعلْ إزارَكَ على رقبتِكَ، فَخَرَّ إلى الأرضِ وطمَحَتْ عيناه إلى السّماءِ فقالَ: أرِني إزاري فشدَّهُ عليه "[1]

وقد نشبَ خلافٌ بينَ القبائلِ في مَنْ يرفعُ الحجرَ الأسودَ ، و يعيدُهُ إلى موضعِهِ بعدَ اكتمالِ بناءِ الكعبةِ ، كلٌّ منهُم يريدُ أنْ يحظى بهذا الشّرفِ حتّى تعاقدُوا على القتالِ ، وقرّبَتْ بنو عبدِ اللهِ جفنةً مملوءةً دماً، وتعاقدُوا هم وبني عديٍّ على الموتِ، وأدخلُوا أيديَهُم في ذلك الدّمِ في تلكَ الجفنةِ، ومكَثَتْ قريشٌ أياماً ثمَّ اتّفقُوا على أنَّ أوّلَ مَنْ يدخُلُ مِن بابِ المسجدِ يقضي بينَهُم، فكانَ أوّلُ داخلٍ عليهِم رسولَ اللهِ ﷺ، فلمّا رأَوْهُ قالُوا : هذا الأمينُ رضِيْنا، هذا محمّدٌ. ودعا رسولُ اللهِ ﷺ بثوبٍ وأخذَ الحجرَ ووضعَهُ فيهِ بيدِهِ، ثمّ قالَ : " لتأخذْ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ مِنَ الثوبِ ثمَّ ارفعُوهُ جميعاً"، ففعلُوا، حتّى إذا بلغُوا بِهِ مَوضعَهُ وضعَهُ هو بيدِهِ، ثمَّ بنى عليهِ [2] .

---

[1] - صحيحُ البخاريّ ،حديث (١٥١٥)

[2] - سيرةُ ابنِ هشام . ق١، ص١٩٢-١٩

بُعدٌ جديدٌ في شخصيّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، يُظهرُ ذكاءَه في حلِّ المشكلاتِ ذاتِ البعدِ العصبيّ، وما أكثرَها في حياةِ المجتمعِ العربيِّ قديماً، بل لعلّها تشكّلُ عصبَ حياتِهم، كما تظهرُ شخصيّتُهُ ﷺ الاجتماعيّةُ وتفاعلُهُ معَ مجتمعِهِ ومشاكلِهِ، رغمَ أنّهُ ينكرُ عبادتَهُم ولا يعتقدُها حتّى قبلَ البعثةِ فقدْ وردَ أنّهُ ﷺ لم يسجدْ لصنمٍ قطّ.

لقد بدأَتْ معالمُ شخصيّتِكَ يا رسولَ اللهِ تتّضحُ في مخيّلتِي قبلَ البعثةِ.

شخصيّةٌ جذّابةٌ يسعدُ بها الجميعُ أينما حلّتْ، حكيمٌ في تصرفاتِهِ، لمّاحٌ فَطِنٌ، ذكيٌّ اجتماعيّاً، حكيمُ الرّأيِ، كادحٌ يعملُ بجدٍّ وإخلاصٍ وصدقٍ وأمانةٍ، وفيٌّ لأهلِهِ مبادِرٌ، ومتفاعلٌ معَ مجتمعِهِ رغمَ اختلافِهِ معَ أفكارِهِم، إلا أنَّ ذلكَ لم يجعلْهُ متكبّراً عليهِم أو مشمئزّاً منهُم أو منفرِداً ومنعزِلاً عنهُم، أو لا يأبَهُ لمشكلاتِهِم، فهو يملِكُ من الذّكاءِ الأخلاقيِّ (كما يسمّونه اليومَ) ما يطابقُ المئةَ! رغمَ أنّهُ ﷺ لا يوافقُهُم في الكثيرِ مِنْ آرائِهِم ومبادئِهِم، وما أحوجَ المُصلحَ الاجتماعيَّ أو الدّاعيَ إلى اللهِ إلى فهمِ تلكَ المعاني فلا يقذفُ مجتمعَهُ بالسّوءِ، ولا يعتزلُهُ، ولا يتعالى عليهِ، لأنّهُ إنْ فعلَ ذلك أقامَ حاجزاً ضخماً بينَهُ وبينَ مجتمعِهِ، لن يدعَ كلماتِهِ تصلُ إليهم لتهديَهُم وتصلحَهُم .

حقّاً إنّكَ عظيمٌ! وإنّي سأفِدُ قريباً إلى عظيمٍ مثلِكَ، فكيفَ السّبيلُ

ليفِدَ مثلي إلى مثلِـكَ؟! هـذا مـا كـانَ يُقلقُـني ويجعلُـني أسـابقُ قـراءةَ صفحاتِ كتابِ سيرةِ النّبيِّ ﷺ، علّي أجِدُ الجوابَ .

- اختلاؤُهُ في غارِ حراءٍ :

لمّا أخذَت سنُّهُ تدنو نحوَ الأربعين، نشأَ لديهِ حبُّ العُزلةِ بينَ الفترةِ والأخرى، وحَبّبَ اللهُ إليهِ الاختلاءَ في غارِ حراءٍ – وحراءٌ جبلٌ يقعُ في جانبِ الشّمالِ الغربيِّ مِنْ مكّةَ – فكانَ يخلو فيهِ، ويتعبّدُ فيه الليالي ذواتِ العددِ، فتارةً عشْرةٌ وتارةً أكثر مِنْ ذلكَ إلى شهرٍ، ثمَّ يعودُ إلى بيتِهِ فلا يكادُ يمكثُ فيهِ قليلاً حتّى يتزوّدَ مِنْ جديدٍ لخلوةٍ أخرى ويعودَ الكرّةَ إلى غارِ حراءٍ، وهكذا إلى أنْ جاءَهُ الوحيُ وهو في إحدى خلواتِهِ تلكَ[1] .

هذا البعدُ العصيُّ وجودُهُ في وقتِنا الحاضرِ إلا مَنْ رحمَ ربّي... تمتمْتُ بتلكَ العبارةِ ثمَّ أطلقْتُ بصري نحوَ النّافذةِ... منظرٌ رائعٌ سحابٌ وسماءٌ ماأجملَه!... تُرى ما السّرُّ في جمالِ السّماءِ ؟ إنّهُ اللامحدودُ .
ولماذا تعشقُ الرّوحُ اللامحدودُ ؟
ألِأنَّ السّماءَ هي موطنُ الرّوحِ، فهي تسعدُ عندما تخرج من قفص الجسد، وتنطلق إلى اللامحدود حيث خلقت هناك؟﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن

[1] – انظر : السيرة النبوية، للدكتور علي الصلابي، ج١، ص ٧٩. وصحيح السيرة، للعلي، ص ٦٧.

رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1] ... همهمْتُ في نفسي : ربّما...

وهُنا سألْتُ نفسِي: تُرى ما الّذي يحجزُ الرّوحَ داخلَ الجسدِ، ويبعدُها عن سرِّ سعادتِها وموطنِها الأصيلِ؟

وظللْتُ هُنيهةً مِنَ الوقتِ أفكّرُ وأفكّرُ وعشراتُ الصّورِ تمرُّ أمامي متسارعةً.. الانشغالُ في اللّعبِ طفلاً ثمّ اللّهوُ والدّراسةُ ثمّ العملُ واللّهوُ وأعمالٌ لتحقيقِ الذّاتِ وإثباتِها، وانشغالٌ هناكَ في اقتناصِ فرصٍ للكسبِ والنّجاحِ... ذهابٌ إلى هُنا وهُناك، هواتفُ وجوالاتٌ، (تلفازٌ وانترنيت)... أينَ موطِنُ الرّوحِ في تلكَ الرّوحاتِ؟

ثمّ قفزَ إلى رأسي حديثٌ سمِعْتُه في التّلفازِ ولم أعيْهِ وقتَذاك " كلُّ النّاسِ يغدو فبائعٌ نفسَهُ فمعتقُها أو موبقُها" [2]

معتقُها!... مِنْ ماذا؟ كيفَ يوبقُها؟

ثمَّ أمعنْتُ في الكتابِ فاستغربْتُ مِنْ كلماتٍ وقعَتْ عليها عينايَ وكأنَّها وضعَتْ هُنا بقدَرٍ إلهيٍّ لتجيبَ عن سؤالي:

"لابدَّ لأيِّ روحٍ يُرادُ لها أنْ تؤثّرَ في واقعِ الحياةِ البشريّةِ فتحوّلَها وجهةً أخرى، لابدَّ لهذهِ الرّوحِ مِنْ خلوةٍ وعزلةٍ بعضَ الوقتِ، وانقطاعٍ عنْ شواغلِ الأرضِ وضجّةِ الحياةِ وهمومِ النّاسِ الصّغيرةِ الّتي

[1] - سورة ص : ٧٢

[2] - صحيحُ مسلم حديث : ٣٥٤

تشغَلُ الحياةَ".

دمعَتْ عيناي ... أحسسْتُ أنّي وجدْتُ مفتاحاً ضاعَ منّي، شيءٌ بداخلي يتسرّبُ لا أعلمُ ما هو، لكنّهُ يزيدُني إشراقاً في نفسي ووضوحاً في فكري.

أهذا هو النّورُ الإلهيّ؟

تحسّرْتُ على ما مضى مِنْ عمري كيفَ أخذَتْني عجلةُ الحياةِ دونَ أنْ أقفَ لحظةً لأتفكّرَ إلى أينَ المسيرُ؟ أأسيرُ في الاتّجاهِ الصّحيحِ وبالسّرعةِ المطلوبةِ أم انحرفْتُ عنِ الطّريقِ قليلاً ثمّ زادَتِ المسافاتُ انحرافَه معَ الزّمنِ؟ هل أستطيعُ أنْ أختليَ مع ربّي ساعةً دونَ أنْ أشعرَ بالسّاعةِ مرَّتْ كعشْرِ ساعاتٍ؟ أتذكّرُ كيفَ أنّي أسترقُ أحياناً دقائقَ لأسبّحَ قليلاً فأظنُّ أنّي قد ذكرْتُ ساعةً فإذا بها دقائقُ فحسب.

انتابَني شعورٌ وسؤالٌ: لماذا؟ لمَ حُبِّبَ لرسولِ اللهِ ﷺ الاختلاءُ وكانَ يختلي لأيامٍ ولا أستطيعُ أنا أنْ أخلوَ بربّي دقائقَ أو بضعَ ساعةٍ؟

هل أنا حقّاً ممّنْ قالَ اللهُ فيهم:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾[1]؟

والتّكاثرُ يعني تكاثرٌ بالأولادِ والأموالِ والعلومِ والحياةِ الاجتماعيّةِ ...

---

[1] - سورةُ التكاثر : ١-٢

فالرّسولُ ﷺ لم يختلِ لأنّهُ لا يحبُّ الاختلاطَ بالنّاسِ، فقدْ عرفْتُ مِنْ أحداثِ سيرتِهِ المبادرةَ والتّفاعلَ مع مجتمعِهِ ومشكلاتِهِ، إنّهُ يملِكُ توازناً رائعاً بينَ البُعدِ الأفقيِّ على الأرضِ والانشغالِ بما يُصلِحُ النّاسَ والبعدِ العموديّ نحوَ السّماءِ، وهذا سرُّ السّعادةِ.

لقد أحبَّ الرَّسولُ ﷺ خالقَ الكونِ، واتّجَهَ إليهِ بكلّيتِهِ، طالباً الهدى والحقَّ مخلصاً في توجُّهِهِ، مشتاقاً للتعرّفِ عليه، فغدَتِ الأيّامُ سويعاتٍ والساعاتُ لحظاتٍ. ابتدأَ عقلُهُ بحبِّ معرفةِ الحقيقةِ، فاعتزلَ النّاسَ ليتفكّرَ في خالقِ الكونِ، هذا التأمل هو الّذي هدَاهُ إلى الحقِّ المُبين. وكأنّهُ ﷺ يعلّمُنا أنَّ أيَّ فكرٍ أو حركةٍ راشدةٍ لابدَّ لها مِنْ وقفاتِ تأمُّلٍ وتفكّرٍ، وأنّ عبادةَ التفكّرِ الّتي غدَتْ عبادةً منسيّةً أو غائبةً في حاضرِنا هي أمُّ العباداتِ ومنبعُها، وبدونِها لا يمكنُ لفكرٍ أو حركةٍ أنْ تَرشُدَ.

- بَدْءُ الوحي:

روى الإمامُ البخاريُّ عنِ السّيّدةِ عائشةَ تصفُ كيفيّةَ بُدِءَ الوحيُ وتقولُ :"أوّلُ ما بُدِئَ بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ الرّؤيا الصّالحةُ في النّومِ، فكانَ لا يرى رؤيا إلا جاءَتْ مثلَ فلقِ الصُّبحِ، ثمَّ حُبّبَ إليهِ الخلاءُ، وكانَ يخلو بغارِ حراءٍ فيتحنّثُ فيهِ اللّيالي ذواتِ العددِ قبلَ أن ينزِعَ إلى أهلِهِ ويتزوّدَ لذلك، ثمَّ يرجعُ إلى خديجةَ فيتزوّدُ لمثلها، حتّى جاءَهُ الحقُّ وهو في غارِ حراءٍ، فجاءَهُ الملَكُ فقالَ لهُ: اقرأْ. فقالَ: ما أنا بقارئٍ، قالَ فأخذَني فغطّني حتّى بلغَ منّي الجَهد، ثم أرسلَني فقالَ : اقرأْ. فقلْتُ : ما أنا بقارئٍ، فأخذني فغطّني الثّالثةَ، ثمَّ أرسلَني فقالَ : اقرأْ باسمِ ربّكَ الّذي خلقَ، خلقَ الإنسانَ مِنْ علقٍ، اقرأْ وربُّكَ الأكرمُ الّذي علَّمَ بالقلمِ، علَّمَ الإنسانَ ما لم يعلمْ، فرجَعَ بها رسولُ اللهِ ﷺ يرجُفُ فؤادُهُ فدخلَ على خديجة بنتِ خويلدٍ رضيَ اللهُ عنها فقالَ : زمّلوني، زمّلوني فزمّلوه حتّى ذهبَ عنهُ الرَّوعُ، فقالَ لخديجةَ وأخبرَها الخبرَ : لقدْ خشيْتُ على نفسِي، فقالَتْ خديجةُ: كلا واللهِ لا يخزيْكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضّيْفَ وتُعينُ على نوائبِ الحقّ. فانطلقَتْ بِهِ خديجةُ حتّى أتَتْ بِهِ ورقة

بنِ نوفلٍ بنِ أسدٍ بنِ عبدِ العزّى، وكانَ ابنَ عمِّ خديجةَ وكانَ امرأً قد تنصَّرَ في الجاهليّةِ، وكانَ يكتبُ الكتّابَ العبرانيّ فيكتبُ مِنَ الإنجيلِ في العبرانيّةِ ما شاءَ اللهُ أنْ يكتبَ، وكانَ شيخاً كبيراً قد عميَ فقالَتْ له خديجةُ : يا بنَ العمِّ، اسمعْ مِنَ ابنِ أخيكَ، فقالَ له ورقةُ : يا ابنَ أخي ماذا ترى؟ فأخبرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ خبرَ ما رأى، فقالَ له ورقةُ : هذا النّاموسُ (أي جبريلُ أو الوحيُ) الّذي نزَلَ على موسى، ياليتني فيها جَذعاً[1]، ليتني أكونُ حيّاً إذْ يخرجُك قومُكَ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : أوَ مُخْرِجيَّ هم؟ قالَ: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جئْتَ بهِ إلا عُودِيَ، وإنْ يدركْني يومُكَ أنصرْكَ نصراً مؤزّراً . ثمّ لم يلبَثْ ورقةُ أن توفّيَ وفترَ الوحيُ[2][3]. واختُلفَ في الزّمنِ الّذي فترَ فيه الوحيُ فقيلَ ثلاثُ سنواتٍ وقيلَ أقلُّ مِنْ ذلك، والراجحُ ما رواه البيهقيّ مِنْ أنّ المدّةَ كانَتْ ستةَ أشهرٍ[4].

ثمَّ روى البخاريُّ عنْ جابرٍ بنِ عبدِ اللهِ قالَ وهو يحدّثُ عنْ فترةِ الوحي فقالَ في حديثِهِ :" بينما أنا أمشي إذْ سمعْتُ صوتاً مِنَ السّماءِ، فرفعْتُ بصري، فإذا

---

[1] – جذعاً : شاباً قوياً.

[2] – فتر الوحي : تأخر نزوله .

[3] – البخاري، كتاب بدء الوحي، رقم ٣.

[4] – راجع فتح الباري :١/ ٢١

المَلَكُ الّذي جاءَني بحِراءٍ جالسٌ على كرسيٍّ بينَ السّماءِ والأرضِ، فرُعِبْتُ مِنْهُ، فرجَعْتُ فقلْتُ: زمّلوني، زمّلوني، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إلى قولِهِ ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[1] فحمِيَ الوحيُ وتواترَ".

أعدْتُ النّظرَ في تلكَ الكلماتِ، (كلا لا يخزيْكَ اللهُ أبداً).

حقّاً إنّها أخلاقٌ محمّديّةٌ جُبِلَ عليها صلواتُ اللهِ عليه، ولعلَّ جزَعَ رسولِ اللهِ ﷺ دليلٌ على أنَّ فكرةَ الوحي كانَتْ غريبةً و لم تخطُرْ في بالِهِ ﷺ، فلقد خشيَ على نفسِهِ، فهي ليسَتْ مِنْ أفكارِهِ ﷺ ولا شيءَ خُطِّطَ لهُ، بل هو وحيٌ خارجيٌّ مِنْ عندِ ربِّ السّماءِ. ولقد كانَ لقولِ ورقةَ بنِ نوفلٍ ما ثبَّتَ النّبيَّ ﷺ وهدَّأَ مِنْ روعِهِ وهيّأَهُ لفكرةِ الوحي وتلقّيْهِ عنْهُ، وأعطاهُ لمحةً عنِ المستقبلِ وما سيتعرّضُ لهُ مِنْ تكذيبٍ وإخراجٍ مِنَ المدينةِ. أمّا انقطاعُ الوحيِ فربَّما هيَ فترةُ تثبيتٍ واستعدادٍ للفكرةِ، حتّى إذا أتاهُ مرّةً أخرى كانَ أكثرَ تقبّلاً وتهيّؤاً.

و أثارني حقاً موقف السيدة خديجة رضي الله عنها الدال على قوة قلبها، فلم تفزع من سماع هذا الخبر، بل استقبلته بهدوء وسكينة،

---

[1] - سورةُ المُدّثر: ١-٥

ذهبت برسول الله ﷺ إلى نوفل كي تستطلع الخبر، مما يدّل على سعة إدراكها حيث قارنت بين ماسمعتْ، وواقع النبي ﷺ، فأدركت أنّ من جُبِل على مكارمِ الأخلاق لا يُخزيه الله أبداً، فقد وصفتهُ بأنـّه يصلُ الرّحم، وكون الإنسان يَصلُ أقاربه دليلٌ على استعداده النفسي لبذل الخير، والإحسان إلى الناس، فإنّ أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه، فإن نجح في احتواء أقاربه وكسبهم، كان طبيعياً أن ينجح في كسب غيرهم من الناس[١].

وهُنا قفزَ سؤالٌ غريبٌ إلى ذهني:

تُرى لو كنْتُ في تلكَ الفترةِ هل سأكونُ ممَّنْ ينصرُهُ؟

سؤالٌ في علمِ الغيبِ، لكنّي أظنُّ أنّي لو أردْتُ أنْ أكونَ ممّنْ نصرَهُ فلا بدَّ أنْ أكونَ الآنَ في زمرةِ مَنْ يتبعُ تعاليمَهُ ويقتفي أثرَهُ وإلا!..

وهُنا سمعْتُ صوتَ قائدِ الطّائرةِ يعلنُ عنْ وصولِها إلى المدينةِ المنوّرةِ... ازدادَتْ ضرباتُ قلبي، وأخذْتُ أقلّبُ صفحاتِ الكتابِ دونَ أنْ يتّجهَ بصري إلى صفحةٍ بعينِها... لم أكُنْ أدري ماذا أفعلُ! صحيحٌ أنّي لم أقرأْ سوى صفحاتٌ قليلةٌ، و لم أتعرّفْ إلا على جانبٍ بسيطٍ مِنْ سيرتِهِ ﷺ، لكنّي الآنَ أشدُ حِرصاً على التّعرّفِ على هذهِ

[١] – انظر السيرة النبوية ، للدكتور علي الصلابي، ج١، ص٨٧ – ٨٨ .

الشّخصيّةِ العظيمةِ والاقترابِ مِنْ شخصِهِ الكريمِ قبلَ أنْ تقعَ عيني على قبرِهِ الشّريفِ. أسرعْتُ بوضعِ الكتابِ في حقيبةِ اليدِ، ثمَّ أطلقْتُ بصري نحوَ النافذةِ فإذا بمسجدِ رسولِ اللهِ ﷺ يظهرُ مِنْ علوٍّ، فاضطّربَتْ ضرباتُ قلبي.. لم أشعرْ بمثلِ هذهِ الهيبةِ وبمثلِ هذا الشّوقِ الّذي ماعرَفَهُ قلبي قبلَ ذلكَ.

شعورٌ غريبٌ.. شعرْتُ كأنَّ حادثةَ الوحي قدْ حدثَتِ الآنَ، وكأنّهُ ﷺ يتلقّى الوحيَ. بدأْتُ أشعرُ أنّي صِرْتُ أعرِف شيئاً عنْ صاحبِ هذا القبرِ الشّريفِ، بل لعلّي بدأْتُ أعجبُ بشخصِهِ العظيمِ، أو أميلُ إليه. أمرٌ عجيبٌ تلكَ السّويعاتُ والدّقائقُ الّتي أمضيْتُها في صحبةِ سيرتِهِ ﷺ! كيفَ غابَتْ عنّي كلَّ تلكَ السّنين؟ البَوْنُ شاسعٌ بينَ حالي قبلَ صعودِ الطّائرةِ وحالي الآنَ، كنْتُ أريدُ أنْ أصلَ إلى الفندقِ بسرعةٍ كي أكملَ سيرتَهُ الشّريفةَ فما يفصلُ لقائِي معَهُ سوى ساعاتِ اللّيلِ وعندَ الصّباحِ لابدَّ مِنَ اللّقاءِ.

" أريدُ أنْ يكونَ لقاءَ الحبيبِ بحبيبِهِ"، تلفّظْتُ تلكَ العبارةَ وما انفصلَتْ عنْها شفيَّ حتّى ارتعدَتْ مفاصلِي وشَحَبَ وجهي.. هل حقّاً سأستطيعُ أنْ أصلَ إلى حالِ المحبِّ والمشتاقِ خلالَ تلكَ السّاعاتِ؟ لم أشأْ أنْ أُمضيَ وقتاً في الرّهانِ على ذلكَ، بل أسرعْتُ فورَ وصولي الفندقَ إلى الوضوءِ والصّلاةِ، ثمَّ هَرِعْتُ إلى الكتابِ

والجميعُ حولي مستغربٌ مِنْ صِلتي بهذا الكتاب...

" ألا تريدُ أنْ تنامَ ؟" كانَ الجميعُ يطرحُ عليَّ السّؤالَ نفسَهُ، فأجيبُ الجوابَ ذاتَه: حتّى أُكمِلَ الكتابَ... ثمّ يلاحقونني بنظراتِ استغرابٍ وحنوّ.

مرَّتْ دقائقُ ثمَّ أحسسْتُ بثِقَلٍ في جفوني، فأردتُ أنْ أغفوَ قليلاً، مددْتُ يدي لأتناولَ ورقةَ تقويمٍ كانَت موجودةً على الطّاولةِ لأضعَها فاصلاً لموقعِ الصّفحاتِ الّتي أتمْمتُ قراءتَها، فأثارَني الفضولُ، فقلّبْتُها لأقرأَ ما كُتبَ خلفَها كما تعوّدْتُ، فإذا بي أقرأُ سطوراً تُبْعدُ النّومَ عنْ عيوني، وتوقظُ فيَّ شعوراً ما عرَفْتُهُ مِنْ قبلُ، وتشعلُ فيَّ لهيباً ما أحسسْتُ بمثلِهِ في قلبي؛ كانَتْ هذهِ الكلماتُ لجلالِ الدّينِ الرّوميِّ سلطانِ الحُبِّ كما صِرتُ أدعوهُ:

" أيُّها القلبُ! لماذا أنتَ أسيرٌ لهذا الهيكلِ التّرابيِّ الزّائلِ ؟ ألا فلتنطلقْ خارجَ تلكَ الحظيرةِ! فإنّكَ طائرٌ مِنْ عالمِ الرّوحِ، إنَّكَ رفيقُ خلوةِ الدَّلالِ، والمقيمُ وراءَ سترِ الأسرار. فكيفَ تجعلُ مقامَكَ في هذا القرارِ الفاني؟ انظرْ إلى حالِكَ واخرجْ منْها وارتحلْ مِنْ حبسِ عالمِ الصّورةِ إلى مروجِ المعاني. إنّكَ طائرُ العالمِ القدسيِّ، نديمُ المجلسِ الأنسيّ، فمِنَ الحيفِ أنْ تظلَّ باقياً لهذا المقامِ".

ثمّ أمسكْتُ بورقةٍ ثانيةٍ مِنَ التّقويمِ وقلّبْتُها، وكأنّي أبحثُ عنْ شيءٍ

بينَ سطورِها، فوجدْتُ كلماتٍ لن أنساها ما حييت، كانَتْ للشّاعرِ (محمّد إقبال) :

" أنتَ يدُ قدرةِ اللهِ أيُّها المسلمُ وأنتَ لسانُها النّاطقُ فيها، ابعثْ يقينَ الأمّةِ ولا تعشْ أسيرَ الأوهامِ، إنَّ الدّنيا تفنى ولكنّكَ أعظمُ خلوداً مِنَ الدّنيا، لكَ مجدُ الأزلِ، ولكَ نعيمُ الأبدِ، وأنتَ رسالةُ اللهِ الأخيرةُ في الأرضِ، اقرأْ مرَّةً أخرى سيرتَكَ الأولى، اقرأْ دروسَ الصّدقِ والعدلِ والشّجاعةِ، لأنّكَ المنشودُ لتسودَ العالمَ ثانيةً ".

بضعُ كلماتٍ جعلَتْني أعيدُ النّظرَ في حياتي كلِّها، قلبَتْ حياتي رأساً على عَقِبٍ، اختلطَتْ مشاعري، ما عُدتُ أميّزُ منها إلا شعوراً واحداً، شعورَ الانجذابِ إلى ذلكَ العالمِ العلويِّ الّذي ما عرَفْتُهُ مِنْ قبلُ، لقد عرَفْتُ العالمَ الماديَّ الأرضيَّ بجواذبِهِ ومغرياتِهِ وألوانِهِ الزاهيةِ وأضوائِهِ البرّاقةِ، وكأنّي لأوّلِ مرّةٍ أعرفُ معنى الخلوةِ ومناجاةِ ربِّ السّمواتِ والأرضِ والسّباحةِ في ملكوتِهِ العلويِّ، وكأنَّ روحي لأوّلِ مرّةٍ فُكّتْ قيودَها، وخرجَتْ مِنْ ذلكَ القفصِ أو السّجنِ.. كانَتْ أشبهَ بالطّائرِ الحبيسِ الّذي نالَ أخيراً حريَّتَه، فأصابَتْهَ سهامُ العشقِ، سهامُ الشّوقِ للموطنِ الأصيلِ حيثُ الوطنُ الأمّ، فالقفصُ مهما كانَ جميلاً مزداناً بالمزركشاتِ ممتلئاً بالطيّباتِ مِنَ الطّعامِ حفيّاً بالمغرياتِ مِنَ الكماليّاتِ والرّفاهيةِ لا يقارَنُ بلحظةِ وصلٍ معَ الوطنِ الأمِّ

والحبيبِ الحقيقيِّ.

كانَتْ هذهِ اللّحظاتُ كفيلةً بتغييرِ موازيني وخِططي المستقبليّةِ، حقّاً تَفَكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ سنةٍ. صدَقَ رسولُ ﷺ.

الفصلُ الثّاني

مِنَ البَعْثَةِ إلى الهِجْرة

مازالتِ الآياتُ الّتي نزَلَتْ على رسولِ اللهِ ﷺ أردِّدُها ولا تغيبُ عنْ بالي :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾[1]

إنّها تصريحٌ إلهيٌّ ببدايةِ مرحلةٍ جديدةٍ هذهِ أركانُها :

١- التّبليغُ والإنذارُ.

٢- تكبيرُ وتعظيمُ اللهِ، والجميعُ في عبوديّةِ للإلهِ الأوحدِ .

٣- الطّهارةُ ظاهراً وباطناً، فتطهيرُ الثّيابِ مِنَ الظّاهرِ وتزكيةُ النَّفْسِ مِنَ الباطنِ .

٤- عدمُ استكثار وتعظيم العملِ والجُهدِ الّذي سيقدَّمُ في سبيلِ تبليغِ الرِّسالةِ، فهذا شرفٌ كبيرٌ يستحقُ من أجلهِ بذلُ كلِّ غالٍ ونَفيس.

---

[1] - سورة المدثر : ١-٧

٥- الصَّبرُ عنوانُ الولايةِ، و هو سبيلُ الوصولِ إلى النّجـاحِ في تحقيـقِ الرّسالةِ .

حقّاً هي الأركانُ ذاتُها الّتي يحتاجُها أيُّ داعيةٍ أو مصلح !!

مراحلُ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ في حياةِ النّبيِّ ﷺ :

مرَّتِ الدَّعوةُ الإسلاميَّةُ في حياتِه ﷺ منذ بَعثتِهِ إلى وفاتِهِ بأربعِ مراحلَ :

المرحلةُ الأولى: الدّعوةُ سرًّا، واستمرَّتْ ثلاثَ سنواتٍ.

المرحلةُ الثّانيةُ: الدَّعوةُ جَهراً وباللّسانِ فقط، واستمرَّتْ إلى الهجرةِ .

المرحلةُ الثّالثةُ: الدَّعوةُ جهْراً مع قتالِ المُعتدين والبادئين بالقتالِ أو الشَّرِّ، واستمرَّتْ هذهِ المرحلةُ إلى عامِ صُلحِ الحُديبيةِ.

المرحلةُ الرّابعةُ: الدَّعوةُ جهراً معَ قتالِ كُلِّ مَنْ وقفَ في سبيلِ الدَّعوةِ، أو امتنعَ عنِ الدُّخولِ في الإسلامِ – بعدَ فترةِ الدَّعوةِ والإعلامِ – مِنَ المُشركينَ أو الملاحدةِ أو الوثنيّين [1]؛ (ولم يفرض على أهل الكتاب الدخول في الإسلام) . وكانَتْ هذهِ المرحلةُ هي الّتي استقرَّ عليها أمرُ الشّريعةِ الإسلاميّةِ وقامَ عليها حُكمُ الجهادِ في الإسلامِ .

أحسستُ بروعةِ الإسلامِ ومرونتِهِ وَفْقَ الظُّروفِ مع الحفاظِ على

---

[1] – فقه السيرة ، للدكتور البوطي.

المبادئِ الثّابتةِ، فالدّعوةُ سرًّاً فيها مِنَ الحكمةِ الشّيءُ الكثيرُ، فلن يدخلَها إلا المخلصون، فهي ليسَتْ لأصحابِ المطامعِ إذ لا تعدُهم بشيءٍ، ولا تملِكُ في حاضرِها مِنَ المغانمِ ما يطمعُهم، وهذا أصلحُ لبدايةِ الدَّعواتِ، كما أنّهُ أرقُّ على النفوسِ حينَ تكونُ الصِّلاتِ بينَ ذوي القُربى بعيداً عنِ الدِّماءِ والدَّمِ الفائرِ، ممَّا يسهِّلُ الدُّخولَ إلى الإسلامِ ولا يثيرُ حفيظةَ العصبيَّةِ بينَهم .

أمّا المرحلةُ الّتي استقرَّ عليها أمرُ الجهادِ في الإسلامِ فهي تبليغُ الرِّسالةِ بجميعِ الوسائلِ الممكنةِ مراعياً التَّدرُّجَ.

فالهدفُ هو إيصالُ الدَّعوةِ لغيرِ المسلمين، قد تكونُ الوسيلةَ لتحقيقِ ذلك (تلفاز أو انترنيت) و غيرِ ذلك، فإن مُنعَ إيصالُ الحقِّ بالطُّرقِ الودّيّةِ الّتي تمنحُ الإنسانَ فرصةَ اختيارِ العقيدةِ بحريّةٍ تامّةٍ ودونَ أيَّةِ ضغوطٍ كانَ لابدَّ مِنْ وسيلةِ الجهادِ لتبليغِ الحقِّ ومنحِ النَّاسِ الحريّةَ في اختيارِ المُعتقَدِ الّذي يرغبونه.

- الدَّعوةُ سرّاً:

بدأَ النّبيُّ ﷺ يستجيبُ لأمرِ اللهِ، فأخذَ يدعو إلى عبادةِ اللهِ وحدَهُ ونبْذِ الأصنامِ، ولكنّهُ كانَ يدعو إلى ذلكَ سرّاً حذراً مِنْ وقْعِ المفاجأةِ على قريشٍ الّتي كانَتْ متعصّبةً لشِركِها و وثنيّتِها، فلم يكنْ عليه السّلامُ يُظهرُ الدّعوةَ في المجالسِ العموميّةِ لقريشٍ، ولم يكنْ يدعو إلا مَنْ كانَتْ تشُدُّهُ إليهِ قرابةٌ أو معرفةٌ سابقةٌ.

وكانَ مِنْ أوائلِ مَنْ دخلَ الإسلامَ مِنْ هؤلاءِ خديجةُ بنتُ خويلدٍ رضيَ اللهُ عنْها وعليٌّ بنُ أبي طالبٍ و زيدٌ بنُ حارثةُ مولاهُ عليهِ السّلامُ ومُتَبَنّاهُ وأبو بكرٍ بنِ أبي قُحافةَ وعثمانُ بنَ عفّانَ والزُّبيرُ بنُ العوامِ وعبدُ الرّحمنِ بنِ عوفٍ وسعدُ بنُ أبي وقّاصٍ . . . .وغيرُهم رضيَ اللهُ عنْهم أجمعين.

فكانَ هؤلاءِ يلتقُون بالنّبيّ ﷺ سرّاً، وكانَ أحدُهم إذا مارسَ عبادةً مِنَ العباداتِ ذهبَ إلى شعابِ مكّةَ يستخفي فيها عنْ أنظارِ قريشٍ. ثمَّ لمّا أَربى الّذينَ دخلُوا في الإسلامِ على الثّلاثين – ما بينَ رجلٍ وامرأةٍ- اختارَ لهُم رسولُ اللهِ ﷺ دارَ أحدِهم، وهو الأرقمُ بنُ أبي الأرقمِ، ليلتقي بهم فيها لحاجاتِ الإرشادِ والتّعليمِ، وكانَتْ حصيلةُ الدّعوةِ في هذهِ الفترةِ ما يقاربُ أربعينَ رجلاً وامرأةً دخلُوا في

الإسلامِ.[1]

تساءَلْتُ هُنا ما مذاقُ ركعتين تُصلَّيانِ بعدَ عناءِ الوصولِ لمكانٍ آمنٍ وتكبُّدِ المسافاتِ لذلكَ؟ هل لها الطعْمُ نفسهُ لركعتين نركعهما نحن الآن؟ وما مدى تغلغلُ الدّينِ في أعماقِ شخصٍ اعتنقَهُ سرًّا كأنَّهُ كنزٌ يخفيهِ عنْ أعينِ النّاسِ، وبينَ دينِ أحدِنا في هذهِ الأيّامِ ؟

لا شكَّ أنَّ الصّدقَ والإخلاصَ هما أبرزُ معالمِ معتنقي هذهِ المرحلةِ في الدّعوةِ الإسلاميّةِ السّرّيّةِ، فصاحبُ المصلحةِ الدّنيويّةِ مِنْ منصبٍ أو جاهٍ أو مالٍ لن يجدَ ضالّتَهُ هُنا، إنّهُ مكانٌ للمخلصِين في البحثِ عنِ الحقيقةِ والمتعطّشِينَ للنّورِ والحقِّ، وهذا يتوافقُ معَ بدايةِ الدَّعوةِ الّتي تحتاجُ إلى المخلصِينَ الّذين يمكنُ بناءُ الدَّعوةِ بجهودِهم فيكونونَ نواةَ البناءِ وأساسَهُ وهذا ما حصلَ، فهؤلاءِ الصّحابةُ الأجِلاءُ هم أنفسُهم الّذين حفِظنا أسماءَهم كقوّادٍ للجيوشِ وفاعِلينَ في الحياةِ، لِذا لابدَّ مِنْ التركيزِ على بناءِ عقيدتِهم قبلَ البدْءِ بالعملِ ومجابهةِ المجتمعِ الخارجيِّ. وهذا ما فعلَتْهُ السّنواتُ الّتي أمضَوها في دارِ الأرقمِ، التي كانت المادة الدراسية فيها هي القرآن الكريم، و أما قلَّةُ العددِ فقد

---

[1] – انظرْ سيرةَ ابنِ هشامٍ ١/٢٤٩-٢٦١.

جعلت جرعاتِ النُّورِ كثيفةً وعميقةَ الأثرِ، وفيها يَخْبُرُ المعلِّمُ تلاميذَهُ جيِّداً، يعرِفُ نقاطَ قوَّتِهم وضَعفِهم، ليضعَهُم فيما بعدُ كلٌّ في مكانِه المناسبِ وعلى قدرِ ملَكاتِهِ وقُدْراتِهِ، فتنطلقَ مواهبُهُ وتتفتَّقَ عن كُلِّ خيرٍ في سبيلِ الدَّعوةِ والهدفِ.

تنهَّدتُ قليلاً، وأرخيْتُ لفكريَ العَنانَ، إذْ إنَّ تربيتَهُ ﷺ ورعايتَهُ لأصحابِهِ لفتتِ نظري منذُ زمنٍ، فهو قائدٌ مُحنَّكٌ لم تشغلْهُ الحروبُ عنِ التّربيةِ واختبارِ رجالِهِ ومعرفةِ مواهبِهم ووضعِها في مكانِها المناسبِ.

حقّاً إنَّ سيرتَهُ تزخَرُ بمعانٍ كثيرةٍ ينبغي أنْ نستقي منها منهجاً تربويّاً وفنّاً في صنعِ الرِّجالِ.

- الجَهْرُ بالدَّعوة :

قالَ ابنُ هشامٍ : ثمّ دخلَ النّاسُ في الإسلامِ أرسالاً مِنَ النّساءِ و الرّجالِ حتّى فشا ذِكْرُ الإسلامِ بمكّةَ وتُحُدّثَ به؛ فأمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يَصْدَعَ بما جاءَه مِنَ الحقّ، وأنْ يُبادِي النّاسَ بأمرِهِ وأنْ يدعو إليهِ، وكانَ بينَ ما أخفى رسولُ اللهِ أمرَهُ واستترَ بهِ إلى أنْ أمرَهُ اللهُ بإظهارِ دينِهِ ثلاثُ سنينَ مِنْ مبعثِهِ. ثمَّ قالَ اللهُ لهُ:

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[1]

وقـــالَ لـــهُ : ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2]

وحينئذٍ بدأَ رسولُ اللهِ ﷺ بتنفيذِ أمرِ ربِّه، فاستجابَ لقولِه تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ بأنْ صعِدَ على الصَّفا فجعلَ ينادي: (يا بني فهر، يا بني عديّ، حتّى اجتمعُوا، فجعلَ الّذي لم يستطعْ أنْ يخرجَ يرسلُ رسولاً لينظرَ: ماهو؟ فقالَ النّبيُّ ﷺ : أرأيتُم لو أخبرتُكُم أنَّ خيلاً بالوادي تريدُ أنْ تُغيرَ عليكم أكُنْتُم مُصدّقيّ؟ قالُوا: ما جرَّبنا عليكَ كذِباً . قالَ: فإنّي نذيرٌ لكُمْ بينَ يديّ

---

[1] - سورةُ الحِجْر : ٩٤

[2] - سورةُ الشُّعراء :٢١٤ -٢١٥

عذابٍ شديدٍ . فقالَ أبو لهبٍ: تبّاً لكَ سائرَ النّهارِ . . ألهذا جمعْتَنا ؟) فنزل قولُ اللهِ تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[1] .

ثمَّ نزَلَ الرّسولُ ﷺ، فاستجابَ لقولِهِ تعالى﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ بأنْ جمعَ مَنْ حولَهُ و جميعَ ذويْهِ وأهلِ قرابَتِهِ وعشيرتِهِ فقالَ:" يا بني كعبٍ بنِ لؤيٍّ أنقذُوا أنفسَكُم مِنَ النّارِ، يا بني مُرَّةَ بنِ كعبٍ أنقذُوا أنفسَكُم مِنَ النّارِ، يا بني عبدِ شمسٍ أنقذُوا أنفسَكُم مِنَ النّارِ، يا بني عبدِ منافٍ أنقذُوا أنفسَكُم مِنَ النّارِ، يا بني عبدِ المطّلبِ أنقذُوا أنفسَكُم مِنَ النّارِ، يا فاطمةُ أنقذي نفسَكِ مِنَ النّارِ، فإنّي لا أملِكُ لكُم مِنَ اللهِ شيْئاً غيرَ أنَّ لكُمْ رحماً سأبلُّها ببَلالِها" .[2]

وكانَ ردُّ الفعلِ مِنْ قريشٍ أمامَ جهرِه بالدَّعوةِ أنْ أدبرُوا عنْهُ وتنكَّرُوا لدعوتِهِ معتذرِينَ بأنّهم لا يستطيعُونَ أنْ يترُكُوا الدّينَ الّذي ورِثوهُ عنْ آبائِهم وأصبحَ مِنْ تقاليدِ حياتِهم. وحينئذٍ نبَّهَهُمُ الرَّسولُ ﷺ إلى ضرورةِ تحريرِ أفكارِهم وعقولِهم من عبوديّةِ الاتّباعِ و التّقليدِ، واستعمالِ العقلِ و المنطقِ، وأوضحَ لهُم أنَّ آلهتَهُم الّتي يعكفُون على عبادَتِها لا تفيدُهم أو تضرُّهم شيْئاً، وأنَّ توارثَ آبائِهم

---

[1] – سورةُ المسد : ١

[2] – متّفقٌ عليهِ واللّفظُ لمسلمٍ ، وقولُهُ : سأبلُّها ببلالها : أي سأصلُها بصِلتِها .

وأجدادِهم لعبادتِها ليسَ عُذراً في اتّباعِهم بدونِ دافعٍ إلا دافعَ التقليدِ، كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ في حقّهم :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[1]

فلمّا عابَ آلهتَهم، وسفَّه أحلامَهم، وجرَّ اعتذارَهم عنْ تمسُّكِهم بعبادةِ الأصنامِ أنَّها تقاليدُ آبائِهم وأجدادِهم، إلى وصفِ آبائِهم بعدمِ العقلِ، أعْظَمُوا الأمرَ، وناكَرُوه، وأجمعُوا على خلافِهِ وعدوانِهِ، إلا مَنْ عَصَمَ اللهُ تعالى منهم بالإسلامِ، وإلا عمَّه أبا طالبٍ الّذي حَدَبَ عليهِ، ومنعَهُ، وقامَ دونَهُ[2] .

دارَ في خَلَدِي معانٍ كثيرةً بعدَ أنْ قرأْتُ هذهِ الفقرةَ...

أوّلُها قيمةُ الصّدقِ. فلا يمكنُ لداعٍ ألا يتّصفَ بها. فلولا تميّزُهُ ﷺ بصدقِهِ لما تجمّعَ النّاسُ حولَهُ ليستطلِعُوا الخبرَ، وشهدُوا لهُ شهادةَ حقٍّ: "ما جرَّبنا عليكَ كذِباً".

هذا الصِّدقُ هو الّذي حملَ مَنْ أسلمَ منْهم على الإسلامِ، ولو عُرِفَ

---

[1] – سورةُ المائدة :١٠٤

[2] – انظر : فقه السيرة ، الدكتور البوطي.

عنْهُ ﷺ بعضُ الكذبِ لما أسلمَ أحدٌ منهم، فقد يكذِبُ عنْ ربِّهِ، وحاشاه ﷺ.

مواقفُ كثيرةٌ في حياتِنا لم يعدْ للصِّدقِ فيها مكانٌ، أو لعلَّ الصّادقَ أصبحَ ذا صفةٍ غريبةٍ ونادرةٍ، حتّى غدا نعتُ (فلانٌ صادقٌ) عزيزٌ وجودُه، عصيٌّ سمعُه.

ثمَّ لفتَ انتباهي، تخصيصُ الأقاربِ بالدّعوةِ، فكأنَّهُ جلَّ جلالُهُ يعلِّمُنا درجاتِ مسؤوليّةِ الفردِ عمَّنْ حولَه، فهي دوائرُ تكبَرُ شيئاً فشيْئاً، فعليهِ أوّلاً تحريرُ نفسِهِ مِنْ المعيقاتِ الّتي تحجِّرُ تفكيرَهُ، ثمَّ اعتناقُ المبدأِ والفكرِ السّليمِ، ثمَّ تليها دائرةُ الأقاربِ، ابتداءً مِنَ الزّوجةِ والأختِ والابنِ ثمَّ العمِّ والخالِ وهكذا.. ثمَّ الدّائرةُ الأوسعُ الحيُّ والبلدةُ، ثمَّ الأوسعُ العالَمُ.

كما أنّهُ ﷺ يضعُ أولى لبناتِ تحريرِ العقلِ وإطلاقِ حريّتِهِ وإعمالِهِ في التّفكيرِ السّليمِ... إنَّ هذهِ الفكرةَ كانَتْ غريبةً جدّاً في مجتمعِهِ إلى حدِّ عدمِ القَبُولِ بها ومعاداتِها، وغرابتِها هذهِ هي الّتي أطلقَتْ ملكاتِ مَنْ آمنَ بضرورةِ إعمالِ العقلِ وتحريرِهِ مِنْ كلِّ ما يكبِّلُهُ، ولعلَّ ذلكَ يفسِّرُ ظهورَ العلومِ والمعارفِ فيما بعدُ، فهُنا تمَّ إطلاقُ أوَّلِ صيحةٍ لتحريرِ العقلِ وتفعيلِهِ وعدمِ الاقتداءِ الأعمى بأيِّ فكرٍ أو موضةٍ.

بدَتْ ملامحُ الإسلامِ أعظـمَ في عقلـي، وكـأنّي أفهمُـهُ مِـنْ جديـد أو أعتنقُهُ مِنْ جديدٍ، لا ولادةً أو عـادةً درجْـتُ عليهـا، بـلْ كمـا فهمَـهُ الصَّحابةُ واعتنقُوهُ.

لم أعُدْ أشـعرُ بالوقـتِ الّـذي يمـرُّ، اختلطَـتْ عنـدِي الأزمـانُ وكـأنّي أعايشُ تلكَ المرحلةَ وأُحِسُّ بالضّيقِ لتكذيبِ قومِ رسولِ اللهِ ﷺ له.

تراني لو كنْتُ في عصره مِنْ أيِّ الفريقَين سـأكونُ؟ هـل حقّـاً عقلـي مُحرَّرٌ مِنَ الأفكارِ أو المعتقداتِ غيرِ الصّحيحةِ؟ هل حقَّـاً لسْـتُ ممّـنْ يتَّبعُونَ أيَّ هَيْعَةٍ[1] أو صيحةٍ دونَ تفكير؟ هل أتّبعُ أحداً لُمجرّدِ الاتّبـاعِ دونَ تفكيرٍ سَواءً في مَلبسٍ أو مَأكلٍ أو طريقةِ حياةٍ؟

ما هي (الموضة) الّتي كثُـرَتْ في حياتِنـا في المَلـبسِ والمأكـلِ وأسـلوبِ الحياةِ؟

أيمكنُ أنْ نَعُدَّها الآنَ صـنماً يحجِّـرُ عقولَنـا فنتّبعُـهُ لمجـرَّدِ الاتّبـاعِ، بـل ونُفاخرُ لأنَّنا نتَّبعُ صنمَ الموضةِ !...

يا إلهي كيفَ سفّهنا عقولَنا، وعُدْنا إلى ما وراءَ الإسلامِ؟!

أم إنّها وسيلةُ استغلالٍ وربحٍ اقتصاديٍّ صدَّقَها السُّذَّجُ منَّا؟

فما كانَ بالأمسِ مِـنْ طُـرُقِ اللِّبـاسِ المُعـابِ عليـه غـدا الآنَ (موضـة)

[1] – هيعة : الصوتُ الذي يُفزع منه.

يتبارى النّاسُ في تقليدِها.

ألقيْتُ رأسيَ المتعَبَ وأغلقْتُ عينيَّ، وهاجسٌ واحدٌ سيطرَ على فكري: كم نحنُ بحاجةٍ إلى سيرةِ الحبيبِ المُصطفى ﷺ لنعيدَ تجديدَ إيمانِنا ودينِنا، ونعودَ إلى النبعِ الأوّلِ قبلَ أن تشوبَه المشاربُ الأخرى الّتي عكّرَتْ صفوَهُ وغيّرَتْ مِنْ طعمِهِ .

أخرجَني مِنَ ازدحامِ تلكَ الأفكارِ إعلانُ السّاعةِ الثانيةَ عشْرةَ ليلاً، فعدْتُ إلى الكتابِ مرّةً أخرى وأنا أسابقُ الزّمنَ، وكلّما ازدَدْتُ تعمُّقاً وقراءةً، شعرْتُ بالحبِّ يتسلّلُ إلى قلبي، وبِيَدِ التّغييرِ تمتدُّ إلى عقلي وأهدافي وربَّما خُطَطِ حياتي!

- الإيذاءُ:

ثمّ إنَّ قريشاً اشتدَّتْ في مُعاداتِها لرسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِه، أمّا رسولُ اللهِ ﷺ فقدْ لاقى مِنْ إيذائِهم أنواعاً كثيرةً. مِنْ ذلكَ ماروٰاهُ عبدُ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ أنَّهُ قالَ: " بيْنَا النّبيُّ ﷺ يصلّي في حِجْرِ إسماعيلَ إذْ أقبلَ عقبةُ بنُ أبي معيطٍ فأخَذَ بمَنكِبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولوى ثوبَه في عُنُقِه فخنَقَه خَنقًا شديدًا، فأقبلَ أبو بكرٍ حتّى أخذَ بمَنْكِبِهِ، ودفعَهُ عنِ النّبيِّ ﷺ وقالَ: أتقتُلونَ رجلاً أنْ يقولَ ربّيَ اللهُ ؟"[1].

ومنْهُ ما رَوى عبدُ اللهِ بنُ مسعود قال: بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عِندَ الكعبة، وجمع قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم : ألا تنظرون إلى هذا المرائي، أيّكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمدُ إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به، ثم يمهله، حتى إذا سجد، وضعه بين كتفيه ؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة رضي الله عنها،

[1] - صحيح البخاريّ - رقم: ٤٨١٥

وهي جويرية، فأقبلت تسعى، وثبت النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ساجداً، حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصلاة، قال : اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش. ثم سمى : اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد . قال عبد الله: فو الله، لقد رأيتهم صرعى يومَ بدر، ثم سحبوا إلى القُلْيب، قُلْيب بدر، ثم قال رسولُ الله ﷺ : وأتبع أصحاب القُلْيب لعنة[1] .

ومنهُ ما كانوا يواجهونَهُ بِهِ مِنْ فنونِ الهُزْءِ والغَمْزِ واللَّمْزِ كلّما مشى بينَهم أو مرَّ بهم في طرقاتِهم أو نواديهم. ومنْهُ ما روى الطبرانيّ وابنُ إسحاقَ أنّ بعضَهم عمَدَ إلى قبْضةٍ مِنَ الترابِ فنثرَها على رأسِهِ وهو يسيرُ في بعض سِككِ مكّةَ، وعادَ إلى بيتِهِ والتُّرابُ على رأسِهِ، قامَتْ إليهِ إحدى بناتِهِ تغسِلُ عنهُ التُّرابَ وهيَ تبكي ورسولُ الله ﷺ يقولُ لها :"يا بنيّة لا تبكي، فإنَّ اللهَ مانعٌ أباك"[2] .

وأمّا أصحابُهُ رضوانُ اللهِ عليهم فقد تجرَّعَ كلٌّ منهم ألواناً مِنَ العذابِ، حتّى ماتَ

[1] – صحيح البخاري – رقم: ٥٢٠

[2] – أُنظُرْ تاريخَ الطّبريّ :٣٤٤/٢ وسيرةَ ابنِ هشام :١/ ١٥٨

منهم ممّنْ ماتَ تحتَ العذابِ وعميَ مَنْ عميَ، ولم يثِنِهم ذلكَ عنْ دينِ اللهِ شيئاً .

روى الإمامُ البخاريُّ عنْ خبّابٍ بنِ الأرَتّ أنَّهُ قالَ: " أتيْتُ النّبيَّ ﷺ وهو متوسّدٌ بُردةً وهو في ظلِّ الكعبةِ، وقد لقيْنا من المشركِين شِدّةً، فقلْتُ يا رسولَ اللهِ ألا تدعُو اللهَ لنا ؟ فقعَدَ وهو محمَّرٌّ الوجهِ، فقالَ : لقد كانَ مَنْ قبلَكُم لَيُمْشَطُ بمشَاطِ الحديدِ مادُونَ عظامِهِ من لحمٍ أو عَصَبٍ ما يَصْرِفُهُ ذلكَ عنْ دينِهِ. ولَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتّى يسيرَ الرَّاكبُ مِنْ صنعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لايخافُ إلا اللهَ أو الذّئبَ على غَنَمِهِ، ولكنَّكُمْ تَعْجَلونَ " [1]

كفكفْتُ دمعيَ إذْ تداخلَتِ الحروفُ فما عَدْتُ أرى رسمَها، حُزْناً لَما لاقى حبيبُ الرَّحمَنِ ﷺ ولاقَى الصَّحابةُ رضْوانُ اللهِ عليهم مِنَ العَنَتِ والعذابِ في سبيلِ الدّعوةِ، ومقارنةً عجيبةً بينَ صُوَرِ الصَّحابةِ وصُورِ هذا العصرِ، بينَ العطاءِ اللّامحدودِ في سبيلِ الفكرةِ والمبدأِ، وبينَ السّلبيَّةِ والاكتفاءِ ببعضِ العباداتِ كتعبيرٍ عنِ النّصرةِ لهذا الدينِ! ولا يعني هذا عدمَ أهميّةِ العبادةِ بل هي الصِّلةُ بينَ حركةِ الإنسانِ

[1] - السّننُ الكُبرى للبيهقيّ ١٦٤٦٤

وغايتِها، وهيَ الفارقُ بينَ الحركاتِ الأرضيَّةِ والحركاتِ السَّماويَّةِ، بينَ عُصْبَةٍ تدعو لمبدأٍ ما وبينَ جماعةٍ مُتّصِلَةٍ بربِّ المبادئِ، إلا أنَّ هَزالَةِ العطاءِ وشُحِّهِ ليجعلَ المقارنةَ مفارقةً عجيبةً .

أثقلتْني تلكَ الصُّورُ فحاولْتُ إغماضَ عينيَّ، ربَّما للهروبِ لكنْ سَرعانَ ما قفزَ في عقلي سؤالٌ: كيفَ استطاعَ الصَّحابةُ تغييرَ أنفسِهم؟

ومِنْ أينَ أبدأَ التّغييرَ ؟ مِنَ القلبِ أم العقلِ؟ مِنَ المشاعرِ أم السّلوكِ أو الأفكارِ؟

ثم بتُّ أعيدُ قراءةَ السُّطورِ.. بدأَ الخطابُ للعقلِ والمنطقِ، أي بالأفكارِ، فلمّا اقتنعُوا وتفاعلَتْ تلكَ الأفكارُ معَ عقولِهم تحوَّلَتْ لسلوكٍ و مشاعرَ تجلَّتْ بتضحياتِهم مِنْ أجلِها.

حقّاً إنَّ العِبَرَ الّتي يمكنُ أنْ تُستخلصَ مِنْ تعرُّضِ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ والصّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم للإيذاءِ عميقةُ المعنى. فهي تمييزٌ للخبيثِ مِنَ الطّيِّبِ وتمحيصٌ للمخلصِيْن الصّادقِيْن، فمَنْ ثَبَتَ فذاكَ السَّندُ الّذي سيبني دولةَ الإسلامِ بقوّةِ إيمانِهِ وصلابةِ عودِهِ، وهي سُنَّةُ الكونِ وقانونُ اللهِ في الأرضِ، فالحقُّ له أعوانٌ والباطلُ كذلكَ، وبينَهما معاركُ ومناوراتٌ ولكنَّ العاقبةَ للمتقِيْن ولو بعدَ حين.

إنَّ أمثالَ هذهِ القصصِ بمثابةِ شحنٍ للقِوَى وإحياءٍ لهمَّةِ المتقاعسِيْن

كي ينشَطُوا في نشرِ الخيرِ ولا يُبالُوا بما يلاقونَهُ فقد سبقَهم بذلكَ إمامُ المرسلِيْنَ ﷺ وصحابتُهُ رضوانُ اللهِ عليهم أجمعِيْن، فمعرفةُ الطّريقِ وتكهُّنُ العقَباتِ الّتي قد تعترِضُهُ يُسهّلُ على السّالكِيْنَ، ويُنَوِّرُ لهم دربَهم ويشُدُّ مِنْ عزائمِهم ويثبِّتُ أقدامَهم.

ثمَّ تذكَّرْتُ مقالةً كنْتُ قد قرأْتُها منذُ زمنٍ عنْ كيفيَّةِ تغييرِ الشَّخصيَّةِ.. الآنَ أتذكَّرُها جيِّداً، لم تقعْ في نفسي مِنْ قبلُ كما هي الآنَ .. بالفعلِ يبدأُ التَّغييرُ بالأفكارِ، وعندما يستشعرُ المرءُ أهميَّةَ فكرةٍ أو قيمةٍ ما بالنِّسبةِ لهُ، وآثارَها الإيجابيّةَ يبدأُ بإدخالِها ضمنَ منظومَتِهِ القِيَمِيّةِ ومبادئِهِ، ثم يستغرق في التأمل بآثارها و أهميتها ويستشعر ضرورة أن يصبح هو جزء منها! عندَها تبدأُ إرادةُ التَّغييرِ عملَها في إحداثِ مشاعرَ مختلفةٍ ومِنْ ثمَّ سلوكٍ مختلفٍ، وما يزالُ المرءُ يلتزمُ بها ويرسِّخُها حتّى تصبحَ جُزءاً مِنْ طريقةِ تفكيرِهِ وشخصيّتِهِ ونظرتِهِ للمواقفِ وَفْقَها، فيفسِّرُ الأحداثَ وَفْقَ هذهِ الفكرةِ أو القيمةِ، ثمَّ يصبحُ معروفاً بتلكَ القيمةِ أو الفكرةِ لكثرةِ التزامِهِ بها.

فالتغيير يبدأ من تغيير الأفكار فالمشاعر فالسلوك... تلك هي المعادلة.

صحيحٌ هذا ما حصلَ معي عندما استشعرْتُ وأنا صغيرٌ قيمةَ الصِّدقِ ونتائجَهُ الإيجابيَّةَ في الدُّنيا مِنْ حيثُ ثقةِ النّاسِ بي، وفي الآخرةِ

رجَوتُ المكانـةَ عنـدَ اللهِ (صـدِّيقاً)، لا أدري لِمَ هـذه الصِّـفةُ كنْـتُ شديدَ الحرصِ عليها، لكنَّها تماماً بدأَتْ بالتَّدرُّجِ مِنَ الاقتناعِ بأهميَّتِها ثمَّ بمحاولةِ الالتزامِ، وما زلْتُ كذلكَ حتّـى عَـرَفَني أصـدقائي بـذلكَ. إنَّها خَصْلَةٌ أنعمَ اللهُ بها علَيَّ، فلكَ الحمدُ والشُّكرُ والمِنَّةُ يا ربّ.

عجيبٌ أيُّها القدرُ.. اِسـترجعْتُ خـواطري الآنَ وتـذكَّرْتُ خـواطري قبلَ ساعاتٍ مِنَ السَّفرِ.. الفرقُ شاسعٌ.. سـبحانَ اللهِ هـادي القلـوبِ ومُحيي الأرضَ بعدَ موتِها!

- سياسةُ المفاوضاتِ:

جاءَ فيما يروْيهِ ابنُ هشامٍ عنِ ابنِ إسحاقَ أنَّ عتبةَ بنَ ربيعةَ – وكانَ سيّداً ذا بصيرةٍ و رأيٍ في قومِهِ – قالَ في نادي قريش: يا معشرَ قريشٍ، ألا أقومُ إلى محمَّدٍ فأكلّمَهُ، وأعرِضَ عليهِ أموراً لعلَّهُ يقبَلُ بعضَها، فنُعطِيَهُ أيَّها شاءَ و يكُفَّ عنَّا ؟ فقالُوا: بلى يا أبا الوليدِ، قُمْ إليهِ فكلّمْهُ، فجاءَ عتبةُ حتّى جلسَ إلى رسولِ الله ﷺ فقالَ: يا بنَ أخي إنّكَ منَّا حيثُ قد علمْتَ مِنَ الشَّرفِ في العشيرةِ والمكانةِ في النَّسبِ، وإنَّكَ قد أتيْتَ قومَكَ بأمرٍ عظيمٍ فرّقْتَ بهِ جماعتَهم وسفَّهْتَ بهِ أحلامَهُم. . .فاسمعْ منّي أعرِضْ عليكَ أموراً تنظرُ فيها لعلَّكَ تقبلُ مِنْها بعضَها.

فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: قُلْ يا أبا الوليدِ، أسمعُ. قالَ يا ابنَ أخي: إنْ كنْتَ إنَّما تُريدُ بما جئْتَ بِهِ مِنْ هذا الأمرِ مالاً جمعْنا لكَ مِنْ أموالِنا حتّى تكونَ أكْثرَنا مالاً، وإنْ كنْتَ تريدُ بِهِ شرفاً سوّدْناكَ علينا حتّى لا نقطعَ أمراً دونَكَ، وإنْ كنْتَ تريدُ بِهِ مُلكاً ملَّكْنَاكَ علينا، وإنْ كانَ هذا الّذي يأتِيْكَ رئِيَاً تراهُ لا تستطيعُ ردَّهُ عنْ نفسِكَ طلبْنا لكَ الطّبَّ، وبذلْنا فيهِ أموالَنا حتَّى نُبرئَكَ منْهُ.

فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: أَفَرَغْتَ يا أبا الوليدِ؟ قالَ: نعم" قالَ: فاسمعْ منّي ثمّ

قال: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾[1]

ثمّ مضى رسولُ الله ﷺ في القراءةِ وعتبةُ يسمعُ حتّى وصلَ إلى قولِه تعالى: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾[2] فأمسكَ عتبةُ بفيْهِ وناشدَهُ الرَّحِمَ أنْ يكفَّ عنِ القراءَةِ، وذلكَ خوفاً ممّا تضمَّنَتْه الآيةُ مِنْ تهديدٍ.

ثمَّ عادَ عتبةُ إلى أصحابِهِ فلمّا جلسَ بينهم قالوا: ما وراءَكَ يا أبا الوليدِ؟ قال: ورائي أنّي سمعْتُ قولاً ما سمعْتُ بمثلِهِ قطُّ، واللهِ ما هو بالشّعرِ ولا بالسّحرِ ولا بالكِهانَةِ. يا معشرَ قريشٍ: أطيعوني وخلُّوا بينَ هذا الرَّجُلِ وبينَ ما هو فيهِ فاعتزِلُوه، فو اللهِ لَيكُونَنَّ لقولِهِ الّذي سمعْتُ منهُ نبأٌ عظيمٌ فإنْ تصبْهُ العربُ فقد كُفِيْتُمُوهُ بغيرِكُمْ، وإنْ يظهرْ على العربِ فمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ وعزُّهُ عِزُّكُمْ، قالُوا: سَحَرَكَ واللهِ يا أبا الوليدِ بلسانِهِ. قالَ: هذا رأيي فيهِ، فاصنعُوا مابدا لكُم[3].

وروى الطّبريُّ وابنُ كثيرٍ وغيرِهما أنَّ نفراً مِنَ المشركِيْنَ فيهمُ الوليدُ بنُ المغيرةِ

[1] – سورةُ فُصِّلت :١–٣
[2] – سورةُ فُصِّلت :١٣
[3] – السيرة النبوية لابن هشام ، ص ١٦٣ .

والعاصُ بنُ وائلٍ جاؤُوا فعَرضُوا على رسولِ الله ﷺ أنْ يعطُوهُ مِنَ المالِ حتّى يكونَ أغناهُمْ، وأنْ يزوّجُوهُ أجملَ أبكارِهِم على أنْ يترُكَ شتمَ آلهتِهم وتسفيهَ عاداتِهم، فلمّا رفضَ إلا الدَّعوةَ إلى الحقِّ الّذي بُعِثَ بهِ قالُوا: فتعْبُدُ آلهَتَنا يوماً ونعبُدُ إلهَكَ يوماً، فرفضَ ذلكَ أيضاً، ونزَلَ تعليقاً على ذلكَ قولُ الله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾[1] ثمَّ إنَّ أشرافَ قريشٍ عادُوا فكرَّرُوا المحاولةَ الّتي قامَ بها عتبةُ بنُ ربيعةَ، فذهبُوا إليهِ مجتمِعِيْنَ، وعرضُوا عليهِ الزَّعامةَ والمالَ، وعرضُوا عليهِ الطِّبَّ إنْ كانَ هذا الّذي يأتيْهِ رِئْياً مِنَ الجانِّ.

فقالَ لهُم رسولُ الله ﷺ: " ما بي ما تقولونَ، ما جئْتُ بما جئْتُكُمْ بهِ أطلبُ أموالَكُم ولا الشَّرفَ فيكم ولا المُلْكَ عليكم، ولكنَّ اللهَ بعثَني إليكم رسولاً، وأنزلَ عليَّ كتاباً، وأمرني أنْ أكونَ بشيراً ونذيراً، فبلَّغْتُكُم رسالاتِ ربّي ونصحْتُ لكُم، فإنْ تقبلُوا منّي ما جئْتُكُم بهِ فهو حظُّكُم في الدُّنيا والآخرةِ، وإنْ تردُّوهُ عليَّ

---

[1] – سورةُ الكافرون : ١-٦

أصبرْ لأمرِ اللهِ حتّى يحكمَ اللهُ بيني وبينَكُم.

فقالُوا لهُ: "فإنْ كُنْتَ غيرَ قابلٍ منّا شيْئًا ممّا عرَضْناهُ عليكَ فإنّكَ قد علمْتَ أنّهُ ليسَ مِنَ النّاسِ أحدٌ أضيقَ بلداً ولا أقلَّ ماءً ولا أشدَّ عيشاً منَّا، فسلْ لنا ربَّكَ الّذي بعثَكَ بما بعثَكَ بهِ فليُسَيِّرْ عنَّا هذهِ الجبالَ الّتي قد ضيَّقَتْ علينا، وليُفجِّرْ لنا أنهاراً كأنهارِ الشَّامِ والعراقِ، وليبعثْ لنا مَنْ مَضَى مِنْ آبائِنا، وليَكُنْ فيمَنْ بعثَ لنا منهم قُصيٌّ بنُ كلاب، فإنَّه كانَ شيخَ صدقٍ، فنسألَهم عمَّا تقولُ :أحقٌّ هو أم باطلٌ، وليجعلْ لكَ جناناً وقُصوراً وكُنوزاً مِنْ ذهبٍ وفضَّةٍ يُغنيْكَ بها عمَّا نراكَ تبتَغي. . فإنْ صنعْتَ ما سألناكَ صَدّقْناكَ، وعرَفنا منْزلَتَكَ مِنَ اللهِ وأنَّهُ بعثَكَ رسولاً كما تقولُ؛ فقالَ لهُم :" ما أنا بفاعلٍ وما أنا بالّذي يسألُ ربَّهُ هذا" .

ثمَّ إنَّهم قالُوا لهُ بعدَ طولِ كلامٍ وخصامٍ: إنّا قد بلغَنا أنَّه إنّما يعلِّمُكَ هذا رجلٌ مِنَ اليمامةِ يُقالُ لهُ :الرَّحَمنْ، وإنّا واللهِ لا نؤمنُ بالرَّحمنِ أبداً فقدْ أعْذرْنا إليكَ، يا محمَّدُ وإنَّا واللهِ لا نتركُكَ وما بلغْتَ منَّا حتّى نُهلكَكَ أو تُهلكَنا[1] . ثمَّ قامُوا وانصرَفُوا عنهُ.

[1] – السيرة النبوية لابن هشام ، ص ١٦٥.

أغلقْتُ الكتابَ هُنيهةً[١]، ثمَّ أعدْتُ النَّظرَ فيهِ ولسانُ حالي يقولُ: كأنَّ سياساتِ أعداءِ الحقِّ واحدةٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فهم يستعرِضُونَ قُواهُم، فيُنزِلون العذابَ والغِلظةَ على أتباعِ الحقِّ، فإنْ وَجدُوا منْهم صلابةً وثباتاً لجؤُوا إلى الشَّهواتِ والمغرياتِ، وهناكَ يسقطُ ضِعافُ الإيمانِ وقد يسقطُ في هذا الشَّرَكِ مَنْ لم يسقُطْ في امتحانِ الضَّنكِ والعذابِ، لكنْ ذوي الإيمانِ القويِّ الرَّاسخِ ثابتُونَ كالجبالِ لا يتحرَّكُون قيدَ أَنْمُلَةٍ ولا تتزعزعُ ثقتُهُم بالنَّصرِ القادمِ مهما بلغَتْ قوَّةُ الأعاصيرِ أو المغرياتِ. بأيدي هؤلاءِ فقط يأتي نصرُ اللهِ ولو بعدَ حينٍ. فصفاتُ أعداءِ الحقِّ لا تتغيَّرُ وكذلكَ أنصارُ اللهِ وجُندُهُ واضحةٌ أهدافُهم، راسخةٌ أقدامُهم، نَبيْلُو الغايةِ والوسيلةِ. فكما أمرَنا اللهُ بنُبلِ الغايةِ والمقصدِ فقد أمرَنا أيضاً بصدقِ الوسيلةِ ونقاوتِها مِنْ كُلِّ شُبهةٍ أو غرضٍ مادّيٍّ أو دنيويٍّ، فالغايةُ لا تبرِّرُ الوسيلةَ في شرعِنا القويمِ. ثمَّ أحسسْتُ بغُصَّةٍ.. تُرى ماهو ذنْبي ؟ وهل أنا مِنْ أولئِكَ الأقوياءِ بدينِهم؟ تفكَّرْتُ مليَّاً.. ثمَّ قلْتُ بصوتٍ خافتٍ مبحوحٍ: لا أظنُّ. كانَ الجوابُ مُرّاً !

تُرى لماذا؟

[١] - هنيهة : لحظة أو وقتاً قصيراً.

صحيحٌ أنّي لم أقترِفْ ذنْباً كبيراً، قد أكونُ تساهلْتُ في بعضِ الأمورِ والنَّوافلِ وأرخيْتُ لنفسيَ العَنانَ فلم ألتزمْ بالطّاعاتِ المُقرِّبةِ للهِ، و لم أجعلْ في حياتي للهِ جُزءاً.. كنْتُ في غفلةٍ .. نعم ..هذهِ هي الكلمةُ.. أخلدْتُ إلى الأرضِ لعِبٌ و مُزاحٌ وروْحاتٌ وحفلاتٌ وذهابٌ للسّوقِ أو تسكُّعٌ في الشَّارعِ.. حلالٌ.. نعم.. لكنَّهُ هدْرٌ للوقتِ و بعدٌ عنِ اللهِ. فأمامَ حُبِّ الصَّحابةِ وأعمالِهم أجدُني صغيراً قزَماً.. لم أشعرْ يوماً كم أنا ضئيلٌ بحجمِ إنجازاتي! وحجمِ قلبي!

ثمَّ رفعْتُ بصري نحو النَّافذةِ، ولأوَّلِ مرّةٍ منذُ دخلْتُ الغرفةَ ألحظُ أنَّها تطلُّ مِنْ بُعْدٍ على المسجدِ النّبويِّ الشّريفِ...

إنَّها هناك القُبّةُ الخضراءُ.. على صاحِبِها أفضلُ الصَّلاةِ والتَّسليمِ... لسْتُ أعجبُ إنْ دخلَ كافرٌ خيمتَكَ الشَّريفةَ فخرجَ منْها مُؤمِناً مُحِبّاً، فهاأنَذا يا حبيبَ اللهِ قد جئتُكَ مِنْ أرضِ الشَّامِ، مُقْفلَ القلبِ بعيداً عنْ تلكَ المعاني الرَّاقيةِ، فلم تلبثْ أنوارُكَ المحمَّديَّةُ العلويَّةُ إلا أنْ وصلَتْ إلى هذا القلبِ الأرضيِّ البعيدِ، فأحيَتْ سيرتُكَ قلبي في غضونِ ساعاتٍ دونَ أنْ أحظى برؤيتِكَ الحبيبةِ، فكيفَ لو وقعَتْ عيني على وجهِكَ الحبيبِ ؟.. وداخلَ نورُكَ صدري عنْ قُربٍ ومُشافهةٍ ؟

لقد نظرْتُ إلى قلبيَ الآنَ فهو ليسَ على هيئتِهِ يومَ سافرْتُ بالطَّائرةِ.

ما أظنُّ أنِّي كنْتُ أحمِلُ قلباً بينَ أضلُعي...الآنَ عرفْتُ قلبي مُنْذُ أبْصَرَتْ عُيوني أسطرَ سيرتِكَ النيِّرةِ، وحاولَتْ روحي تتبُّعَ أنوارِكَ المضيئةِ، وحلَّقَتْ معَكَ في أجوائِكَ السَّماويَّةِ، وكأنِّي كنْتُ على موعدٍ معكَ بالأمسِ.

لم آتِكَ محبَّاً، واليومَ أتحرَّقُ شوقاً للقائِكَ. ألسْتَ في قبرِكَ تردُّ السَّلامَ على مَنْ يسلِّمُ عليكَ؟ أنتَ هُنا في انتظارِ المُشتاقِيْنَ والمحبِّيْنَ، يا دُرَّةَ الخلقِ وأفضلَ المُرسَلِيْنَ عليكَ أزكى الصَّلاةِ وأفضلُ التّسليمِ.

- الحصارُ الاقتصادِيّ:

وردَ بأسانيدَ مختلفةٍ عنْ موسى بنِ عقبةَ عنْ ابنِ إسحاقَ وعنْ غيرِهما أنَّ كفارَ قريشٍ أجمعُوا أمرَهم على قتلِ رسولِ اللهِ ﷺ، وكلَّمُوا في ذلكَ بني هاشمٍ وبني المطلب، ولكنهم أبَوا تسليمَهُ ﷺ إليهم.

فلمَّا عجزَتْ قريشٌ عنْ قتلِه ﷺ أجمعُوا على منابذَتِه ومنابذةِ مَنْ معَهُ مِنَ المسلمِينَ ومَنْ يحميَهُ مِنْ بني هاشمٍ وبني المطَّلِبِ، فكتبُوا بذلكَ كتاباً تعاقدُوا فيهِ على ألا يُناكحُوهُم، ولا يُبايعُوهُم، ولا يدعُوا سبباً مِنْ أسبابِ الرّزقِ يصلُ إليهم، ولا يقبلُوا منهم صُلْحاً ولا تأخذهُم بهم رأفةٌ، حتّى يسلّمَ بَنُو المطّلبِ رسولَ اللهِ ﷺ إليهم للقتلِ، وعلَّقُوا الكتابَ في جوفِ الكعبةِ .

والتزمَ كُفَّارُ قريشٍ بهذا الكتابِ ثلاثَ سنواتٍ، بَدْءاً مِنَ المُحرَّمِ سنةَ سبعٍ مِنَ البَعثةِ إلى السَّنةِ العاشرةِ منها، وقيلَ بلِ استمرَّ ذلكَ سنتَينِ فقط.

وحُوصِرَ بنُو هاشمٍ وبنُو المطَّلب ومَنْ معَهم مِنَ المسلمِيْنَ، ومعَهم رسولُ اللهِ ﷺ في شِعْبِ بني المطَّلبِ، وإنَّما مكَّةُ شِعابٌ متفرّقَةٌ، واجتمعَ فيه مِنْ بني هاشمٍ وبني المطَّلبِ المسلمُونَ و الكافرُونَ، أمَّا المسلمونَ فتديُّناً وأمَّا الكافرُونَ فحَمِيَّةً، إلا ما

كان مِنْ أبي لهب، عبدِ العُزَّى بن عبدِ المطَّلب، فإنَّهُ خرجَ إلى قريشٍ، فظاهرَ النَّبيَّ ﷺ وأصحابَهُ. فجُهدَ النَّبيُّ ﷺ والمسلمُونَ جُهْداً شديداً في هذهِ الأعوامِ الثلاثةِ واشتدَّ عليهمُ البلاءُ، وفي الصَّحيحِ أنَّهم جُهِدُوا حتَّى كانوا يأكُلونَ الخَبْطَ وورقَ الشَّجرِ .

وذكرَ السّهيليّ أنَّهم كانُوا إذا قدِمَتْ العِيْرُ مكَّةَ، يأتي أحدُ أصحابِ رسولِ اللهِ إلى السُّوقِ ليشتريَ شيْئًا مِنَ الطَّعامِ يَقْتَاتُهُ لأهلِه، فيقومُ أبو لهبٍ فيقولُ:" يامعشرَ التُّجَّارِ غالُوا على أصحابِ محمَّدٍ حتَّى لا يُدركُوا شيْئًا معكُم"، فيزيدُون عليهم في السّلعةِ قيمتَها أضعافاً، حتّى يرجعَ إلى أطفالِهِ وهم يتضاغونَ مِنَ الجوعِ وليس في يدِهِ شيءٌ يعلِّلُهم بِه.

فلمّا كانَ على رأسِ ثلاثِ سنِينَ مِنْ بَدْءِ الحصارِ تلاوَمَ قومٌ مِنْ بني قُصيّ، فأجمعُوا أمرَهُم على نقضِ ما تعاهدُوا عليهِ، و أرسلَ اللهُ على صحيفتِهمُ الَّتي كُتِبَ فيها نصُّ المُعاهدةِ الأَرَضَةَ [1]، فأتتْ على معظمِ ما فيها مِنْ ميثاقٍ وعهدٍ،

---

[1] – الأرضة أو النمل الأبيض، هو ليس نملاً بالمعنى الحقيقي حيث يتصل الصدر والبطن في النمل الأبيض مباشرة وبدون خصر. ويتغذى أساساً على السيليولوز. ورد ذكر هذا النمل في القرآن الكريم في سورة سبأ حيث يرى بعض العلماء أن النمل الأبيض هو دابة الأرض التي أكلت عصا نبي الله سليمان المشار إليها في قوله تعالى : (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ...).

ولم يسلمْ مِنْ ذلكَ إلا الكلماتُ الّتي فيها ذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وقد أخبرَ رسولُ اللهِ ﷺ بذلكَ عمَّهُ أبا طالبٍ، قالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ لِأَبِي طَالِبٍ :" يَا عَمّ إنّ رَبّي اللّهَ قَدْ سَلّطَ الْأَرَضَةَ عَلَى صَحِيفَةِ قُرَيْشٍ ، فَلَمْ تدَعْ فِيهَا اسْمًا هُوَ لِلّهِ إلّا أَثْبَتَتْهُ فِيهَا ، وَنَفَتْ مِنْهُ الظّلْمَ وَالْقَطِيعَةَ وَالْبُهْتَانَ " .

فَقَالَ : أَرَبّك أَخْبَرَك بِهَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ: فَوَ اللّهِ مَا يَدْخُلُ عَلَيْك أَحَدٌ، ثُمّ خَرَجَ إلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنّ ابْنَ أَخِي أَخْبَرَنِي بِكَذَا وَكَذَا، فَهَلُمّ صَحِيفَتَكُمْ فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ ابْنُ أَخِي فَانْتَهُوا عَنْ قَطِيعَتِنَا، وَانْزِلُوا عَمّا فِيهَا ؟ وَإِنْ يَكُنْ كَاذِبًا دَفَعْت إلَيْكُمْ ابْنَ أَخِي، فَقَالَ الْقَوْمُ رَضِينَا ، فَتَعَاقَدُوا عَلَى ذَلِكَ ثُمّ نَظَرُوا ، فَإِذَا هِيَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فَزَادَهُمْ ذَلِكَ شَرّاً [1] .

ثمَّ إنَّ خمسةً مِنْ رؤساءِ المشركِيْنَ مِنْ قريشٍ، مشَوا في نقضِ الصَّحيفةِ، وإنهاءِ الحصارِ، وهم: هشامُ بنُ عمرٍو بنِ الحارثِ وزهيرٌ بنُ أميّةَ والمُطعمُ بنُ عديٍّ وأبو البختري بنُ هشامٍ وزمعةُ بنُ الأسودِ .

[1] – السيرة النبوية لابن هشام ، ص ٢١٢.

وكانَ أوّلَ مَنْ سعى إلى نقضِها بصريحِ الدَّعوةِ زهيرٌ بنُ أميَّةَ، أقبلَ على النّاسِ عندَ الكعبةِ فقالَ:" يا أهلَ مكَّةَ، أنأكلُ الطّعامَ، ونلبسُ الثّيابَ وبنُو هاشمٍ والمطَّلبِ هلْكَى لا يباعُون ولا يُبْتاعُ منهم؟. واللهِ لا أقعدُ حتّى تُشَقَّ هذهِ الصَّحيفةُ القاطعةُ الظَّالمةُ". ثمَّ قالَ بقيَّةُ الخمسةِ نحواً مِنْ هذا الكلامِ، ثمَّ قامَ المُطعمُ بنُ عديٍّ إلى الصَّحيفةِ فمزَّقَها، ثمَّ انطلقَ هؤلاءِ الخمسةُ ومعهم جماعةٌ إلى بني هاشمٍ وبني المطَّلبِ ومَنْ معهم مِنَ المسلِمينَ، فأمرُوهم بالخروجِ إلى مساكِنِهم[١].

نظرْتُ إلى مائدةٍ كانَتْ موجودةً وسْطَ الغُرفةِ عليْها مِنْ أطايبِ الفاكهةِ والحلوياتِ.. ثمَّ عُدْتُ إلى الكتابِ، وظَلَلْتُ أُنقِّلُ نظري بينَهما ولا أجدُ كلماتٍ تعبِّرُ عمَّا جاشَ في قلبي.

أيُّ صدقٍ وأيُّ ثباتٍ! وأيُّ وضوحٍ للهدفِ تهونُ مِنْ أجلِهِ النُّفوسُ والملذّاتُ!.. وأحدُنا لا يقوى على تركِ عادةٍ اعتادَها أو التَّنازلِ عنْ راحةٍ أو دَعَةٍ... بل لربَّما كانَ ترْكُ القِيَمِ والمبادئِ أسهلَ مِنْ شُربةِ ماءٍ، فيُمكنُ أنْ يلويَ عُنقَ الكلماتِ، فيكذبُ حتّى يظهرَ أمامَ النَّاسِ

[١] - انظر المصدر السابق.

بمظهرٍ يليقُ بهِ، أو ينسى وعدَهُ لغنيمةٍ أكبرَ، أو لا ينصرُ أخاه خوفَ ضياعِ فرصةٍ أو حدوثِ نقمةٍ.

آلافُ الأمثلةِ الّتي نراها كلَّ يومٍ في كلِّ مكانٍ إلا مَنْ رحمَ ربّي، والبَونُ شاسعٌ يا سيِّدي يا رسولَ اللهِ بينَ ثباتِ أصحابِكَ ومرونةِ أحدِنا في موضعٍ يجبُ الثّباتُ فيهِ، وقد يثبُتُ ويعاندُ في موضعٍ تجوزُ السَّماحةُ والمرونةُ والاجتهادُ فيه.

وبدا هُنا سؤالٌ في ذهني: لِمَ كلُّ هذهِ السَّنواتِ؟... ثلاثُ سنواتٍ مِنَ الصَّبرِ والمعاناةِ!.. وربُّهم خازنُ السَّمواتِ والأرضِ، القادرُ على كلِّ شيءٍ، الرَّحمَنُ الرَّحيمُ بعبادِهِ المؤمنِينَ! وهم أفضلُ النَّاسِ إيماناً على وجهِ الأرضِ!!!

أحسستُ بقانونِ التَّربيةِ الإلهيَّةِ تسطِّرُها السِّيرةُ الغرَّاءُ بأحرفٍ مِنْ نورٍ، قد يظنُّ أحدُنا أنَّهُ إذا أحبَّ شخصاً، وكانَ عندَهُ عزيزٌ كابنِهِ أو ماشابَهَ، فإنَّ تسهيلَ ما صعُبَ عليهِ، وتيسيرَ ما قد يجابهُهُ في طريقِهِ هي الرَّحمةُ والحبُّ، ذلكَ لأنَّنا بشرٌ ضِعافٌ، فقد يُفسدُ الأبُ ابنَهُ لكثرةِ عطائِهِ وإمعانِهِ في تدليلِهِ (اطلبْ تُعْطَ)، ويظنُّ الأبُ أنَّهُ مادامَ يستطيعُ ذلكَ فلِمَ لا يفعلُ؟!...

ما أظنُّ أحداً أرحمَ بأحدٍ مِنْ رحمةِ اللهِ وحبِّه لنبيِّهِ الكريمِ ﷺ، إلا أنَّهُ أرَادَ أنْ يشتدَّ عودُ أصحابِهِ، وترسخَ الفكرةِ والعقيدةِ في قلوبِهم،

فإنِ اجتازُوا هذا فهم المرشَّحُونَ لسيادةِ الأرضِ وخلافتِها، وهذا ماكانَ، فعِظَمُ المَغْنَمِ على قدْرِ المَغْرَمِ. ولعلَّ تنوُّعَ سياساتِ أعداءِ الحقِّ على اختلافِ الزَّمانِ تعودُ جميعُها إلى الجوهرِ ذاتِهِ مِنَ استعمالِ الإغراءِ والفتنِ، ثمَّ التضييقِ المادّيِّ والمعنويِّ، وصولاً للإيذاءِ النّفسيِّ والمادّيِّ، وقد تختلفُ في طريقةِ التّطبيقِ أو الشّكلِ، لكنَّ الجوهرَ واحدٌ، وكذلكَ أنصارُ الحقِّ قد تختلفُ هيئاتُهم وطريقةُ لباسِهم ومعاشِهم لكنَّ المعدِنَ ذاتَه، صفاءٌ في السَّريرةِ، ووضوحٌ في الهدفِ، وثباتٌ للمبدأِ، وعفّةٌ في الوسيلةِ.

لقد كانَ باستطاعةِ رسولِ اللهِ ﷺ قَبُولُ المالِ والمُلْكِ ثمَّ تسخيرُهما لنشرِ دعوتِهِ، لكنَّ ذلكَ طريقُ الدَّعوات الأرضيَّةِ، أمَّا الدَّعواتُ السَّماويَّةُ فالوسيلةُ الّتي يجبُ أنْ تحقِّقَ الغايةَ لا بدَّ أنْ توضِّحَ الهدفَ لُمعتنقِيْها، وتُبقيَهُ ناصعاً، لا شكوكَ فيه، نقيَّاً لا مصالحَ دنيويّةٍ ولا شخصيّة. فكما تعبَّدْنا ربَّنا بالغايةِ وجعلِها نبيلةً نيّرةً، فلابدَّ للوسيلةِ أنْ تكونَ كذلك. ولو اتخذَ رسولُ اللهِ ﷺ المُلْكَ وسيلةً لتبليغِ رسالتِهِ وبسطِ سلطانِهُ لقالُوا هي إذاً دعوةٌ للسُّلطةِ والمُلْكِ والجاهِ، ولو هَرِعَ إليها الأغنياءُ لظهرَتْ آلافُ علاماتِ استفهامٍ وراءَ هذهِ الدَّعوةِ. لكنَّ أغلبَ معتنقِيْها كانُوا مِنَ الفقراءِ، فلو اتخذَ رسولُ اللهِ ﷺ المالَ وسيلةً في دعوتِهِ لقالُوا هي إذاً ثورةُ الفقراءِ على الأغنياءِ، وحاشا لدينِ اللهِ

أنْ يشوبَ صفوَ مَشرَبِهِ أدنى كدر، فالحقُّ يجبُ أنْ يكونَ واضحاً، يراهُ الجميعُ بالوضوحِ نفسِهِ مِنْ جميعِ الزَّوايا ومهما اختلفَتِ المسافاتُ، بَعُدَتْ أو قَرُبَتْ، هو ذاتُه في صفائِه وشفافيَتِهِ، منهُ ينسابُ النُّورُ الإلهيُّ لتُشرقَ القلوبُ ويعُمَّ الخيرُ الحقيقيُّ حيثُ لا مكانَ للمصلحةِ الشَّخصيَّةِ... عندئذٍ فقط ترى أمثالَ أولئِكَ الأبطالِ الصامدِينَ رغمَ القهرِ والضُّغوطِ لا تغريْهمُ المناصبُ ولا يضعُفُونَ أمامَ الحصارِ... هم أنفسُهم تَراهُم في العصرِ النَّبويِّ وفي غزَّةَ الصُّمودِ وفي مَواطِنَ كثيرةٍ بعدَ ألفٍ وأربعِ مئةِ سنةٍ.

- أوّلُ هِجْرَةٍ في الإسلامِ :

ثمَّ إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمَّا رأى ما يصيبُ أصحابَهُ مِنَ البلاءِ وأنَّهُ لا يقدِرُ على أنْ يحميَهم ويمنعَهم ممَّا هم فيهِ قالَ لهم: " لو خرجْتُم إلى أرضِ الحبشةِ فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظلَمُ عندَهُ أحدٌ، وهي أرضُ صدقٍ، حتّى يجعلَ اللهُ لكم فرَجاً ممّا أنتُم فيهِ" .

فخرجَ عندَ ذلكَ المسلمون إلى أرضِ الحبشةِ مخافةَ الفتْنةِ وفراراً إلى اللهِ بدينِهم، فكانَتْ أوّلُ هجرةٍ في الإسلامِ. وكانَ في مقدّمةِ المهاجرينَ عثمانُ بنُ عفّانَ وزوجتُهُ، رُقيَّةُ بنتُ رسولِ اللهِ ﷺ وأبو حذيفةَ وزوجتُهُ والزُّبيرُ بنُ العوّامِ ومصعبُ بنُ عميرٍ وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ. . حتّى اجتمعَ في أرضِ الحبشةِ مِنْ أصحابِهِ بضعةٌ وثمانون رجلاً [1] .

فلمّا رأَتْ قريشٌ ذلكَ أرسلَتْ إلى النَّجاشيّ عبدَ اللهِ بنَ أبي ربيعةَ وعمرو بنُ العاصِ - ولم يكنْ قد أسلمَ بعدُ - بهدايا مختلفةٍ كثيرةٍ إليهِ وإلى حاشيتِهِ وبطارقتِهِ، رجاءَ أن يرفضَ قبولَ هؤلاءِ المسلمِينَ في جِوارِه ويسلّمَهم مرّةً أخرى إلى أعدائِهم .

---

[1] - هذا هو الصّحيحُ كما ذكرَه ابنُ هشامٍ في سيرتِهِ: ١/ ٣٣٠

فلمّا كلّما النّجاشـيَّ في ذلكَ_ وكانا قد كلّما مِنْ قبلِهِ بطارقتَـهُ وقدّما إليهم ما جاءا بِهِ مِنَ الهدايا – رفضَ النَّجاشـيُّ أنْ يسلّمَ أحداً مِنَ المسلِمِينَ إليهما حتّى يكلّمَهم في شأنِ دينِهمُ الجديدِ هذا، فجيءَ بهم إليهِ، ورسولا قريشٍ عندَهُ، فقالَ لهم:" ما هذا الدّينُ الّذي قدْ فارقْتُم فيهِ قومَكم ولم تدخلُوا به في ديني ولا في دينِ أحدٍ مِنَ المللِ؟" .

فكانَ الّذي كلَّمَهُ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ، فقالَ: "أيُّها الملِكُ :كُنَّا قوماً أهلَ جاهليَّةٍ، نعبدُ الأصنامَ، ونأكلُ الميْتةَ، ونأتي الفواحشَ، ونقطعُ الأرحامَ، ونسيءُ الجِوارَ ويأكلُ القويُّ منَّا الضَّعيفَ، فكُنَّا على ذلكَ حتّى بعثَ اللهُ إلينا رسولاً منَّا نعرفُ نسبَهُ وصدقَهُ وأمانتَهُ و عفافَهُ، فدعانا إلى اللهِ لنوحّدَه ونعبدَه، ونخلعَ ما كنَّا نعبدُ نحنُ وآباؤُنا مِنْ دونِهِ مِنَ الحجارةِ والأوثانِ، وأمرَنا بصدقِ الحديثِ وأداءِ الأمانةِ وصلةِ الرَّحمِ، ونهانا عنِ الفواحشِ. فصدَّقْناهُ وآمنَّا بِهِ، واتَّبعْناه على ما جاءَ بِهِ مِنَ اللهِ، فعدا علينا قومُنا فعذَّبونا وفتَنونا عَنْ دينِنا ليردُّونا إلى عبادةِ الأوثانِ. فلمَّا قهرُونا وظلمُونا وضيَّقُوا علينا خرجْنا إلى بلادِكَ، واخترناكَ على مَنْ سواكَ، ورغبْنا في جوارِكَ، ورجَونا ألاّ نُظلَمَ عندَكَ" .

فسألَهُ النَّجاشيُّ أنْ يتلوَ عليهِ شيْئاً مِمَّا جاءَهُم بِهِ الرَّسولُ ﷺ مِنْ عندِ اللهِ، فقرأَ عليهِ جعفرُ صدراً مِنْ سورةِ مريمَ فبكى النّجاشيُّ حتّى اخضلَّتْ لحيتُهُ، ثمَّ قالَ لهم: "إنَّ هذا والّذي جاءَ بِهِ عيسى لَيخرجُ مِنْ مشكاةٍ واحدةٍ".

ثمَّ التفتَ إلى رسولَيْ قريشٍ قائلاً: "انطلِقا، فلا واللهِ لا أسلمُهم إليكُما، ولا يُكادُون".

ثمَّ إنَّهما عادا فقالا للنَّجاشيِّ: "أيُّها الملِكُ إنَّهم يقولون في عيسى بنِ مريمَ قولاً عظيماً، فأرسلْ إليهم فسلْهم عمَّا يقولُون". فأرسلَ إليهم في ذلكَ، فقالَ جعفرُ بنُ أبي طالب: "نقولُ فيهِ الّذي جاءَنا بهِ نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ، يقولُ: هو عبدُ اللهِ وروحُه وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ العذراءَ البَتول".

فضربَ النَّجاشيُّ بيدِهِ إلى الأرضِ فأخذَ منها عُوداً، ثمَّ قالَ: "واللهِ ما عدَا عيسى بنُ مريمَ مِمَّا قلتَ هذا العودَ".

ثمَّ ردَّ إليهِما هداياهُما، وزادَ استمساكَه بالمسلِمينَ الّذينَ استجارُوا بهِ، وعادَ الرُّسُلُ إلى قريشٍ خائبِينَ.

وبعدَ فترةٍ مِنَ الزَّمنِ بلغَهم إسلامُ أهلِ مكَّةَ فرجَعُوا لَمَّا بلغَهُم ذلكَ حتّى إذا دنَوا

مِنْ مكَّةَ، بلغَهم أنَّ ما قد سمعُوه مِنْ إسلامِ أهلِ مكَّةَ باطلٌ، فلم يدخُلْ أحدٌ منهم إلا بجوارٍ، أو مستخفِياً وكانَ جميعُهم ثلاثةً وثلاثِينَ رَجُلاً. وكانَ مِنْ بينِ مَنْ دخلَ بجوارٍ، عثمانُ بنُ مظعونٍ دخلَ بجوارِ الوليدِ بنِ المغيرةِ، وأبو سَلمةَ دخلَ بجوارِ أبي طالبٍ .

ازدَدْتُ إعجاباً برسولِ الإسلامِ ﷺ..رحيمٌ بأتباعِهِ.. لكلِّ مُشكلةٍ حلٌّ، خبيرٌ بالدُّولِ والُمجتمعاتِ حولَهُ.

واستوقفنِي السَّبَبان اللّذانِ مِنْ أجلِهما اختارَ ﷺ الحبشةَ أرضاً لاستردادِ أنفاسِ المتعبِينَ، ومحطًّاً للرَّاحةِ استعداداً لاستكمالِ المشوارِ، السّببُ الأوَّلُ الملِكُ عادلٌ، وهذا ما يحتاجُهُ الغريبُ عنْ وطنِهِ، أن يحظى بحقوقه وأمنه في ظل ملك عادل. أمَّا السَّببُ الثَّاني فالحبشةُ أرضُ صدق. ويُقالُ فلانٌ صادقٌ أي أقوالُه توافقُ الحقيقةَ والواقعَ، أو ظاهرُهُ كباطنِهِ. فقد يقصِدُ بأنَّ أهلَ الحبشةِ قومٌ ظواهرُهم تُصَدِّقُ بواطنَهم، وهؤلاءِ لايغدِرُونَ ولا يُظهِرُونَ عكسَ ما ينوُونَ، فالصِّدقُ نقيضُ الكذبِ، وهو الفَضْلُ والصَّلاحُ والجِدّ والصَّلابةُ كما جاءَ في اللّغةِ. وهذا الشَّرطُ أيضاً يحتاجُهُ الغريبُ عنْ بلدِهِ الفارُّ مِنْ قومِهِ

الّذي يخشى أنْ يدبِّرَ أحدٌ له مَكيدةً .

ثمَّ نحنُ مع طريقـةٍ أُخـرى مِـنْ طُـرُقِ أعـداءِ الحـقِّ... طريقـةِ التَّزلُّـفِ والتَّقرُّبِ لجمعِ الأصواتِ والتَّأييداتِ ضدَّ مَنْ يُعادونَهُم .

موقفٌ آخرُ استوقفَني وعجبْتُ لهُ كثيراً هو موقفُ سيِّدِنا جعفرٍ رضيَ اللهُ عنهُ، فو اللهِ لو أنَّـهُ تخـرَّجَ مِـنْ أفضـلِ جامعـةٍ في العلـومِ السِّياسـيَّةِ وخضعَ لدوراتِ مهاراتِ التَّفكيرِ والمفاوضاتِ، لَمـا اسـتطاعَ أحـدٌ أنْ يفريَ فرْيَهُ.

فكْرٌ منظَّمٌ... بدايةٌ موفَّقةٌ... سـاقَ فيهـا سـلبياتِ قومِـهِ الّـذِينَ فـرُّوا منْهم، ثمَّ سلَّطَ الضَّوءَ على إيجابياتِ الإسلامِ معَ تركيـزٍ علـى صـدقِ ونسبِ النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ مـدحٌ لعدالـةِ الملـكِ واسـتنهاضٌ لكـريمِ أخلاقِـهِ رجاءَ ألا يُظلمُوا عندَهُ، في كلماتٍ مـوجزةٍ واضـحةٍ بيّنـةٍ دونَ إطالـةٍ فيُمِلُّ أو يُسئِمُ، أو نقصٍ فيَبتُرُ الموضوعَ، أو يَعيْبُهُ.

إنَّه تخرَّجَ مِنْ مدرسةِ المُصطفى ﷺ وانصـبغَ بصِـبغة اللهِ، فاسـتمدَّ منـهُ صفاءَ البصيرةِ ووضوحَ الفكرةِ وقـوَّةَ العـرضِ وصـدقَ المقولـةِ، فجـاءَ كلامُهُ ناصعاً لا لَبسَ فيه، محقِّقاً للهـدفِ المطلـوبِ في يُسرٍ وسـهولةٍ.

وفي هذهِ الحادثةِ تأييدٌ سماويٌّ جاءَ مِنْ دينٍ آخـرَ مؤكِّـداً نبـوَّةَ سـيِّدِنا محمَّـدٍ ﷺ، والعلاقـةَ الـوُثقى بـينَ الأديـانِ دونَ تعصُّـبِ المتعصِّـبِينَ أو أهواءِ المُرجِفِيْن، وفيه دَلالةٌ على جوازِ أخذِ الحمايةِ مِنْ غـيرِ المسـلمِينَ

إذا دعَتِ الحاجةُ لذلكَ شرطَ ألا يتنازلُوا عنْ حُكمٍ مِـنْ أحكـامِهم أو مبدأٍ مِنْ أركانِ دينِهم.

أوّلُ وفدٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ:

في غمرةِ ما كانَ يلاقيهِ النّبيُّ ﷺ وأصحابِهِ مِنَ العذابِ والإيذاءِ وفدَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ أولُ وفدٍ مِنْ خارجِ مكَّةَ لفهمِ شيءٍ عنِ الإسلامِ. وكانُوا بضعةً وثلاثِينَ رجلاً مِنْ نصارى الحبشةِ جاؤُوا معَ جعفرَ بنِ أبي طالبٍ لدى عودَتهِ إلى مكّةَ. فلمَّا جلسُوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ واطّلعُوا على صفاتِهِ وأحوالِهِ وسمعُوا ما تُلِيَ عليهم مِنَ القرآنِ، آمنُوا كلُّهم، فلمَّا عِلِمَ بذلكَ أبو جهلٍ أقبلَ إليهم قائلاً: "ما رأينا ركْباً أحمقَ منْكُم!.. أرسلَكُم قومُكُم تعلمُونَ خبرَ هذا الرجلِ فلمْ تطمئنَّ مجالسُكُم عندَه حتّى فارقْتُم دينَكم وصدَّقْتُموه فيما قالَ. فقالُوا: سلامٌ عليكُم لا نجاهلكُم، لنا ما نَحنُ عليهِ ولكُم ما أنتُم عليهِ لم نَأْلُ أنفسَنا خيراً".

فنزَلَ في حقّهم قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾[1].

---

[1] – سُورةُ القَصص: ٥٢– ٥٥

انفرجَتْ أساريري وتهلَّلَ وجهي... نظرْتُ إلى السَّماءِ وقلْتُ: عندَما تضيقُ بكَ السُّبلُ وتغلَقُ في وجهِكَ الأبوابُ يأتي وعْدُ اللهِ الفتّاحِ الكريمِ فيفتحُ ما أُغلِقَ ويبسُطُ ما قُبِضَ.. وكلُّ شيءٍ عندَهُ بمقدارٍ.. عالَمِ الغيبِ والشَّهادةِ.

جاءَ هذا الوفدُ تكريماً لصبرِ النَّبيِّ ﷺ، وبُشرى لعبادِهِ المؤمنِينَ، وتثبيتاً لأقدامِهم، تزيدُهم صُموداً وتغرِسُ عقيدتَهم في أعماقِ القلبِ وتمتِّنُ صِلتَهم بأهلِ الكتابِ فيجدُون أنفسَهم رُكّاباً في قافلةِ الإيمانِ الّتي بدايُتها مِنْ لَدُنِ سيدِنا آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ، فما عليهم سوى أنْ يكونُوا في عِدادِها، لتسيرَ بهم كما سارَتْ بمَنْ قبلَهم مِنَ الأنبياءِ.. فحسبُهم شرفاً أنّها قافلةُ الأنبياءِ والصِّدّيقِينَ، وأَنْعِمْ بها مِنْ قافلةٍ، وهي سائرةٌ إلى يومِ الدِّينِ تمرُّ عبرَ الأزمانِ وتدعُو جميعَ النَّاسِ للالتحاق بها، فالسَّعيدُ مَنْ وجدَ لنفسِهِ مكاناً فيها، وانضمَّ إلى رُكّابِها، أمَّا المُتلفِّتُ والمتردِّدُ أو المُنشغِلُ بالمُلهياتِ حولَ طريقِها فستتْرُكُهُ وحيْداً غارقاً في ملذَّاتِهِ إلى أنْ تتداركَهُ رحمةُ ربِّه فيركضُ ويلهثُ كي ينضمَّ إلى موكبِها المنيرِ أو تتركُهُ وراءَها.

---

[1] – رواهُ ابنُ إسحاقَ ومقاتل، والطّبراني عن سعيدٍ بنِ جبير.

عامُ الحزنِ :

وهو العامُ العاشرُ مِنْ بَعثَتِهِ ﷺ، فقد تُوفِّيَتْ زوجَتُهُ خديجةُ بنتُ خويلدٍ رضيَ اللهُ عنها، وتُوفِّيَ فيهِ عمُّهُ أبو طالبٍ، يقولُ ابنُ سعدٍ في طبقاتهِ:"كانَ بينَ وفاةِ خديجةَ وأبي طالبٍ شهرٌ وخمسةُ أيّامٍ " وقدْ كانَتْ خديجةُ رضيَ اللهُ عنْها – كَما قالَ ابنُ هشامٍ– وزيرَ صدقٍ على الإسلامِ، يشكُو الرَّسولُ ﷺ إليها ويجدُ عندَها أُنسَهُ وسلواهُ. أمّا أبو طالبٍ فقدْ كانَ عَضُداً وحِرْزاً في أمرِه، وكانَ ناصِراً لهُ على قومِهِ.

يقولُ ابنُ هشامٍ: "فلمَّا هلكَ أبو طالبٍ نالَتْ قريشٌ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ مِنَ الأذى ما لَمْ تكُنْ تطمعُ بِهِ في حياةِ أبي طالبٍ، حتّى اعترضَهُ سفِيْهٌ مِنْ سُفهاءِ قريشٍ فنثرَ على رأسِهِ تُراباً . ودخلَ رسولِ اللهِ ﷺ بيتَهُ والترابُ على رأسِهِ، فقامَتْ إحدى بناتِه فجعلَتْ تغسِلُ عنْه التُّرابَ وهي تبكي، ورسولُ اللهِ ﷺ يقولُ لها : "لا تبكي يأُبنيَّة فإنَّ اللهَ مانعُ أباكِ" [1]، ولقد أطلقَ رسولُ اللهِ ﷺ على هذا العامِ اسمَ (عامِ الحزنِ) لشدَّةِ ما كابدَ فيهِ مِنَ الشَّدائدِ في سبيلِ الدَّعوةِ.

[1] – رواهُ ابنُ إسحاقَ، انظرْ تاريخَ الطّبري : ٢ / ٥٤٤

تنهّدتُ طويلاً دونَ أنْ أجدَ تعليقاً لِما ألَمَّ برسولِ اللهِ ﷺ مِنَ الحُزنِ، فالدَّعوةُ لم تُفتحْ لها الأبوابُ بعدُ، والمسلمُونَ في ضيقٍ، ومَنْ كانَ ﷺ يُبثُّ أشجانَهُ لهُم اختارَهُم اللهُ إلى جوارِه.

إنّهُ مزيدٌ مِنَ الألمِ على حبيبِ الرَّحمَنِ، فلم يكُنِ الحُزنُ لفقدِ السَّنَدِ والسُّلوانِ، بل لانقطاعِ سُبُلِ تبليغِ الدَّعوةِ وتضييقِ بابِ الدَّعوة إلى اللهِ.

سُبحانَكَ يا ربّ .. أنتَ الحكيمُ الّذي لا يمكنُ لعقلٍ بشريٍّ أنْ يحيطَ بحكمتِكَ، فأنَّى لمحدودٍ أنْ يحيطَ باللّامحدودِ، سُبحانَ مَنْ علَّمِ الصَّبرَ لحبيبِهِ ﷺ فلمْ يجزعْ ليعلِّمَ اللّاحقِينَ مِنْ بعدِهِ الحِلْمَ والصَّبرَ و الأناةَ. صدقَ اللهُ العظيمُ إذْ قالَ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[1] .

إنَّهُ سُلوانٌ لكلِّ داعٍ إلى اللهِ لمْ يجدْ على الحقِّ أعواناً ألا ييْئَسَ وإنْ تركَهُ مَنْ يعتمدُ عليهم – مِنْ دونِ اختيارِهم – أو فقدِ مَنْ يجدُ فيهمُ الأنسَ والأمانَ، لتكونَ وجهتُهُ واحدةً وقلبُهُ متَّصلٌ معَ الحيِّ الّذي لا يموتُ، مستأنسٌ بالّذي لا يغيبُ، لا يقطعُ رجاءَهُ مِنْ نصرِ اللهِ القادمِ

[1] – سورةُ السّجدة : ٢٤

مهما طالَتْ الأيّامُ .

– هجرة الرسول إلى الطائف :

ولّما نالَتْ قريشٌ مِنَ النّبيّ ﷺ ما وصَفناهُ مِنَ الأذى خرجَ إلى الطّائفِ يلتمسُ النّصرةَ مِنْ ثقيفٍ ويرجُو أنْ يقبلُوا منْهُ ما جاءَهُم بِهِ مِنْ عندِ اللهِ عزَّ وجلّ.

ولّما انتهى رسولُ اللهِ ﷺ إلى الطائفِ عمَد إلى نفرٍ مِنْ ثقيفٍ – هم يومئذٍ ساداتُه– فجلسَ إليهم ودعاهُم إلى اللهِ وكلّمَهم بمَا جاءَهم مِنْ أجلِه، فردُّوا عليهِ ردّاً منكَراً، و فاجؤُوه بما لم يكُنْ يتوقّعُ مِنَ الغِلظةِ وسمِجِ القولِ. فقامَ رسولُ اللهِﷺ مِنْ عندِهم و هو يرجُوهم أنْ يكتُموا خبرَ مقدِمِهِ إليهم عنْ قريشٍ، فلم يُجيبُوهُ إلى ذلكَ أيضاً . ثمَّ أغرَوا بِهِ سفاءَهم وعبيدَهم يسبُّونَهُ ويصيحُونَ بِهِ وجعَلُوا يرمُونَه بالحجارةِ حتّى أنَّ رِجْلَيْ رسولِ اللهِ ﷺ لَتدميان، وزيدٌ بنُ حارثةَ يقيْهِ بنفسِهِ حتّى لقدْ شُجَّ في رأسِهِ عدّةَ شجاجٍ[1]، حتّى وصلَ رسولُ اللهِ إلى بستانٍ لعتبةَ بنِ ربيعةَ، فرجَعَ عنهُ مِنْ سفهاءِ ثقيفٍ مَنْ كانَ يتبعُهُ، فعمَدَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقد أنهكَهُ التّعبُ والجراحُ، إلى ظلِّ شجرةِ عنبٍ فجلَسَ فيه وابنا ربيعةَ ينظُرانِ

[1] – طبقاتُ ابنِ سعد : ١/ ١٩٦

إليه. فلمّا اطمأنَّ النَّبيُّ ﷺ في ذلك الظِّلّ، رفعَ رأسَهُ يدعُو بهذا الدُّعاءِ:

" اللّهمَّ إليكَ أشكو ضعفَ قوّتي،وقِلَّةَ حيلتِي،وهَواني على النَّاسِ، يا أرحمَ الرَّاحِمينَ أنتَ ربُّ المُستضعفِينَ وأنتَ ربِّي، إلى مَنْ تكلُني؟ إلى بعيدٍ يَتجَهَّمُني،أم إلى عدوٍّ ملَّكتَهُ أمرِي؟ إنْ لم يكُنْ بكَ غضبٌ عليَّ فلا أُبالي،ولكنَّ عافيتَكَ أوسعُ لِي أعوذُ بنورِ وجهِكَ الّذي أشرقَتْ لهُ الظُّلماتُ، وصَلُحَ عليهِ أمرُ الدُّنيا والآخرةِ، مِنْ أنْ تنزِلَ بي غضبَكَ أو يَحُلَّ عليَّ سخطُكَ، لكَ العُتبى حتّى ترضَى، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بكَ"،

ثمَّ إنَّ ابنَيْ ربيعةَ – صاحبَي البُستانِ– تحرَّكتِ الشَّفقةُ في قلبيْهما، فدعَوا غُلاماً نصرانيّاً لهُما يقالُ لهُ (عدّاس) فأرسلا إليهِ قطْفاً مِنَ العِنبْ في طبقٍ، فلمّا وَضَعَ عدّاسُ العنبَ بينَ يديْ رسولِ اللهِ ﷺ وقالَ لهُ: "كُلْ"، مَدَّ الرَّسولُ ﷺ يدَهُ قائلاً:" بسمِ اللهِ" ثمَّ أكلَ فقالَ عداسٌ متعجّباً:" واللهِ إنَّ هذا الكلامَ ما يقولُه أهلُ هذهِ البلادِ"فقالَ لهُ الرَّسولُ:"و مِنْ أيِّ البلادِ أنتَ؟ وما دينُكَ؟" قالَ:" نصرانيٌّ، أنا رجلٌ مِنْ أهلِ نِينَوى (قريةٌ بالموصلِ)، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ:" مِنْ قريةِ الرَّجُلِ الصالحِ يونسَ بنِ متّى؟" فقالَ عداسٌ:" وما يُدريْكَ ما يونسُ بنُ متّى؟" فقالَ

رسولُ اللهِ ﷺ: ذلكَ أخي،كانَ نبيًّاً وأنا نبيٌّ... فأكبَّ عداسٌ على رسولِ اللهِ ﷺ يقبّلُ رأسَهُ ويديْهِ وقدميْهِ [1].

قالَ ابنُ إسحاقَ:" ثمَّ إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ انصرفَ مِنَ الطَّائفِ راجعاً" إلى مكَّةَ، حتّى إذا كانَ بنخلةٍ قامَ مِنْ جوفِ اللّيلِ يصلّي، فمرَّ بهِ النّفرُ مِنَ الجنِّ الّذين ذكرَهُم اللهُ تباركَ وتعالى، فاستمعُوا لهُ، فلمّا فرَغَ مِنْ صلاتهِ ولّوا إلى قومِهم منذرِينَ قد آمنُوا وأجابُوا إلى ما سمِعُوا.

وقد قصَّ اللهُ خبرَهُم عليهِ ﷺ في قولهِ:﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2]، وقولهِ:﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ ﴾[3] ثمَّ عادَ رسولُ اللهِ ﷺ ومعهُ زيدٌ بنُ حارثةَ يُريدُ دخولَ مكّةَ فقالَ لهُ زيدٌ :"كيفَ تدخلُ عليهم يا رسولَ اللهِ

---

[1] – انظرْ تفصيلَ ذلكَ في سيرةِ ابنِ هشامٍ : ١/ ٤٢٠

[2] – سورةُ الأحقافِ :٢٩ – ٣١

[3] – سورةُ الجنِّ : ١

وهُم أخرجُوكَ ؟ فقالَ: يا زيدُ، إنَّ اللهَ جاعلٌ لِما ترى فرَجاً ومخرَجاً وإنَّ اللهَ ناصرٌ دينَهُ ومُظهِرٌ نبيَّهُ ثمَّ أرسلَ رجُلاً مِنْ خُزاعةَ إلى مطعمِ بنِ عديّ يخبرُهُ أنّهُ داخلٌ مكَّةَ في جوارِه، فاستجابَ مطعمٌ لذلكَ وعادَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى مكَّةَ[1] .

قالَ ابنُ القيّمِ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بعدَ أنْ لم يجدْ ناصرًا في الطَّائفِ، انصرفَ إلى مكَّة ومعَهُ مولاهُ زيدُ بنُ حارثةَ محزُونًا، وهو يدعُو بدعاءِ الطَّائفِ المشهُور، فأرسلَ ربُّه تباركَ وتعالى ملكَ الجبالِ يستأمِرُهُ أنْ يُطبقَ الأخشبَينِ على أهلِ مكَّةَ - وهما جَبلاها اللّذان كانتْ بينَهما - فقالَ: «لا، بلْ أسْتأني بهم، لعلَّ اللهَ يُخرِجُ مِنْ أصلابِهم مَنْ يعبُدُه ولا يشركُ بِه شيْئًا» . . وأقامَ بنخلةٍ أيّامًا، فقالَ لهُ زيدُ بنُ حارثةَ: (كيفَ تدخلُ عليهم وقد أخرجُوكَ - يعني قُريشًا - وخرجْتَ تستنصرُ فلم تُنصرْ - يعني الطَّائف-) فقالَ: «يا زيدُ، إنَّ اللهَ جاعلٌ لِما ترى فرَجًا ومخرَجًا، وإنَّ اللهَ ناصرُ دينَهُ ومُظهِرٌ نبيَّهُ»[2] .

تأمَّلْتُ في سببِ ذهابِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى الطَّائفِ بعدَ أنْ أُغلِقَتْ

---

[1] - طبقاتُ ابنِ سعدٍ : ١/ ١٩٦ و سيرةُ ابنِ هشامٍ : ١/ ٣٨١

[2] - زادُ المعاد (٢/٤٦)

أبوابُ الدَّعوةِ في مكّةَ، فلا استقرارَ أو دعوةً يُمكنُ أنْ تنتشرَ منها إلى بقيّةِ البلادِ، فبحثَ عليهِ السلامُ عنْ بديلٍ آخرَ في الطّائفِ، كي نتعلّمَ منهُ ألا نيْئَسَ مهما عَظُمَ الخطْبُ أو انسدَّتِ الطُّرُقُ، بلْ نبحثُ ونبحثُ حتّى يأذنَ اللهُ بالانفراجِ. فما علينا إلا إعمالُ العقلِ والحركةِ ثمَّ يُصوِّبُ و يُسدِّدُ جلَّ جلالُهُ هذهِ الحركةَ حتَّى تُؤتِيَ أُكُلَها.

لقد كانَ يسيراً على اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يُريَ نبيَّهُ موطنَ هِجرَتِهِ دونَ الحاجةِ لِما حصلَ لهُ مِنْ أسىً في هذهِ الهجرةِ، ولكنَّ الحكمةَ الإلهيَّةَ تكمُنُ في أنْ تَظهرَ قوانينُ وسنَّةُ اللهِ الغالبةُ في الأرضِ واضحةً جليّةً، ليراها الجميعُ، بلْ وليستشعروها في تخطيطِ وحركةِ رسولِ اللهِ و ما لاقاهُ مِنْ عناءٍ و ماكانَ مِنْ دُعائِهِ ﷺ ، فنتعلّمَ منهُ معنى العبوديَّةِ الحقِّ، فلم يُجزِعهُ ﷺ الصَّدُّ أو الأذى، فكلُّ هذا ليس بحُسبانِ نبيِّ الرّحمةِ، إنّما أشدُّ ما يؤلمُ المُحبَّ أنْ يكونَ ما حدثَ بسببِ غضبِ المحبوبِ (اللهِ)، أو يكونَ قد قصَّرَ في مسؤوليَّتِهِ كموظفٍ عندَ خالقِ السّمواتِ والأرضِ.

ما أعظمَكَ يا رسولَ اللهِ !

ما داخلَ نفسَكَ لحظةً واحدةً مِنَ الشّكِّ في أنَّ اللهَ ناصرُكَ، فهذا لا مجالَ للشّكِّ فيهِ بعدَ أنْ وعدَهُ ربُّ السّمواتِ والأرضِ، لكنّكَ أردتَ أنْ نتعلَّمَ منكَ كلماتِ : مراجعةِ الذّاتِ لتلافِي الأخطاءِ دونَ جلدِها

وبلوغِ حدِّ اليأسِ، للتّذلّلِ بينَ يدَي اللهِ و طلبِ رضاه، لاستكمالِ رحلة الحياة، والالتفاف على الهدف من طريق آخر.

إنّهُ ﷺ يسلِّطُ الضّوءَ وينبِّهُ السّالكِينَ بعدَه، على أنَّ مَقامَ العبوديَّةِ بينَ يدَي اللهِ هو بوّابةُ النَّصرِ ومِفتاحُ الفرَجِ. ففي دعائِهِ كانَ عليه الصلاةُ والسّلامُ في مُنتَهى العبوديَّةِ والتذلُّلِ بينَ يدَي اللهِ وهو خاتَمُ النّبيِّين وحبيبُ الرّحمَنِ، وعندما جزِعَ زيدٌ كانَ ﷺ كالجبالِ في ثقتِهِ باللهِ ونُصرَتِهِ له، فجاءَ تقديرُ الحكيمِ العليمِ أنْ يأتيَهُ جوابُ ما سألَ في دعائِهِ في حادثةِ عدّاسٍ والعنب، ومُطمئِناً إيّاهُ أنَّهُ ما زالَ النّبيَّ المُقرّبَ.

ثمَّ تساءلْتُ: لماذا عداسٌ بالذّات؟ ولماذا انتماؤُه لبلدةِ سيّدِنا يونسَ بنِ متّى؟ أليسَ هو صاحبُ الحوتِ الّذي ذهبَ مُغاضِباً قومَهُ لإيذائِهم وتكذيبِهم إيّاهُ، فأرادَ أنْ يدعَ وظيفتَهُ في الدَّعوةِ إلى اللهِ، فالتقمَهُ الحوتُ ﴿وَهُوَمُلِيمٌ﴾[1] فلولا أنَّهُ كانَ مِنَ المسبِّحِينَ للبِثَ في بطنِهِ إلى يومِ يُبعثُون؟

ماهي الرِّسالةُ الّتي بثَّها الحكيمُ القديرُ الّذي كلُّ شيءٍ عندَهُ بمقدارٍ لرسولِهِ الكريمِ ؟ لماذا يذكِّرُه بسيّدِنا يونسَ بن متى؟

أهُناكَ تشابهٌ في الأحداثِ؟ في تكذيبِ قومِهِ وإساءَتِهم لهُ!

---

[1] – سورةُ الصّافات : ١٤٢

جلَّ جلالُكَ ما أعظمَكَ!

و كأنّهُ جلَّ جلالُه أرادَ أنْ يعلّمَنا أنَّ وظيفةَ تبليغِ الرِّسالةِ هي مَهمَّةُ الأنبياءِ ومَنْ تابعَهم مِنْ بعدِهم، فلا ينْبغي لِمَنْ استعملَهُ اللهُ في هذهِ المَهمَّةِ العظيمةِ أن يستقيلَ لمجرّدِ تعنُّتِ الكاذبِينَ مهما طالتْ المدّةُ أو غُلِّقَتْ أبوابُ الهدايةِ.. كلُّ ماعلينا هو أنْ نفعلَ كما علَّمَنا الحبيبُ المُصطفى مِنْ مراجعةِ حساباتِنا دونَ تراجعٍ أو انهزامٍ، و استحضارِ الخِططِ البديلةِ في عقولِنا، ونتّجهَ بقلوبِنا إلى صاحبِ الكلمةِ الأخيرةِ، القادرِ المقتدرِ بالتّذلّلِ والعبوديّةِ، طالبِينَ العونَ والصّفحَ والسَّدادَ.

وتأتي حادثةُ إيمانِ نفرٍ مِنَ الجِنِّ بهِ، لتكونَ بمثابةِ يدِ اللهِ الحانيةِ تربّتْ على كتفِ الحبيبِ المُصطفى ﷺ الّذي لاقى مِنْ عَنَتِ أهلِ ثقيفٍ ما لاقى لتزيدَهُ إصراراً وثباتاً.

وقبلَ هذا وذاكَ فالقصّتَينِ كليهما (قصّةُ عدّاسٍ والجنّ) أفرحَتا قلبَ النّبيّ ﷺ لأنّهما عطاءٌ مِنَ الحبيبِ جلّ وعَلا، وطمأنَتا قلبَ المُصطفى ﷺ بالمنزلةِ والحظوةِ الرَّفيعةِ عندَهُ جلَّ جلالُهُ.

ثمَّ استوقفتْني قصّةُ دخولِه إلى مكّةَ تحتَ حمايةِ المُطعمِ بنِ عديٍّ وهو لازال مشركاً! إنَّها لابدَّ ذاتُ دلالةٍ، و لعلّي ألمحُ تعليقاً وُضِعَ في حاشيةِ الكتابِ:

إنَّ النّبيَّ ﷺ رفضَ منهجَ الاستئصالِ، وامتنعَ عنْ فكرةِ الاعتزالِ، أو الهجرةِ

المستمرَّةِ، ونظرَ إلى المستقبلِ بنورِ الإيمانِ، وقرَّرَ الدُّخولَ إلى مكَّةَ الكـافرةَ ليواصلَ جهادَهُ الميمونَ، ويستثمرَ كلَّ ما يستطيعُهُ مِنْ أجلِ دعوةِ التّوحيدِ، لم يَحتَرِ النّبيُّ ﷺ بينَ المَنهجَينِ السّابقَينِ، بل تقدَمَ نحوَ المَنهجِ البديلِ، الّذي عزَم عليهِ وهو مَنهجٌ يقومُ على فكرةِ دخولِ مكّةَ الكافرةِ لا الانسحابَ منها، ويقومُ على ضرورةِ الوجودِ على ذاتِ الأرضِ الّتي يقفُ عليها الكافرُونَ واعتصارِ مؤسساتِها واستثمارِ علاقاتِها، وتحويرِ غاياتِها ليتغذّى بكلِّ ذلكَ مجتمعُ المؤمنِينَ الّذي سيولدُ مِنْ أحشائِها، أي إنّهُ كانَ ﷺ يريدُ أنْ يتَّخذَ مِنْ أصلابِ الكافرِينَ مصانعَ بشريّةً تُخرجُ أجيالاً مِنَ المسلمِينَ المُقاتِلِينَ في سبيلِ اللهِ، فالنَّظرُ النّبويُّ هُنا مصوَّبٌ نحوَ المستقبلِ بصورةٍ جليّةٍ، ولم يكُنْ ذلكَ يعني الانسحابَ مِنَ الحاضرِ. كانَ النّبيُّ ﷺ قد عزَمَ على دخولِ مكّةَ مرّةً ثانيةً، غيرَ أنَّ ظاهرَ الأحوالِ يدلُّ على أنَّ دخولَ مكَّةَ لم يكُنْ أمرًا هيّناً ولا آمناً، وهنالِكَ احتمالٌ كبيرٌ للغدرِ بهِ ولاغتيالِه مِنْ قِبَلِ قريشٍ، الّتي لا يمكنُ أنْ تصبرَ أكثرَ، وهو قد أعلنَ الخروجَ عليها وذهبَ يستنصرُ بالقبائلِ الأُخرى، ويوقِعُ بينَها وبينَ حُلفائِها، ثمَّ إنَّهُ حتّى لو لم تكُنْ هناكَ خطورةٌ على شخصِهِ، فإنَّ دخولَهُ إلى مكَّةَ بصورةٍ (عاديَّةٍ) وقد طردَتْهُ الطّائِفُ، سيجعلُ أهلَ مكّةَ يصوّرُونَ الأمرَ كهزيمةٍ كبيرةٍ أصابَتِ المسلمِينَ ويجترِئُونَ عليهم ويزدادُونَ سفَهاً، ولذلكَ فقد اتّجهَ نظرُ الرَّسولِ ﷺ في هذه المرّةِ إلى تفجيرِ مكَّةَ منَ الدّاخلِ بدلاً من تطويقِها مِنَ الخارجِ، أي أرادَ أنْ يتغلغلَ في داخلِ بطونِ قريشٍ

ذاتِها، ويُوجِدَ لهُ حُلفاءَ مِنْ بينِهم وَيُكَوِّنَ له وجوداً في قلبِها[1].

وهكذا كانَ ﷺ يوظِّفُ الأعرافَ والتّقاليدَ الّتي في مجتمَعِهِ لمصلحةِ الإسلامِ، فكانَ ينظرُ للبناءِ الاجتماعيِّ القائمِ باعتبارِهِ حقيقةً موضوعيّةً تاريخيّةً لامناصَ منها[2]، يستطيعُ الاستعانةَ بها مِنْ أجلِ تحقيقِ أهدافِهِ، ما لم يؤثّرْ ذلكَ على حريّةِ حركةِ دعوتِهِ.

ما أعظمَ حكمتَكَ وحِنكتِكَ يا سيّدي يا رسولَ اللهِ وفقَ ضوابطِ شرعِ اللهِ وغاياتِهِ.

[1] - السّيرةُ النبويّةُ :د. محمّد علي الصّلابي ، ج١/٢٣٤- ٢٣٥

[2] - المرجعُ السّابقُ ، ج١/ ٢٣٧

معجزةُ الإِسراءِ والمِعراجِ:

يُقصَدُ بالإسراءِ الرّحلةُ الّتي أكرمَ اللهُ بها نبيّهُ مِنَ المسجدِ الحرامِ بمكّةَ إلى المسجدِ الأقصى بالقدسِ، أمّا المِعراجُ فهو ما أعقبَ ذلكَ مِنَ العُروجِ بهِ إلى طبقاتِ السَّماواتِ العُلا ثمَّ الوصولِ بهِ إلى حدٍّ انقطعَتْ عندهُ علومُ الخلائقِ مِنْ ملائكةٍ وإنسٍ وجنٍّ، كلُّ ذلكَ في ليلةٍ واحدةٍ.

ويروي ابنُ سعدٍ في طبقاتِهِ الكبرى أنَّها كانَتْ قبلَ الهجرةِ بثمانيةَ عشرَ شهراً وكانَتِ الرّحلةُ بالجسمِ و الرُّوحِ معاً.

أمّا القصَّةُ فقد رواها البخاريُّ ومسلمٌ وفيها أنَّه ﷺ أُتيَ بالبُراقِ، وهو دابَّةٌ فوقَ حمارٍ و دونَ بغلٍ، يضعُ حافرَهُ عندَ مُنتهى طرفِهِ" وفيها أنَّهُ ﷺ دخلَ المسجدَ الأقصى فصلَّى فيهِ ركعَتَينِ، ثمَّ أتاهُ جبريلُ بإناءٍ مِنْ خمرٍ وإناءٍ مِنْ لبنٍ، فاختارَ ﷺ اللّبنَ، فقالَ جبريلُ: اخترْتَ الفِطرةَ... وفيها أنَّهُ عرجَ بهِ ﷺ إلى السَّماءِ الأولى فالثّانيةِ والثّالثةِ... وهكذا حتّى ذُهبَ بهِ إلى سِدْرَةِ المُنتهى، وأَوحى اللهُ إليهِ عندئذٍ ما أَوحى، وفيها فُرضَتِ الصّلواتُ الخمسُ على المسلمينَ، وهي في أصلِها خمسُونَ صلاةً في اليومِ واللّيلةِ. ولمّا كانَتْ صبيحةُ اليومِ التّالي وحدّثَ رسولُ اللهِ

ﷺ النّاسَ بما شاهدَ، طفِقَ المشركُونَ يجمعُ بعضُهم بعضاً ليتناقلُوا هذا الخبرَ الطَّريفَ ويضحكُوا منهُ. وتحدّاهُ بعضُهم أنْ يصِفَ لهم بقايا بيتِ المَقدسِ ما دامَ أنّهُ قد ذهبَ إليهِ وصلّى فيهِ، والرّسولُ حينما زارَهُ لم يخطُرْ في بالِهِ أنْ يجيلَ النَّظَرَ في أطرافِهِ ويحفظَ أشكالَهُ وعددَ سوارِيهِ فجلّى اللهُ عزَّ وجلَّ صورتَهُ بينَ عينَيْهِ وأخذَ يصفُ لهم وصفاً تفصيليّاً كما يسألُونَ. روى البخاريُّ ومسلمٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنّهُ قالَ: "لمّا كذّبتني قريشٌ قمْتُ في الحِجْرِ[1]، فجلّى اللهُ لي بيتَ المَقدسِ، فطفِقْتُ أخبرُهُم عنْ آياتهِ وأنا أنظرُ إليهِ".

أمّا أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنْهُ فقدْ حدّثَهُ بعضُ المُشركِينَ عمَّا يقولُهُ الرَّسولُ ﷺ، رجاءَ أنْ يستعظمَهُ فلا يصدّقَهُ، فقالَ: " إنْ كانَ قالَ ذلكَ لقد صدقَ، إنّي لأُصدّقُهُ على أبعدَ مِنْ ذلكَ ".

وفي صبيحةِ ليلةِ الإسراءِ جاءَ جبريلُ وعلّمَ رسولَ اللهِ ﷺ كيفيّةَ الصَّلاةِ وأوقاتِها. وكانَ عليهِ السَّلامُ قبلَ مشروعيّةِ الصّلاةِ يصلّي ركعتَينِ صباحاً ومثليْهما مساءً كما كانَ يفعلُ إبراهيمُ عليهِ السلامُ.

[1] - الحِجر: اسم الحائط المستدير إلى جانب الكعبة الغربي.

قرأْتُ حادثةَ الإسراءِ والمعراجِ وتحرَّكَ شعورٌ قويٌ داخلي ورغبةٌ ملحَّةٌ في أنْ أُصلّي رَكعتَين في جوفِ اللّيلِ الطّويلِ.. لا أدري لماذا الآنَ بالذّاتِ.. ربَّما أردتُ أنْ تحاولَ روحي العروجَ إلى خالقِ السّمواتِ والأرضِ فتتلمّسَ تلكَ المعاني، فالصّلاةُ هي الفريضةُ الوحيدةُ الّتي فُرضَتْ في حادثةِ الإسراءِ والمعراجِ، في إشارةٍ لطيفةٍ لَمهمّةِ الصّلاةِ في النّفسِ البشريّةِ وهي عروجُها إلى خالقِها وصلتُها ببارئِها .

وقفْتُ في الصّلاةِ ولكنْ ليسَ كما كنْتُ أفعلُ مِنْ قبلُ...

شعورٌ غريبٌ كأنّي أصلّي لأوّلِ مرَّةٍ في حياتِي... الصّلاةُ نفسُها بحركاتِها وشعائرِها وتمامِها، لكنّي شعرُتُ لأوّلِ مرّةٍ أنّي أسجدُ تحتَ عرشِ الرّحمنِ، أبثُّ لهُ فيها شوقي، لتتّصلَ روحي بأنوارِهِ القدسيّةِ. وكأنَّ فَهماً جديداً وإحساساً ما أحسسْتُ مثلَهُ قطُّ قد داخلَ قلبي، أو لعلّهُ فَهمٌ آخرُ لعروجِ الرّوحِ وصِلتِها بموجدِها، ثمّ تذكرْتُ كلماتٍ لمحمّد إقبال كنْتُ قرأْتُها لكنَّها لم تستوقِفْ قلبي، غيرَ أنّها الآنَ تدقُّ مسامِعي:

"إنّ السّجدةَ الّتي كانَتْ تهتزُّ لها روحُ الأرضِ، لقد طالَ عهدُ المحرابِ لها واشتاقَ إليها المسجدُ كما تشتاقُ الأرضُ الجَدْبَةُ الخاشعةُ للمطرِ، لم أسمعْ في مصرَ ولا في فلسطينَ ذلكَ الأذانَ الّذي ارتعشَتْ لهُ الجبالُ بالأمسِ".

بدَتْ ملامحُ الإسراءِ والمعراجِ في ذهني بصورةٍ مختلفةٍ... أشعرُ بشعورِ رسولِ اللهِ ﷺ وقد أتعبتْهُ كلُّ هـذهِ السّـنواتِ في الـدّعوةِ إلى اللهِ دونَ أنْ يَحصدَ من ثمراتِ هذا التعبِ إلا القليلَ، فيضطّربُ قلبُهُ خـوفَ أنْ يكونَ سببُ ذلكَ خللٌ في عملِـهِ أو غضـبٌ مِـنْ ربّـهِ، فتـأتي يـدُ اللهِ الحانيةُ تكفكفُ دمعَهُ وتكسوهُ مِنْ حُلَلِ الرِّضا والتّشريفِ مـا لم يعـطَ أحدٌ مِنَ الأنبياءِ قبلَهُ، فتمسحُ عنهُ تعبَ الماضي وتبشّـرُهُ بالغـدِ القـادمِ وبعالميّةِ رسالتِهِ، والرّسولُ الكريمُ ﷺ قبلَ ذلكَ كلِّه لم يُظهرْ تأفُّفـاً أو يأساً مِنْ مَهمّتِهِ و لم يطلبْ راحةً أو مكافأةً (إنْ لم يكُنْ بـكَ غضـبٌ عليَّ فلا أُبالي). فحُقَّ لشخصِهِ العظيمِ هذا التشـريفُ العلـويُّ الّـذي لم يحظَ به أحدٌ قبلَهُ ولا بعدَهُ.

ثمّ تفكّرْتُ قليلاً في بعضِ مؤشّراتِ رحلتِهِ ﷺ:

خـطُّ رحلتِـهِ عليـهِ السّـلامُ مِـنَ المسـجدِ الحـرامِ إلى المسـجدِ الأقصـى وبالعكسِ، ربطٌ ذو معنىً دقيقٍ للصّلةِ الوثقى بـينَ الأديـانِ جميعـاً مِـنْ جهةٍ، وللرّابطِ المـتينِ بـينَ المسـجدَيْنِ مِـنْ جهـةٍ أُخـرى... في إشـارةٍ خفيَّةٍ لأهميّتِهما معاً وفي رسالةٍ مسـتقبليَّةٍ لجيلِنـا نحـنُ الآنَ... لقضـيّةِ القُدسِ وقضيّةِ فلسطينَ وتلازمهما معَ انتمائِنا للإسلامِ وتوحيدِ قِبلتِنا، حتّى يجتمعَ رأيُنا على قضيّةِ القـدسِ وعـدمِ التّخلـي عنهـا حتّـى آخـرَ رمقٍ، فهي خالدةٌ خلودَ المسجدِ الحرامِ والقِبلةِ الواحدةِ.

ثمّ تأتي حادثةُ تخييرِ رسولِ اللهِ ﷺ بينَ اللّبنِ والخمرِ، إنَّها تثبيتٌ لتَوافُقِ الدّينِ معَ الفطرةِ، وصفاءِ الدّينِ كصفاءِ اللّونِ الأبيضِ في اللبنِ.

أمّا سيدُنا أبو بكرٍ فتلكَ قصّةٌ أُخرى.. أعجبني صفاءُ ذهنِهِ، ودقّةُ عبارتِهِ (إنْ كانَ قالَ ذلكَ فقد صدقَ) عبارةٌ في مُنتهى الدِّقّةِ.. قد نغفلُ عنها أحياناً عندَما يخبرُنا أحدُهم مقولةً لشخصٍ ما، فنندفعُ بردِّ فعلٍ دونَ التّثبُّتِ مِنْ صحّتِهِ. لقد كانَ رضيَ اللهُ عنهُ مثالاً مميَّزاً بالصّدقِ والثّباتِ، فهو قد صدّقَ رسولَ اللهِ ﷺ في المرّةِ الأولى وحزَمَ أمرَهُ تماماً، فليسَ بحاجةٍ لإعادةِ نظرٍ في أمرِهِ في كلِّ مرَّةٍ يسعى فيها الأعداءُ للنيلِ مِنْ رسولِ اللهِ. حزْمٌ وصدقٌ و ثباتٌ و انتهى الأمرُ. رضيَ اللهُ عنك ، فِعلاً أنتَ الصّدّيقُ.

عرْضُ الرَّسولِ ﷺ نفسَهُ على القبائلِ وبدْءُ إسلامِ الأنصارِ :

كانَ النّبيُّ ﷺ خلالَ هذهِ الفترةِ كلِّها يعرِضُ نفسَهُ في مَوسِمِ الحجِّ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ على القبائلِ الّتي تتوافدُ إلى البيتِ الحرامِ، يتلو عليهم كتابَ اللهِ ويدعُوهم إلى توحيدِ اللهِ فلا يستجيبُ لهُ أحدٌ.

يقولُ ابنُ سعدٍ في طبقاتِهِ:" كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يوافي المَوسِمَ كلَّ عامٍ يتبعُ الحجاجَ في منازلهم في المواسمِ بعكاظَ ومجَنَّةَ وذي المجازِ، يدعُوهم إلى أنْ يمنعُوهُ حتّى يُبلّغَ رسالاتِ ربّهِ ولهم الجنَّةُ، فلا يجدُ أحداً ينصرُهُ، ويقولُ:" يا أيُّها النّاسُ قُولُوا لا إلهَ إلا اللّهُ تُفلِحُوا وتمِلكُوا بها العربَ وتذِلُّ لكم العجمُ، وإذا آمَنْتُم كنتُم مُلوكاً في الجنّةِ"، وأبو لهبٍ وراءَه يقولُ: "لا تطيعُوهُ فإنّهُ صابئٌ كاذبٌ، فيردُّونَ على رسولِ اللهِ أقبحَ الرَّدِّ ويؤذونَهُ"[1].

وروى ابنُ إسحاقَ عنِ الزّهريِ:" أنّ النّبيّ ﷺ أتى بني عامرٍ بنِ صعصعةَ، فدعاهُم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وعرضَ عليهم نفسَهُ، فقالَ رجلٌ منهم يقالُ لهُ بيحرةُ بنُ فراسٍ: واللهِ لو أنّي أخذْتُ هذا الفتى مِنْ قريشٍ لأكَلْتُ بهِ العربَ، ثمّ قالَ:

---

[1] - الطبقاتُ الكُبرى لابنِ سعد: ١/ ٢٠٠ و ٢٠١ و سيرةُ ابنِ هشام : ١/ ٤٢٣.

أرأيتَ إنْ نحنُ بايعناكَ على أمرِكَ ثمّ أظهرَكَ اللهُ على مَنْ خالفَكَ، أيكونُ لنا الأمرُ مِنْ بعدِك ؟.قالَ ﷺ: الأمرُ إلى اللهِ يضعُهُ حيثُ يشاءُ، قالَ، فقالَ لهُ: أفنهدِفُ نحورَنا للعربِ دونكَ، فإذا أظهرَكَ اللهُ كانَ الأمرُ لغيرِنا ؟ لا حاجةَ لنا بأمرِكَ"[1] .

استوقفَني قولُ رسولِ اللهِ ﷺ :" يا أيّها النّاسُ قولُوا لا إلهَ إلا اللهُ تفلِحُوا وتملِكوا بها العَربَ وتذلُّ لكمُ العجمُ". فقط عبارةُ " لا إلهَ إلا اللهُ" يفلحُونَ ويملِكُونَ بها بلادَ العربِ وتخضعُ العجمُ لهم مِنْ رُومٍ وفُرسٍ! . أليسَتْ مُغريةً لَمنْ يطمعُ بذلكَ! تُرى هل وعَوا معناها فعرَفُوا أنّها تُهدّدُ تكبُّرَهم و عُلوَّهم في الأرضِ بغيرِ حقٍّ، لذلكَ أبَوا أنْ يؤمنُوا بها! لاشكَّ في ذلك.

استوقفتْني هذه الحادثة بشكلٍ مختلف.. هل وعَيْتُ أنا معنى " لا إلهَ إلا اللهُ" حقّاً؟ و ما سرُّ هذهِ الكلمةِ إنْ تحققْنا بها و أديْنا حقَّها؟

آهٍ يا مسلمِون .. كم تملِكُونَ مِنَ الكنوزِ المدفونةِ تحتَ ترابِ الغفلةِ.

لم أجدْ نفسي إلا وشفتاي تنطِقُ بصوتٍ خافتٍ هذه العبارةَ.

حقّاً لديْنا كنوزٌ لكنّنا نائمُونَ.. و لَربّما بدأْتُ الآنَ أصحُو.

---

[1] - سيرةُ ابنِ هشامٍ : ١ / ٤٢٥ و تاريخُ الطّبري : ٢ / ٣٥٠ .

أمّا منطِقُ بَيْحَرَةَ بنِ فراسٍ فهو منطقُ رجلِ سياسيةٍ وحُكمٍ يحسِبُ حساباتِه مِنْ أجلِ الطّمعِ في سيادةٍ أو مَنصِبٍ وهذا خارجٌ عَنْ حساباتِ دينِ اللهِ، فمَنْ يريدُ نُصْرَةَ دينِ اللهِ ينصرُهُ دونَ شرطٍ أو طمعٍ غيرَ مرضاةِ اللهِ والجنَّة.

وكانَ لابدَّ أنْ تحدثَ مثلُ هذهِ المواقفِ كي يَظهرَ دينُ اللهِ واضحاً، نقيّاً مِنْ غيرِ لبْسٍ أو شائبةٍ، واضحاً في أهدافِهِ، نقيّاً في وسائلِهِ، صافياً مِنْ جميعِ المطامعِ الدّنيويّةِ، مُبهراً في ثباتِ مبادئِهِ وأصالةِ قِيَمِهِ، فلا يأتي أحدٌ باسمِ الإسلامِ والدّينِ فيفعلُ الأفاعيلَ ليصلَ إلى سدّةِ المَنصِبِ، ولا تختلطُ الوسائلُ فيستخدمُ في سبيلِ نُصرةِ الدِّينِ وسائلَ لا توافقُ شَرعهُ ومبادئَهُ.

فِعلاً سيرتُكَ الشّريفةُ ﷺ تُوضحُ معانيَ الدّينِ وأسسَ بنائِهِ وركائزَ نُصرتِهِ.

تباشيرُ بيعةِ العقبةِ الأُولى:

في السّنةِ الحاديةَ عشْرةَ مِنَ البَعثةِ عَرضَ نفسَهُ على القبائلِ شأنُهُ كلَّ عامٍ، فبينَما هو عندَ العقبةِ (موضعٌ بينَ مِنى ومكّةَ منها تُرمى جمرةُ العقبةِ) لقي رهْطاً[1] من الخزرجِ أرادَ اللهُ بهمُ الخيرَ فسأَلَهم: مَنْ أنتُم؟ قالُوا: نفرٌ مِنَ الخزرجِ، قالَ: أمِنْ موالي يهودَ؟ قالُوا: نعم، قالَ: أفلا تجلِسُونَ أُكلمْكُم، قالُوا: بلى، فجلسُوا معَهُ، فدعاهم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وعرضَ عليهمُ الإسلامَ، وتلا عليهمُ القرآنَ.

وكانَ مِمَّن مهّدَ أفئدتَهم لقَبولِ الإسلامِ، أنَّ اليهودَ كانُوا معهم في بلادِهم ومعلومٌ أنَّهم أهلُ كُتابٍ وعِلمٍ، فكانَ إذا وقعَ بينَهم وبينَ اليهودِ نفرةٌ أو قتالٌ، قالَ لهُم اليهودُ: إنَّ نبيّاً مبعوثٌ الآنَ قد أطلَّ زمانُهُ، سنتبعُهُ ونقتلُكُم معَهُ قتلَ عادٍ و إرمَ! فلمّا كلّمَ رسولُ اللهِ ﷺ هؤلاءِ النفرَ ودعاهُم إلى الإسلامِ نظرَ بعضُهم لبعضٍ وقالُوا: تعلمُونَ واللهِ إنَّهَ للنّبيُّ الّذي توعّدكُم بهِ يهودُ فلا يسبقَنَّكُم إليهِ فأجابُوه إلى ما دعاهُم إليهِ مِنَ الإسلامِ، وقالُوا: إنّا قد تركْنا قومَنا ولا قومَ بينَهم مِنَ العداوةِ والشّرّ ما بينَهم، فعسى أنْ يجمعَهمُ اللهُ بكَ، فسنقدمُ عليهم فندعُوهم إلى أمرِكَ، ونعرِضُ عليهم

---

[1] – كانوا ستّةً وهم : أسعدُ بنُ زرارةَ، وعوفٌ بنُ الحارثِ، ورافعٌ بنُ مالكٍ، وقطبةُ بنُ عامرٍ ، وعقبةُ بنُ عامرٍ، وجابرٌ بنُ عبدِ اللهِ.

الّذي أجبْناكَ إليهِ مِنْ هذا الدّينِ فإنْ يجمعْهم اللهُ عليكَ فلا رجلَ أعزُّ منكَ، ثمّ انصرفُوا و وعدُوهُ المقابلةَ في المَوسمِ المقبلِ[1] .

- بيعةُ العقبةِ الأُولى :

وانتشرَ الإسلامُ خلالَ تلكَ السَّنةِ في المدينةِ، ولمّا كانَ العامُ الّذي يليه، وافى المَوسمَ مِنَ الأنصارِ اثنا عشرَ رجلاً، فلقُوه بالعَقبةِ، وهي العقبةُ الأولى، فبايعُوا رسولَ الله ﷺ على بيعةِ النّساءِ (أي على نمطِها في البنودِ الّتي بايعَ النّساءَ عليها ، أي إنّهُ لم يبايعْهم فيها على الحربِ والجهادِ ، وكانَتْ بيعةُ النّساءِ ثاني يومِ الفتحِ على جبلِ الصّفا بعدما فرغَ مِنْ بيعةِ الرّجالِ) وكانَ منهُم : أسعدُ بنُ زرارةَ ورافعٌ بنُ مالكٍ وعبادةُ بنُ الصّامتِ وأبو الهيثمِ بن التّيهان .

وقد روى عبادةُ بنُ الصّامتِ خبرَ هذهِ المبايعةِ، فقالَ: كنّا اثنَيْ عشَرَ رجُلاً، فقالَ لنا رسولُ الله ﷺ: "تعالَوا بايعُوني على أنْ لا تشركُوا باللهِ شيئاً ، ولا تسرقُوا ، ولا تزنُوا ، ولا تقتُلوا أولادَكُم، ولا تأتُوا ببُهتانٍ تفترُونَه بينَ أيديكُم وأرجلِكُم ، ولا تعصُوني في معروفٍ، فمَنْ وفى منكم فأجرُهُ على اللهِ، ومَنْ أصابَ مِنْ ذلكَ شيئاً

[1] - رواه ابنُ إسحاقَ عنْ عاصمٍ بنِ عمرَ عنْ أشياخٍ منْ قومِهِ، انظرْ سيرةَ ابنِ هشامٍ : ١/ ٤٢٨

فعُوقِبَ بهِ في الدُّنيا فهو كفّارةٌ لهُ، ومَنْ أصابَ مِنْ ذلكَ شيئاً فستره اللهُ فأمرُهُ إلى اللهِ إنْ شاءَ عاقبَهُ، وإنْ شاءَ عفا عنهُ".

قالَ عبادةُ بنُ الصّامتِ:" فبايعناهُ على ذلكَ "[1]. فلمّا أرادُوا الانصرافَ بعثَ رسولُ اللهِ ﷺ معهم مصعباً بنَ عميرٍ وأمَرَهُ أنْ يقرئَهم القرآنَ ويعلّمَهم الإسلامَ ويفقّهَهُم في الدّينِ، فكانَ يُسمّى مقرئَ المدينةِ .

يا سبحانَ اللهِ ... اشتدّيْ يا أزمةُ تنْفرجي... إنَّ معَ العسرِ يُسراً...
بعدَ كلِّ هذهِ السّنواتِ يا سيّدي يا رسولَ اللهِ دونَ كللٍ أو مللٍ.
في كلِّ عامٍ تعرِضُ الإسلامَ فلا يداخلُ قلبَكَ الوَهْنُ، ولا يتسلّلُه السّأمُ، بل تزدادُ يقيناً وأدباً معَ ربِّكَ ...ترضى بقضائِه ما دامَ جلَّ جلالُهُ راضٍ، فكلُّ شيءٍ يهونُ أمامَ هوى الحبيبِ وما يختارُه، وشاءَتْ حِكمتُهُ جلَّ وعلا مِنْ تلكَ الأقدارِ أنْ نتعلَّمَ نحنُ الصّبرَ والدّأْبَ المُستمرَّ وعدمَ القنوطِ والمُصابرةِ والثّقةِ باللهِ مهما كثُرتِ الخُطوبُ، وليكنْ خوفُنا فقط مِنْ ظُلمِنا لأنفسِنا باكتسابِ الذّنوبِ، فإنْ كُنّا على الصّراطِ المستقيمِ فلا خوفٌ علينا ولا حزنٌ

[1] – رواهُ البخاريّ في كتابِ أحاديثِ الأنبياءِ، بابِ وفودِ الأنصارِ وبيعةِ العقبةِ.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]

وشاءَتِ قُدرتُهُ تعالى أنْ تكونَ النُّصرةُ مِنْ خارجِ مكّةَ، فلم يأتِهِ العونُ والتّأييدُ مِنْ أهلِهِ كي لا يُقالَ فيما بعدُ: إنَّها ثورةٌ لأجلِ مِلْكِ قريشٍ، أو إنّها ثورةٌ قوميّةٌ لتزدادَ مكانةُ قريشٍ.

إنَّ كلّ الأقاويلِ والأراجيفِ الّتي يمكنُ أنْ تُحاكَ مِنْ قبلِ المشكّكِينَ بنبوّتِهِ ﷺ وأعداءِ الدّينِ لتجدَ في سيرتِهِ ﷺ الرّدَ الحاسمَ، فالّذي أجرى الأحداثَ هو اللهُ الحكيمُ، عالمُ الغيبِ والشّهادةِ الخبيرُ بعبادِهِ.

ثم أمعنتُ النّظرَ في شروطُ بيعةِ العقبةِ الأُولى، إنّها شروطُ التّوبةِ مِنْ جميعِ الذّنوبِ والسّمعُ والطّاعةُ لرسولِ اللهِ ﷺ، وهذه الشّروطُ هي أُولى الخطواتِ نحو السّيرِ إلى اللهِ، فالتّوبةُ بوابةُ الإسلامِ ورُكنُها الأصيلِ بدونِها لا يمكنُ لبناءِ الإسلامِ أنْ يُشادَ، فكأنّهُ ﷺ يرسمُ بهذهِ الشّروطِ المَعْلَمَ الأساسيَّ لمعنى لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمّداً رسولُ اللهِ، فهي ليستْ مجرّدَ كلمةٍ تُقالُ، بل هي سلوكٌ يضبِطُ الأعمالَ والأخلاقَ، وهي فكرٌ وعقيدةٌ تحرّكُ الجوارحَ، وتعيدُ الأمورَ إلى زمامِها، فالحاكمُ في تصرُّفاتِ الفردِ وسلوكِهِ هو اللهُ، فالأوامرُ تُؤخَذُ منهُ وحدَهُ جلَّ جلالُهُ والرَّسولُ هو المبلِّغُ لأمرِهِ تعالى. فلابدَّ أنْ يكونَ

---

[1] – سورة يونس :٦٢

هذا الرُّكنُ الرّئيسُ للدّعوةِ واضحاً للمسلمِينَ الجُددِ حتّى لا تلتبسَ الأمورُ.

أغلقْتُ الكتابَ لدقائقَ وأسندتُ ظهري، ثمَّ أجلْتُ نظري إلى السّماءِ وفكرةُ البيعةِ تسيطرُ على قلبي وعقلي... لم يخطُرْ في بالي تلكَ المعاني الّتي جالَتْ وكأنّي أقرأُ سيرتَهُ العطِرةَ ﷺ للمرّةِ الأولى، وما مرَّ في خاطري تلكَ المعاني الدّقيقةِ حولَ (لا إلهَ إلا اللهُ).

لم يراوِدْني السّؤالُ التّالي مِنْ قبلُ:

هل حقّاً سلوكي موافقٌ لكلمةِ (لا إلهَ إلا اللهُ)؟ وما مدى تطابقِ فعلي مع قولي حتّى أكونَ صادقاً في (لا إلهَ إلا اللهُ)؟

سؤالٌ هزّني وطردَ النّومَ مِنْ عيني.

ثمَّ أُلحقَ بسؤالٍ آخرَ: هل تنطبقُ عليَّ شروطُ البيعةِ الأولى؟ وما مدى صدقي في ذلك ؟ وما مدى تطابقِ أفعالي معَ ما جاءَ بِهِ رسولُ اللهِ؟

حقّاً إنَّ قراءةَ سيرتِكَ يا سيّدي يا رسولَ اللهِ لَتجدّدُ الإيمانَ وتُوقفُ النّفْسَ أمامَ المرآةِ، لتعيدَ تقييمَ مُعتقداتِها وسلوكِها، وتضعَها على المحكِّ الحقيقيّ.

– بيعةُ العقبةِ الثّانيةِ :

ثمّ إنَّ مُصعباً بنَ عميرٍ عادَ إلى مكّةَ في مَوسمِ العامِ التّالي، ومعهُ جمعٌ كبيرٌ مِنْ مسلمِي المدينةِ، فخرجُوا مُستخفِينَ معَ حجاجِ قومِهم المُشركِينَ.

قالَ محمّدٌ بنُ إسحاق يروي عنْ كعبٍ بنِ مالكٍ :" فواعدْنا رسولَ الله ﷺ العقبةَ مِنْ أوسطِ أيامِ التّشريقِ، فلمّا فرغْنا مِنَ الحجّ، وكانَتِ اللّيلةُ الّتي واعدَنا رسولُ الله ﷺ لها، نِمْنا تلكَ الليلةَ معَ قومِنا في رحالِنا، حتّى إذا مضى ثلثُ اللّيلِ، خرجْنا مِنْ رحالِنا لميعادِ رسولِ الله ﷺ نتسلّلُ تسلّلَ القَطا[1] مُستخفِينَ، حتّى اجتمعْنا في الشّعبِ عندَ العقبةِ، ونحنُ ثلاثةٌ وسبعُونَ رجُلاً، ومعنا امرأتانِ مِنْ نسائِنا، نسيبةُ بنتُ كعبٍ وأسماءُ بنتُ عمروٍ بنِ عديّ.

قالَ: فاجتمعْنا في الشّعبِ ننتظرُ رسولَ الله ﷺ حتّى جاءَنا ومعَهُ عمّهُ العباسُ بنُ عبدِ المطّلبِ، فتكلّمَ القومُ وقالُوا: خذْ منّا لنفسِكَ ولربّكَ ما أحببْتَ. . فتكلّمَ رسولُ الله ﷺ، فتلا القرآنَ ودعا إلى الله ورغّبَ في الإسلامِ ثمّ قالَ: "أُبايعُكم على أنْ تمنعُوني ممّا تمنعُونَ منهُ نساءَكُم وأبناءَكُم" .

[1] – القَطا : طائرٌ معروفٌ بثِقَلِ مَشيْه.

فأخذَ البراءُ بنُ معرورٍ بيدِهِ ثمَّ قالَ:" نعم والّذي بعثَكَ بالحقِّ نبيّاً لنمنعنّكَ ممّا نمنعُ منهُ ذرارِيْنا ، فبايِعْنا يا رسولَ اللهِ، فنحنُ واللهِ أبناءُ الحروبِ وأهلُ الحَلْقَةِ (أي السّلاح كلّه) ورثناها كابراً عنْ كابرٍ" .

فاعترضَ القولَ – والبراءُ يتكلّمُ – أبو الهيثمُ بنُ التّيهانِ فقالَ:" يا رسولَ اللهِ، إنَّ بيننا وبينَ الرِّجالِ حبالاً وإنّا قاطعُوها – يعني اليهود – فهل عسيْتَ إنْ نحنُ فعلْنا ذلكَ ثمَّ أظهرَكَ اللهُ أنْ ترجعَ إلى قومِكَ وتدعَنا ؟"

فتبسّمَ رسولُ اللهِ ﷺ ثمَّ قالَ: "بلِ الدّمَ الدّمَ والهدمَ الهدمَ، أنا منكُم وأنتُم منّي، أحاربُ مَنْ حاربْتُم وأُسالِمُ مَنْ سالَمْتُم"

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: أخرِجُوا إليّ منْكُم اثنَيْ عشَرَ نقيباً ليكُونُوا على قومِهم بما فيهم، فأخرجُوا منْهم اثنَيْ عشَرَ نقيباً تسعةً مِنَ الخزرجِ وثلاثةً مِنَ الأَوس، فلمّا تخيَّرَهُم قالَ للنّقباءِ: أنتم كفلاءُ على قومِكم ككفالةِ الحوارِيينَ لعيسى بنِ مريمَ، وأنا كفيلٌ على قَومي" .

وكانَ أولَ مَنْ ضربَ على يدِ رسولِ اللهِ ﷺ البراءُ بنُ معرورٍ ثمَّ بايعَ القومَ كلّهم بعدَ ذلكَ. فلمّا بايعْنا رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "ارفضّوا إلى رحالِكم"، فقالَ لهُ العبّاسُ

ابنُ عبادةَ بنِ نفلةَ: "واللهِ الّذي بعثَكَ بالحقّ إنْ شئْتَ لنَميْلنَّ على أهلِ مِنىً غداً بأسيافِنا"، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ:" لم نُؤمرْ بذلكَ، ولكنِ ارجعُوا إلى رحالِكُم". فرجَعْنا إلى مضاجعِنا، فنِمْنا عليها حتّى أصبحْنا، فلمّا أصبحْنا غدَتْ علينا جِلَّةُ قريشٍ، فقالُوا:" يا معشرَ الخزرجِ إنّا قد بلغَنا أنّكُم قد جئتُم إلى صاحبِنا هذا تستخرجُونه مِنْ بينِ أَظْهُرِنا، وتبايعُونَه على حرْبنا، وإنّهُ واللهِ ما مِنْ حيٍّ مِنَ العربِ أبغضُ إلينا أنْ تنشَبَ الحربُ بيننا وبينهم منكُم".

فانبعثَ مَنْ هناكَ مِنْ مُشركي قومِنا يحلِفُون باللهِ:" ما كانَ مِنْ هذا شيءٌ و ما علمْناهُ، وقد صدقُوا، لم يعلمُوهُ، قالَ: "وبعضُنا ينظرُ إلى بعضٍ".

ونفرَ النّاسُ مِنْ مِنى، فتحرّى القومُ الخبرَ فوجدُوا أنَّ الأمرَ قد كانَ، فخرجُوا في طلبِنا فأدركُوا سعدَ بنَ عُبادةَ بأَذاخِرَ[1]، والمنذرَ بنَ عمرو– وكلاهما كانَ نقيباً – فأمّا المنذرُ فأعجزَ القومَ فهربَ، وأمّا سعدٌ فأخذُوهُ فربطُوا يديهِ إلى عنقِهِ بشراكِ رحلِهِ، ثمَّ أقبلوا بهِ حتّى أدخلُوهُ مكّةَ يضربُونه ويجذِبُونه بجبهتِهِ، وكانَ ذا شَعرٍ كثيرٍ، قالَ سعدٌ: فو اللهِ إنّي لَفي أيديْهم يسحبُونني، إذْ أقبلَ إليَّ رجلٌ مِّمنْ كانَ

[1] – أَذاخِر: موضعٌ قريبٌ من مكّةَ.

معهم، فقالَ:" ويحكَ أما بينكَ وبينَ أحدٍ مِنْ قُريشٍ جوارٌ ولا عهدٌ؟" قلْتُ:" بلى والله، لقد كنْتُ أُجيْرُ لكلٍّ مِنْ جُبيرٍ بنِ المطعمِ والحارثِ بنِ أميّةَ تجّارَتهما وأمنعُهم ممّنْ أرادَ ظلمَهم ببلادي"، قالَ:" ويحكَ فاهتفْ باسمِهما"، قالَ: ففعلْتُ فجاءَ مُطعمُ بنُ عديّ و الحارثُ بنُ أميّةَ فخلّصاهُ مِنْ أيديهم".

قالَ ابنُ هشامٍ:" وكانَتْ لبيعةِ الحربِ حينَ أذِنَ اللهُ لرسولِهِ في القتالِ شروطاً سوى شرطِهِ عليهم في بيعةِ العقبةِ الأولى، كانَتِ الأولى على بيعةِ النّساءِ وذلكَ أنَّ اللهَ لم يكنْ أذنَ لرسولِهِ ﷺ في الحربِ، فلمّا أذِنَ اللهُ له فيها وبايعَهم رسولُ اللهِ ﷺ في العقبةِ الأخيرةِ على حربِ الأحمرِ والأسودِ أخذَ لنفسِهِ واشترطَ على القومِ لربِّهِ، وجعلَ لهم على الوفاءِ بذلك الجنّةَ".

قالَ عبادةُ بنُ الصّامتِ: بايعنا رسولَ اللهِ ﷺ بيعةَ الحربِ على السّمعِ والطاعةِ في عُسرِنا ويُسرِنا ومنشطِنا ومكرهِنا وأثرةٍ علينا، وأنْ لا نُنازعَ الأمرَ أهلَهُ، وأنْ نقولَ الحقَّ أينما كُنّا، لا نخافُ في اللهِ لومةَ لائمٍ".

وكانَتْ أوّلُ آيةٍ نزلَتْ في الإذنِ بالحربِ للرّسولِ ﷺ قولُهُ تباركَ وتعالى:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم

بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [1]

أنهيتُ قراءةَ هذهِ الفِقْرةِ ومشاهدُ رحابةِ صدرِ أهلِ المدينةِ الذينَ لاقيْتُهم منذُ نزولي مِنَ الطّائرةِ ووصولي للفندقِ لا تبرحُ خيالي، أحسسْتُ بمحبّةٍ شديدةٍ لهم، فهم أنصارُ رسولِ اللهِ ﷺ، أثلجُوا صدرَهُ ﷺ بنصرتِهم لهُ بعدَ سنينَ صعبةٍ وصدٍّ مريرٍ.. هنيئاً لكم يا أحفادَ أنصارِ رسولِ اللهِ ﷺ.

ثمَّ عدْتُ إلى فِقْرةِ بيعتِهم أملأُ ناظريّ بخبرِهم، كيفَ كانُوا مبادرِينَ محبِّينَ منذُ اليومِ الأوّلِ، ومساندِينَ منذُ اللّحظةِ الأولى... وهُم لم يكادُوا يعرفُون رسولَ اللهِ ﷺ سوى سويعاتٍ: خُذْ منّا لنفسِكَ ولربِّكَ ما أحببْتَ.

لم تكنْ كلماتٍ حماسيّةً خرجَتْ مِنْ دمٍ فائرٍ و لم يكنْ لها نصيبٌ مِنَ الفكرِ... بل كانَتْ بيعةً جمعَتِ القلبَ والعقلَ، فأبو الهيثمِ ذكّرَ بالنّتائجِ البعيدةِ والقريبةِ وآثارِ البيعةِ على مواليهِ اليهودِ ومصالحِهم معَهم وتعرّضها للخطرِ، كي لا تكونَ مبايعةً مؤقّتةً، بل هو عهدٌ بعدَ

---

[1] - سورةُ الحجّ :٣٩-٤٠

دراسةِ جميعِ أبعادِه وآثارِه، وعن قناعةٍ وتفكيرٍ عميقَين، ثمَّ بقلبٍ مُفعمٍ بالحماسِ والحبِّ لرسولِ اللهِ ﷺ . فجاءَتِ الكلماتُ المحمّديّةُ المطمْئنةُ تُريحُ القلبَ والعقلَ، فيها مِنَ الوفاءِ الشّيءُ العظيمُ.

وفي أسلوبٍ قياديٍّ ناجحٍ لجأَ عليه الصّلاةُ والسّلامُ لأسلوبِ التّفويضِ الّذي يُشعِرُ الطّرفَ الآخرَ أنّهُ محلُّ ثقةٍ وأنّهُ جزءٌ مِنَ المشروعِ المُقامِ، يشاركُ في اتّخاذِ القرارِ ومحيطٌ بما سيكونُ وكانَ، فقد غدَوا ببساطةٍ جزءاً لا يتجزّأُ مِنْ شركةِ الإسلامِ، فلا بدَّ مِنْ أنْ يكونَ هناكَ ممثّلُونَ عنهم ونُوّابٌ، فكانَ النُّقباءُ.

لقد سبقَ وأنِ التحقْتُ بورشةِ عملٍ حولَ القيادةِ وأسلوبِ التفويضِ.. صلّى اللهُ عليكَ وسلّمَ ما أعلمَكَ وأحكمَكَ مِنْ قائدٍ.

ثمّ قفزَ سؤالٌ إلى ذهني: ما العلاقةُ بين بيعةِ العقبة الأولى والثانية؟

إنني أرى أن شروط البيعة الثّانية قد تجاوزَتِ التّوبةَ، وبدأَتْ تسطِّرُ معالمَ الولاءِ والطّاعةِ، وكأنّها مرحلةٌ انتقلَ فيها المسلمونَ الجُدُدَ مِنْ منزلةِ الإسلامِ الّتي كانَتْ مَعْلَمَاً للبيعةِ الأولى إلى مرتبةِ الإيمانِ الّتي تمثّلُ البيعةَ الثّانيةَ.

إنَّ الطّاعةَ في اليُسرِ وعندَ نشاطِ الرُّوحِ سهلةٌ يسيرةٌ، أمّا في العُسرِ وعندَ تقاعسِ النّفسِ عنِ العباداتِ وتثاقلِها فليسَتْ بالشّيءِ اليسيرِ، فمِنَ السّهلِ الطّاعةُ في أمرٍ ترغبُ فيه النّفسُ، أمّا الطّاعةُ في أمرٍ

تكرهُهُ النّفسُ أو ترفضُهُ فذلكَ شيءٌ عسيرٌ مزعجٌ للنّفسِ ومُغضِبُها، والبيعةُ هُنا في اليُسرِ والعُسرِ وفي المَنشطِ والمكرَهِ. ثمَّ زادَ عليهاﷺ: وأثرةٍ علينا، فقد يعملُ الإنسانُ ويجاهدُ ويبذلُ قُصارى جهدِهِ حتّى إذا جاءَ زمنُ قطفِ الثّمارِ لم يكنْ له حظٌّ منها لأنَّ نيّتَهُ قد تبدّلَتْ فتغيّرَ عطاؤُهُ فاختلفَتِ الثّمارُ!

إنَّ الكثيرَ مِنَ الأعمالِ الّتي شهِدتها لَتعبِّرُ تماماً عنْ أهميّةِ الثّباتِ والصّدقِ مِنْ بدايةِ العملِ حتّى نهايتِهِ.. فالاستمراريّةُ بالعطاءِ مع استصحابِ النيّةِ هي مِنْ أسبابِ النّجاحِ في الدّنيا والآخرةِ.

ثمَّ كانَ الشّرطُ الأصعبُ، فقد يُضحّونَ بالنَّفْسِ والمالِ ثمَّ يرتقي إلى منزلةِ الصّدارةِ مَنْ ليسَ منهم، إنّهُ ﷺ يطلبُ منهم ألا ينازِعُوهم، وكأنّهُ يوجّهُهم عليهِ الصلاةُ والسّلامُ إلى أنْ يكونُوا أنصاراً للإسلامِ وأهلِه مدى الحياةِ وفي جميعِ الظُّروفِ والأحوالِ وإنْ لم ينالُوا الأجرَ في الدّنيا فحسبُهم الآخرةُ.

طلبٌ ومحنةٌ ليستْ بالسهلةِ عندَ التّطبيقِ العمليّ لذلكَ... إنّه ترجمةٌ أصيلةٌ لمعنى الإخلاصِ.

ولقد كانُوا أُمناءَ أوفياءَ مدى الدّهرِ لبيعةِ يدِ الحبيبِ المُصطفى ﷺ. فحبُّهم واجبٌ على كلِّ مُسلمٍ، فهم الّذينَ أدخلُوا السُّرورَ إلى قلبِ الحبيبِ وآوَوا ونصرُوا مِنْ غيرِ مِنّةٍ أو طلبِ مَكرُمَةٍ، كانَ جُلُّ

اهتمامِهم ألاّ يدعَهم رسولُ اللهِ ﷺ وأنْ يمكثَ بينَ أظهُرِهِم. رضوانُ اللهِ عليهم أجمعِين.

إِذْنُ رسولِ اللهِ ﷺ لأصحابِهِ بالهجرة :

قالَ ابنُ سعدٍ في طبقاتِهِ يروي عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها: لمّا صدرَ السّبعُونَ مِنْ عندِ رسولِ اللهِ ﷺ طابَتْ نفسُهُ، فقدْ جعلَ اللهُ لهُ مَنَعَةً وقوماً أهلَ حربٍ وعِدَّةٍ ونجدةٍ، وجعلَ البلاءُ يشتدُّ على المسلمِينَ مِنَ المشركِين لِمَا يعلمُونَ مِنَ الخزرجِ، فضيّقُوا على أصحابِهِ وتعبَّثُوا بهِم، ونالُوا ما لم يكونُوا ينالُونَ مِنَ الشَّتمِ والأذى فشكا ذلكَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ واستأذنُوهُ في الهجرةِ فقالَ: قد أُخبرْتُ بدارِ هجرَتِكم وهي يثرب، فمَنْ أرادَ الخروجَ فليخرجْ إليهما، فجعلَ القومُ يتجهّزُونَ ويتوافَقُونَ ويتواسَونَ ويَخرجُون ويُخفُون ذلكَ.

فكانَ أولُ مَنْ قَدِمَ المدينةَ مِنْ أصحابِهِ ﷺ، أبو سلمةَ بنِ عبدِ الأسدِ ثمَّ قدمَ بعدَهُ عامرٌ بنُ ربيعةَ ومعَه امرأتُه ليلى بنتُ أبي حَثْمَةَ، فهي أوّلُ ظعينةٍ قدِمَتِ المدينةَ ثمَّ قدمَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ أرسالاً فنزَلُوا على الأنصارِ في دُورِهم فآوَوْهُم ونصرُوهُم وآسَوْهُم.[1]

ولم يهاجرْ أحدٌ منْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ إلا مُتخَفّياً غيرُ عمرَ بنِ الخطابِ

[1] – انظر السيرة النبوية لابن هشام ، ص ٢٦٤

رضيَ اللهُ عنهُ، فقدْ روى عليٌّ بنُ أبي طالبٍ رضي اللهُ عنهُ أنّه لمّا همَّ بالهجرةِ تقلّدَ سيفَهُ وتنكّبَ قوسَهُ وانتضى في يدِهِ أسهُماً واختصرَ بمنزلته (عصاه) ومضى قِبَلَ الكعبةِ، والملأُ مِنْ قريشٍ بفَنائِها فطافَ في البيتِ سبعاً مُتمكّناً مُطمئّناً، ثمَّ أتى المقامَ فصلّى ثمَّ وقفَ فقالَ: (شاهَتِ الوجوهُ لا يرغِمُ اللهُ إلا هذه المعاطسَ مَنْ أرادَ أنْ يُثكلَ أمَّهُ أو يوتمَ ولدُهُ أو يرمّلَ زوجَتَهُ فليلقَني وراءَ هذا الوادي) . قالَ عليٌّ: فما اتّبعَهُ إلا قومٌ مِنَ المُستضعفِين علّمَهم ما أرشدَهم ثمَّ مضى لوجهِهِ [1].

وهكذا تتابعَ المسلمُونَ في الهجرةِ إلى المدينةِ حتّى لم يبقَ بمكّةَ منهم إلا رسولُ اللهِ ﷺ وأبو بكرٍ وعليٌّ أو معذّبٌ محبوسٌ أو مريضٌ أو ضعيفٌ عنِ الخروجِ.

فكّرت مليّاً وتذكّرتُ رفيقاً لي قرّرَ الهجرةَ إلى بلدٍ غريبٍ...

لم يكنْ سهلاً عليهِ هذا القرارُ والإعدادُ له، وكذلكَ عندَما وصلَ إلى بلدٍ غريبٍ لا يعرفُ فيه أحداً.

ومعَ اختلافٍ كبيرٍ بينَ هجرةِ هذا الصّديقِ وهجرةِ المسلمِينَ مِنْ أهلِ

---

[1] – كتاب (سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد) لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي، ج٣/٢٢٥

مكّـةَ إلى يثـربَ... فهـؤلاءِ خرجُـوا متسـلّلِينَ –لا يحملُـون متـاعَهم وحاجيّاتِهم وأمـوالَهم وتجـارتَهم– إلى مجهـولٍ لا يعلمُـون شـيئاً عنـهُ، مصطحِبِينَ فقط إيمانَهم وثقتَهم باللهِ وبرسولِهِ ﷺ... قد يفـارقُ الابـنُ والديْهِ والأخُ أخاهُ وليس هـذا بالشّـيءِ السّـهلِ علـى الـنّفسِ، لكـنّهم رضوانُ اللهِ عليهم كما تجاوزُوا امتحانَ الاضطهادِ والعذابِ، فكـذلكَ امتحانُ الهجرةِ لم يـزدهم سـوى إيمانـاً وتسـليماً ويقينـاً بمـا عنـدَ اللهِ، كيف استطاعُوا ذلكَ؟ و لم يستطعْ أحـدُنا أنْ يهجـرَ عـادةً اعتادَهـا!؟ مَنْ بنى لهم تلكَ العزيمةَ الّتي لا تقهرُ والإرادةُ القويّةُ الّتي لا تلينُ ؟ ما هو الفكرُ الّذي صاغَ عقـولَهم ؟ والعقيـدةُ الّـتي سـكنَتْ قلـوبَهم؟ فحرّكَتْ جوارحَهم، فلم تهدأْ و لم تستكِنْ حتى آخرِ رمقٍ!

لقـد صـاغَ الإسـلامُ فكـرَهم، وتشـرّبَتْ عقيـدةُ لا إلـهَ إلا اللهُ بكـلِّ أبعادِها أفئدتَهم، فانصبَغُوا بصبغةِ اللهِ، وقّعوا (شـيكاً) علـى بيـاضٍ للهِ ورسولِهِ ﷺ اشترَوا بهِ الجنّةَ ومرضاةَ خالقِهم، فليكتبْ رسولُهُ ما يريـدُ وليشترطْ لربّهِ ما يحبُّ، فـ(الشيك) فـارغ يمكنُـهُ أن يمـلأَهُ بمـا يرغـبُ ويريدُ.

حسـموا القـرارَ منـذُ البدايـةِ ... والعربـيّ مِـنْ شـيمِهِ الوفـاءُ بالوعـدِ والصدقُ في القـولِ والعمـلِ وصـفاءُ الفكـرِ ووضـوحُه وبـذلُ الغـالي

والرخيصِ من أجلِ فكرةٍ يؤمنُ بها، أو يعتقِدُها.

نعم .... تلكَ هي الصّفاتُ الّتي جعلَتْهم أهلاً ليكونُوا أصحابَ رسولِ آخرِ رسالةٍ سماويّةٍ؛ وعلينا أن نستردَّ تلكَ الصّفاتِ النبيلةَ لتعودَ إلينا وظيفتُنا عندَ خالقِنا ويضعَ لنا القبولَ في أرضِهِ.

أمّا الأنصارُ فرضوانُ اللهِ عليهم. فرغمَ أنَّ مدّةَ إسلامِهم لم تتجاوزْ السّنةَ وما حظُوا بعنايةِ وتربيةِ رسولِ اللهِ ﷺ بعدُ لكنَّهم ضربُوا أروعَ الأمثلةِ في الأخوّةِ والنّصرةِ لأشخاصٍ لا يعرفُونَهم ولا تربطُهم بهم أواصر وصِلاتٌ غيرُ صلةِ الدّينِ والأخوّةِ في اللهِ، فكانَتْ أعظمَ صِلةٍ... أعطَوا مِنْ غيرِ منٍّ، وقدّمُوا كلَّ شيءٍ قبلَ أنْ يطلبَ أحدٌ أيَّ شيءٍ، وهمْ ربَّما لم يسمعُوا بعدُ أحاديثَ رسولِ اللهِ ﷺ في النّصرةِ والإيثارِ "مَنْ نصرَ أخاهُ المسلمَ بظهرِ الغيبِ نصرَهُ اللهُ في الدّنيا والآخرةِ، ومَنْ سترَ أخاهُ المسلمَ سترَه اللهُ في الدّنيا والآخرةِ"[1] وحديثُ: " مَنْ أحبَّ للهِ، وأبغضَ للهِ، وأعطى للهِ، ومنعَ للهِ فقد استكملَ الإيمانَ"[2] .

شيءٌ غريبٌ حقاً لا يُفسّره إلا أنّ الإيمانَ يجبُ أن يكونَ هذا فِعله وتلك آثاره في النفس والسلوك!

---

[1] – المطالبُ العاليةُ للحافظِ بنِ حجرٍ العسقلاني:٢٥٨٤

[2] – سننُ أبي داود :٤٠٨٢

أقارن نفسي مع إيمان صحابة رسول الله ﷺ!

المفارقةُ صعبةٌ! لكنّ ذلكَ يجبُ أن يدفعني للأمامِ لا أنْ يُحبطني... يجبُ أن يُرشدني كيف أجعلُ إيماني كإيمانهم.

إنّ الإيمانَ إذا نزلَ في قلبٍ سليمٍ صافٍ أُشربَ فيه وتغلغلَ، فغدَتِ الأفعالُ والأقوالُ تعبّرُ عنْ ذلكَ المعقودُ في الفؤادِ، فلم تعدْ تهمُّهُ المؤثراتُ الخارجيّةُ أو المكافآت الماديّةُ. ومَنْ كانَ هذا ديدنُهُ انحنَتْ الصّعابُ أمامَ قدمَيهِ وتغيّرَ الكونُ وفقَ صنعِ يديهِ، لأنَّ يداهُ متّصلتانِ بأعظمِ قوّةٍ في الأرضِ، وقلبُهُ مؤمنٌ بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

آيةٌ عظيمةٌ تضعُ منابعَ التّغييرِ ومواطنَها بينَ يدَي الإنسانِ، ذلكَ الكائنُ الصّغيرُ أمامَ كونٍ واسعٍ كبيرٍ، بشرطٍ واحدٍ فقط؛ أنْ يكونَ ذلكَ الجرمُ الصّغيرُ متّصِلاً بالخالقِ العظيمِ، ثمَّ يتحرّكُ ليبدأَ التّغييرَ صابراً وواثقاً بقدرةِ اللهِ، عندها فقط يغيّرُ اللهُ لهُ ما حولَهُ مِنَ النُّفوسِ والقلوبِ والعقولِ والأرضِ والبلادِ، وما حسبُهُ صعبُ التّغييرِ، مستحيلٌ فِعلُهُ، يغدو بيدِ المُسلمِ الموصولِ بربّهِ سهلَ المنالِ، يسيرَ التّحقيقِ.

---

[1]- سورةُ الرعد : ١١

فجأة تذكرت دفترَ أخي الذي عهدتُه مرافقاً له مع كلِّ كتابٍ يقرؤه، كانَ كثيراً ما يشجّعني على قراءةِ ما فيه... أشعرُ الآنَ برغبةٍ قويّةٍ في قراءته... تلمّستُه فوجدتُه قريباً أمامي على الطّاولةِ، فتحتُهُ وعندَ أوّلِ صفحةٍ تقعُ عليها عيناي، إذْ بي أقرأُ كلماتٍ لمحمّد إقبال يخاطبُ المؤمنَ:

(إنَّ يدَ المؤمنِ هي جارحةُ القدرةِ الإلهيّةِ، فهي غلابةٌ، فتّاحةٌ، قاهرةٌ، ناصرةٌ، أصلُهُ مِنْ ترابٍ وفطرتُهُ مِنْ نورٍ.

عبدٌ تخلّقَ بأخلاقِ اللهِ واستغنى عنِ العالمِينَ، آمالُهُ ومطامعُهُ قليلةٌ، وأهدافُهُ ومطامحُهُ رفيعةٌ جليلةٌ، ألقي عليه الحُبَّ وكُسيَ المهابةَ والجمالَ، رقيقٌ رفيقٌ في الحديثِ، قويٌّ نشيطٌ في الكفاحِ، نزيهٌ بريءٌ في السّلمِ والحربِ، إنَّ إيمانَهُ هو نقطةُ الدّائرةِ الّتي يدورُ حولَها العالَمُ، وكلُّ ما عداه وَهْمٌ وطلسمٌ ومجازٌ).

ثمَّ قلّبتُ صفحاتٍ عدّةً فإذا بكلماتٍ أخرى تهزُّني للكاتبِ نفسِهِ:

(لقد فقدَ المسلمُونَ سُؤرةَ الحُبِّ الصّادقِ ونَزَفَ فيهم دمُ الحياةِ فأصبحوا هيكلاً مِنْ عظامٍ لا روحَ فيهِ ولا دمَ، الصّفوفُ زائغةٌ والقلوبُ مضطربةٌ والسّجدةُ لا لذّةَ فيها، ذلكَ لأنَّ القلبَ خالٍ مِنَ الحنانِ).

أحسستُ بحُزنٍ دفينٍ يعتصرُ قلبي، فأينَ نحنُ مِنْ يدِ ذاكَ المُؤمنِ؟

وكأنَّ الشّاعرَ قد وضعَ يدَهُ على الجُرحِ وحدّدَ المشكلةَ...
أجسادٌ تتحرّكُ بقلوبٍ هواءٍ.. أو قلوبٍ زائغةٍ عنِ الحبيبِ الحقيقيّ... شغلَتْها الأمانيُّ والتُّرّهاتُ وأحبّتِ الصُّورَ بدلَ الأصلِ، كغبيٍّ أحبَّ صورةَ حبيبهِ فهو يخاطبُها، نسيَ حبيبَهُ وانشغلَ بالصّورةِ عنِ الشّخصِ ذاتِهِ. أَوليسَ هذا غباءً؟ ونحنُ الذينَ تخرّجْنا منْ مدارسَ وجامعاتٍ أو حتّى دراساتٍ عُليا ثمَّ نقعُ في هذا الشّركِ التّافهِ!... انشغلْنا بصورٍ خلقَها اللهُ لنا مِنْ متعٍ للدّنيا وأشخاصٍ أحببْناهُم... وما هم إلا صورٌ لصنعِ اللهِ ونسيْنا الخالقَ الصّانعَ، الحبيب الذي لا يموت ؟

كم غيّرَتْ فيَّ سيرتُكَ يا رسولَ اللهِ... لم تنقدحْ تلكَ المعاني الرّاقيةُ في قلبي وعقلي قبلَ ذلك قطّ.

إنّ صفاءَكَ وصدْقَ عطائِكَ وانعكاسَ ذلكَ على أصحابك، وتحوّلهم إلى نهرٍ مِنْ فيضِكَ، ذلكَ كلُّهُ يثيرُ في النّفس الشّوقَ إلى تلكَ المعاني النّبيلةِ والفِعالِ العظيمةِ، وتضعانِ هذا الجيلَ أمامَ مقارنةٍ واضحةِ الفُروقِ، بيّنةِ الاختلافِ... وكأنَّها مقارنةٌ بينَ قزمٍ قصيرٍ وعملاقٍ ضخمٍ، البَونُ شاسعٌ والمقارنةُ يسيرةٌ... إذ لا وجهَ للمقارنةِ... واضحةٌ وضوحَ الشمسِ، عميقةُ الحُزنِ لأنَّ هذَينِ الشّخصَينِ يُفترضُ أنّهما قد شربا مِنَ النّبعِ نفسِه، مِنَ المَعينِ ذاتِهِ، لكنَّ اختلافَ الأثرِ

يدلُّ على أنَّهما ليسا كذلكَ وأنَّ القزمَ لم يشربْ لذا تضاءلَ جسدُهُ وهزُلَ جِسمُهُ.

استرخيْتُ قليلاً إذ أحسسْتُ أنَّ الوَهَنَ أصابَني أمامَ تلكَ المقارنةِ ثمَّ تذكرْتُ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[1] أعدتُها ورددّتها كثيراً... عشراتِ المرّاتِ فإذا بقوّةٍ بدأَتْ تتسرّبُ داخلي، تعيدُ لجسميَ القوّةَ وتبدّلُ الضّعفَ عزماً، كيفَ داخلَ اليأسُ قلبي فأصابَ جسدي بالوَهَنِ؟ إنّهُ جلَّ جلالُه لم يشترطْ ليغيّرَ ما حولَنا سوى أنْ نُغيّرَ أنفسَنا. قوّةٌ هائلةٌ وضعَها خالقُ السّمواتِ بيدِ هذا الإنسانِ، ومِعولٌ عظيمٌ ليبنيَ الكونَ مِنْ جديدٍ.

إنَّ سيرتَكَ يا حبيبَ اللهِ لَتروي الظمآنَ وتوقظُ الغفلانَ وتعيدُ القوّةَ والنّشاطَ للقلوبِ المَيْتةِ والنّفوسِ الضّعيفةِ... صلّى اللهُ عليكَ وسلّمَ.

---

[1]- سورةُ الرّعد : ١١

هجرةُ الرّسولِ الكريمِ ﷺ :

جاءَ في صحاحِ السُّنّةِ وما رواهُ علماءُ السّيرةِ أنّ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لمّا وجدَ المسلمِينَ قد تتابعُوا مهاجرِينَ إلى المدينةِ جاءَ يستأذنُ رسولَ اللهِ ﷺ هو الآخر في الهجرةِ. فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: "على رِسْلِكَ، فإنّي أرجُو أنْ يُؤذَنَ لِي" فقالَ أبو بكرٍ: "وهل ترجُو ذلكَ بأبي أنتَ وأُمّي؟" قالَ :" نعم". فحبسَ أبو بكرٍ نفسَهُ على رسولِ اللهِ ﷺ ليصحبَهُ، وعلفَ راحلتَينِ كانتا عندَهُ، وأخذَ يتعهّدُهما بالرّعايةِ أربعةَ أشهرٍ

وفي هذهِ الأثناءِ رأتْ قريشٌ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قد صارَتْ لهُ شيعةٌ وأصحابٌ مِنْ غيرِهم بغيرِ بلدِهم، فحذِرُوا خروجَ رسولِ اللهِ ﷺ إليهم وخافُوا أنْ يكونَ قد أجمعَ لحربِهم. فاجتمعُوا لهُ في دارِ النّدوةِ (وهي دارُ قصيّ بنِ كلابٍ الّتي كانَتْ قريشٌ لا تقضي أمراً إلا فيها) يتشاورُونَ فيما يصنعُون بأمرِ رسولِ اللهِ ﷺ، فاجتمعَ رأيهم أخيراً على أنْ يأخذُوا مِنْ كلِّ قبيلةٍ فتىً شابّاً جلْداً، ثمَّ يُعطى كلٌّ منهم سيفاً صارماً، ثمَّ يعمدُوا إليهِ فيضربُوه ضربةَ رجلٍ واحدٍ فيقتلُوهُ، كي لا يقدِرَ بنو عبدِ منافٍ على حربِهم جميعاً، وضربُوا لذلكَ ميعادَ يومٍ معلومٍ، فأتى

جبريلُ عليهِ السلامُ رسولَ اللهِ ﷺ يأمرُهُ بالهجرةِ، وينهاهُ أنْ ينامَ في مضجعِهِ تلكَ الليلةَ.

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ كَانَ لَا يُخْطِئُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيْ النَّهَارِ إِمَّا بُكْرَةً وَإِمَّا عَشِيَّةً حَتَّى إذَا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي أُذِنَ فِيهِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْهِجْرَةِ وَالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَيْ قَوْمِهِ أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْهَاجِرَةِ فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَأْتِي فِيهَا. قَالَتْ فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ السَّاعَةَ إِلَّا لِأَمْرٍ حَدَثَ. قَالَتْ فَلَمَّا دَخَلَ تَأَخَّرَ لَهُ أَبو بَكْرٍ عَنْ سَرِيرِهِ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إلَّا أَنَا وَأُخْتِي أَسَمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَخْرِجْ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ وَمَا ذَاكَ؟ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي. فَقَالَ: إنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهِجْرَةِ. قَالَتْ فَقَالَ أَبو بَكْرٍ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: الصُّحْبَةَ. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا شَعُرْت قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ أَحَدًا يَبْكِي مِنْ الْفَرَحِ حَتَّى رَأَيت أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إنَّ هَاتَيْنِ رَاحِلَتَانِ قَدْ كُنْت أَعْدَدْتهمَا لِهَذَا. فَاسْتَأْجَرَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَرْقَطِ - رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّئَلِ بْنِ

بَكْرٍ وَكَانَتْ أُمّهُ امْرَأَةً مِنْ بَنِي سَهْمِ بْنِ عَمْرٍو، وَكَانَ مُشْرِكًا – يَدُلّهُمَا عَلَى الطّرِيقِ فَدَفَعَا إلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، فَكَانَتَا عِنْدَهُ يَرْعَاهُمَا لِمِيعَادِهِمَا[1] .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَلَمْ يَعْلَمْ فِيمَا بَلَغَنِي، بِخُرُوجِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ أَحَدٌ ، حِينَ خَرَجَ إلّا عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ، وَآلُ أَبِي بَكْرٍ. أَمّا عَلِيّ فَإِنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ – فِيمَا بَلَغَنِي – أَخْبَرَهُ بِخُرُوجِهِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَخَلّفَ بَعْدَهُ بِمَكّةَ حَتّى يُؤَدّيَ عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ الْوَدَائِعَ الّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ لِلنّاسِ وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ لَيْسَ بِمَكّةَ أَحَدٌ عِنْدَهُ شَيْءٌ يُخْشَى عَلَيْهِ إلّا وَضَعَهُ عِنْدَهُ لِمَا يُعْلَمُ مِنْ صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .

فَلَمّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ الْخُرُوجَ أَتَى أَبَا بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ فَخَرَجَا مِنْ خَوْخَةٍ لِأَبِي بَكْرٍ فِي ظَهْرِ بَيْتِهِ ثُمّ عَمَدَ إلَى غَارٍ بِثَوْرٍ – جَبَلٍ بِأَسْفَلِ مَكّةَ – فَدَخَلَاهُ وَأَمَرَ أَبُو بَكْرٍ ابْنَهُ عَبْدَ اللّهِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ أَنْ يَتَسَمّعَ لَهُمَا مَا يَقُولُ النّاسُ فِيهِمَا نَهَارَهُ ثُمّ يَأْتِيهِمَا إذَا أَمْسَى بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ الْخَبَرِ ؛ وَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ مَوْلَاهُ أَنْ يَرْعَى غَنَمَهُ نَهَارَهُ ثُمّ يُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا ، يَأْتِيهِمَا إذَا أَمْسَى فِي الْغَارِ . وَكَانَتْ أَسَمَاءُ

[1] – انظر (السيرة النبوية) لابن هشام، ص ٢٧٣ – ٢٧٤

بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ تَأْتِيهِمَا مِنْ الطَّعَامِ إِذَا أَمْسَتْ بِمَا يُصْلِحُهُمَا[١] .

وروى ابنُ إسحاقَ والإمامُ أحمدُ، كلاهما عنْ يحيى بنِ عبّادٍ بنِ عبدِ اللهِ بنِ الزّبيرِ، عنْ أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ قالَتْ:" لمّا خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ وخرجَ معَهُ أبو بكرٍ، احتملَ أبو بكرٍ مالَهُ كلَّهُ معَهُ خمسةَ آلافِ درهمٍ أو ستةَ آلافِ درهمٍ، قالَتْ: وانطلقَ بها معَهُ" . قالَتْ: "فدخلَ علينا جدّي أبو قحافةَ وقد ذهبَ بصرُهُ فقال: واللهِ إنّي لأراهُ قد فجعَكُم بمالِهِ معَ نفسِهِ، قلْتُ: كلا يا أبتِ، إنّهُ قد تركَ لنا خيراً كثيراً، قالَتْ: فأخذْتُ أحجاراً فوضعتُها في كوّةٍ في البيتِ الذي كانَ أبي يضعُ مالَهُ فيها، ثمَّ وضعْتُ عليها ثوباً، ثمَّ أخذْتُ بيدِهِ، فقلْتُ: يا أبتِ ضعْ يدكَ على هذا المالِ. قالَتْ: فوضعَ يدَهُ عليهِ قال: لا بأسَ إذا كانَ تركَ لكمْ هذا فقدْ أحسنَ، وفي هذا بلاغٌ لكم. ولا واللهِ ما تركَ لنا شيئاً ولكنّي أردتُ أنْ أُسكِتَ الشّيخَ بذلكَ" . ولمّا كانَتْ عتمةُ تلكَ الليلةِ الّتي هاجرَ فيها النّبيُّ ﷺ اجتمعَ المشركُونَ على بابِ رسولِ اللهِ ﷺ يتربّصُونَ بهِ ليقتُلوهُ، ولكنّهُ ﷺ خرجَ مِنْ بينِهم، وقد ألقى اللهُ عليهم سِنةً مِنَ النّومِ بعدَ أنْ تركَ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ في مكانِهِ نائماً على

---

[١] - المرجع السابق ،ص ٢٧٤

فراشِهِ، وطمْأَنَهُ بأنَّهُ لنْ يصلَ إليه أيُّ مكروهٍ.

وانطلقَ رسولُ اللهِ وصاحبُهُ أبو بكرٍ إلى غارِ ثورٍ ليقيما فيهِ، وكانَ ذلكَ على الأرجحِ في اليومِ الثّاني مِنْ ربيعِ الأوّلِ الموافقِ ٢٠ أيلول سنةَ (٦٢٢م) بعدَ أنْ مضى ثلاثَ عشْرةَ سنةٍ مِنَ البعثةِ، فدخلَ أبو بكرٍ قبلَ الرّسولِ ﷺ فلمسَ الغارَ، لينظرَ أفيهِ سبعٌ أو حيّةٌ، يقي رسولَ اللهِ ﷺ بنفسِهِ، فأقاما فيهِ ثلاثةَ أيامٍ، وكانَ يبيتُ عندَهُما عبدُ اللهِ بنِ أبي بكرٍ يخبرُهما بأخبارِ مكّةَ، ثمَّ يُدلِجُ مِنْ عندِهما بسَحَرٍ، فيصبحُ معَ قريشٍ بمكّةَ كبائتٍ بها، وكانَ عامرٌ بنُ فهيرةٍ يروحُ عليهما بقطعةٍ منَ الغنمِ، فإذا خرجَ مِنْ عندِهما عبدُ اللهِ تبعَ عامرٌ أثرَهُ بالغنمِ كي لا يظهرَ لقدمَيْهِ أثرٌ.

أمّا المشركُونَ فقد انطلقُوا – بعدَ أنْ علمُوا بخروجِ النّبيِّ ﷺ –ينتشرُونَ في طريقِ المدينةِ ويفتّشُونَ عنهُ في كلِّ المَظانِّ، حتّى وصلُوا إلى غارِ ثورٍ، وسمعَ الرّسولُ وصاحبَهُ أقدامَ المشركِينَ تخفقُ مِنْ حولِهم فأخذَ الرَّوْعُ أبا بكرٍ وهمسَ يُحدّثُ النّبيَّ ﷺ:" لو نظرَ أحدُهم تحتَ قدمِهِ لرآنا" . فأجابَهُ ﷺ:" يا أبا بكرٍ ما ظنُّكَ باثنينِ اللهُ ثالثُهما ؟" فأعمى اللهُ أبصارَ المشركِينَ حتّى لم يحِنْ لأحدٍ منهم التفاتةً

إلى ذلكَ الغارِ، ولم يخطُرْ ببالِ واحدٍ منهم أنْ يتساءلَ عمّا يكونُ بداخِلِه.

ولمّا انقطعَ الطّلبُ عنهما خرجَا، بعدَ أنْ جاءَهُما عبدُ اللهِ بنِ أرقطَ (وهو منَ المشرِكِينَ، كانا قد استأجراه ليدلّهُما على الطُّرقِ الخفيّةِ إلى المدينةِ بعدَ أنِ اطمأنّا إليهِ، و واعداهُ معَ الراحلتَينِ عندَ الغارِ) فسارا متتبّعَينِ طريقَ السّاحلِ بإرشادٍ مِنْ عبدِ اللهِ بنِ أرقطَ. وكانَ قد جعلَ مشركُو مكّةَ لكلِّ مَنْ أتى برسولِ اللهِ ﷺ وأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ديّةَ كلٍّ منهما.

وذاتَ يومٍ، بينما كانَ جماعةٌ منْ بني مُدلجٍ في مجلسٍ لهم، وبينَهم سراقةُ بنُ جعشمٍ، إذ أقبلَ إليهم رجلٌ فقالَ: إنّي قد رأيتُ آنفاً أسودةً بالساّحلِ، أراهما محمداً وأصحابَهُ. فعرَفَ سراقةُ أنّهم هم، ولكنّهُ أرادَ أنْ يثنيَ عزمَ غيرِهِ عنِ الطّلبِ، فقالَ لهُ: إنّكَ قد رأيتَ فلاناً وفلاناً، انطلقُوا بأعيُننا يبتغُونَ ضالّةً لهم.

قالَ سراقةُ : فأخذْتُ رمحي وخرجْتُ مِنْ ظهرِ البيتِ وأنا أخطُّ بزجّهِ الأرضَ حتّى أتيْتُ فرسي فركبتُها فدفعْتُها ففرّتْ بي حتّى دنوتُ منهم فعثَرَتْ بي فرسي فخررْتُ عنها فقمْتُ، وامتطى سراقةُ فرسهُ مرّةً أخرى وزجرَها فانطلقَتْ حتّى قَرُبَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ وصاحبِه، وكانَ أبو بكرٍ يكثُرُ الالتفاتَ يتبيّنُ هذا العدوَّ

الجسورَ، فلمّا دنا عرفَهُ فقالَ لرسولِ اللهِ ﷺ وكانَ ماضياً إلى غايتِهِ : هذا سراقةُ ابنُ مالكٍ قد رهقَنا، وما أتمَّ كلامَهُ حتّى هَوتِ الفرسُ مرةً أخرى ملقيةً سراقةَ مِنْ على ظهرِها، فقامَ مُعفرًا ينادي بالأمانِ. وقعَ في نفسِ سراقةَ أنَّ الرّسولَ عليه الصلاة و السلام حقٌّ، فاعتذرَ إليه وسألهُ أنْ يدعوَ اللهَ له، وعرضَ عليهما الزادَ والمتاعَ فقالا : لا حاجةَ لنا ولكنْ عمِّ عنّا الطّلبَ، فقالَ : قد كُفيتُم. ثمّ رجعَ فوجدَ النّاسَ جادّينَ في البحثِ عنْ محمّدٍ عليهِ الصّلاةُ و السّلامُ فجعلَ لا يلقى أحداً مِنَ الطّلبِ إلا ردَّهُ وهو يقولُ : كُفيتُم هذا الوجه.[1]

وهكذا انطلقَ إليهما في الصّباحِ جاهداً في قتلِهما، وعادَ في المساءِ يحرسُهما ويصرفُ النّاسَ عنهما .

إذنٌ سماويٌّ بالهجرةِ، وعهدٌ مِنَ اللهِ بعصمةِ رسولِهِﷺ... كلُّ ذلكَ لا يجعلُ رسولَ اللهِ ﷺ يغفلُ عنْ جانبٍ واحدٍ مِنْ جوانبِ التّخطيطِ والإعدادِ البشريِّ لتلكَ المَهمّةِ الشّريفةِ... ابتدأَ التّخطيطُ بإعدادِ أداةِ السّفرِ قبلَ أشهرٍ (الرّاحلتَينِ)، ثُمَّ تهيئةِ دليلِ الرّحلةِ كي يسلُكَ بهما

[1] – فقه السيرة، محمد الغزالي. ص ١٦٥

طريقاً مغايراً لطريقِ القوافلِ المعتادِ، وتخصيصِ مَـنْ يمـدُّهم بتحرُّكـاتِ قريشٍ أوّلاً بأوّل، كي يعدّلوا الخطّةَ إنِ احتاجَ الأمرُ لـذلكَ، وكـذلكَ لتوفيرِ المؤونةِ، ثُمَّ تأتي الحركـةُ الذّكيّـةُ في الاتجـاهِ أوّلاً عكـسَ الجهـةِ المقصودةِ، فاتّجهَ جنوباً نحو غارِ ثورٍ بينما يثربُ تقعُ في الشّمالِ، ولم ينسَ ﷺ مَنْ يعفو آثارَهما، فجعلَ عامراً بنَ فهيرةَ يقومُ بتلـكَ المَهمّـةِ مِنْ خلالِ أغنامِه.

تخطيطٌ دقيقٌ شملَ جميعَ الجوانـبِ فلـم يـتركْ عـاملاً يمكـنُ أنْ يـؤثّرَ لم يأخذْهُ بعينِ الاعتبارِ، كما توقّـعَ المُشـكلاتِ ووضـعَ لهـا حلـولاً قبـلَ حدوثِها، ثمَّ قبلَ هذا وذاكَ كانَ القلبُ المتّصلُ باللهِ (مـا ظنُّـكَ بـاثنينِ اللهُ ثالثُهما) الّذي يسـيرُ بمعيّـةِ اللهِ وتوفيقِـهِ، عندئـذٍ لابـدَّ للغايـاتِ أنْ تنجحَ، ذلكَ لَمنِ استكملَ الأسبابَ وتوكّلَ على ربِّ الأسبابِ.

صلّى اللهُ عليكَ وسلّمَ فمِنْ هجرتِكَ نتعلّمُ مهارةَ التّخطـيطِ في اعتبـارِ جميعِ العواملِ المُؤثّرةِ وتوقُّعِ العقباتِ ووضعِ حلولٍ لها قبـلَ حـدوثِها.. يا الله ! درسٌ عمليٌّ للنّجاحِ في مهارةِ التّخطيطِ يعلّمُنا إيّاهُ رسولُ اللهِ ﷺ منذُ ألفٍ وأربعمئةِ سنةٍ، ونحنُ الآنَ نتلقّفُهُ مِنَ الغـربِ في دوراتٍ وتدريباتٍ جماعيّةٍ و كتبٍ ....!

شيءٌ غريبٌ حقّاً .. ما أزهدَنا بما لدينا مِنْ كنوزٍ، لو فقهناها وأعملْنا فكرَنا لسُدنا بهِ مِنْ جديدٍ. إلا أنَّ الغربَ لا يملِكُونَ هذا الجنـاحَ الهـامّ

جناحَ الصّلةِ باللهِ، لذلكَ فمشيُهم أعرجُ مهما أعملُوا الفكرَ.. والدّليلُ هو نتاجُ هذهِ الحضارةِ التي كانَت حروباً ودماراً وفساداً في الأخلاقِ والحياةِ!

هذا هو الدّرسُ الذي أرادَ ﷺ أنْ يُعلّمَهُ للعالمِ أجمع منْ درسِ الهجرةِ، درسُ العقلِ والقلبِ، درسُ إعمالِ الفكرِ وطلبِ المعونةِ منْ ربِّ الخلقِ، درسُ التخطيطِ ومهاراتِ التّفكيرِ في اعتبارِ جميعِ العواملِ والاحتمالاتِ، ووضعِ الخططِ والبدائلِ لحلِّ المشكلاتِ قبلَ حدوثِها، بقلبٍ متّصلٍ بربِّ المسبّباتِ، عندئذٍ فقط يستجيبُ القدرُ ويغيّرُ اللهُ الكونَ، ليرتسمَ وفقَ هذا الذي رسمَ وخطّطَ وعَقَلَها وسارَ بمعيّةِ اللهِ ونورِهِ.

أمّا خبرُ وفائِه ﷺ بأماناتِ قريشٍ، وتخصيصِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنه للقيامِ بتلكَ المهمّةِ، فهو يضعُ إشارةً حمراءَ عظيمةً عندَ مَنْ يدَّعُون أنَّ الأخلاقَ والمبادئَ الّتي يجبُ أن يتّصفَ بها المسلمونَ خاصّةً مع المسلمِينَ فقط، وأنّهم يجوزُ لهم التّصرفُ خلافَ ذلكَ معَ النّصارى أو الملحدِين، وأنَّ الضروراتِ تبيحُ المحظوراتِ فالجوابُ هنا.

لقد أخذَ الكفّارُ أموالَ المسلمِينَ وديارَهم ومنعُوهما المسلمِينَ المهاجرِينَ إلى يثربَ، أفلا يجوزُ للرّسولِ أنْ يقتصَّ منهم فتكونُ هذه بتلك ؟! ألا تبيحُ حاجتُهم إلى المالِ والمسكنِ والتّجارةِ المسلوبةِ أخذَ

أموالِ المشركِينَ؟...

لنسألَ أنفسَنا سؤالاً بطريقةٍ مختلفةٍ:

ماذا لو لم يُعِدْ رسولُ اللهِ ﷺ أموالَ قريشٍ ويرسّخْ مبدأَ الأمانةِ؟

ما هي النّظرةُ الّتي سينظُرُها النّاسُ إلى هذا الدّينِ؟

وما الفارقُ عندئذٍ بينَهُ وبينَ أيِّ جماعةٍ سياسيّةٍ أو أرضيّةِ المبدأ ؟

صلّى اللهُ عليكَ وسلّمَ يا سيّدي يا رسولَ اللهِ، رسّخْتَ فكرةَ أنّ المبدأَ ثابتٌ لا يتغيّرُ معَ الظّروفِ، فليسَ هناكَ للمرونةِ مكانٌ، المرونةُ في غيرِ الثّوابتِ، في الاجتهاداتِ والآراءِ البشريّةِ الّتي تحتملُ الخطأَ والصّوابَ، وليسَ في قيمٍ ومبادئَ هي مرتكزاتُ الدّينِ السّماويّ.

ما أحوجَنا إلى تلكَ المعاني والأخلاقِ الرّفيعةِ لتعيدَ صورةَ المسلمِ مشرقةً نقيّةً خاليةً منَ التّشوّهِ أو الانحرافِ.

قدومُ قُباء:

ووصلَ رسولُ اللهِ ﷺ قُباءَ، فاستقبلَهُ مَنْ فيها وأقامَ فيها بضعةَ أيّامٍ نازلاً على كلثومِ بنِ هدمٍ، حيثُ أدركَه فيها عليٌّ رضيَ اللهُ عنه بعدَ أنْ أدّى عنهُ الودائعَ إلى أصحابِها . و أسّس النبيُّ ﷺ هناكَ مسجدَ قُباءٍ، وهو المسجدُ الذي وصفَهُ اللهُ بقولِه: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1]، ثمَّ واصلَ سَيرَهُ إلى المدينةِ فدخلَها لاثنتَيْ عشْرةَ ليلةٍ خلَتْ مِنْ ربيع الأوّلِ على ما ذكرَهُ المسعوديُّ فالتفّتَ مِنْ حولِهِ الأنصارُ، كلٌّ يمسكُ زمامَ راحلتِهِ يرجو النّزولَ عندَهُ فكانَ ﷺ يقولُ لهم:" دعوها فإنّها مأمورةٌ"، فلم تزلْ راحلتُهُ تسيرُ في فجاجِ المدينةِ وسِككها حتّى وصلَتْ إلى مريدٍ لغلامَيْنِ يتيمَيْنِ مِنْ بني النّجارِ أمامَ دارِ أبي أيوبِ الأنصاريّ، فقالَ النّبيُّ ﷺ: "ههنا المنزلُ إنْ شاءَ اللهُ" . وجاءَ أبو أيوبٍ فاحتملَ الرّحلَ إلى بيتِهِ، وخرجَتْ ولائدُ مِنْ بني النّجارِ –فيما يرويهِ ابنُ هشامٍ– فرِحاتٍ بمَقدمِ النّبيّ ﷺ، وجوارِهِ لهنَّ، وهُنَّ ينشدْنَ:

---

[1] – سورةُ التّوبة :١٠٨

نحنُ جوارٌ مِنْ بني النّجّارِ   يا حبذا محمّدٌ مِنْ جارِ

فقالَ عليهِ السّلامُ لهنَّ: أتحببْنَني ؟ " فقلْنَ:" نعم" فقالَ:" اللهُ يعلمُ أنَّ قلبي يحبُّكنّ" .

صورةٌ عَنْ مَقام النّبيّ ﷺ في بيتِ أبي أيوبٍ :

روى أبو بكرٍ بنِ أبي شيبةَ وابنُ إسحاقَ والإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ منْ طرقٍ متعدّدةٍ بألفاظٍ متقاربةٍ أنَّ أبا أيوبٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ وهو يحدّثُ عنْ أيّامِ رسولِ اللهِ ﷺ عندَهُ:" لمّا نزلَ رسولُ اللهِ ﷺ في بيتي نزلَ في أسفلِ البيتِ وأنا وأمُّ أيوبٍ في العُلوّ، فقلْتُ لهُ: يا نبيَّ اللهِ، بأبي أنتَ وأمّي إنّي لأكرَهُ وأعظّمُ أنْ أكونَ فوقَكَ وتكونَ تحتِي، فاظْهرْ أنتَ فكنْ في الأعلى، وننزلُ نحنُ نكونُ في الأسفلِ. فقالَ ﷺ: يا أبا أيوبٍ، إنّهُ لأرفقُ بنا وبمن يغشانا أنْ نكونَ في أسفلِ البيتِ.

قالَ: فكانَ رسولُ اللهِ ﷺ في أسفلِه وكنّا فوقَه في المسكنِ، ولقد انكسرَتْ جرّةٌ لنا فيها ماءٌ يوماً، فقمْتُ أنا وأمُّ أيوبٍ بقطيفةٍ لنا، و ما لنا لحافٌ غيرَها ننشّفُ بها الماءَ، تخوّفاً أنْ يقطرَ على رسولِ اللهِ ﷺ منهُ شيءٌ يؤذيهِ، فنزلتُ إليهِ وأنا مشفقٌ، فلم أزلْ أستعطفُه حتّى انتقلَ إلى العلوّ. قالَ: وكنّا نضعُ لهُ العَشاءَ، ثمَّ

نبعثُ بِهِ إليهِ، فإذا ردَّ علينا فضلَهُ تيمّمْتُ أنا وأمُّ أيوبٍ موضعَ يدِهِ، فأكلْنا منهُ نبتغي بذلكَ البركةَ، حتّى بعثْنا إليهِ ليلةً بعشائِهِ وقد جعلْنا لهُ فيهِ بصلاً وثوماً، فردَّهُ رسولُ اللهِ ﷺ ولم أرَ ليدِهِ فيهِ أثراً، فجئْتُهُ فزعاً فقلْتُ: يا رسولَ اللهِ بأبي أنتَ وأمّي ردَدْتَ عشاءَكَ ولم أرَ فيهِ موضعَ يدِكَ، وكنتُ حينما تردُّ علينا فضلَ طعامِكَ أتيمّمُ أنا وأمُّ أيوبٍ موضعَ يدِكَ نبتغي بذلكَ البركةَ فقالَ: إنّي وجدْتُ فيهِ ريحَ هذهِ الشّجرةِ، وأنا رجلٌ أُناجَى، فأمّا أنتمْ فكلُوهُ. قالَ: فأكلناهُ ثمَّ لم نضعْ في طعامِهِ شيئاً مِنَ الثّومِ أو البصلِ بعدُ."

أدبٌ كريمٌ معَ نبيِّ الرَّحمةِ، وحبٌّ مُتبادلٌ زادَني حبّاً لأهلِ المدينةِ المنوّرةِ وامتناناً لهم.

أمّا حبُّ سيّدنا أبو بكرٍ فلا يعلو عليهِ أحدٌ، إنّه لَيضربُ المثلَ الأعلى في حبِّ النّبيِّ ﷺ وفدائِه، وصدقَ رسولُ اللهِ ﷺ (لا يؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليهِ مِنْ والدِهِ وولدِهِ والنّاسِ أجمعِين)[1].

فبدونِ هذا الحُبِّ لن تتفجّرَ ينابيعُ العطاءِ وتتحركَ الجوارحُ تعبيراً عنْ مكنونِ القلبِ، فيكونَ الولاءُ والاتّباعُ مظهراً مِنْ مظاهرِ الحُبِّ ودليلاً

[1] - صحيح البخاريّ، حديث: ١٥

على صدقِ المحبّةِ. فلا بدَّ أنْ يعيشَ العقلُ والعلمُ والقلبُ في حضانةِ الحُبِّ وإشرافِهِ وتوجيهِهِ، ولابدَّ أنْ يُغذّي الدّينَ عاطفةٌ قويّةٌ وحبٌّ منبعُهُ القلبُ المؤمنُ الحنونُ، فإذا تجرّدَ الدّينُ عَنِ العاطفةِ والحُبِّ أصبحَ مجموعةً مِنْ طقوسٍ وأوضاعٍ وأحكامٍ فقدتِ الحياةَ والروحَ والحماسةَ وقوّةَ هذا الحبِّ الّذي صنعَ المعجزاتِ، والذي بدا جليّاً واضحاً في سيّدنا أبي بكرٍ والأنصارِ والمهاجرين وأبي أيوبٍ الأنصاريّ. ولقد ضربَ سيّدنا أبو أيوبٍ مثالاً في الأدبِ والحبِّ، فلم يقوَ رضيَ اللهُ عنهُ أنْ يبيتَ ورسولُ اللهِ ﷺ في الطّابقِ الأرضيّ وهو في الطّابقِ العُلويّ .

منْ علّمَهُ الأدبَ؟ إنّها الفطرةُ السّليمةُ والحبُّ الصّافي في قلبٍ سليمٍ. ولعلَّ اختلافَ مظاهرِ الأدبِ معَ العلماءِ وورثةِ الأنبياءِ الآنَ بسببِ كُدرةٍ في المشربِ أو غشاوةٍ بالفطرةِ أو تقليدٍ غربيٍّ أعمى.

أغلقْتُ الكتابَ فلقد انتهى العصرُ المكيّ في دعوتِهِ ﷺ والسّاعةُ تشيرُ إلى الثّانيةِ بعدَ منتصفِ اللّيلِ... أردتُ أنْ أختمَ هذا الفصلَ مِنَ الكتابِ بركيعاتٍ أتوجّهُ إلى اللهِ طالباً منه العون والسداد في السيرِ على قَدَمِ الحبيبِ المُصطفى ﷺ وأصحابِه الأخيارِ بعدَ أنِ انعقدَتْ بيني وبينَهم صلاتٌ قلبيّةٌ عميقةُ الجذورِ حتّى خلْتُ نفسي أعيشُ بينَهم، أهنّئُ ذاكَ وأشدُّ أزرَ هذا وأستبشرُ فرحاً بالحِقبةِ الجديدةِ منْ حياةِ

الدّعوةِ .

حقاً إنَّ سيرةَ رسولِ اللهِ ﷺ تعدّلُ موازينَ قوى الإنسانِ في داخلِهِ، وتعطي نموذجاً بشريّاً للاقتداءِ.

تُعلّمُ طريقةَ التّفكيرِ الصّحيحةَ والتفاعلِ السليمِ للقلبِ والعقلِ، فتقدّمُ مثالاً للقلبِ السّليمِ وكيف يتفاعلُ مع أقدارِ اللهِ في السّراءِ والضّراءِ، فهماً ورضاً، فيكونُ حركةً راشدةً على أرضِهِ.

استرخيْتُ قليلاً ثمَّ تمتمْتُ بشفتيّ:

صلّى اللهُ عليكَ يا سيّدي يا رسولَ اللهِ.

ما أبعدَ حالَ الأمسِ باليومِ!!! سبحانَ مغيّرِ الأحوالِ!

الفصل الثالث

أسس المجتمع الجديد

الأساسُ الأوّلُ : بناءُ المسجدِ :

عندما وصلَ النبيُّ ﷺ يثربَ بركَتْ ناقتُهُ في موضعٍ كانَ لغلامَين يتيمينِ مِنَ الأنصارِ وكانَ أسعدُ بنُ زرارةَ قد اتّخذَهُ مصلّىً قبلَ هجرةِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى المدينةِ، فكانَ يصلّي بأصحابِهِ فيهِ. فأمرَ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يُبنى ذلكَ الموضعُ مسجداً، ودعا الغلامَين– وكانا في كفالةِ أسعدَ بنِ زرارةَ رضيَ اللهُ عنه– فسامَ رسولُ اللهِ ﷺ فيه، فقالا : بلْ نهبُهُ لكَ يا رسولَ اللهِ، فأبى رسولُ اللهِ ﷺ حتّى ابتاعَه منهما بعشرةِ دنانيرَ.

وكانَ فيهِ شجرُ غرقدٍ ونخلٌ وقبورٌ قديمةٌ لبعضِ المشركين، فأمرَ رسولُ اللهِ ﷺ بالقبورِ فنُبشَتْ وبالنخيلِ والشّجرِ فقُطعَتْ، وصُفّتْ في قِبلةِ المسجدِ، وجعلَ طولَهُ ممّا يلي القِبلةَ إلى مؤخّرِه مئَةَ ذراعٍ، وفي الجانبَين مثلُ ذلكَ أو دونَه، ثمَّ بنَوهُ باللّبن، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يباشرُ بالبناءِ معَ أصحابِهِ وينقلُ معهُم الحجارةَ بنفسِهِ، وجعلَ قبلَتَهُ إلى بيتِ المقدسِ، وجعلَ عُمُدَهُ الجذوعَ، وسقفَهُ الجريدَ. وقيلَ لهُ:

"ألا نسقفُهُ؟"

فقالَ: "عريشٌ كعريشِ موسى خشيباتٌ وثمامٌ –نبتٌ ضعيفٌ قصيرٌ– الشّأنُ أعجلُ مِنْ ذلكَ" أمّا أرضُهُ، فقد بقيتْ مفروشةً بالرّمالِ والحصباءِ.

نظرْتُ إلى المسجدِ النّبويّ مِنْ نافذةِ الغرفةِ وصورةُ الوصفِ الّذي قرأتُهُ في الكتابِ كأنّها أمامَ عيني... وكأنَّ كلماتِ النّبيّ ﷺ تتردّدُ في أذنيّ (الأمرُ أعجلُ مِنْ ذلكَ) فالأهمُّ هو جوهرُ الأمرِ وليسَ شكلُهُ، وهذا ما يركّزُ عليهِ الإسلامُ، تلكَ الفكرةُ الّتي يجبُ أنْ تُصاغَ عقولُ المسلمِينَ وتحرُّكاتِهم وفقَها، لا أنْ يكونَ الشّكلُ على حسابِ المضمونِ... فكمْ منْ ملصقاتٍ ومنتجاتٍ، كانَ الشّكلُ أهمَّ بكثيرٍ مِنَ الجوهرِ والمضمونِ، قد ينتجُ ويصمّمُ هذهِ الأشياءَ غيرُ المسلمِينَ، أمّا المسلمُونَ فيجبُ أنْ تكونَ حركتُهم وأفعالُهم ومنتجاتُهم وفقَ هذهِ الفكرةِ، ولا يعني هذا عدمُ الاهتمامِ بالشّكلِ إنّما ألا يطغى على المضمونِ ويشغلَ الشكلُ حيِّزَ الاهتمامِ وجُلَّهُ، كم كنْتُ أشعرُ مِنْ قبلُ بكثيرٍ مِنَ الامتعاضِ عندما يقعُ بينَ يديَّ منتجٌ أو إعلانٌ فأراه برّاقاً جميلاً... وعندما أغوصُ في أغوارِه أجدُهُ هزيلَ المحتوى أو فاقداً للصّدقِ أو المعنى... كنْتُ أقولُ لنفسي هل هذا ما يدعُونه فنَّ

التّسويقِ والإعلانِ؟ هل هذا مِنْ سماتِ العصرِ ويجبُ أنْ أعتادَ عليهِ؟ وعندما قرأْتُ جملةَ رسولِ اللهِ ﷺ أحسسْتُ بأنّهُ مبدأٌ عظيمٌ... لم تكنْ مجرّدَ كلمةٍ.

أمّا مشاركتُهُ ﷺ في بناءِ المسجدِ فهو يضعُ قانوناً أو مبدأً عظيماً في علمِ القيادةِ، فمشاركتُهُ ﷺ تنشّطُ الكُسالى وتوقظُ ذوي الهممِ الضّعيفةِ وتضربُ المثلَ الأعلى والقدوةَ الحسنةَ في الهمّةِ والنّشاطِ وإتقانِ العملِ، كما تسلّطُ الأضواءَ حولَ أهمِّ مؤسّسةٍ إسلاميّةٍ يجبُ أنْ يُعتَنى بها عندَ إنشاءِ المجتمعِ الإسلاميِّ والدّولةِ الإسلاميّةِ فهو المصدِّرُ للقوّةِ الرّوحانيّةِ الّتي تُشعلُ في الجندِ الحماسَ والقوّةَ عندَ ملاقاةِ العدوِّ، وهو المُنتِجُ لعَالِمِ المستقبلِ حيثُ حلقاتُ العلمِ فيهِ، وهو النّاشرُ للرّوحِ المعنويّةِ العاليةِ، والباني للصّلاتِ الاجتماعيّةِ المتينةِ بينَ الشّعبِ وحُكّامِهِ، حتّى إذا كانَتِ العلاقةُ شفّافةً بينَهم كانَتِ الدّولةُ أقوى ما يكونُ، فمنهُ تتفرّعُ المؤسّساتُ العسكريّةُ والاقتصاديّةُ والاجتماعيّةُ والتّعليميّةُ والإعلاميّةُ...

فالمسجدُ كانَ حلقةَ علمٍ، وفيهِ تُوزّعُ الأولويّةُ والجيوشُ، وتأتي الوفودُ لتُعلنَ إسلامَها وتلتقيَ بقائدِها، ويُجتمَعُ للصلاةِ لتبليغِ أمرٍ هامٍّ... فهو معقِلُ الدّولةِ الإسلاميّةِ الجديدةِ.

الأساسُ الثّاني : الأخوّةُ بينَ المسلمِين :

ثمَّ إنَّ الرّسولَ ﷺ آخى بينَ أصحابِهِ مِنَ المهاجرِينَ والأنصارِ، آخى بينَهم على الحقِّ والمواساةِ، وعلى أنْ يتوارثُوا بينَهم بعدَ المماتِ، بحيثُ يكونُ أثرُ الأخوّةِ الإسلاميّةِ في ذلكَ أقوى مِنْ أثرِ قرابةِ الرَّحمِ.

فجعلَ جعفراً بنَ أبي طالبٍ ومعاذَ بنَ جبلٍ أخوَينِ، وجعلَ حمزةَ بنَ عبدِ المطّلبِ وزيداً بنَ حارثةَ أخوَينِ، وجعل أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وخارجةَ بنَ زهيرٍ أخوَينِ، وعمرَ بنَ الخطّابِ وعتبانَ بنَ مالكٍ أخوَينِ وعبدَ الرّحمنِ بنَ عوفٍ وسعداً بنَ الرّبيعِ أخوَينِ. . . وهكذا . .

ثمَّ ربطَ النّبيُّ ﷺ هذا التآخي بينَ أفرادِ الصّحابةِ بنطاقٍ عامٍّ مِنَ الأخوّةِ والموالاةِ وقد قامَتْ هذهِ الأخوّةُ على أُسسٍ ماديّةٍ، وكانَ حكمُ التّوارثِ فيما بينَهم مِنْ بعضِ هذهِ الظّواهرِ الماديةِ، وظلّتْ حقوقُ هذا الإخاءِ مقدَّمةً على حقوقِ القرابةِ إلى موقعةِ بدرٍ الكُبرى، حيثُ نزلَ في أعقابِها قولُه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ

ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾[1]

فنسخَتْ هذهِ الآيةُ ما كانَ قبلَها وانقطعَ أثرُ المؤاخاةِ الإسلاميّةِ في الميراثِ ورجَعَ كلُّ إنسانٍ في ذلكَ إلى نسبِهِ وذوي رحِمِهِ، وأصبحَ المؤمنونَ كلُّهم إخوةٌ.

أُعجبْتُ بالطّريقةِ الرّائعةِ الّتي كانَتْ حلاً لجميعِ مشكلاتِ المهاجرِينَ والأنصارِ. ما أعظمَكَ يا رسولَ اللهِ!

فالمشكلةُ الأولى أنّهما مِنْ قبيلتَينِ مختلفتَينِ والعربُ جُبلَتْ على العصبيّةِ القبليّةِ، فليسَ مِنَ السّهلِ على الطرفَين، وإنْ كانَ ذلكَ أسهلَ على المهاجرِينَ، إذ إنَّ روابطَ الأخوّةِ الّتي عاشُوها في مكّةَ، والألَمَ والهدفَ الّذي وحَّدَهُم، وفرّقَ بينَ إخوانِهم ووالديْهم على أساسِ العقيدةِ لا العصبيّةِ، جعلَ بناءَ الألفةِ والتّواصلِ على أساسِ الدّينِ أيسرَ... بينما الأنصارُ فقد كانُوا جديدِيْ العهدِ بالإسلامِ، لم يصحبُوا رسولَ اللهِ ﷺ كما صحبَه المهاجرِينَ ولم يحظَوا بإرشادِهِ ﷺ فترةً طويلةً.

وإلى غدٍ قريبٍ كانَ الأوسُ والخزرجُ في حربٍ دائرةٍ، ولم تهدأِ

---

[1]- سورةُ الأنفالِ : ٧٥

النّفوسُ إلا منذُ زمنٍ قريبٍ، ولربّما ساعدَ الإسلامُ وقيامُ الدّولةِ الإسلاميّةِ في مدينتِهم على توحيدِ الصّفوفِ بينَهم .

أمّا **المُشكلةُ الثّانيةُ** فهي مشكلةُ المهاجرينَ اقتصاديّاً واجتماعيّاً ونفسيّاً، فقد فارقَ الكثيرُ منهُم الأزواجَ والأولادَ، بلا مأوىً، ولا تجارة... إذ إنَّ قريشاً لم تسمحْ لهم بالهجرةِ مع أموالِهم وتجارتِهم. كما أنَّ وفودَ المهاجرينَ قد أضافَ عبئاً اقتصاديّاً واجتماعيّاً على الأنصارِ، سيّما أنّهم قد خسرُوا جزءاً مِنْ صادراتِ تمورِهم إلى مكّةَ.

أمّا **المشكلةُ الثّالثةُ** فهي دمجُ هذهِ الفئاتِ معَ اختلافِ المستوياتِ الإيمانيّةِ والعمرِ الإيمانيِّ بينَ الأنصارِ والمهاجرينَ... إذ يمكنُ اعتبارُ المهاجرينَ كالأساتذةِ في مادّةِ الإيمانِ والدّينِ مقارنةً مع الأنصارِ الّذينَ يمكنُ أنْ يكونُوا تلامذةً لهم. فما السّبيلُ لتسريعِ تعلّمِ الأنصارِ، ورفعِ المستوى الإيمانيِّ كي يصبحَ المجتمعُ يداً واحدةً في العطاءِ والفداءِ؟

ما هي الحلولُ لجميعِ تلكَ المُشكلاتِ؟

لقد كانَتْ **الأخوّةُ** الّتي عقدَها النّبيُّ ﷺ هي الحلُّ.

فلو دقّقْنا النّظرَ في الشّخصياتِ الّتي تمّتِ المُؤاخاةُ بينَها لَما وجدْنا رابطاً يربِطُ بينَ الأخوَين سوى رابطةِ الدّينِ... وكلُّ ذلكَ في سبيلِ أنْ يكونَ الدِّينُ هو أساسُ المجتمعِ، وعليهِ تقومُ الصّلاتُ والأعمالُ.

أرادَ النّبيُّ ﷺ أنْ يغرِسَ هذهِ الفكرةَ في الأعماقِ حتّى تعلوَ على صلةِ

الرَّحمِ، فهي ليسَتْ مجرّدَ كلماتٍ وشعاراتٍ، بل أفعالٍ وأحكامٍ تقومُ على أساسِ الدِّينِ والعقيدةِ و الفكرةِ، فلمّا استقرَّتْ جاءَ الحكمُ الإلهيُّ بعودةِ الإرثِ وفقَ الرّحمِ. واستقرارُ فكرةِ التّوريثِ وفقَ الدّينِ يغيّرُ نظرةَ المجتمعِ القَبليِّ إلى نظرةٍ مختلفةٍ وتبني مجتمعاً جديداً لم تعهدْهُ شبهُ الجزيرةِ العربيّةِ منْ قبلُ. و لم يكنْ هذا الانتقالُ سهلاً أبداً، إنَّها نقلةٌ نوعيّةٌ كُبرى وتحوّلٌ عظيمٌ قامَ بهِ ﷺ.

وأمّا حلُّ **المشكلةِ الثّانيةِ** كانَتْ كفالةُ كلِّ أخٍ لأخيهِ، فقد قدّمُوا رضيَ اللهُ عنهم لهم المأوى والمأكلَ والمالَ، وقابلَ المهاجرُونَ ذلكَ بالعفّةِ والعِرفانِ، فسعدٌ بنُ الرّبيعِ عرضَ على عبدِ الرّحمنِ بنِ عوفٍ القسمةَ بالتّساوي في بيتِهِ ومالِهِ وأهلِهِ، فكانَ جوابُ عبدِ الرّحمنِ: باركَ اللهُ لكَ في أهلِكَ ومالِكَ، دُلّني على السّوقِ.

وأمّا **المشكلةُ الثّالثةُ** فكانَ الحلُّ الأسرعُ في التّعلّمِ هي المؤاخاةُ. لقد ذكّرَني ذلكَ بمنْ يريدُ تعلّمَ اللغةِ الأجنبيّةِ بسرعةٍ يرسلُونَه إلى بلدِ هذهِ اللّغةِ، ويسكنُ عندَ عائلةٍ لا تتحدثُ إلا هذهِ اللغةَ، ويعتبرونَ ذلكَ مِنْ أفضلِ وأسرعِ السُّبلِ لتعلّمِ اللّغةِ.. إنّهُ شيءٌ منْ هذا القبيلِ!

إنّه التعلّمُ المباشَرُ، بل زادَ عليهِ ﷺ بأنْ جعلَ لكلِّ تلميذٍ مُدرّساً، وكأنّهُ درسٌ خصوصيٌّ ودورةٌ مكثّفةٌ وهذا ما كانَ بالفعلِ، فما

أسـرعَ مـاتعلّمَ الأنصـارُ مِـنَ المهـاجرِينَ ونافسُـوهم في التّضـحيةِ وفي ظهورِ الإيمانِ، واتّضحَ ذلكَ في سلوكِهم ونصرتِهم.

صلّى اللهُ وسلمَ عليكَ يا سيّدي يـا رسـولَ اللهِ، كـمْ نحتاجُـكَ لتحـلَّ مشكلاتِ عصرِنا هذا... لو كانَ ذلكَ ممكناً لما استغرقَ ذلـكَ مقـدارَ تناولِنا لفنجانِ قهوةٍ !

الأساسُ الثّالثُ : وثيقةٌ بينَ المسلمِينَ وغيرِهم :

وهذا الأساسُ هو مِنْ أهمِّ ما قامَ بِهِ النّبيُّ ﷺ ممّا يتعلّقُ بالقيمةِ الدّستوريّةِ للدّولةِ الجديدةِ، روى ابنُ هشامٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ لم تمضِ له سوى مدّةٍ قليلةٍ في المدينةِ حتّى اجتمعَ لهُ إسلامُ عامّةِ أهلِ المدينةِ مِنَ العربِ، ولم يبقَ دارٌ مِنْ دُورِ الأنصارِ إلا أسلمَ أهلُها، عدا أفراداً مِنْ قبيلةِ الأوسِ، فكتبَ رسولُ اللهِ ﷺ كتاباً بينَ المهاجرينَ والأنصارِ وادعَ فيه اليهودَ وعاهدَهم، وأقرَّهم على دينِهم وأموالِهم وشَرَطَ لهم واشترطَ عليهم. وبنودُ الوثيقةِ كثيرةٌ نجتزئُ منها البنودَ الهامّةَ كما وردَتْ في كتابِهِ عليهِ السلامُ :

- المسلمُونَ مِنْ قريشٍ ويثربَ ومَنْ تبعَهم فلحِقَ بهم وجاهدَ معهم، أمّةٌ واحدةٌ مِنْ دونِ النّاسِ.
- هؤلاءِ المسلمُون جميعاً على اختلافِ قبائِلِهم يتعاقدُون بينَهم، ويفدُون عَانِيهم بالمعروفِ والقسطِ بينَ المؤمِنينَ.
- إنَّ المؤمِنينَ لا يتركُون مُفرَحاً بينَهم أنْ يعطُوه في فداءٍ أو عقلٍ .
- إنَّ المؤمِنينَ المتّقِينَ، على مَنْ بغى منهم أو ابتغى دسيعةَ ظلمٍ أو إثمٍ أو

عدوانٍ أو فسادٍ بينَ المؤمِنينَ، وأنَّ أيدْيهم عليهِ جميعاً ولو كانَ ولدَ أحدِهم.

- لا يقتلُ مؤمنٌ مؤمناً في كافرٍ، ولا ينصرُ كافراً على مؤمنٍ.
- لا يحلُّ لمؤمنٍ أقرَّ بما في الصّحيفةِ وآمنَ باللهِ و اليومِ الآخرِ أنْ ينصرَ محدِثاً أو أنْ يؤويَه، وإنَّ مَنْ نصرَهُ أو آواهُ فإنَّ عليهِ لعنةَ اللهِ وغضبَهُ يومَ القيامةِ لا يؤخذُ منهُ صرفٌ ولا عدلٌ.
- إنَّ على اليهودِ نفقتَهم وعلى المسلمِينَ نفقتَهم. وإنَّ بينَهم النّصرَ على مَنْ حاربَ أهلَ هذه الصّحيفةِ[1].

ذهلْتُ أمامَ هذا السّبقِ الّذي قدَّمَهُ رسولُ اللهِ مِنْ تنظيمٍ ودستورٍ لم تعهدْهُ البيئةُ العربيّةُ مِنْ قبلُ!

إنّهُ ﷺ فنّدَ العلاقاتِ مع جميعِ الأطرافِ الموجودةِ في مجتمعِ المدينةِ. فهناكَ علاقاتُ المسلمِينَ معَ بعضِهم مِنْ مهاجرِينَ وأنصارٍ باختلافِ قبائلِهم، والمسلمِينَ الجُددِ الذين سيلحقُونَهم فيما بعدُ، وهناكَ

[1] – (فقه السيرة) للبوطي، ص ٢٢٢. وللاطلاع على النص الكامل للوثيقة انظر إلى (السيرة النبوية) لابن هشام، ص ٢٨٤-٢٨٥

علاقاتُ المسلمِينَ مع اليهودِ (من غيرِ المسلمِين).

دستورٌ عادلٌ، واضحُ البنودِ، يرسمُ مفهومَ الأمّةِ ولأوّلِ مرّةٍ في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ..

في عصرِنا هذا المفهومُ واضحٌ ومعلومٌ.. أمّا عندُ العربِ في ذلك الوقتِ فهذهِ أوّلُ مرّةٍ يُطلَقُ مفهومُ الأمّةِ، ووفْقَ الدّينِ فقط بغضِّ النّظرِ عَنِ الأعراقِ والقبائلِ والشّعوبِ .

إنّها أمّةُ الفكرةِ والمبدأِ والمُعتقدِ فلا يحدُّها زمانٌ أو مكانٌ، ... حدودٌ أو مُحيطات.. في عصرٍ كانتِ القبائلُ تتقاتلُ عصبيّةً وتحيّزاً ..

تغيّرٌ اجتماعيٌّ جوهريٌ .. يحصلُ الآنَ في مدينة يثرب..

فهذا الدستور ليس مجردَ قانونٍ ينظّمُ العلاقاتِ بينَ المسلمِينَ وبينَ غيرِ المسلمِين، ورغمَ جدّةِ هذا الموضوعِ آنذاك أيضاً إلا أنّه يمثّلُ تغيّراً في المفاهيمِ الاجتماعيّةِ والتّقاليدِ المُتعارفِ عليها، وليسَ تغييراً طفيفاً في المسمّياتِ بلْ جذريّاً .. ينسِفُ التّعصّبَ للقبيلةِ ويبني أمّةً.. أمةٌ تختلفُ عَنْ كلِّ ما ألَفَهُ العربُ مِنَ الدُّولِ والأُممِ، فهي ليسَتْ أمّةَ عرقٍ واحدٍ أو لونٍ واحدٍ ..إنّها أمةُ فكرةٍ، ودولةُ فكرةٍ، قامَتْ وفقَها وتتحرّكُ مِنْ خلالِها وتُدَنْدِنُ[1] حولَها.

---

[1] – دندن : دار وحوَّم ذهابًا وجيئة (في معجم اللغة العربية المعاصر). كما جاء في معناها في حديث رسول الله ﷺ : كيفَ تدعُو في الصلاةِ ؟ قالَ : أتشهدُ وأقولُ : اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ الجنَّةَ، وأعوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أمَّا إنِّي

لقد انتقلَتِ الدّعوةُ الآنَ مِنْ أفرادٍ آمَنوا بالفكرةِ والمبدأِ والعقيدةِ إلى دولةٍ ستُقامُ وفقَ هذهِ الفكرةِ، وإلى أمّةٍ ستجتمعُ حولَ هذهِ الفكرةِ .

ووضِعتِ الآنَ أوّلُ معالمِ الحياةِ الاجتماعيّةِ لهذهِ الأمّةِ، فهم متساوونَ أمامَ الجميعِ .

ذمّةُ اللهِ واحدةٌ، يُجيرُ عَلِيَهم أدْنَاهم، والمؤمنونَ بعضُهم مولى بعضٍ منْ دونِ النّاسِ. متكافلون فيما بينَهم، يشدُّ بعضُهم بعضاً ويطمئنُّ إلى أنَّ إخوانّهُ سيعينُونه، ويأمنُ الغنيُّ بألا يحقدَ أحدٌ عليهِ أو يحسدُهُ على ثروتِهِ، لأنَّهُ بكلِّ بساطةٍ يمدُّ يدَهُ لأخيهِ في جوٍّ أخويٍّ إيمانيٍّ راقٍ.

تلكَ هيَ يثربُ عشيّةَ بزوغِ فجرِ الإسلامِ وولادةِ الدّولةِ الإسلاميّةِ الجديدةِ فيها.

آه... خرجَتْ مِنْ فمي مِنْ غيرِ قصدٍ، وكأنَّ صوَراً عديدةً تزاحمَتْ في مُخيّلتِي تريدُ أنْ ترسمَ صورةً للواقعِ الحاضرِ لو أنّهُ عادَ وتمثّلَ تلكَ المعاني...ما أجملَ هذهِ الصّورَ وما أحلى هذا المجتمعَ!.

حقّاً إنَّ الأخوّةَ وأخلاقياتِها الإسلاميّةَ لا ترتقي فقط بمشاعرِ المسلمِ نحو بارئِهِ وتقرّبُه منه، إنّما تشكّلُ مجتمعَاً راقياً، متكافِئاً، دافِئاً ... فيهِ مِنْ معاني الحنوِّ والرّحمةِ الشّيءَ الكثيرَ.

= لا أحسنُ دندَنَتِكَ ولا دندَنَةَ معاذٍ. فقالَ النَّبيُّ ﷺ : حولَها نُدَنْدِنُ. (المحدث: النووي- المصدر: الرقم: ٤٤٣/١ إسناده صحيح).

ما أحوجَنا إلى تلكَ الصّورةِ الجميلةِ!.

ثمّ خطرَ في بالي أنَّ هذا التغييرَ السّريعَ لمفاهيمَ تجذّرَتْ منذُ آلافِ السّنين ليس سهلاً أبداً، فتغييرُ النّفوسِ ليس بضغطةِ زرٍّ، بلْ سيحتاجُ الكثيرَ مِنَ الوقتِ والمجاهدةِ ليرسخَ ويثبتَ. ولكنَّ التغييرَ يبدأُ بالفعلِ بالأفكارِ أوّلاً ثمّ ترسيخِها واعتناقِها، والإيمانِ بأهميّتِها لجعلِها معتقداً راسخاً ضمنَ منظومةِ قيمِ المرءِ، ولا شكَّ أنَّه بفعلِ الامتحاناتِ والخبراتِ الّتي يمرُّ بها الإنسانُ يوماً بعدَ يومٍ تزدادُ رسوخاً، وهذا مِنْ سننِ اللهِ معَ عبادِهِ.

حقّاً.. كثيرٌ مِنَ المواقفِ الّتي مررْتُ بها كانَ يمكنُ أنْ يكونَ أدائي أفضلَ لو أنّي نظرتُ إليها كامتحانٍ، وتنبّهتُ إلى فكرةِ ماذا سأكتبُ فيه! فليسَتِ المشكلةُ بالظُّلم الّذي وقعَ عليَّ، ولا بسوءِ الفَهمِ و ما إلى ذلك .. إنّما لو تدبّرتُ هذه المعاني وأنّها اختبارٌ وامتحانٌ لمنظومةِ القيمِ عندي، وأنَّ اللهَ ناظرٌ إليّ يرقُبني فيما سأتصرّفُ، هل كما يحبُّ هو؟ أم ستأخذُني العزّةُ بالإثمِ أو الإعجابُ برأيي أو بعملي، أو غضباً لنفسي و مظهرِها أمامَ النّاسِ !!

فعلاً لو انتبهْتُ لفكرةِ الامتحانِ لَتغيّرَ الأمرُ واختلفَ السّلوكُ!

حقاً إنَّ طريقةَ تفكيرنا والأفكارَ الّتي نُدخلُها في عقولِنا هي الّتي تحدّدُ سلوكَنا و تصرّفاتِنا.

اللّهمّ لكَ الحمدُ على ما أنعمْتَ وقضيْتَ، اللّهمّ ارزقْنا العملَ بما تحبّـهُ وترضاهُ في الأحوالِ جميعِها.

الفصل الرابع

مرحلةُ الحربِ الدّفاعيّةِ

بدْءُ القتالِ: أوّلُ غزوةٍ غزاها رسولُ اللهِ ﷺ .

كانَ بدْءُ مشروعيّةِ القتالِ بعدَ الهجرةِ، وأوّلُ موضعٍ للتّنفيذِ لتلكَ المشروعيّةِ كانَ في شهرِ صفرَ على رأسِ اثنيْ عشرَ شهراً مِنْ هجرتهِ ﷺ إلى المدينةِ فقد خرجَ ﷺ مرّةً بقصدِ الغزوِ في غزوةِ ودان، يريدُ قريشاً وبني حمزةَ ولكنّه ﷺ كُفِيَ القتالَ فقد وادَعَهُ بنو حمزةَ، وعادَ النّبيُّ ﷺ وصحبُه إلى المدينةِ دونَ قتالٍ .

غزوةُ بدرٍ الكُبرى :

سببُها أنَّ النّبيَّ ﷺ سمعَ بِعيْرٍ تجاريّةٍ لقريشَ قادمةٍ مِنَ الشّامِ بإشرافِ أبي سفيانَ ابنِ حربٍ، فندبَ المسلمِينَ إليها، ليأخذُوها لقاءَ ما تركُوا مِنْ أموالِهم في مكّةَ، فخفَّ بعضُهم لذلكَ وتثاقلَ آخرُونَ، إذْ لم يكونُوا يتصوّرونَ قتالاً في ذلك .

وتحسّسَ أبو سفيانَ الأمرَ وهو في طريقِهِ إلى مكّةَ، فبلغَهُ عزمُ المسلمِينَ على خروجِهم لأخذِ العِيرِ، فأرسلَ ضمضمَ بنَ عمروٍ الغفاريّ إلى مكّةَ ليخبرَ قريشاً بالخبرِ، ويستنفرَهم للخروجِ محافظةً على أموالِهم .

فبلغَ الخبرُ قريشاً، فتجهّزُوا سراعاً، وخرجَ كلّهم قاصدِينَ الغزوَ، حتّى إنّهُ لم يتخلّفْ مِنْ أشرافِ قريشٍ أحدٌ، وكانُوا قريباً مِنْ ألفِ مقاتلٍ .

وخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ في ليالٍ مضَتْ مِنْ شهرِ رمضانَ معَ أصحابِه وكانُوا، فيما رواهُ ابنُ إسحاقَ، ثلاثَمئةٍ وأربعةَ عشَرَ رجُلاً، وكانَتْ إبلُهم سبعين، يتعاقبُ على الواحدةِ منها اثنانِ أو ثلاثةٌ مِنَ الصّحابةِ، وهم لا يعلمون مِنْ أمرِ قريشٍ وخروجِهم شيئاً؛ أمّا أبو سفيانَ فقد أُتيحَ لهُ أن يُحرزَ عيرَهُ، إذ سلكَ طريقَ السّاحلِ إلى مكّةَ وجعلَ ماءَ بدرٍ عنْ يسارِه، وأخذَ يسرعُ حتّى أنجَى عِيْرَهُ وتجارتَهُ مِنَ الخطرِ.

ثمَّ إنَّ النّبيّ ﷺ أتاهُ خبرُ مسيرِ قريشٍ إلى المسلمِين، فاستشارَ مَنْ معَهُ مِنْ أصحابِهِ، فتكلّمَ المهاجرونَ كلاماً حسناً، وكانَ منهمُ المقدادُ بنُ عمرو،

فقد قالَ: " يا رسولَ اللهِ! امضِ لما أمرَكَ اللهُ فنحنُ معكَ" .

ولكنَّ النّبيّ ﷺ ظلّ ينظرُ إلى القومِ ويقولُ لهم :" أشيرُوا عليَّ أيها النّاسُ " . فقالَ له سعدٌ بنُ معاذ :" لكأنّكَ تريدُنا يا رسولَ اللهِ "

قالَ: "أجلْ"، فقالَ سعدٌ :" لقد آمنّا بكَ وصدّقْناكَ، وشهِدْنا أنَّ ما جئْتَ بِهِ هو

الحقُّ، وأعطيْناكَ على ذلكَ عهودَنا ومواثيقَنا على السّمعِ والطّاعةِ، فامضِ لما أردْتَ فنحنُ معكَ، فو الّذي بعثَكَ بالحقِّ لو استعرضْتَ بنا هذا البحرَ فخضتَهُ لخضناهُ معَكَ " .

فسُرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بقولِ سعدٍ، ثمَّ قالَ :" سيرُوا وأبشرُوا فإنَّ اللهَ قد وعدَني إحدى الطّائفتَين . . واللهِ لكأنّي الآنَ أنظرُ إلى مصارعِ القومِ" .

ثمَّ إنَّ النّبيَّ ﷺ أخذَ يتحسّسُ أخبارَ قريشٍ وعددَهم عنْ طريقِ العيونِ الّتي بثّها حتى علمَ المسلمون أنّهم ما بينَ التّسعِمئةِ و الألفِ، وأنَّ فيهم عامّةَ زعماءِ المشركين .

وقد أرسلَ أبو سفيانَ إليهم أنْ يرجعوا إلى مكّةَ، إذ إنّهُ قد أحرزَ العِيْرَ، ولكنَّ أبا جهلٍ أصرَّ على المضيِّ، وكانَ ممّا قالَ :" واللهِ لا نرجعُ حتّى نردَ بدراً فنقيمَ عليهِ ثلاثاً، فننحرُ الجُزُرَ ونطعمُ الطعامَ ونسقي الخمرَ وتعزفُ علينا القيانُ، وتسمعُ بنا العربُ وبمسيرِنا وجمعِنا فلا يزالون يهابونَنا" .

ثمَّ إنّهم مضَوا حتّى نزلُوا بالعدوةِ القصوى منَ الوادي، ونزلَ رسولُ اللهِ ﷺ عندَ أدنى ماءٍ مِنْ مياهِ بدرٍ . فقالَ الحبابُ بنُ المنذرِ:" يا رسولَ اللهِ : أرأيتَ هذا

المنزلَ، أمنزلاً أنزلكَهُ اللهُ ليس لنا أنْ نتقدّمَ ولا أنْ، نتأخّرَ عنه، أم هو الرّأيُ والحربُ والمكيدةُ؟ قال : بل هو الحربُ والرّأيُ والمكيدةُ، فقالَ: فإنّ هذا ليس بمنزلٍ فانهضْ بالنّاسِ حتّى نأتيَ أدنى ماءٍ مِنَ القومِ فننزلَه ثمَّ نُغوّرُ ما وراءَهُ مِنَ الآبارِ، ثمَّ نبني عليه حوضاً فنملؤُه ماءً، ثمَّ نقاتلُ القومَ فنشربُ ولا يشربون .

فنهضَ رسولُ اللهِ ﷺ وتحوّلَ إلى المكانِ والرّأيِ اللّذَينِ أشارَ بهما الحبابُ رضيَ اللهُ عنهُ" .

واقترحَ سعدٌ بنُ معاذٍ أنْ يُبنَى عريشٌ للنّبيِّ ﷺ يكونُ بمأمنٍ فيه رجاءَ أنْ يعودَ سالماً إلى مَنْ تخلّفَ مِنَ المسلمِينَ في المدينةِ وألا يُنكبُوا بفقدِه، فوافقَ ﷺ على ذلكَ. ثمَّ أخذَ يطمئنُ أصحابَهُ بتأييدِ اللهِ ونصرِه. حتّى إنّهُ كانَ يقولُ : "هذا مصرعُ فلانٍ، ومصرعُ فلانٍ (أي مِنَ المشركِين)، وهو يضعُ يدَهُ على الأرضِ هاهنا وهاهنا . . فما تزحزحَ أحدُهم في مقتلِهِ عَنْ موضعِ يدِهِ!" [1]

وراحَ رسولُ اللهِ ﷺ يَجْأَرُ إلى اللهِ تعالى بالدّعاءِ مساءَ ليلةِ الجمعةِ لسبعَ عشْرةَ ليلةً مضَتْ مِنْ شهرِ رمضانَ ويقولُ:" اللّهمّ هذهِ قريشٌ قد أقبلَتْ بخيلائِها وفخرِها

---

[1] – رواهُ مسلم :٦/١٧٠

تحادّك وتكذّبُ رسولَكَ . اللّهمّ فنصرُكَ الذي وعدتني، اللهم أحنِهمُ الغداةَ" . .
وظلَّ يناشدُ اللهَ متضرّعاً وخاشعاً وهو يبسط كفّيهِ إلى السّماءِ حتّى أشفقَ عليهِ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ، فالتزمَهُ مِنْ ورائِهِ وقالَ لهُ :" يا رسولَ الله ! أبشِرْ فوَالّذي نفسي بيدِهِ لَيُنْجزَنَّ اللهُ لكَ ما وعدَكَ" . وأقبلَ المسلمون أيضاً يستنصرُونَ اللهَ، ويستغيثُونه ويخلصُون له في الضّراعةِ[1] .

وفي صبيحةِ يومِ الجمعةِ لسنتَينِ خلتا مِنَ الهجرةِ بدأَ القتالُ بينَ المشركِينَ والمسلِمينَ، وأخذَ النّبيُّ ﷺ حفنةَ حصباءَ فاستقبلَ بها قريشاً وقالَ:" شاهتِ الوجوه"، ثمَّ نفخَهم بها فلم يبقَ فيهم رجلٌ إلا امتلأتْ عيناه منها، وأيّدَ اللهُ المسلِمينَ بالملائكةِ يقاتلُون إلى جانبِهم [2]، وانحسرَ القتالُ عنْ نصرٍ كبيرٍ للمسلِمينَ، وقُتِلَ في تلكَ الموقعةِ سبعونَ مِنْ صناديدِ المشركِين، وأُسِرَ سبعون، واستُشهد منَ المسلِمينَ أربعةَ عشَرَ رجُلاً .

وأُلقيتْ جثثُ المشركِينَ الّذينَ صُرعوا في هذهِ الغزوةِ – وفيهم عامّةُ صناديدِهم– في قليبِ بدرٍ وقامَ رسولُ اللهِ ﷺ على ضفةِ البئرِ فجعلَ يناديهم بأسمائِهم وأسماءِ

---

[1] – ابنُ هشامٍ : ٢٠٥/١ ، وزادُ المعادِ: ٨٧/٢ ، وحديثُ استغاثةِ الرّسولِ بربّهِ في غزوةِ بدرٍ متّفقٌ عليه .
[2] – حديثُ تأييدِ الملائكةِ للمؤمنين في بدرٍ متّفقٌ عليهِ .

آبائِهم :" يا فلانُ و يا فلانُ بنُ فلانٍ، أيسرّكم أنكم أطعْتُم اللهَ ورسولَهُ ؟ فإنّا قد وجدْنا ما وعدَنا ربُّنا حقّاً، فهل وجدتم ما وعدَكم ربّكم حقّاً ؟"

فقالَ عمرُ: " يا رسولَ اللهِ ما تكلّمُ مِنْ أجسادٍ لا أرواحَ لها ؟"فقالَ ﷺ :" والذي نفسُ محمّدٍ بيدِهِ ما أنتم بأسمعَ لِما أقولُ منهم " .[1]

واستشارَ النّبيُّ ﷺ أصحابَهُ في أمرِ الأسرى، فأشارَ عليه أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنه أنْ يأخذَ منهم فديةً منَ المالِ تكونُ قوّةً للمسلِمينَ ويترُكهم عسى اللهُ أنْ يهديَهم، وأشارَ عمرُ بنُ الخطّابِ رضيَ اللهُ عنه بقتلِهم لأنهم أئمةُ الكفرِ وصناديدِهِ، ولكنَّ النّبيَّ ﷺ مالَ إلى ما رآهُ أبو بكرٍ مِنَ الرّحمةِ بهم وافتدائِهم بالمالِ، وحكمَ فيهم بذلكَ . غيرَ أنَّ آياتِ القرآنِ الكريمِ نزلَتْ عتاباً لرسولِ اللهِ ﷺ في ذلك، وتأييداً للرّأيِ الّذي رآهُ عمرُ مِنْ قتلِهم، وهي مِنْ قولِهِ تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ ﴾[2] .

---

[1] - البخاريّ :٥/٨ ، وروى مسلمٌ نحوه في ١٦٣/٨

[2] - الأنفال : ٦٧ - ٦٩

قرأْتُ هـذه الصّـفحاتِ، وأحسسْـتُ بصـوتِ السّـيوفِ وهتـافِ "اللهُ أكبرَ" يتردّدُ في أرجاءِ الغرفةِ، فأنا قريبٌ جداً مِنْ موقعِ (بدرٍ) وكـأنّي في غمرةِ هذه الأحداثِ أفرحُ بنصرِ اللهِ وأباركُ للأنصارِ روعةَ إيمـانِهم ولم يمضِ على إسلامِهم إلا سنتان.

فِعْلاً أرضُ المدينةِ تعودُ بكَ لآلافِ السّنين مِـنْ غـيرِ أنْ تأخـذَ إذنَـكَ، إنّهـا تأخـذُكَ قَصْـراً بـلا استئذانٍ إلى أمـاكنَ تباهَـتْ بقـدَمِ الحبيـبِ المُصطفى ﷺ يباركُ ترابَهـا، و بشـجرٍ لامسـتْ أوراقُـه كـفَّ الحبيـبِ ﷺ.

أأغبطُكِ أيّتها الأرضُ والشّجرُ والرّمـلُ والحصـى! شـاهدتِ مـا فـاتَني رؤيتُهُ، وتنعّمْتِ برؤيةِ مَـنْ لا أحلـمُ بلقيـاهُ إلا في الجنّـة.. إنّ روحـي تستشعرُ هُنا أقدامَ الصّحابةِ وتضحياتِهم ومواضـعَ خيـولِهم وأصـواتَ هتافِهم.. ما أجملَكِ يا مدينةَ رسولِ اللهِ.

ويا الله ! ما أروعَ وفاءَ الصّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم أجمعِين :" فـامضِ لما أردتَ فنحنُ معكَ، فو الّذي بعثَكَ بالحقِّ لـو استعرضْـتَ بنـا هـذا البحرَ فخضتَهُ لخضناهُ معكَ" .بمثلِ هذا الوفاءِ ووضـوحِ الهـدفِ كـانَ جوابُهم معَ أنَّ قبائلَ شبهِ الجزيرةِ عموماً ويثربَ خصوصاً لم يخوضُـوا بحراً قطّ !

حماسٌ لم يخبُ عبرَ السّنين بلْ يـزدادُ اشـتعالاً وتأجُّجـاً، لأنّـهُ لم يكـنْ وليدَ لحظةٍ، بلْ كانَ نتيجةَ تفكيرٍ عميقٍ واقتناعٍ عقليٍّ ثـمَّ استقرارٍ في القلبِ، فتحرّكتْ جنودُ القلب مصدّقةً عمّا عقـدَ في القلـبِ فانـدفعُوا في سبيلِ اللهِ لا تقفُ أمامَهم عقبةٌ .

أما موقفُ حبيبُ اللهِ ﷺ – فداه أبي وأمّـي – مِـنْ مشـورةِ أصـحابِهِ بجميعِ فئاتِهم والاطمئنانِ إلى الرّأيِ الواحدِ، ثمَّ الأملُ والبشرى اللذان انسـكبا مِـنْ ثغـرهِ ليشـدَّ عـزائمَهم " واللهِ لكـأنّي أنظـرُ إلى مصـارعِ القومِ".

ثمَّ صورتُهُ ﷺ معَ ربّـهِ متبـتّلاً ومتسـربلاً بالعبوديّـةِ والافتقـارِ إلى اللهِ، وهو الرّسولُ الموقنُ بنصـرةِ اللهِ لـهُ، لكنّـهُ يتقـرّبُ إلى ربّـهِ بالعبوديـةِ والفاقةِ بينَ يديْهِ وهو رسولُهِ الكريمِ .. فأينَ نحنُ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ !

ثمَّ ما أجملَ أدبَ الصّحابةِ – رضوانُ اللهِ عليهم – معَ الرّسولِ الكريمِ ﷺ..

قمّةٌ في الأدبِ، أدبِ التّلميـذِ مـع معلّمِـهِ، وأدبُ الجنـديِّ مـع قائـدِهِ، وأدبُ المريـدِ مـعَ شـيخِهِ، وأدبُ التّـابعِ مـعَ سـيّدِهِ ورسـولِهِ." أمَنْـزلاً أنزلكَهُ اللهُ ليسَ لنا أنْ نتقدّم ولا أنْ نتأخّرَ عنهُ، أم هو الرأيُ والحـربُ والمكيدةُ" ..

وبعدَ هذا الأدبِ الجمِّ والفداءِ منْ قِبلِ الصّحابةِ – رضوانُ اللهِ عليـهم

أجمعين - وقلبِ رسولِ اللهِ ﷺ المتسربلِ بالعبوديّةِ والتّضرُّعِ للهِ، كانَ التّنزيلُ السّماويُّ بالملائكةِ لتثبيتِ الإيمانِ وتصديقِهِ في نفوسِ المسلمِينَ، وبناءِ اليقينِ في صدورِهم لا تزعزعُه الخطوبُ القادمة.

كان نزولُ الملائكةِ تثبيتاً وغرساً عميقَ الجذورِ لمعاني اليقينِ والثّقةِ باللهِ.

ثمَّ كانَتْ حكمةُ اللهِ في فداءِ الأسرى، وكانَ جلَّ جلالُهُ يريدُ أنْ يضعَ الأمورَ في مكانِها وميزانِها المناسبِ .. فالرّسولُ ﷺ في بعضِ الأمورِ الّتي لم ينزلْ فيها وحيٌ قد يجتهدُ، وقد يصيبُ، وقد يخطئُ شأنُهُ شأنُ أيِّ حاكمٍ، وعلى الرعيّةِ تنفيذُ أمرِهِ، فالرّسولُ الكريمُ بشرٌ قد يصيبُ وقد يخطئُ في الأمورِ الّتي لم يردْ فيها وحيٌ.

هذه الصورةُ المُعتدلةُ المُتّزنةُ الحقيقيّةُ للرَّسولِ الكريمِ هي ما أرادَها اللهُ أنْ تتضحَ منذُ اللحظةِ الأولى، منذُ اللقاءِ الأوّلِ الذي يوضحُ معالمَ الإسلامِ.. فلا تقديسٌ يصلُ إلى الألوهيّة كما فعلَ أقوامٌ فيما مضى، ولا سوءُ أدبٍ أو امتناعٌ عن الاتّباعِ كما فعلَ غيرُهم مِنَ الأقوامِ القديمةِ:

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ

﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[١]

لقد أرادَ اللهُ إيضاحَ هذهِ الفكرةِ، إذْ إنّهُ جلَّ جلالُهُ كانَ قادراً على أنْ يُلهمَ نبيّهُ الرّأيَ الإلهيَّ في شأنِ الأسرى.. إنّما أرادَ جلَّ وعلا أنْ تكونَ منزلةُ رسولِ اللهِ ﷺ بيّنةً منذُ الإشعاعِ الأوّلِ لدولةِ الإسلامِ .

ثمَّ أرادَ سبحانَهُ وتعالى ألا تكونَ النظرةُ الأساسيّةُ لدولةِ الإسلامِ المالَ والنّظرةَ الدنيويّةَ .. بلْ أرادَ لها الترفّعَ وأنْ تكونَ النّظرةُ الدّينيّةُ للأمورِ هي المعيارُ وميزانُ الحُكمِ.

غريبٌ أمري مع هذا الكتاب! لأوّلِ مرّةٍ في حياتي يجذبني كتابٌ لدرجةِ أنّي نسيتُ نفسيَ والزّمنَ والمكان! فتارةً أمسحُ دموعيَ شوقاً أو حسرةً أحياناً، وأخرى أشعر بالأسى يغمرُ قلبي على مافاتني مِنْ تلك المشاعرِ والأحوالِ الرّاقيةِ، ثمّ ما ألبثُ أنْ أحمدَ اللهَ وأحسَّ بالقوّةِ تدفعني للبدْءِ مِنْ جديدٍ والتّعويضِ عمّا فات!!

أحوالٌ كثيرةٌ تتقاذفني كأمواجِ البحرِ تضرِبُ شاطئَ قلبي، تارةً ترميهِ بشدّةٍ وأخرى تلمسهُ بهدوءٍ عجيبٍ تُزيلُ عنهُ كَدَرَهُ وتمسحُ عنهُ همّهُ.

أسألُ اللهَ أنْ يعينني على فتحِ صفحةٍ جديدةٍ مِنْ صفحاتِ حياتي.

---

[١] – سورةُ المائدة : ٢٤

بنو قينقاعَ وأوّلُ خيانةٍ يهوديّةٍ للمسلمِينَ :

قالَ ابنُ إسحاق:" كانَ مِنْ أمرِ بني قينقاعَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ جمعَهم بسوقِ قينقاعَ ثمَّ قالَ : يا معشرَ اليهودِ، احذرُوا مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ مثلَ ما نزلَ بقريشٍ مِنَ النّقمةِ، وأسلِمُوا فإنكم قد عرفْتُم أنّي نبيٌّ مُرسلٌ، تجدون ذلكَ في كتابِكم وفي عهدِ اللهِ إليكم . قالُوا : يا محمّد إنّكَ ترى أنّا كقومِكَ؟ ! لا يغرنّكَ أنّكَ لقيتَ قوماً لا علمَ لهم بالحربِ فأصبْتَ فرصةً، إنّا واللهِ لَئِنْ حارَبْتَنا لتعلمَنَّ أنّا نحنُ النّاسُ" .

وروى ابنُ هشامٍ عنْ عبدِ اللهِ بنِ جعفرَ بنِ المسورِ بنِ مخرمةَ عنْ أبي عَوانةَ:" أنَّ امرأةً مِنَ العربِ قدمَتْ بجلبٍ[١] لها، فباعتْهُ بسوقِ بني قينقاعَ، وجلسَتْ إلى صائغٍ بها، فجعلُوا يريدونَها على كشفِ وجْهِها، فأَبَتْ، فعمدَ الصائغُ إلى طرفِ ثوبِها، فعقدَهُ إلى ظهرِها، فلمّا قامَتْ انكشفَتْ سوأتُها، فضحِكُوا منها، فصاحَتْ، فوثبَ رجلٌ مِنَ المسلِمينَ على الصّائغِ فقتَلَهُ، وكانَ يهوديّاً، وشدّتِ اليهودُ على المسلمِ فقتَلُوه، فاستصرخَ أهلُ المسلمِ المسلِمينَ على اليهودِ، فغضبَ المسلمون، فوقعَ الشرُّ بينَهم وبينَ بني قينقاعَ. فكانَ هؤلاءِ أوّلَ يهودٍ ينقضوا العهدَ الّذي بينَهم

[١] – هو ما يُجلبُ إلى السّوقِ للبيعِ .

وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ "[1]

وكانَ ذلكَ، فيما رواهُ الطّبريّ والواقدي في منتصفِ شوالَ مِنَ السّنةِ الثّانيةِ للهجرةِ[2].

فحاصرَهُم رسولُ اللهِ ﷺ مدّةً منَ الزّمنِ، حتّى نزلُوا على حكمِهِ، فقامَ إليهم عبدُ اللهِ بنِ أبيٍّ بنِ سلولٍ فقالَ :" يا محمّد، أحسنْ في مواليَّ!.. فلم يلتفتْ إليهِ رسولُ اللهِ ﷺ، وكرّرَ ذلكَ ثانيةً فأعرضَ عنهُ رسولُ اللهِ ﷺ، فأدخلَ يدَهُ في جيبِ درعِهِ ﷺ فقالَ لهُ : أرسلني، وغضبَ رسولُ اللهِ ﷺ حتّى رأَوا لوجههِ ظُللاً، ثمَّ قالَ لهُ : ويحكَ أرسلْني، قالَ : لا واللهِ لا أرسلُكَ حتّى تحسنَ في مواليّ: أربعُمئةِ حاسرٍ وثلاثُمئةِ دارعٍ قد منعوني مِنَ الأحمرِ والأسودِ، تحصِدُهم في غداةٍ واحدةٍ؟ إنّي واللهِ امرؤٌ أخشى الدّوائرَ. فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: هم لكَ، وأمرَهم أنْ يخرجُوا مِنَ المدينةِ ولا يجاورُوهُ بها، فخرجُوا إلى أذرعاتِ الشّامِ، وهلكَ أكثرُهم فيها".

وكانَ لعبادةَ بنِ الصّامتِ مِنَ المحالفةِ مع هؤلاءِ اليهودِ مثلُ الذي لعبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ،

---

[1] – سيرةُ ابنِ هشامٍ : ٤٧/٢

[2] – الطّبري : ٤٨٠/٢ ، وطبقاتُ ابنِ سعدٍ : ٦٧/٣

فمشى إلى رسولِ الله ﷺ قائلاً :" إنّني أتولّى اللهَ ورسولَهُ ﷺ والمؤمنِينَ وأبرأُ مِنْ حلفِ هؤلاءِ الكفّارِ وولايتِهم" .

ففيهما نزَلَ قولُه تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[١]

تذكّرْتُ أحداثَ فلسطينَ والقدسَ وغزّةَ ومناوراتِ اليهودِ، ثمَّ تمتمتُ بصوتٍ غيرِ مسموعٍ : حقّاً إنَّ اليهودَ جُبِلُوا على الغدرِ والخيانةِ فها هو تاريخُهم يشهدُ بذلكَ.

أمّا الأنصارُ فرضوانُ اللهِ عليهم فقد كانَ هذا أولَ اختبارٍ لولائِهم للدّينِ، فقد كانُوا قبلَ الإسلامِ مُوالينَ لليهودِ، فكانَ الامتحانُ في أيّهما يرجحُ. وقد نجحوا فيه رضيَ اللهُ عنهم إلا ما كانَ مِنْ عبدِ اللهِ بنِ أبيٍّ بنِ سلولٍ الّذي كادَ أنْ يكونَ ملكَهم لولا مجيءُ رسولِ اللهِ

[١] - سورةُ المائدة : ٥١ -٥٢

ﷺ، لذلكَ فهو يرى في الإسلامِ ورسولِهِ سالبي عرشِـهِ، لـذلكَ اتّخـذَ موقفَ العَداءِ معَ رسولِ اللهِ ﷺ. وما أكثرَ مـا تهلـكُ الـنّفسُ البشـريّةُ تحتَ وطأةِ أطماعِها وكِبرِها .

-غزوةُ أحد :

سببُها أنَّ بقيّةً مِنْ زعماءِ قريشٍ ممّنْ لم يُقتَلوا في غزوةِ بدرٍ، اجتمعَ رأيُهم على الثّأرِ لقتلاهُم في بدرٍ، وأنْ يستعينوا بعِيْرِ أبي سفيانٍ وما فيها مِنْ أموالٍ لتجهيزِ جيشٍ قويٍّ لقتالِ رسولِ ﷺ . فاجتمعَتْ كلمةُ قريشٍ على ذلكَ، وانضمّ إليهم غيرُهم أيضاً ممّنْ يسمَّونَ بالأحابيشِ، واستعانُوا بعددٍ كبيرٍ من النّسوةِ كي يمنعْنَ الرّجالَ مِنَ الفرارِ إذا أحدقَ بهم المسلمونَ. وخرجُوا مِنْ مكّةَ وقد بلغُوا ثلاثةَ آلافِ مقاتلٍ .

وسمعَ رسولُ اللهِ بالخبرِ فاستشارَ أصحابَهُ وخيّرَهُم بينَ الخروجِ لملاقاتِهم وقتالِهم. والبقاءِ في المدينةِ، فإنْ دخلُوا عليهم فيها قاتلُوهم، فكانَ رأيُ بعضِ الشّيوخِ مِنَ المسلمِين عدمَ الخروجِ مِنَ المدينةِ، وكانَ عبدُ اللهِ بنِ أبيٍّ بنِ سلولٍ مِنْ أصحابِ هذا الرّأيِ، غيرَ أنّ كثيراً مِنَ الصّحابةِ ممّنْ لم يكنْ لهم شرفُ القتالِ في بدرٍ رغبُوا في الخروجِ، وقالوا: " يا رسولَ اللهِ اُخرجْ بنا إلى أعدائِنا، لا يرَون أنّا جبُنّا عنهم وضعُفْنا " ..

ولم يزلْ أصحابُ هذا الرّأيِ برسولِ اللهِ ﷺ حتّى وافقَهم على ما أرادُوا، فدخلَ

بيتَه فلبسَ درعَهُ وأخذَ سلاحَهُ وظنَّ الذينَ ألّحوا على رسولِ اللهِ ﷺ بالخروجِ أنّهم قد استكرهُوهُ على ما لا يريدُ فندِمُوا على ما كانَ منهم، ولمّا خرجَ عليهم قالُوا : "استكرهْناكَ يا رسولَ اللهِ ﷺ، ولمْ يكنْ لنا ذلكَ، فإنْ شئْتَ فاقعدْ . فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ :" ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبسَ لأمَتَهُ (أي درعَه) أنْ يضعَها حتّى يقاتلَ"[1]

ثمَّ إنَّ النّبيَّ ﷺخرجَ مِنَ المدينةِ في ألفٍ منْ أصحابِهِ، وذلكَ يومَ السبتِ لسبعِ ليالٍ خلونَ منْ شوّالَ على رأسِ اثنَينِ وثلاثينَ شهراً منْ هجرتِهِ ﷺ [2]، حتّى إذا كانُوا بينَ المدينةِ وأُحدٍ انخذلَ عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ بنِ سلولٍ بثلثِ الجيشِ – وعامتُهم مِنْ شيعتِهِ وأصحابِهِ- وكرَّ راجعاً بهم وهو يقولُ: "عصاني وأطاعَ الوِلْدان ومَنْ لا رأيَ لهُ، وما ندري علامَ نقتلُ أنفسَنا ؟ ".

وتبعَهم عبدُ اللهِ بنُ حرامٍ يناشدُهم اللهَ أنْ لا يخذلوا نبيّهم، فلم يستجيبُوا لندائِه، وقالَ زعيمُهم:﴿ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْۗ ﴾[3] . وروى البخاريُّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ المسلمِينَ اختلفُوا في أمرِ هؤلاءِ الذين انخذلوا عنِ المسلمِينَ، ففرقةٌ منهم

[1] – رواهُ ابنُ إسحاقَ والإمامُ أحمدُ، وروى الطّبريّ قريباً منه، وانظرْ سيرةَ ابنِ هشامٍ : ٦٢/٢ ، وتاريخَ الطّبري: ٥٠٠/٢ وترتيبَ مسندِ الإمامِ أحمدَ : ٥٢/٢٢ .

[2] – طبقاتُ ابن سعد : ٨٧/٣ ، وسيرةُ ابنِ هشامٍ :٦٢/٢ .

[3] – سورةُ آلِ عمران:١٦٧

تقولُ نقاتلُهم، وأخرى تقولُ دعُوهم، فنزلَ في ذلكَ قولُه تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾[1] .واقترحَ بعضُ الصّحابةِ الاستعانةَ باليهودِ، بناءً على ما بينَهم من ميثاقِ التّناصرِ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ :" لا نستنصرُ بأهلِ الشّركِ على أهلِ الشّركِ "[2] .

وعسكرَ النّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ – وهم لا يزيدُونَ على سبعِمئةِ مقاتلٍ– في الشّعبِ مِنْ أُحد، فجعلَ ظهورَ المسلمِينَ إلى أُحدٍ، واستقبلُوا المدينةَ، وجعلَ على الجبلِ خلفَ المسلمِينَ خمسين رامياً، وأمّرَ عليهم عبدَ اللهِ بنِ جُبيرٍ، وأوعزَ إليهم قائلاً: "قومُوا على مصافّكم هذه فاحمُوا ظهورَنا، فإنْ رأيتُمُونا قد انتصرْنا فلا تشركُونا، وإن رأيتُمونا نُقتلُ فلا تنصرُونا" .[3]

وألحّ كلٌّ مِنْ رافعِ بنِ خديجٍ وسمرةَ بنِ جندبٍ أنْ يشتركا مع النّبيِّ ﷺ في القتالِ، وهما ابنا خمسَ عشْرةَ سنةً، فردَّهما النّبيُّ ﷺ لصغرِ سنّهما، فقيلَ لهُ :" يا رسولَ

---

[1] – سورةُ النّساءِ :٨٨

[2] – طبقاتُ ابنِ سعدٍ : ٨٠/٣ ، وروى ابنُ إسحاقَ نحوَهُ : ٦٥/٢

[3] – ابنُ سعدٍ : ٨٠/٣ ،وابنُ هشامٍ بألفاظٍ قريبةٍ منْ هذهِ . وروى نحوَهُ البخاريّ :٢٩/٥

اللهِ إنَّ رافعاً رامٍ، فأجازَهُ، فجاءَ سمرةُ بنُ جندبٍ يقولُ : فأنا واللهِ أصرعُ رافعاً، فأجازَهُ هو أيضاً" .

وأمسكَ النّبيُّ ﷺ بسيفٍ فقالَ :" مَنْ يأخذْ هذا السّيفَ بحقّهِ ؟فأقبلَ أبو دجانةَ قائلاً : أنا آخذهُ بحقّهِ، فأعطاهُ إيّاه، فأخرجَ أبو دجانةَ عصابةً حمراءَ فعصبَ بها رأسَهُ (وكانَ ذلكَ شأنُهُ عندما كانَ يريدُ أنْ يقاتلَ حتّى الموتِ)، ثمَّ راحَ يتبخترُ بينَ الصّفوفِ .

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : " : إنّها لَمشيةٌ يبغضُها اللهُ إلا في هذا الموطنِ"[١] .

ثمَّ أعطى رسولَ اللهِ ﷺ اللّواءَ لمصعبِ بنِ عميرٍ رضيَ اللهُ عنْهُ. وكانَ الّذي يقودُ ميمنةَ المشركِينَ خالدٌ بنُ الوليدِ، وميسرتَهم عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ .

فاقتتلَ النّاسُ، وحميتِ الحربُ، وراحَ المسلمُونَ يحسّون المشركِينَ في اندفاعٍ مذهلٍ، وكانَ في مقدّمةِ المبارزينَ والمقاتِلينَ أبو دجانةَ، وحمزةُ بنُ عبدِ المطّلبِ، ومصعبٌ بنُ عميرٍ .

وقُتِلَ مصعبٌ بنُ عميرٍ دونَ رسولِ اللهِ ﷺ فأخذَ اللواءَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ

---

[١] - معجمُ الكبيرِ للطّبراني حديث : ٦٣٧٤

اللهُ عنهُ، وما هو إلا أنْ أنزلَ اللهُ نصرَهُ على المسلِمين، فانكشفَ المشركُون منهزِمينَ لا يلوُونَ على شيءٍ، ونساؤُهم يدعُونَ بالويلِ. وتبعَهم المسلمُونَ يقتلُون ويغنمُون. فتكلّمَ الرُّماةُ الّذين كانُوا على الجبلِ في النّزولِ، واختلفُوا فيما بينَهم، فنزلَ كثيرٌ منهم ظنّاً منهم بأنَّ الحربَ قد وضعَتْ أوزارَها، وراحُوا يأخذُونَ مع أصحابِهم الغنائمَ، وثبتَ رئيسُهم عبدُ اللهِ بنُ الجبيرِ معَ عددٍ يسيرٍ قائلاً: لا أجاوزُ أمرَ رسولِ اللهِ ﷺ. ونظرَ خالدٌ بنُ الوليدِ إلى خلاءِ الجبلِ وقلّةِ أهلِه، فكرَّ راجعاً بالخيلِ وتبعَه عكرمةُ، فحملُوا على مَنْ بقيَ مِنَ الرُّماةِ فقتلُوهم وأميرَهم، وأخذُوا يهجمُونَ على المسلمِينَ مِنَ الخلفِ[1] .

وحينئذٍ انكشفَ المسلمُونَ وداخلَهم الرّعبُ، وأخذَ المسلمُونَ يقتِلُونَ على غيرِ شعارٍ أو هدىً، وأوجعَ المشركُونَ في المسلِمينَ قتالاً ذريعاً، حتّى خلُصَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فرُميَ بالحجارةِ حتّى رُمي لشقّه، وأُصيبَتْ رباعيّتُه (السّنُّ المجاورةُ للنّابِ) وشُجَّ وجهُهُ، وجعلَ الدّمُ يسيلُ مِنْ وجهِهِ فيمسحُه وهو يقولُ: "كيفَ يفلحُ قومٌ خضبُّوا وجهَ نبيِّهم وهو يدعُوهم إلى ربِّهم؟"[2] وجاءَتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ

[1] – طبقاتُ ابنِ سعدٍ : ٨٣/٣ ، ورواهُ البخاريّ عنِ البراءِ في كتابِ الجهادِ :٢٨/٥ .

[2] – سننُ ابنِ ماجةَ : حديث ٤٠٢٤

عنها تغسلُ عنهُ الدّمَ وعليٌّ يسكبُ الماءَ بالمجنّ، فلمّا رأتْ أنَّ الماءَ لا يزيدُ الدّمَ إلا كثرةً أخذتْ قطعةً حصيرٍ فأحرقتْهُ حتّى صارَ رماداً، ثمَّ ألصقتْه بالجرحِ فاستمسكَ[1].

قالَ الإمامُ أحمدُ : حدّثَنا يزيدٌ حدّثَنا حميدٌ عنْ أنسٍ أنَّ عمّهُ غابَ عنْ قتالِ بدرٍ فقالَ غبتُ عنْ أوّلِ قتالٍ قاتلَهُ النّبيُّ ﷺ للمشركين لئنَّ اللهَ أشهدَني قتالاً للمشركِينَ ليَريَن ما أصنعُ، فلمّا كانَ يومُ أُحدٍ انكشفَ المسلمون فقالَ : اللّهمَّ إنّي أعتذرُ إليكَ عمّا صَنعَ هؤلاءِ يعني أصحابهُ و أبرأُ إليكَ ممّا جاءَ بهِ هؤلاءِ يعني المشركين. . ثمّ تقدّمَ فلقيهُ سعدٌ بنُ معاذٍ دونَ أُحدٍ، فقالَ سعدٌ : أنا معكَ، قالَ سعدٌ : فلم أستطعْ صُنعَ ما صَنعَ. فوجدَ فيهِ بضعاً و ثمانينَ مِنْ بين ضربةٍ بسيفٍ و طعنةٍ برمحٍ و رميةٍ بسهمٍ. قالَ : فكنّا نقولُ : فيهِ و في أصحابهِ نزلَتْ : ﴿ فمنهم مَنْ قضى نحبَهُ و منهم مَنْ ينتظر ﴾[2]

---

[1] – متّفقٌ عليه بألفاظٍ متقاربة .

[2] – ورواه الترمذي عن بن حميد والنسائي عن اسحاق بن راهويه كلاهما عن يزيد بن هارون، وقال الترمذي : حسن. و هو على شرط الصحيحين من هذا الوجه.(السيرة النبوية. ابن كثير ، ج٣/٦١)

دروسٌ خالدةٌ ....خلودَ سيرتِكَ يا حبيبَ اللهِ ...

إنّكَ لتسطّرُ قوانينَ عظيمةً في فنِّ القيادةِ، فإشراكُكَ الفريقَ باتّخاذِ القرارِ يجعلُهُ مسؤولاً عنْ تنفيذِه ويعطي شعورَ الشّريكِ، أو أنّهُ صاحبُ القضيّةِ، فهو ليسَ مجرّدَ جنديٍّ أو موظّفٍ إنّما القضيّةُ قضيّتُهُ، قضيةُ الفريقِ أو الجماعةِ، فليسَ الهدفُ التشاورَ فقط وإنّما غرسُ القضيّةِ في نفوسِ الجماعةِ، وقد يتلقّفُ الجميعُ تلكَ المفاهيمِ والمبادئَ ولكنْ بنسَبٍ متفاوتةٍ وذلكَ حسبَ مستوى إيمانِهِ ونصاعةِ فكرِهِ ووضوحِ هدفِهِ، وإلا لما وجدْنا أحداً يفرُّ عند سماعِ شائعةِ مقتلِ الرّسولِ ﷺ، ولما وجدْنا آخرَ يعتذرُ عنْ هؤلاءِ قائِلاً: بلْ ما فائدةُ حياتِكم بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ ؟ اللّهمّ إنّي أبرأُ إليكَ ممّا يقولُ هؤلاءِ، وأعتذرُ إليكَ ممّا يقولُ هؤلاءِ.

فمنْ غُرسَ المبدأُ في قلبِهِ وعقلِه، تابعَ رسالةَ القضيّةِ والمبدأِ وماتَ عليها... أمّا مَنْ كانَ منفِّذاً للأوامرِ دونَ جذورٍ في القلبِ والعقلِ فذلكَ يذهبُ معَ الأشخاصِ أو الأحداثِ أو الصّيحاتِ، وهذا ما يسمّونَه اليومَ في علمِ القيادةِ (الرؤيةَ) للمؤسسةِ. فالقائدُ هو الّذي يملِكُ الرؤيةَ أي الرسالةَ لهذهِ المؤسّسةِ، والقائدُ النّاجحُ هو الّذي يستطيعُ أنْ يجعلَ جميعَ الأفرادِ يعتنقون هذهِ الرؤيةَ فتنشطُ جوارحُهم مِنْ أجلِ تحقيقِها... عندئذٍ مهما تغيّرَ الأفرادُ خلالَ الزّمنِ، فالجميعُ

يدورُ في فلكِ تلكَ الرؤيةِ، وعندها فقط تحافظُ تلكَ المؤسسةُ على رسالتِها وتتابعُ مسيرتَها... والسّرُ في ذلك هو القائدُ الّذي يجعلُ رؤيتَهُ رؤيةَ جميعِ أفرادِ المؤسّسةِ، والقضيّةَ قضيتَهم جميعاً، وهذهِ هي إحدى تعاريفِ القائدِ في العلمِ الحديثِ وأحدُ قوانينِ القيادةِ. وأذكرُ أنّي قرأتُ كتاباً عنِ القيادةِ فكانَ قانونُ الهدفِ الأسمى هو أحدُ قوانينِ القيادةِ الأساسيّةِ أو ما سمّاهُ (الرّسالةُ السّاميةُ). وإنّ القادةَ ذوو الأداءِ هم الّذينَ يؤمنُون بأنّهم سيغيّرُونَ العالمَ ويغرِسون هذا الإيمانَ في نفوسِ مرؤوسيْهم، فعندَما يمنحُ القائدُ معنىً ومغزىً بهذهِ الدّرجةِ مِنَ الحماسِ وبهذا الإحساسِ العالي مِنَ العملِ بما يخدمُ صالحَ الإنسانيّة ومستقبلَها، فإنّه يُقنعُ مرؤوسيْهِ بأنّهم يسعَون جميعاً لبلوغِ هدفٍ أسمى ولا ينحتون الصّخرَ.

فعلاً قائدٌ عظيمٌ ... صلى الله وسلم عليك يا سيدي يا رسول الله، منكَ نستخلصُ ثمارَ العلمِ وأُسسَ المهاراتِ.

أمّا حزمُهُ ﷺ بشأنِ الخروجِ إلى أُحدٍ بعدَ أنْ لبسَ لَأْمَتَهُ، فقد تعلّمتُ أنّ الحزمَ ضروريٌّ للقائدِ بعدَ اتخاذِ القرارِ حتّى لا تصبحَ الأمورُ مائعةً، وليتعلّمَ الجميعُ أنَّ المشاورةَ مسؤوليّةٌ عظيمةٌ يجبُ أنْ يفكّرُوا في أبعادِها وينتبّهوا لعواملِها كافّةً.

أما أمرُ النّبيِّ ﷺ للرُّماةِ فقد كان واضحاً على جبلِ أُحدٍ، لكنَّ

اختلافَ تفسيرِهم لنصٍّ أو الطمعَ أحياناً يُضعِفُ النّفسَ البشريّةَ...
وأرادَ اللهُ مِنْ خلالِ هذهِ الموقعةِ أنْ يتعلّمَ المسلمُونَ درسَيْنِ عظيمَين:
الأوّلُ هو الطّاعةُ للقائدِ وتنفيذُ الأوامرِ بدقّةٍ، والثّاني أنْ يظلَّ الهدفُ واضحاً في كلِّ حركاتِهم، وألا تؤثّرَ فيه الدّنيا ومغرياتِها أو الطمعُ بالغنائمِ ... فحروبُ المسلمِينَ هدفُها إعلاءُ دينِ اللهِ فقط... أمّا الغنائمُ فهي وسائلُ معيْنةٌ لهذا الهدفِ وليستْ هدفاً بحدِّ ذاتِها يمكنُ أنْ يتغاضى في سبيلها عنْ أوامرَ أو أهدافٍ أسمى.
لقد أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ يُثبِّتَ الهدفَ ويركّزَ عليه بدرسٍ لم ينسَهُ أحدٌ منَ الصّحابةِ ولا يجبُ أنْ ينساه أحدٌ نهلَ مِنْ سيرتِهِ ﷺ وأعلنَ انتماءَهُ للحبيبِ المصطفى ﷺ.
ويخطرُ في بالي... تُرى ما حالُ أولئكَ الّذينَ لم ينفِّذُوا أمرَ رسولِ اللهِ ﷺ فكانَتْ نتائجُ خطيئَتِهم تلكَ وبالاً على الدّولةِ بأسرِها؟
وكأنّه جلَّ جلالُه ينبّهُنا إلى أنَّ أعداداً قليلةً قد تخطئُ وتبتعدُ عن الهدفِ أو الطّريقِ، قد تجرُّ مصائبَ على الجميعِ، ولعلَّ ذلكَ يضعُ كلاً منّا في دائرةِ المسؤوليّةِ، سواءً أكانَتْ مسؤوليّةَ الالتزامِ بشرعِ اللهِ، أو مسؤوليةَ أنْ يعينَ النّاسَ حتّى يهتدُوا ويؤوبُوا إلى دائرةِ الحلالِ والطّريقِ القويمِ... حتّى لا تغرقَ السّفينةُ، فجميعُنا على هذهِ السّفينةِ، فإنْ خطرَ لأحدٍ منّا إحداثَ ثقبٍ في السّفينةِ فجميعُنا

سنغرقُ نتيجةَ فعلِه. وسيكونُ ذنبُنا أنّنا لم نهتمَّ بهِ وبأحوالِهِ النفسيّةِ حتّى وصلَ إلى ذلكَ القرارِ، ثم لم نمنعْهُ معتذرينَ لأنفسِنا أنّها حريّةٌ شخصيّةٌ!

إنّ مَنْ يحاولُ إحداثَ ثقبٍ لا شكَّ أنّهُ فقدَ الرّؤيةَ والهدفَ وانفصلَ شعوريّاً عنِ الجماعةِ والفريقِ، بل لعلّهُ يعاني مِنْ مشكلةٍ مع الفريقِ أو أنَّ أحداً لم يهتمَّ بشأنِهِ. وهذا كلُّهُ مسؤوليّةُ القائدِ وأحدُ مهمّاتِه الأساسيّةِ... وكلُّ إنسانٍ يمكنُ أنْ يكونَ قائداً لمنْ حولَه، إذا كانَ يملِكُ الرّؤيةَ أو الرّسالةَ.

ولكنّي بالفعلِ توقّفْتُ عندَ وقعِ الحادثةِ على نفسيّةِ أولئكَ الذين أخطؤُوا فحدثَ ما حدثَ، تُرى ما هو شعورُهم ؟ وكيفَ تعاملَ المجتمعُ معهم؟

لم أقرأْ شيئاً عنْ هذا منْ قبلُ، ولكنّي أذكرُ أنّي قرأْتُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بعدَ غزوةِ أُحدٍ كانَ يقولُ كلّما مرَّ قربَ جبلِ أحدٍ: " أحدٌ جبلٌ يحبُّنا ونُحبّهُ"، وكنْتُ أتساءلُ لمَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ ذلكَ!

أهو لمحوِ الآثارِ السّلبيةِ في النّفسِ لموقفِ هزيمةِ أحدٍ!

وكأنّهُ ﷺ يريدُهم أنْ يتعلّموا منَ الحادثةِ ويستوعبُوا الدرسَ، دونَ أن يجلدُوا أنفسَهم لدرجةِ القنوطِ والقعودِ عن العملِ لأنّهم أخطؤوا مرّةً!

صلى اللهُ عليكَ يا مهندسَ النّفسِ البشريّةِ، العليمِ بما يصلحُ لها.

أمّا مظاهرُ التّضحيةِ والفداءِ الّتي أبداها الصحابةُ رضوانُ الله عليهم، فتُظهرُ مدى محبّتِهم لرسولِ اللهِ ﷺ، ومدى نجاحِهِ ﷺ كقائدٍ في جمعِ القلوبِ والعقولِ،

وترسّخُ معنى الفداءِ والتّضحيةِ، وأنّهما السّلوكان اللازمان لمظاهرِ الحُبِّ الحقيقيِّ، فإنِ اختفيا في الأمّةِ فعلينا أنْ نعودَ إلى القلبِ ونسألَ مَنْ هو المحبوبُ الّذي يتربّعُ فيه؟! لأنَّ الجوارحَ جنودُ القلبِ.

ما أكثرَ ما حرّكتْ سيرتُك فيَّ مِنْ مشاعرَ متضاربةٍ ياسيّدي يا رسولَ اللهِ! مِنْ نقدٍ للذّاتِ وأملٍ جديدٍ بدأَ يبزغُ في قلبي ليبشِّرَ بحياةٍ جديدةٍ..

يومُ الرّجيعِ (في السّنةِ الثّالثةِ للهجرةِ) :

قدمَ وفدٌ مِنْ قبائلِ عُضل والقارة على رسولِ الله ﷺ يذكرُ أنَّ أخبارَ الإسلامِ قد وصلتْهم وأنّهم بحاجةٍ إلى مَنْ يعلّمهم شؤونَ هذا الدّينِ، فبعثَ الرّسولُ ﷺ نفراً من أصحابِه وفيهم: مرثدٌ بنُ أبي مرثدٍ وخالدٌ بنُ البكيرِ وعاصمٌ بنُ ثابتٍ وخبيبٌ بنُ عديٍّ وزيدٌ بنُ الدّثنّةِ وعبدُ الله بنُ طارقٍ وأمّرَ عليهم عاصماً بنَ ثابتٍ.

روى البخاريُّ بسندِهِ عنْ أبي هريرةَ، قالَ: فانطلقُوا حتّى إذا كانُوا بينَ عسفانَ ومكّةَ ذكرُوا لحيٍّ مِنْ هذيلٍ يقالُ لهم بنو لحيانٍ، فتبعوهم بقريبٍ منْ مئةِ رامٍ، فاقتصّوا آثارَهُم، حتّى أتَوا منزلاً نزلُوه فوجدُوا فيه نوى تمرٍ تزوّدوهُ مِنَ المدينةِ، فقالُوا: هذا تمرُ يثربَ، فتبعُوا آثارَهم حتّى لحقوهُم، فلمّا انتهى عاصمٌ وأصحابُه لجؤُوا إلى فدفد، وجاءَ القومُ فأحاطُوا بهم فقالُوا: لكم العهدُ والميثاقُ إنْ نزلتُم إلينا ألا نقتلَ منكم رجلاً. فقالَ عاصمٌ: أمّا أنا فلا أنزلُ في ذمّةِ كافرٍ، اللّهمّ أخبرْ عنّا نبيّكَ، فقاتلُوهم حتّى قتلوا عاصماً في سبعةِ نفرٍ بالنّبلِ، وبقيَ خبيبٌ وزيدٌ ورجلٌ آخر، فأعطَوهم العهدَ والميثاقَ.

فلمّا أعطَوهم العهدَ والميثاقَ نزلُوا إليهم فلمّا استمكنُوا منهم حلّوا أوتارَ قسيِّهم فربطُوهم بها فقالَ الرَّجلُ الثّالثُ الذي معهما: هذا أوّلُ الغدرِ فأبى أنْ يصحبَهم فجزَرُوهُ وعالجوهُ، على أنْ يصحبَهم، فلم يفعلْ فقتلُوه.

وانطلقُوا بخبيبٍ وزيدٍ حتّى باعوهما بمكّةَ، فاشترى خُبيباً بنو الحارثِ، وكانَ خبيبٌ هو الّذي قتلَ الحارثَ يومَ بدرٍ، فمكثَ عندَهم أسيراً.

قال ابن اسحاق : حدثني عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ وَعَبْدُ اللّهِ بْنُ أَبِي نَجِيحٍ جَمِيعًا أَنّهَا قَالَتْ قَالَ لِي حِينَ حَضَرَهُ الْقَتْلُ ابْعَثِي إلَيّ بِحَدِيدَةٍ أَتَطَهّرُ بِهَا لِلْقَتْلِ قَالَتْ فَأَعْطَيْتُ غُلَامًا مِنْ الْحَيّ الْمُوسَى، فَقُلْت : ادْخُلْ بِهَا عَلَى هَذَا الرّجُلِ الْبَيْتَ. قَالَتْ : فَوَاَللّهِ مَا هُوَ إلّا أَنْ وَلّى الْغُلَامُ بِهَا إلَيْهِ. فَقُلْت : مَاذَا صَنَعْتُ أَصَابَ وَاَللّهِ الرّجُلُ ثَأْرَهُ بِقَتْلِ هَذَا الْغُلَامِ فَيَكُونُ رَجُلًا بِرَجُلٍ. فَلَمّا نَاوَلَهُ الْحَدِيدَةَ أَخَذَهَا مِنْه، قَال: لَعَمْرُك ، مَا خَافَتْ أُمّك غَدْرِي حِينَ بَعَثَتْك بِهَذِهِ الْحَدِيدَةِ إلَيّ ثُمّ خَلّى سَبِيلَهُ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَيُقَالُ إنّ الْغُلَامَ ابْنُهَا . قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : قَالَ عَاصِمٌ ثُمّ خَرَجُوا بِخُبَيْبٍ حَتّى إذَا جَاءُوا بِهِ إلَى التّنْعِيمِ لِيَصْلُبُوهُ قَالَ لَهُمْ إنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَدَعُونِي حَتّى أَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ فَافْعَلُوا ؛ قَالُوا : دُونَك فَارْكَعْ. فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ أَتَمّهُمَا

وَأَحْسَنَهُمَا ، ثُمّ أَقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ فَقَالَ أَمَا وَاَللّهِ لَوْلَا أَنْ تَظُنّوا أَنّي إنّمَا طَوّلْت جَزَعًا مِنْ الْقَتْلِ لَاسْتَكْثَرْت مِنْ الصّلَاةِ. قَالَ فَكَانَ خُبَيْبُ بْنُ عَدِيّ أَوّلَ مَنْ سَنّ هَاتَيْنِ الرّكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْقَتْلِ لِلْمُسْلِمِينَ. قَالَ ثُمّ رَفَعُوهُ عَلَى خَشَبَةٍ فَلَمّا أَوْثَقُوهُ، قَالَ: اللّهُمّ إنّا قَدْ بَلّغْنَا رِسَالَةَ رَسُولِك ، فَبَلّغْهُ الْغَدَاةَ مَا يُصْنَعُ بِنَا ؛ ثُمّ قَالَ اللّهُمّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا ، وَلَا تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا . ثُمّ قَتَلُوهُ رَحِمَهُ اللّهُ[1] .

وبعثَتْ قريشٌ إلى عاصمٍ ليأتوا بشيءٍ مِنْ جسدِهِ يعرفُونه، وكانَ عاصمٌ قتلَ عظيماً مِنْ عظمائِهم يومَ بدرٍ، فبعثَ اللهُ عليهِ مثلَ المظلّةِ من الدَّبْرِ[2]، فحمتْهُ مِنْ رسلِهم فلم يقدروا منه على شيءٍ[3].

وزادَ الطبريّ فروى عنْ أبي كريبٍ قالَ: "حدّثنا جعفرُ بنُ عونٍ عنْ إبراهيمَ بنِ إسماعيلَ قالَ: وأخبرني جعفرٌ بنُ عمروٍ بنِ أميةَ عنْ أبيهِ عنْ جدّهِ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بعثَهُ وحدَهُ عيناً إلى قريشٍ، قالَ: فجئْتُ إلى خشبةِ خبيبٍ وأنا أتخوّفُ العيونَ، فرقيْتُ فيها فحللْتُ خبيباً، فوقعَ إلى الأرضِ، فانتبذْتُ غيرَ بعيدٍ، ثمَّ

[1] – السيرة النبوية لابن هشام ، ص ٥٢٥.

[2] – الدَّبْرُ : جماعَةُ النَّحْلِ والزَّنابير.

[3] – صحيحُ البخاريّ : ٤١/٥

التفتُّ فلم أرَ لخبيبٍ رِمّةً[1] فكأنّما الأرضُ ابتلعتْهُ، فلمْ تُذكَرْ لخبيبٍ رِمّةً حتّى الساعة".

قالَ ابنَ إسحاقَ :"وأمّا زيدٌ فابتاعَهُ صفوانُ بنُ أميّةَ، فلمّا خرجُوا بهِ مِنَ الحرمِ ليقتلُوه، قالَ لهُ أبو سفيانَ: أنشدُكَ باللهِ يا زيد أتحبُّ أنَّ محمّداً الآنَ عندَنا مكانَك، نضربُ عنقَهُ وأنّكَ في أهلكَ؟ قالَ: واللهِ ما أحبُّ أنَّ محمّداً الآنَ في مكانِهِ الّذي هو فيهِ تصيبُهُ شوكةٌ تؤذْيهِ وأنّي جالسٌ في أهلي ! فقالَ أبو سفيانَ: ما رأيتُ مِنَ النّاسِ أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحابِ محمّدٍ محمّداً"[2] .

بئرُ معُونة (في السّنةِ الرّابعةِ للهجرةِ) :

قَدِمَ عامرٌ بنُ مالكٍ المشهورُ بلقبِ (مُلاعبِ الأسنّةِ) على رسولِ اللهِ ﷺ فعرضَ عليه الإسلامَ، ولكنّهُ لم يسلمْ ولم يظهرْ تجنّباً عنِ الإسلامِ، بل قالَ: "يا محمّد لو بعثتَ رجالاً مِنْ أصحابِكَ إلى أهلِ نجدٍ فدعَوهم إلى أمرِكَ، رجوتُ أنْ يستجيبُوا لكَ. فقالَ ﷺ: إنّي أخشى عليهم أهلَ نجدٍ قالَ عامرٌ: أنا لهم جارٌ فابعثْهم فليدعُوا النّاسَ إلى أمرِكَ.

---

[1] – الرِّمَّةُ : العِظامُ البالية .

[2] – السيرة النبوية لابن هشام :ص ٥٣١ .

فبعثَ رسولُ الله ﷺ سبعينَ رجُلاً مِنْ أصحابِهِ مِنْ خيارِ المسلمِين، وكانَ ذلكَ على ما رواهُ ابنُ إسحاقَ وابنُ كثيرٍ في صفرَ على رأسِ أربعةِ أشهرٍ مِنْ غزوةِ أُحدٍ . فسارُوا حتّى نزلُوا ببئرِ معُونة، فلمّا نزلُوها بعثُوا أحدَهم (حرامٌ بنُ ملحانَ) بكتابِ رسولِ الله ﷺ إلى عامرٍ بنِ الطّفيلِ، فلمّا أتاهُ لم ينظرْ في كتابِهِ، وعدا عليهِ فقتَلَهُ. روى البخاريُّ عنْ أنسٍ بنِ مالكٍ، أنَّ حراماً بنَ ملحانَ لمّا طُعِنَ وانتضحَ الدّمُ في وجهِهِ، صاحَ : فزْتُ وربِّ الكعبةِ [1] .

ثمَّ استصرخَ عامرٌ بنُ الطفيلِ بني عامرٍ يستعدِيهم على بقيّةِ الدّعاةِ فأبَوا أنْ يجيبُوهُ وقالُوا: لن نخفرَ أبا براءٍ (عامراً بنَ مالكٍ)، فاستصرخَ عليهم قبائلَ مِنْ سليمٍ مِنْ عُصيّةَ ورعلَ وذكوانَ فأجابُوه، وانطلقُوا فأحاطُوا بالقومِ في رحالِهم، فلمّا رأَوْهم أخذُوا سيوفَهم وقاتلُوهم، فقُتلَ المسلمُونَ عنْ آخرِهم. وكانَ في سرحِ الدُّعاةِ اثنانِ لم يشهدَا هذه الموقعةَ الغادرةَ، أحدُهما (عمرو بنُ أميّةَ الضّمريّ) ولم يعرفِ النّبأَ إلا فيما بعدُ، فأقبلا يدافعانِ عنْ إخوانِهما فقُتلَ زميلُه معهم، وأفلَتَ هو فرجعَ إلى المدينةِ. وفي الطّريقِ لقيَ رجلَيْنِ مِنَ المشركِينَ ظنَّهما مِنْ بني عامرٍ

[1]- صحيح البخاريّ :٥/٤٣

فقتلَهما، ثمَّ تبيّنَ لمّا وصلَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وأخبرَهُ الخبرَ أنَّهما مِنْ بني كلابٍ وأنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ قد أجارَهما. فقالَ ﷺ: لقد قتلْتَ قتيلَينِ لأدينَّهما. وتأثَّرَ النّبيُّ ﷺ لمقتلِ هؤلاءِ الدُّعاةِ الصّالحِينَ مِنْ أصحابِهِ، وبقيَ شهراً يقنُتُ في صلاةِ الصُّبحِ يدعُو على قبائلِ سليمٍ، رعلَ وذكوانَ وبني لحيانَ وعُصيّةَ".

تأثّرتُ كثيراً لهذهِ الحادثةِ، فالخسائرُ فادحةٌ لأنَّ هؤلاءِ يمثّلونَ تربيةً محمّديّةً مدّتُها بضعُ سنينَ، فهي ليسَتْ بالمدّةِ القليلةِ. إلا أنَّ المرحلةَ الّتي تمرُّ بها الدَّعوةُ الإسلاميّةُ قد اختلفَتْ عمّا كانَتْ عليه مكّةُ، ففي مكّةَ لم يُؤمَرْ بالقتالِ لأسبابٍ كثيرةٍ، منها قلّةُ عددِ المسلمِينَ وهذا العددُ القليلُ يجعلُ أولويّةَ القائدِ الحفاظَ على حياةِ هذه القلّةِ، لأنّهم يمثّلونَ الدِّينَ والقضيّةَ... وذهابُهم عندئذٍ يمثّلُ ذهابَ القضيّةِ، أمّا الآنَ فالوضعُ مختلفٌ. القلّةُ أصبحَتْ دولةً ذاتَ منعةٍ وعددٍ، فأصبحَ مِنْ واجبِ هؤلاءِ أنْ يضحُّوا ويسيحُوا في الأرضِ لينشرُوا دينَ اللهِ.

ومِنْ هنا كانَ بعثُ رسولِ اللهِ ﷺ لأصحابِه مِنْ أجلِ التّبليغِ، وإنْ كانَ في إرسالِهم مخاطرةٌ، لا تتضمّنُ أيَّ ضماناتٍ آمنةٍ.

حقّاً إنَّ بناءَ الإنسانِ يستغرقُ جهداً ووقتاً و مصابرةً وعملاً طويلَ الأمدِ، أمّا الهدمُ فللأسفِ يهدِمُ جميعَ هذه السنين والجهودِ بلحظاتٍ!

ما أيسرَ الهدمَ وما أصعبَ البناءَ !

أمّا قصّةُ خبيبٍ فقد أثارَتْ في نفسي مِنَ المعاني العظيمةِ مِنْ حُبٍّ وفداءٍ وأمانةٍ ورهافةِ حسٍّ، الشّيءَ الكثيرَ...ثمَّ تذكّرْتُ تقريراً سمعْتُهُ في نشرةِ الأخبارِ ومقالةً قرأْتُها في (الإنترنيت) لإحدى المجلاتِ حولَ المسلمِينَ و الإرهابِ، فقلْتُ في نفسي: إنَّ مَنْ يدّعي أنَّ الإسلامَ إرهابيّ فلْيستمعْ إلى قصّةِ خبيبٍ والجميعُ قد أجمعَ على قتلِهِ وهو يستعدُّ لذلكَ ويأتيْهِ طفلٌ صغيرٌ مِنْ أعدائِهِ وقاتلِيْهِ وهو يملِكُ السلاحَ (موساً)، لماذا لم يتخذْهُ رهينةً ليفكَّ أسرَهُ؟ وما هذه النّظرةُ الحانيةُ والإنسانيّةُ المرهفةُ الّتي يملِكُها خبيبٌ؟ فلا غروَ إنْ أطعمَهُ اللهُ وسقاهُ وأظهرَ مِنَ المعجزاتِ عندَ موتِهِ حتّى سُمّيَ " بَلِيعَ الأرضِ" ،كيفَ لا يجعلُ اللهُ الأرضَ خدماً لمثلِهِ رضوانُ اللهِ عليه؟ أو يسخّرُ النّحلَ لمثلِ عاصمٍ رضيَ اللهُ عنهُ.

إنَّ ثباتَ هؤلاءِ ومحبّتهم لرسولِ اللهِ ﷺ (ما رأيْتُ مِنَ النّاسِ أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحابِ محمّدٍ محمّداً)، ليجعلَ الكفّارَ في صراعٍ فكريٍّ، ليعيدُوا النّظرَ حولَ الإسلامِ وسيّدِنا محمّدٍ ﷺ وذلكَ أنَّ الأشخاصَ المؤثّرينَ الّذين يثبُتونَ على مبادئِهم ويضحّون في سبيلِها بالغالي والرّخيصِ لَيضعون بصماتٍ يصعُبُ نسيانُها، ويتركُونَ آثاراً عميقةً ليسَ مِنَ السّهلِ إزالتُها، وذلكَ قانونٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى

يومِ الدّينِ.

ثمَّ تساءَلْتُ تُرى لماذا مكّنَ اللهُ يدَ الغدرِ منهم...أليسُوا صحابةَ رسولِهِ ﷺ؟ أليسُوا على الحقِّ وأعداؤُهم على الباطلِ ؟ واللهُ قادرٌ على كلِّ شيءٍ. ثمَّ تذكّرْتُ سنّةَ اللهِ الغالبةَ وعدالتُه في إعطاءِ الفرصِ للجميعِ وبالتّساوي ليبرهنُوا صدقِ مطلبِهم وثباتِ عزمِهم ..

إنّهُ امتحانٌ للجميعِ وترسيخٌ للمبدأِ... فلوِ انتصرَ المسلمُونَ في غزواتِهم جميعِها بيُسرٍ وسهولةٍ ودونَ الدّروسِ الرّبّانيّةِ الّتي تُربّي جيلَ الصّحابةِ وتترك هذا المنهاجَ بينَ أيدينا لنتعلّمَ منهُ، كيفَ يتسنّى للأجيالِ القادمةِ أنْ تنتصرَ وتنصرَ الدّينَ؟...

لابدَّ لهذهِ الدّروسِ الخالدةِ أنْ تُقدَّمَ ولو كانَ ثمنُها باهظاً... من أرواحٍ وأشخاصٍ تعبَ رسولُ اللهِ ﷺ في تربيتِهم... لابدَّ أنْ تتجلى آثارُ الإيمانِ والحبِّ عملاً وفداءً. ولو كانَ نشرُ الحقِّ سهلاً لما تميّزَ الخبيثُ مِنَ الطّيّبِ، ولا النّشيطُ عنِ المُتقاعسِ، ولا الّذين أهمّتْهم مصالحُهم وأنفسُهم عنْ أولئكَ الفدائيّينَ وأصحابِ المبدأِ والقضيّةِ.

وقد يستعجلُ الإنسانُ النّصرَ وتتكاثرُ عليه الهموم، فالصّحابةُ منذُ أُحدٍ والمصائبُ تنهالُ عليهم، فأُتبعَتْ أحدٌ يومَ الرّجيعِ ثمّ ها هي بئرُ معُونةَ... وكأنَّ سلسلةً مِنَ الهزائمِ المُتلاحقةِ لا تكادُ تنتهي.

ولكنْ مَنْ قالَ: إنَّ مُجرّدَ الإيمانِ والالتزامِ بهِ يعني نصراً؟

إنّ الإيمانَ والالتزامَ به أحدُ أركانِهِ الأساسيّةِ، لكنّهُ يُمثّلُ المطلوبَ مِنْ حركةِ الإنسانِ على الأرضِ في سبيلِ إعلاءِ الدّينِ، أمّا النّصرُ فهو أمرٌ إلهيٌّ ينزّلُه بقدرٍ يعلمُهُ هو وحدَهُ جلَّ جلالُهُ.

فالمطلوبُ مِنَ المُسلمِ والمؤمنِ أنْ يستنفدَ كاملَ الأسبابِ المؤدّيةِ للنّصرِ، ولكنْ ليسَ عليهِ وزرُ إنْ لم يحقّقْهُ، فالنّصرُ بيدِ اللهِ العليمِ القديرِ، وفي الوقتِ ذاتِهِ يجبُ على الإنسانِ أنْ يحاسبَ نفسَهُ ويبحثَ في استكمالِهِ الأسبابَ واتباعَ أوامرِ اللهِ في علاقتِهِ باللهِ و مع الآخرين، فقد استنتجتُ مِنْ سيرةِ المصطفى ﷺ أنَّ أيَّ خللٍ أو نزاعٍ أو شقاءٍ في الكونِ مصدرُهُ بُعدٌ عنْ أوامرِ اللهِ .صدقَ اللهُ العظيمُ إذْ علّمَنا في كتابِهِ سنّةً عظيمةً مِنْ سننِ وقوانينِ اللهِ :

﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾[1]

فالإنسانُ عليهِ أنْ يستعدَّ، ويشحذَ فكرَهُ وملكاتِهِ، ويُلزمَ قلبَهُ حبَّ ربّهِ ورسولِهِ ودينِهِ، ثُمَّ تتحركُ جوارحُه انفعالاً بهذا الحُبِّ، فيرسمُه عطاءً وفداءً وتضحيةً.

إنّ عليه أنْ يهزّ بجذعِ النخلةِ ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا

[1] – سورةُ المائدةِ : ١٤

جَنِيًّا ﴾[1] أمّا الثّمارُ والرُّطَبُ فمِنْ عندِ اللهِ... فلا يضرُّهُ إنْ كانَتْ قوّتُهُ لا تساوي القوّةَ الّتي يحتاجُها الرُّطَبُ كي يسقطَ... عليهِ أنْ يبذُلَ كلَّ ما في وسعِهِ، ثمَّ يتوكّلَ على ربِّ الأسبابِ الّذي يعلمُ متى يُنزِلُ الرُّطَبَ وأينَ وكيفَ...جلّ وعَلا، وذلكَ بعدَ استكمالٍ للأسبابِ ومراجعاتٍ وتقييمٍ للذّاتِ والمسارِ منْ أجلِ تداركِ الأخطاءِ، فإنْ فعلَ ذلكَ فلا عليهِ بعدَ ذلكَ متى سيكونُ جنيُ الثّمارِ، فكلُّ شيءٍ عندَهُ بمقدار.

هذه هي المعادلةُ الدّقيقةُ بينَ فعْلِ الإنسانِ وقدرتِهِ على التغييرِ والإنجازِ وبينَ صلتِهِ باللهِ وفعلِ اللهِ وتصريفِهِ في الكونِ وفقَ حكمتِهِ البالغةِ.

إنّها فعلاً وصفةٌ سحريّةٌ تجعلُ مِنْ إمكانيّاتِ الإنسانِ قوّةً تهزُّ الجبالَ إذا ما اتّصلَتْ بخالقِهِ وانفعلَت وتحرّكَتْ وفقَ هذه المعادلةِ.

[1]- سورةُ مريمَ : ٢٥

إجلاءُ بني النّضيرِ (في شهرِ ربيعِ الأوّلِ، سنةَ أربعٍ للهجرة):

روى ابنُ سعدٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ خرجَ يومَ السّبتِ، فصلّى في مسجدِ قباءٍ ومعهُ نفرٌ مِنْ أصحابهِ مِنَ المهاجرينَ و الأنصارِ، ثمَّ أتى بني النّضيرِ فكلّمَهم أنْ يعينُوهُ في دِيَةِ الكلابيَّينِ اللّذَين قتلَهما عمرو بنُ أميّةَ الضمّريّ وكانَ لهما مِنْ رسولِ اللهﷺ جوارٌ وعهدٌ ، وكانَ بينَ بني النّضيرِ وبينَ بني عامرٍ عقدٌ وحلفٌ، وذلكَ على ما رواهُ ابنُ إسحاقَ وغيرِه، فقالُوا: "نفعلُ يا أبا القاسمِ ما أحبَبْتَ. وخلا بعضُهم ببعضٍ وهمّوا بالغدرِ. وقالَ عمرو بنُ جحّاش النَّضريّ: أنا أظهرُ على البيتِ فأطرحُ عليه صخرةً_ وكانَ رسولُ الله ﷺ واقفاً إلى جنبِ جدارٍ مِنْ بيوتهم_. وزادَ ابنُ سعدٍ أنَّ سلاماً بنَ مشكمٍ (وهو منْ يهودِ بني النّضيرِ) قالَ لهم: لا تفعلُوا، واللهِ ليُخبرَنَّ بما هممتم بهِ وإنّهُ لنَقْضُ العهدِ الذي بينَنا وبينَهُ[1].

فجاءَ رسولَ الله ﷺ الخبرُ بما همُّوا فنهضَ سريعاً كأنّهُ يريدُ حاجةً وتوجّهَ إلى المدينةِ. ولحقَهُ أصحابُهُ، فقالُوا: قمْتَ ولم نشعرْ! . . قالَ: "همَّتْ يهودُ بالغدرِ، فأخبرني اللهُ بذلكَ فقمْتُ".

---

[1] - طبقاتُ ابنِ سعدٍ :٣/٩٩

ثمَّ أرسلَ إليهم رسولُ الله ﷺ: أنِ اخرجُوا مِنْ بلدِي فقدْ هممْتُم بما همَمْتم بهِ مِنَ الغدرِ، وقد أجّلْتُكم عشراً، فمَنْ رُئِيَ بعدَ ذلكَ ضرِبْتُ عنقَهُ. فأخذُوا يتهيّؤون للخروجِ، ولكنّ عبدَ اللهِ بنَ أبي سلولٍ أرسلَ إليهم: أنْ لا تخرجُوا مِنْ دياركم وأقيمُوا في حصنِكم، فإنّي معي ألفَين مِنْ قومِي وغيرِهم يقاتلُون عنْكم. فعادُوا عمّا أزمعُوا عليه مِنَ الخروجِ وتحصّنُوا في حصونِهم، فأمرَ رسولُ الله ﷺ بإعدادِ العدّةِ لحربِهم والسّيرِ إليهم..

ثمَّ سارَ رسولُ الله ﷺ إليهم وقد تحصّنَ اليهودُ بحصونِهم معهم النّبْلُ والحجارةُ، ولكنَّ ابنَ أبيٍّ خذلَهم فلم ينفّذْ وعدَهُ معهم، فحاصرَهمُ النّبيُّ ﷺ وأمرَ بقطعِ نخيلِهم وإتلافِها[1]، فنادَوهُ: يا محمّد قد كنتَ تنهى عنِ الفسادِ وتعيبَهُ على مَنْ يصنعُهُ، فما بالُ قطعِ النّخيلِ وتحريقِها؟ وقد أنزلَ اللهُ تعالى في ذلكَ قولَهُ:

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾[2]،

فعرضُوا على رسولِ الله ﷺ أنْ يخرجُوا مِنَ المدينةِ كما أرادَ.. ولكنّهُ ﷺ قالَ: لا أقبلُهُ اليومَ إلا على أنْ تخرجُوا بدمائِكم فقط وليسَ لكم منْ أموالِكُم إلا ما

[1]- متفق عليه.

[2]- سورة الحشر: ٥

حملتْهُ الإبلُ، عدا الحلَقةِ (أي السّلاح) . فنزَل اليهودُ على ذلكَ، واحتملُوا مِنْ أموالِهم ما استقلَّتْ بِهِ الإبلُ. قالَ ابنُ هشامٍ: فكانَ الرّجلُ منهم يهدِم بيتَهُ عنْ نجافِ بابِهِ (أي عتبتِه) فيضعُه على ظهرِ بعيرِه فينطلقُ به، وتفرّقُوا ما بينَ خيبرَ و الشّام و لمْ يُسلمْ منهم إلا رجلان: يامينُ بنُ عميرِ بنِ كعبٍ ابنُ عمِّ عمروِ بنِ جحاشٍ وأبو سعدٍ بنُ وهبٍ، فأحرزا أموالَهما"[1] .

وقسّمَ رسولُ الله ﷺ الأموالَ بينَ المهاجرِينَ الأولينَ دونَ الأنصارِ إلا اثنَين منَ الأنصارِ أعطاهُما لِما ذُكِرَ لهُ مِنْ فقرِهما، وهما سهلٌ بنُ حنيفٍ وأبو دجانةَ سماكُ بنُ خرشةَ. وكانَتْ أموالُ بني النّضيرِ خالصةً لرسولِ الله ﷺ. وذكرَ البلاذري في (فتوحِ البلدان) أنّهُ كانَ يزرعُ تحتَ النّخيلِ في أرضِهم فيدخرُ مِنْ ذلكَ قوتَ أهلِهِ وأزواجِهِ، سنةً وما فَضُلَ جعلَهُ في الكراعِ والسّلاحِ[2]، ونزَلَ في بني النّضيرِ سورةُ الحشرِ بأكملِها، ونزلَ تعليقاً على سياستِهِ ﷺ في تقسيمِ أموالِ بني النّضيرِ قولُه تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

[1] – انظرْ طبقاتِ ابنِ سعدٍ وسيرةَ ابنِ هشامٍ وتاريخَ الطّبريّ وتفسيرَ ابنِ كثيرٍ عندَ تفسيرِ سورةِ الحشر .

[2] - عيونُ الأثر ٢/٥١

يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[1].

همْهَمْتُ بحزنٍ وأسىً... لا بأسَ على أهلِ فلسطينَ وهم يعانونَ مِنْ غدرِ اليهودِ، فالتّاريخُ يعيدُ نفسَهُ... فهؤلاءِ يرتكبونَ خيانةً عُظمى تُعاقبُ عليها الأعرافُ الدّوليّةُ والقوانينُ البشريّةُ، فليس حيفاً أنْ يُخرجَهم رسولُ الرّحمةِ ﷺ منَ المدينةِ... فخيانتُهم عُظمى فلا يستحقّونَ أنْ يكونُوا جزءاً منَ الدّولةِ أو مواطِنِينَ فيها .

[1]- سورةُ الحشر : ٦- ٧

غزوةُ ذاتِ الرِّقاعِ :

وقد كانَتْ في السّنةِ الرّابعةِ للهجرةِ، بعدَ مرورِ شهرٍ ونصف تقريباً على إجلاءِ بني النّضيرِ، على ما ذهبَ إليهِ أكثرُ علماءِ السّيَرِ والمغازي ورجّحَ البخاريّ وبعضُ المحدثين أنّها كانَتْ بعدَ غزوةِ خيبرَ .

وسببُها ما ظهرَ مِنَ الغدرِ لدى كثيرٍ مِنْ قبائلِ نجدٍ بالمسلِمينَ، ذلكَ الغدرُ الذي تجلّى في مقتلِ أولئكَ الدُّعاةِ السبعِينَ الذينَ خرجُوا يدعونَ إلى اللهِ تعالى، فخرجَ ﷺ قاصداً قبائلَ محاربٍ وبني ثعلبَ، واستعملَ على المدينةِ أبا ذرٍّ الغفاريّ رضيَ اللهُ عنهُ. وعسكرَ رسولُ اللهِ ﷺ في مكانٍ بنجدٍ منْ أرضِ غطفانَ يُسمّى (نخل)، ولكنَّ اللهَ تعالى قذفَ في قلوبِ تلكَ القبائلِ الرّعبَ_ وقد كانَتْ كما يقولُ ابنُ هشامٍ جموعاً كبيرةً_ فتفرّقُوا بعيداً عن المسلِمينَ ولم يقعْ أيُّ قتالٍ.

غيرَ أنَّ في قصّةِ هذهِ الغزوةِ مع ذلكَ مشاهداً تستأهلُ النّظرَ فيها وأخذَ الدَّرسِ منها، فلنجتزئ عنْ ذكْرِ القصّةِ كلّها بذكْرِ هذه المشاهدِ:

أولاً : رُويَ في الصّحيحَينِ عنْ أبي موسى الأشعريّ رضيَ اللهُ عنه قالَ:" خرجْنا معَ رسولِ اللهِ ﷺ في غزاةٍ ونحنُ ستّةُ نفرٍ بيننا بعيرٌ نعتقبُه، قالَ: فنقبَتْ أقدامُنا،

فنقبَتْ قدماي وسقطَتْ أظافري، فكنّا نلفُّ على أرجلِنا الخِرَقَ، فسُمّيَتْ غزوةُ ذاتِ الرّقاعِ لما كُنّا نعصِبُ على أرجُلِنا مِنَ الخِرَقِ. قالَ أبو موسى بهذا الحديثِ ثمّ كرِهَ ذلكَ، قال كأنّهُ كرِهَ أنْ يكونَ شيئاً مِنْ عملِهِ أفشاهُ".

ثانياً: روى البخاريُّ ومسلمٌ أنّهُ ﷺ صلّى في غزوةِ ذاتِ الرّقاعِ صلاةَ الخوفِ، وأنَّ طائفةً صفَّتْ معه، وطائفةٌ وُجاهَ العدوّ. فصلّى بالّتي معَهُ ركعةً، ثمّ ثبتَ قائماً وأتمُّوا لأنفسِهم، ثمّ انصرفُوا فصفُّوا وجاهَ العدوّ وجاءَتْ الطّائفةُ الأُخرى فصلّى بهم الرّكعةَ الّتي بقيَتْ مِنْ صلاتِه، ثمّ ثبتَ جالساً وأتمُّوا لأنفسِهم ثمّ سلّمَ بهم[١].

ثالثاً: روى البخاريُّ عنْ جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ: "أنّهُ لمّا قفلَ رسولُ اللهِ ﷺ قفلَ معهُ، فأدركتْهم القائلةُ (وقتُ القيلولةِ) في وادٍ كثيرِ العضاهِ (نوعٌ مِنَ الشّجرِ) فنزلَ رسولُ اللهِ ﷺ، وتفرّقَ النّاسُ يستظلّونَ الشّجرَ، ونزلَ رسولُ اللهِ ﷺ تحتَ سَمُرةٍ فعلّقَ بها سيفَهُ، قالَ جابرٌ: فنمْنا نومةً، فإذا رسولُ اللهِ ﷺ يدعُونا فجئْناهُ فإذا

١- رواهُ البخاريُّ في ٥/٥٣ بابِ: غزوةِ ذاتِ الرّقاعِ ، ورواهُ مسلمٌ في ٢/٢١٤ بابِ صلاةِ الخوفِ وزادَ مسلمٌ فروى بعدَ ذلكَ عنْ جابرٍ أنّهُ نوديَ بالصّلاةِ فصلّى بطائفةٍ ركعتَين ثمَّ تأخّرُوا وصلّى بالطّائفةِ الأخرى ركعتَين، قالَ: فكانَتْ لرسولِ اللهِ ﷺ أربعُ ركعاتٍ وللقومِ ركعتين . قلتُ : ووجه التوفيقِ بينَ الحديثَين أنّه عليه الصّلاةُ والسّلامُ صلّى بأصحابهِ صلاةَ الخوفِ أكثرَ منْ مرّةٍ ، فصلاها مرّةً على النّحوِ الأوّلِ وصلاها مرّةً أخرى على النّحوِ الثّاني وحديثُ مسلمٍ يدلُّ على أنَّ المسافرَ يجوزُ لهُ أنْ يتمَّ الرباعيّةَ ويقصرَها وهو مذهبُ الشّافعيّ ومالكٍ والإمامِ أحمدَ ، خلافاً للحنفيّة

عندَه أعرابيٌّ جالسٌ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ إنَّ هذا اخترطَ سيفي و أنا نائمٌ فاستيقظْتُ وهو في يدِهِ صلتاً، فقال لي: مَنْ يمنعُكَ منّي؟ فقلْتُ لهُ: اللهُ، فها هو ذا جالسٌ. . . ثمَّ لم يعاقبْهُ رسولُ اللهِ ﷺ[1].

رابعاً : روى ابنُ إسحاقَ وأحمدُ عن جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ، قالَ: "خرجْنا معَ رسولِ اللهِ ﷺ في غزوةِ ذاتِ الرّقاعِ فأصيبَتِ امرأةٌ مِنَ المشركينَ فلمّا انصرفَ رسولُ اللهِ ﷺ قافلاً وجاءَ زوجُها وكانَ غائباً، فحلفَ ألا ينتهيَ حتّى يهريقَ دماً في أصحابِ محمّدٍ ﷺ، فخرجَ يتبعُ أثرَ النّبيِّ ﷺ فنزلَ النّبيُّ ﷺ مَنزِلاً، فقالَ: مَنْ رجلٌ يكلؤُنا ليلتَنا هذهِ؟ قالَ: فانتدبَ رجلٌ مِنَ المهاجرينَ وآخرُ مِنَ الأنصارِ[2] فقالا: نحنُ يا رسولَ اللهِ، قالَ: فكونا بفمِ الشّعبِ، قالَ: وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ قد نزلُوا إلى شِعْبٍ في الوادي. فلمّا خرجَ الرّجُلانِ إلى فمِ الشّعبِ، قالَ الأنصاريُّ للمهاجريّ: أيَّ اللّيلِ تحبُّ أنْ أكفيكَهُ؟ أولَه أم آخرَه؟ قالَ: بل اكفني أوّلَه، فاضطجعَ المُهاجريُّ فنامَ، وقامَ الأنصاري يُصلّي، قالَ: وأتى الرّجلُ فلمّا رأى شخصَ الأنصاريّ عرفَ أنّهُ ربيئةُ القومِ (الطّليعةُ الذي يحرُسُهم) فرمى بسهمٍ

---

[1]- صحيحُ البخاريّ :٥/٥٢ و ٥٣ و٥٤

[2]- زادَ ابنُ إسحاقَ : وهما عمارٌ بنُ ياسرٍ وعبادٌ بنُ بشر .

فوضعَهُ فيه، فنزعَهُ الأنصاريُّ وثبتَ قائماً يصلّي، ثمَّ رماهُ بسهمٍ آخرَ فوضعَهُ فيه، فنزعَهُ وثبَتَ قائماً، ثمَّ عادَ له بالثّالثةِ فنزعَهُ، ثمَّ ركعَ وسجدَ، وأهبَ صاحبَهُ (أيقظَهُ) قائلاً: اجلسْ فقد أُثبتُّ، قالَ: فوثبَ، فلمّا رآهُما الرجلُ عرفَ أنّه قد نُذرَ بهِ[1] فهربَ، ولمّا رأى المهاجريُّ ما بالأنصاريِّ من الدّماءِ قالَ: سبحانَ اللهِ! أفلا أيقظتني أوّلَ ما رماكَ، قالَ: كنْتُ في سورةٍ أقرؤُها فلم أحبَّ أنْ أقطعَها. فلمّا تابرَ عليَّ الرميَ ركعتُ فآذنتُكَ. وايمُ اللهِ، لولا أنْ أُضيّعَ ثغراً أمرَني رسولُ اللهِ بحفظِهِ، لقطعَ نفسِي قبلَ أنْ أقطعَها أو أنفذَها[2].

خامساً: روى البخاريُّ ومسلمٌ، وابنُ سعدٍ في طبقاتِهِ، وابنُ هشامٍ في سيرتِهِ، عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ: "خرجْتُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ إلى غزوةِ الرّقاعِ على جملٍ ضعيفٍ، فلمّا قفلَ رسولُ اللهِ ﷺ جعلَتِ الرّفاقُ تمضي، وجعلْتُ أتخلّفُ حتّى أدركَني رسولُ اللهِ ﷺ. فقالَ: مالكَ يا جابر؟ قلتُ: يا رسولَ اللهِ أبطأَ بي جمَلي هذا. قالَ: أنخْهُ. فأنختُهُ وأناخَ رسولُ اللهِ ﷺ، ثمَّ قالَ: أعطني هذهِ العصا مِنْ يدِكَ، ففعلْتُ، فأخذَها فنخسَهُ بها نخساتٍ ثمَّ قالَ: اركبْ، فركبْتُ فخرجَ

---

[1]- نذرَ به : أي اكتشفَ أمرَه .

[2]- رواه أحمدُ والطّبريّ وأبو داودَ عنِ ابنِ إسحاقَ عنْ صدقةَ بنِ يسارٍ عنْ عقيلِ بنِ جابرٍ عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ

- والّذي بعثَهُ بالحقِّ- يواهقُ[1] ناقتَهُ مواهقةً.

وتحدثْتُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ لي: أتبيعُني جملَكَ هذا يا جابر؟ قلْتُ: يا رسولَ اللهِ بلْ أهبُهُ لكَ، قالَ: لا ولكنْ بعينِهِ، قلت: فسُمْنِيْهِ يا رسولَ اللهِ، قالَ: آخذُه بدرهمٍ! قلْتُ: لا، إذن تغبنَني يا رسولَ اللهِ. قالَ: فبدرهمَينِ؟ قلْتُ: لا فلم يزلْ يرفعُ لي رسولُ اللهِ ﷺ في ثمنِهِ حتّى بلغَ الأوقيّةَ. فقلْتُ: أَفَقَدْ رضيْتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: نعم، قلْتُ: فهو لكَ، قالَ: قد أخذتُهُ.. ثمَّ قالَ: يا جابر هل تزوجْتَ بعد؟ قلْتُ: نعم يا رسولَ اللهِ قالَ: أثيّبًا أم بكراً؟ قلْتُ : لا، بل ثيّباً، قالَ: أفلا جاريةٌ تلاعبُها وتلاعبُك؟ قلْتُ: يا رسولَ اللهِ إنَّ أبي أُصيبَ يومَ أحدٍ وتركَ بناتٍ له سبعاً، فنكحْتُ امرأةً جامعةً، تجمعُ رؤوسَهنّ وتقومُ عليهنَّ. قالَ: أصبْتَ إنْ شاءَ اللهُ، أمَا إنّا لوقد جئْنا صراراً[2] أمرْنا بجزورٍ فنُحرَتْ، وأقمْنا عليها يومَنا ذاكَ وسَمِعَتْ بنا فنفضَت نمارقَها[3]، فقلْتُ: واللهِ يا رسولَ اللهِ مالنا مِنْ نمارق! قالَ: إنّها ستكونُ، فإذا أنتَ قدمْتَ فاعملْ عملاً كيّساً. قالَ جابرٌ:

---

[1]- يُواهقُ: أي يُسابقُ

٢- صرار: اسمُ مكانٍ في ضاحيةِ المدينةِ.

٣- جمعُ نمرقةٍ: الوسادةُ الصّغيرةُ للاتّكاءِ .يقصدُ أنّها إذا علمَتْ بقدومِكَ قامَتْ فهيّأتِ البيتَ لوصولِكَ .

فلمّا جئْنا صراراً أمر رسول الله ﷺ بجَزورٍ فنُحرَ، وأقمْنا عليها ذلكَ اليومَ، فلمّا أمسى رسولُ اللهِ ﷺ دخلَ فدخلْنا المدينةَ.

قالَ جابرٌ: فلمّا أصبحْتُ أخذْتُ برأسِ الجملِ، فأقبلْتُ بهِ حتّى أنخْتُه على بابِ رسولِ اللهِ ﷺ، ثمَّ جلسْتُ في المسجدِ قريباً منهُ، فخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ فرأى الجملَ فقالَ: ما هذا؟ قالُوا: يا رسولَ اللهِ هذا جملٌ جاءَ بهِ جابرٌ، قالَ: فأينَ جابرٌ؟ فدُعيْتُ لهُ فقال:

يا ابنَ أخي، خُذْ برأسِ جملِكَ فهو لكَ. ودعا بلالاً فقالَ لهُ: اذهبْ بجابرٍ فأعطِهِ أوقيةً فذهبْتُ معهُ فأعطاني أوقيّةً، وزادَني شيئاً يسيراً، فو اللهِ مازالَ ينمو عندي ويُرى مكانُهُ مِنْ بيتِنا"[1].

أغلقْتُ الكتابَ لأردِّدَ (اللهُ أكبرُ) معَ أذانِ الفجرِ الّذي خرجَ مِنَ الحرمِ النّبويِّ الشّريفِ.

مرّتِ السّاعاتُ بسرعةٍ، لكنّي أشعرُ أنَّ قلبي وعقلي لم يبقيا كهيئتِهما، ولا في جوهرِهما... وكأنّي بُدّلْتُ إنساناً غيرَ الّذي كانَ.

١- سياقُ القصّةِ بهذا اللفظِ لابنِ إسحاقَ كما رواهُ ابنُ هشامٍ في السّيرةِ ص ٥٤٣- ٥٤٤، وهي في البخاريّ ومسلمٍ قريبٌ منْ ذلكَ.

حبٌ نبَتَ في القلبِ، زرعَتْهُ وروَتْهُ السّيرةُ الشّريفةُ، أمّا الأرضُ فأحيِيَتْ بإذنِ ربِّها. ليس من عاينَ وتذوّقَ كمَنْ سمعَ أو قرأَ...

كنْتُ أقرأُ مِنْ قبلُ عنْ محبّةِ الصّحابةِ لرسولِ اللهِ ﷺ، و لم تكنْ هذهِ أولَ مرةٍ أطّلعُ على سيرتِهِ ﷺ لكنِ الطّعمُ مغايرٌ تماماً... المرسلُ نفسُهُ والرّسالةُ ذاتُها لكنِ المُستقبِلَ هو الّذي تغيّرَ.

صحيحٌ فالّذي قد تغيّرَ هو أنا !

قصصُ فداءٍ للصّحابةِ وبذلِهم مِنَ الجهدِ والوقتِ والضّنكِ دونَ مللٍ أو تذمّرٍ، غدَتْ لها وقعٌ آخرُ في قلبي، مختلفٌ في تفكيري.

وإنّ قصّةَ الصحابيَّينِ عمارٌ بنُ ياسرٍ وعبّادٌ بنُ بشرٍ لَتثيران في النّفسِ أسئلةً عدّةً... فعبّادٌ بنُ بشرٍ لم يمضِ على إسلامِهِ سوى أربعِ سنواتٍ لكنّهُ تذوّقَ حلاوةَ المناجاةِ وعاشَ في معاني القرآنِ وآياتِهِ حتّى كأنّهُ يعاينُ الجنّةَ والنّارَ، و لم يوقظْهُ مِنْ هذا الحالِ سوى الشعورُ بالمسؤوليةِ تجاهَ الثّغرِ الّذي أُمرَ بحفظِهِ، ولستُ هنا بصددِ مناقشةٍ... أليسَ مِنَ الأفضلِ أنْ يحفظَ الثّغرَ ولا ينشغلَ بالصّلاةِ، فالثّغرُ أولى طبعاً مِنْ صلاتِه، لكنّي أرصدُ التفاعلَ القلبيَّ بينَ الصلاةِ والقرآنِ وقلبِ الصّحابيِّ الّذي عمرُهُ الإيمانيُّ لم يتجاوزِ أربعَ سنواتٍ!

ثمَّ يأخذُ بلبّي رحمةُ رسولِ اللهِ ﷺ وتفقّدَهُ أصحابَهُ عندَ كلِّ فرصةٍ سانحةٍ، إنّهُ مثالُ القائدِ النّاجحِ الّذي يتفقّدُ أتباعَهُ ويعرفُ تفاصيلَ

حيـــاتِهم، ويعيـــنُهم علـــى تجاوزِهـــا دونَ أنْ يخـــدشَ مشـــاعرَهم أو كرامتَهم، بلْ بلطفٍ شديدٍ...ﷺ وهذا أيضاً ركنٌ أساسيٌّ مِنْ أركانِ القائدِ النّاجحِ، فلا بدّ للقائـدِ أنْ يعـرفَ أتباعَـهُ ومرؤوسـيهِ... نقـاطَ ضعفِهم وقوّتِهم... مشاكلَهم وهمومَهم... يخفّفُ عنهم ما استطاعَ ويؤانسُهم ويعملُ على حلِّها ما أمكـنَ، فقصَّـتُهُ مـعَ جـابرٍ تـذيبُ في القلـبِ حـبَّ رسـولِ اللهِ ﷺ ، وتـثيرُ في العقـلِ الإعجـابَ والتقـديرَ، ففيها مِنَ المؤانسـةِ مـا يـؤنسُ الـرُّوحَ التّعبـةَ، ومِـنَ التّـودّدِ مـا يلـوي بالقلبِ ويجذِبُه إلى الحبيبِ ﷺ.

قمْتُ لأجدّدَ وضوئِي وأصلّي صلاةَ الفجرِ. كانَتْ صـلاةً مختلفـةً عـنْ سابقيْها، فيها مِنَ الرّجاءِ والخوفِ والأملِ والخشوعِ مـا لم يكـنْ مـنْ قبلُ!

الصّلاةُ والسّلامُ عليكَ يا صاحبَ الرَّوضةِ الشّريفةِ... الصلاةُ والسّلامُ عليكَ يانبيَّ الرّحمةِ والهُدى وإمامَ المهتدين وحبيبَ الرّحمنِ.

لم أردْ أنْ أُصلّيَ في الرّوضةِ وألقى الرّسولَ الكريمَ إلا بعدَ الانتهاءِ مِنْ سيرتِهِ الشّريفةِ، رغمَ أنَّ الحشودَ الّتي وقفتْ تنتظرُ دورَها للدّخولِ إلى الرّوضةِ والتّسليمِ علـى رسـولِ اللهِ ﷺ كانَـتْ كـثيرةً، ولقـد حـدّثْتُ نفسيَ كثيراً أنْ ألتحقَ بهـا، لكـنَّ إحساسـاً قويّـاً يـدفعُني للعـودةِ إلى الفندقِ واستكمالِ القراءةِ.

أستغربُ منْ نفسي هذه الرّغبـةَ الجامحـةَ في قـراءةِ سـيرتِهِ العَطِـرةِ قبـلَ الوفادةِ إليهِ لا أدري لماذا؟.. ربّما أردْتُ أنْ ألقاه بقلبٍ آخـرَ وعقـلٍ مختلـفٍ! أو ربّمـا أريـدُ أنْ يشـتعلَ حبُّـهُ في قلبي وأفـدَ إليـهِ بالشّـوقِ والحُبِّ! ربَّما!!!

غزوةُ بني المصطلقِ (غزوةُ المريسيع) العامُ الخامسُ للهجرةِ :

سببُها ما بلغَ النّبيَّ ﷺ منْ أنَّ بني المصطلقِ يجمعون لهُ وقائدُهم الحارثُ بنُ ضرارٍ، فلمّا سمعَ رسولُ اللهِ ﷺ بهم خرجَ إليهم حتّى لقيَهم على ماءٍ يقالُ لهُ (المريسيع) فتزاحمَ النّاسُ واقتتلُوا فهزمَ اللهُ بني المصطلقِ وقتلَ مَنْ قتلَ منْهم. وقسمَ رسولُ اللهِ ﷺ أربعةَ أخماسِ الغنيمةِ على المقاتِلين، للرّاجِلِ سهمٌ وللفارسِ سهمان[1]، وخرجَ معَ المسلمِينَ في هذهِ الغزوةِ عددٌ كبيرٌ مِنَ المنافقِين ، كانَ يغلبُ عليهم التّخلّفُ في الغزواتِ السّابقةِ ، وذلكَ بما رأَوا من اطّراد النّصرِ للمسلِمينَ وطمعاً في الغنيمةِ.

وروى ابنُ سعدٍ في طبقاتِهِ وابنُ هشامٍ في سيرتهِ، أنَّ غلاماً لعمرَ بنِ الخطّابِ رضيَ اللهُ عنهُ اسْمُهُ جهجاه بنُ سعيدٍ الغفاريّ تنازعَ معَ سنانَ بنِ وبر الجهنيّ، وهما مع جمعٍ عندَ ماءِ المريسيع أثناءَ مقامِ النّبيِّ ﷺ هناك، وكادا أنْ يقتتلا، فصرخَ الجهنيّ:" يا معشرَ الأنصارِ، وصرخَ جهجاهُ: يا معشرَ المهاجرين، فسمعَ بالأمرِ عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ بنِ سلولٍ، فغضبَ وقالَ للرّهطِ ممّنْ معهُ: أوَ فعَلوها ؟! قد

١- طبقاتُ ابنِ سعدٍ :١٠٦/٣ ، وسيرةُ ابنِ هشامٍ ٢٩٠/٢

نافرُونا وكاثرُونا في دارنا واللهِ ما أعدنا وجلابيبَ قريشٍ (يقصدُ المسلمين منْ قريشٍ) إلا كما قالوا: سمّنْ كلبَك يأكُلْكَ، أما واللهِ لئنْ رجعْنا إلى المدينةِ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ" .

وكانَ ممّنْ سمعَ كلامَهُ زيدٌ بنُ أرقمَ، فمشى إلى رسولِ اللهِ ﷺ يخبرُهُ الأمرَ، وكانَ عندَهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ: "يا رسولَ اللهِ مُرْ بِهِ عبّادَ بنَ بشرٍ فليقتُلْه، فقالَ لهُ ﷺ: فكيفَ يا عمرُ إذا تحدّثَ النّاسُ أنَّ محمّداً يقتلُ أصحابَهُ؟ لا. ولكنْ أذّنْ بالرّحيلِ، وذلكَ في ساعةٍ لم يكنْ رسولُ اللهِ ﷺ يرتحلُ فيها، فارتحلَ النّاسُ. ومشى رسولُ اللهِ بالنّاسِ يومهم ذلكَ حتّى أمسى، وليلتَهم حتّى أصبحَ، وصدرَ يومِهم ذلكَ حتّى آذَنْتهمُ الشّمسُ، ثمَّ نزلَ بالنّاسِ فلم يلبثُوا أنْ وجدُوا مسَّ الأرضِ فوقعُوا نياماً. وإنّما فعلَ الرّسولُ ﷺ ذلكَ ليشغلَ النّاسَ عنِ الحديثِ الّذي كانَ بالأمسِ منْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ أبيّ" . ونزلَتْ سورةُ المنافقِين تصديقاً لقولِ زيدٍ ابنِ أرقمَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ سلولٍ، وفيها يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ

وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ [1] .

وجاءَ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ أبيّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ_ بعدَ أنْ رجَعُوا إلى المدينةِ_ فقالَ:" إنّهُ بلغَني أنّكَ تريدُ قتلَ أبي فيما بلغَكَ عنهُ فإنْ كنتَ لابدَّ فاعلاً فمرْني، فأنا أحملُ إليكَ رأسَهُ، فو اللهِ لقد علمَتِ الخزرجُ ما كانَ لها مِنْ رجلٍ أبرَّ بوالدِهِ منّي، وإنّي أخشى أنْ تأمرَ غيري فيقتلَه فلا تدعْني نفسي أنظرُ إلى قاتلِ عبدِ اللهِ بنِ أُبيّ يمشي في النّاسِ، فأقتلَه فأقتلُ رجلاً مؤمناً بكافرٍ، فأدخلُ النّارَ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ بلْ نترفّقْ بِهِ ونحسنُ صحبتَهُ ما بقيَ معنا .

وجعلَ بعدَ ذلكَ إذا حدّثَ عبدُ اللهِ بنُ أبيٍ بالحديثِ كانَ قومُهُ همُ الذينَ يعاتبونه و يعنّفونه. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ لعمرَ بنِ الخطّابِ: "كيفَ ترى يا عمرُ؟ أما واللهِ لو قتلْتُه يومَ قلْتَ لي اقتلْهُ لأُرعدَت له آنفٌ، لو أمرتُها اليومَ بقتلِهِ لقتَلَتْهُ. فقالَ عمرُ: قد واللهِ علمْتَ لأمرُ رسولِ اللهِ ﷺ أعظمُ بركةً مِنْ أمري" .

قرأْتُ القصّةَ وأنا أنظرُ بإعجابٍ إلى فعلِ رسولِ اللهِ ﷺ في القضاءِ

١- سورةُ المنافقون : ٨

على الفتنةِ في مهدِها قبلَ أنْ تتطايرَ كالشّررِ، فإجهادُ الجندِ بالتّعبِ الجسديِّ يجعلُهم غيرَ قادرينَ على التّحدّثِ وتناقلِ الخبرِ، ويمنعُ ما يمكنُ أنْ يحدثَ مِنْ جرّاءِ ذلكَ مْنْ مشاكلَ وفِتنٍ، فانشغالُ النّاسِ بالأعمالِ لا يدعُ مجالاً للقيلِ والقالِ، وأغلبُ مشكلاتِ الألسنِ ونقلِ الأخبارِ مع تزويقِها ببهاراتٍ وإضافاتٍ وإسقاطٍ للمشاعرِ والتّخميناتِ، ثمَّ سوقِها وكأنَّها مِنْ أصلِ الأحداثِ، كلُّ ذلكَ يحدثُ عندَ الفراغِ ووجودِ وقتٍ متّسعٍ للتّسامُرِ أو التّحادثِ. وهذا ما نلحظُهُ في حياتِنا الاجتماعيةِ والشّركاتِ، والمديرُ النّاجحُ هو الّذيْ يوزّعُ المَهمّاتِ والأعمالَ حسبَ الأوقاتِ تماماً بما لا يدعُ وقتاً لتجاذبِ أطرافِ الحديثِ مطوّلاً حتّى لا يُفضي إلى كثرةِ القيلِ والقالِ، وقد نهى رسولُ اللهِ ﷺ عنِ القيلِ والقالِ : (إنَّ اللَّهَ حرَّمَ عليكم عقوقَ الأمَّهاتِ، ومنعًا وَهاتِ، ووأدَ البناتِ وَكرِه لَكم قيلَ وقالَ ، وَكثرةَ السُّؤالِ، وإضاعةَ المالِ)[1]

١ – الرّاوي :المُغيرةُ بنُ شعبةَ المحدّث:البخاري - المصدرُ :صحيحُ البخاري - الرقم: ٥٩٧٥. خلاصةُ حكمِ المحدث: صحيح

خبرُ الإفْكِ :

وفي منصرفِ المسلمِينَ مِنْ هذهِ الغزوةِ كانَ حديثُ عائشةَ وقولُ أهلِ الإفكِ فيها، ونحنُ نسوقُ لكَ خلاصةَ ما جاءَ في الصحيحَينِ منْ ذلكَ. فقدْ روتْ رضيَ اللهُ عنها أنّها خرجَت معَ رسولِ اللهِ ﷺ في هذهِ الغزوةِ.. قالَتْ:" فلمّا فرغَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ غزوتهِ تلكَ وقفلَ، آذنَ ليلةً بالرّحيلِ فقمْتُ إلى بعضِ شأني، فلمّا رجَعْتُ إلى الرّحلِ، لمسْتُ صدري فإذا عقدِيْ قد انقطعَ، فرجَعْتُ فالتمسْتُهُ فحبسني ابتغاؤُه، قالَتْ وأقبلَ الرّهطُ الّذينَ كانُوا يرحّلوني فاحتملُوا هودجي ـوكانَ ذلكَ بعدَ نزولِ آيةِ الحجابـ فرحّلُوه على بعيريَ الّذي كنتُ أركبُ عليهِ، و هم يحسبون أنّي فيه... فبعثُوا الجملَ فسارُوا، و وجدْتُ عقدي بعدما استمرَّ الجيشُ، فجئْتُ منازلَهم وليسَ بها داعٍ ولا مجيبٌ فيممْتُ منزلي الّذي كنتُ بهِ وظننْتُ أنّهم سيفقدونَني فيرجعُون إليَّ، وكانَ صفوانُ بنُ المعطّلِ منْ وراءِ الجيشِ فأصبحَ عندَ منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ، فعرفني حينَ رآني، و كانَ رآني قبلَ الحجابِ، وكنتُ قد غلبتني عينايَ فنمْتُ، فاستيقظْتُ باسترجاعِهِ حينَ عرفني. فخمّرْتُ وجهي بجلبابي، وواللهِ ما تكلّمْنا بكلمةٍ ولا سمعْتُ منهُ كلمةً

غيرَ استرجاعِهِ. وهوى حتّى أناخَ راحلتَهُ، فقمْتُ إليها فركبتُها، فانطلقَ يقودُ بي الرّاحلةَ حتّى أتيْنا الجيشَ موغرِينَ في نحرِ الظّهيرةِ، وهم نزولٌ، فهلكَ منْ هلكَ في شأني وكانَ الّذي تولّى كِبْرَ الإفكِ عبدُ اللهِ بنُ أبي سلولٍ.

قالَتْ: واشتكيتُ حينَ قدمْنا المدينةَ شهراً، والنّاسُ يُفيضون في قولِ الإفكِ ولا أشعرُ بشيءٍ مِنْ ذلكَ غيرَ أني لا أعرفُ منْ رسولِ اللهِ ﷺ اللّطفَ الّذي كنتُ أرى منهُ حينَ أشتكي، إنّما يدخلُ فيسلّمُ ثمَّ يقولُ: كيفَ تِيْكُمْ؟ فلمّا نَقِهتُ خرجْتُ ذاتَ ليلةٍ مع أمِّ مسطحٍ لقضاءِ حاجةٍ ـ ولم نكنْ قد اتّخذْنا الكنفَ ـ فلمّا رجَعْنا عثرَتْ أمُّ مسطحٍ في مرطِها، فقالَتْ تَعِسَ مسطحٌ، فقلْتُ لها: بئسَ ما قلتِ، أتسبّينَ رجلاً قد شهدَ بدراً؟!.. قالَتْ: أولم تسمعِي ما قالَ؟ قالَتْ فأخبرَتْني بقولِ أهلِ الإفكِ، فازدَدْتُ مرضاً إلى مرضي.. وبكيتُ تلكَ الليلةَ حتّى أصبحْتُ، لا يرقأُ لي دمعٌ و لا أكتحلُ بنومٍ، و أخذَ رسولُ اللهِ ﷺ يستشيرُ بعضَ أصحابِهِ في الأمرِ وفي فراقِ أهلِهِ، فمنهم مَنْ يقولُ: يا رسولَ اللهِ هم أهلُكَ ولا نعلمُ إلا خيراً، ومنهم مَنْ يقولُ: لم يُضيّقِ اللهُ عليكَ، النّساءُ كثيرٌ، واسألِ الجاريةَ ـ يعني بريرة ـ تصدقْكَ. فدعا رسولُ اللهِ بريرةَ وسألَها: هل رأيتِ مِنْ

شيءٍ يُريبُكِ مِنْ عائشةَ؟ فأخبرْته أنّها لم تعلمْ عنها إلا الخيرَ. فقامَ ﷺعلى المنبرِ فقالَ: يا معشرَ المسلمِينَ، مَنْ يعذرني في رجلٍ قد بلغَ أذاهُ في أهلِ بيتي؟ فو اللهِ ما علمْتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمْتُ عليه إلا خيراً. فقامَ سعدٌ بنُ معاذٍ، فقالَ أنا أعذرُكَ منه يا رسولَ اللهِ. إنْ كانَ مِنَ الأوسِ ضربْنا عنقَهُ، و إنْ كانَ مِنَ الخزرجِ أمرتَنا ففعلْنا أمرَكَ. فتلاغطَ النّاسُ في المسجدِ حتّى أسكتَهم رسولُ اللهِ. ثمَّ دخلَ عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ وأبواي عندي، وهما يظنّانِ أنَّ البكاءَ فالقٌ كبدي، ولم يجلسْ عندي منذُ قيلَ ما قيلَ، وقد لبثَ شهراً لا يوحَى إليه في شأني بشيءٍ. قالَتْ: فتشّهدَ حينَ جلسَ ثمَّ قالَ: أمّا بعدُ يا عائشةُ فإنّهُ قد بلغَني عنكِ كذا وكذا فإنْ كنتِ بريئةً فسيبرّئك اللهُ، وإنْ كنتِ ألممْتِ بذنبٍ فاستغفري اللهَ وتوبي إليهِ. قالَتْ: فلمّا قضى رسولُ اللهِ ﷺ مقالَته، قلَصَ دمعي حتّى ما أحسُّ منه قطرةً. فقلْتُ لأبي: أجبْ عنّي رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ واللهِ لا أدري ما أقولُ فقلْتُ لأمّي: أجيبي عنّي، فقالَتْ واللهِ ما أدري ما أقولُ، فقلْتُ: واللهِ لقد عرفْتُ أنّكم قدسمعْتم بهذا حتّى استقرَّ في نفوسِكم وصدّقْتُم بهِ، فإنْ قلتُ لكم إنّي بريئةٌ ـ واللهُ يعلمُ أنّي بريئةٌ ـ لا تصدّقوني في ذلكَ، ولَئِن اعترفْتُ

لكم بأمر ـ والله يعلمُ أنّي بريئةٌ ـ لتصدّقنّي. إنّي والله ما أجدُ لي ولكُم مثلاً إلا كما قالَ أبو يوسفَ ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[1] قالَتْ: ثمَّ تحوّلْتُ فاضطجعْتُ على فراشي. قالَتْ: فوالله ما رامَ رسولُ الله مجلسَهُ، و لا خرجَ مِنْ أهلِ البيتِ أحدٌ حتّى أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ على نبيّهِ ﷺ فأخذَه ما كانَ يأخذُه منَ البُرحاءِ عندَ الوحيِ حتّى إنّه ليتحدّرُ منهُ مثل الجُمانِ منَ العرقِ في اليومِ الشّاتي منْ ثقلِ القولِ الذي أُنزِلَ عليه، قالتْ: فسُرّيَ عنْ رسولِ الله ﷺ وهو يضحكُ، فكانَتْ أولُ كلمةٍ تكلّمَ بها أنْ قالَ: أبشري يا عائشةُ أمّا اللهُ فقد برّأَكِ، فقالَتْ أمّي قُومي إليه (أي اشكريهِ)، فقلْتُ: لا والله لأقومُ إليهِ ولا أحمدُ إلا اللهَ هو الّذي أنزلَ براءَتي. قالَتْ فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2]، قالَتْ: وكانَ أبي ينفقُ على مسطحٍ لقرابتِهِ منهُ ولفقرِه، فقالَ: والله لا أنفقُ عليهِ شيئاً أبداً بعدَ الذي قالَ لعائشةَ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ

١- سورة يوسف: ١٨

٢- سورةُ النّور : ١١

وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]، فقال أبو بكرٍ: بلى واللهِ إني لأحبُّ أنْ يغفرَ اللهُ لي، فرجعَ إلى مسطحٍ النفقةَ التي كانَ ينفقُها عليهِ. ثمَّ خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى النّاسِ فخطبَهم، وتلا عليهم ما أنزلَ اللهُ تعالى مِنَ القرآنِ في ذلكَ، ثمَّ أمرَ بمسطحٍ بنِ أثاثةَ وحسّانَ بنِ ثابتٍ وحمنةَ بنتِ جحشٍ وكانُوا ممّنْ أفصحَ بالفاحشةِ، فضربُوا حدَّهُم[2] .

حادثةٌ لم تكنْ سهلةً على بيتِ النبوّةِ... وليستْ سهلةً على أيِّ إنسانٍ، فكيفَ ببيتِ القائدِ أو الحاكمِ والرّسولِ أوّلاً!

لكنّها جاءَتْ لتبرزَ وترسّخَ حقيقةَ بشريّةِ الرّسولِ ﷺ ، حتّى لا تختلطَ كما اختلطَتْ عندَ أتباعِ سيّدِنا المسيحِ عليهِ السّلام. فالُمحبُّ غالباً يبالغُ في صفاتِ محبوبِهِ، كما أنَّ صفاتِ وأخلاقِ رسولِ اللهِ ﷺ لَترفعُ مِنْ مقامِهِ إلى مرتبةِ الملائكةِ مِنْ شدّةِ حُسنِها وكمالِها، وحتّى لا تختلطَ الأمورُ فيشتطَّ محبّيهِ إلى تقديسِهِ كما فعلَ غيرُه بالأنبياءِ قبلَه، فقد جاءَتْ هذهِ الحادثةُ قويّةَ الوقعِ، طويلةَ المدّةِ نسبيّاً.

---

١ سورةُ النّور : ٢٢

٢- رواهُ أبو داوود وابنُ ماجه وابنُ إسحاقَ وغيرهم.

كما جاءَتْ لتردَّ على المشكّكِينَ بظاهرةِ الوحي مِنَ المستشرقين وأعداءِ الدّينِ، فلو كانَ الوحيُ مِنْ عندِ رسولِ اللهِ ﷺ لما عانى رسولُ اللهِ ﷺ مدّةَ شهرٍ كاملٍ وهو ينتظرُ الوحيَ ليبرّئَ السيدةَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها.

ثم استوقفني موقفُ السّيدةِ عائشةَ الّتي لم تتجاوزِ الخامسةَ عشرةَ آنذاكَ، لم يكنْ سهلاً عليها أنْ تشعرَ بارتيابِ الرّسولِ ﷺ سيّما بعدما لاحظَتْ تغيّراً في معاملتِهِ لها.. ولم يكنْ سهلاً على أبي بكرٍ الصّديقِ رضيَ اللهُ عنهُ، رفيقِهُ في الغارِ وصاحِبِهِ وقرةِ عينِهِ، لم يكنْ هيّناً عليهِ أنْ يظنّ رسولُ اللهِ ﷺ بابنتِهِ، وهو مَنْ أنفقَ وأعطى بلا حسابٍ.

أدبٌ لا يمكنُ وصفُهُ، ذلكَ الذي بدا مِنْ بيتِ الصّديقِ... فقد تزوّجَتْ عائشةُ برسولِ اللهِ ﷺ وهي صغيرةٌ في التّاسعةِ منْ عمرِها أو أكثرَ قليلاً فما أحبّتْ ولا عرفَتْ إلا رسولَ اللهِ ﷺ فأحبّتْهُ حُبّاً شديداً. كانَتْ حادثةً عظيمةَ الأثرِ على السّيدةِ عائشةَ سيّما في مثلِ عمرِها، حادثةً قد لا يسعُها عقلُ محبٍّ ولا يحملُها فؤادُ عاشقٍ. ثمَّ لم يُسمعْ مِنْ بيتِ الصّديقِ إلا الأدبُ الجَمُّ، ولم تتغيرِ المشاعرُ بعدَ ذلكَ أو تختلفَ.. حُقَّ لأبي بكرٍ أنْ يُسمّى صدّيقاً، فهو يُصدّقُ رسولَهُ ولو في حادثةٍ لابنتِهِ.. وحادثةٍ ليستْ كأيِّ حادثةٍ، إنّها جرمٌ كبيرٌ وخطَرٌ

عظيمٌ في عرفِ العربِ والمجتمعِ العربيِّ والمُسلمِ. فإنْ قالَتِ السّيدةُ عائشة عندَ سماعِها لتبرئتِها (لا واللهِ لا أقومُ إليهِ ولا أحمدُ إلا اللهَ هو الذي أنزلَ براءَتي) فهيَ مقولةُ بنتُ الرابعةَ أو الخامسةَ عشرةَ المُحبّةُ التي ما ظنّتْ أنْ تكونَ موضعَ اتّهامٍ عندَ زوجِها وحبيبِها، فلم تعيْ للوهلةِ الأولى حكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ في أنْ يقعَ هذا الحدثُ في بيتِ النبوّةِ. أمّا أبو بكرٍ وزوجتُهُ اللّذان طلبا منها شكرَ النّبيِّ ﷺ، فقدْ ضربَا أروعَ الأمثلةِ في الإيمانِ والأدبِ، لأنّهما وبكلِّ بساطةٍ رأيا يدَ اللهِ الفاعلةَ الكريمةَ تسطّرُ هذا الحادثَ وترسمُ فصولَهُ وشخصيّاتِهِ، عندئذٍ ليس مِنْ داعٍ لأحقدَ على ذاكَ الذي لاكَ في سيرةِ ابنتِي، فليسَ ذلكَ هو المهمّ...

لقد أرادَ اللهُ أمراً ولا بدَّ منْ منفِّذين لقدَرِهِ، بغضِّ النَّظرِ عمّنْ قامَ بهذا الفعلِ. إنّهُ أمرُ اللهِ ينفّذُهُ عبدٌ بحقِّ عبدٍ آخرَ، منْ أجلِ حكمةٍ قد يُبديْها البارئُ وقد يخفيْها، وما على العبدِ سوى أنْ يُراجعَ نفسَهُ ثمَّ يرضى بقضائِهِ ويتأدّبَ معَ قدرِهِ جلَّ جلالُهُ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1] ، ولعلَّ معاتبةَ اللهِ عزَّ وجلَّ لأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ عندما قطعَ إنفاقَهُ على مسطحٍ لأنّهُ شاركَ في نقلِ الخبرِ

[1]- سورةُ الأنفال : ١٧

والتّحدثِ فيهِ يدخلُ ضمنَ هذا المعنى... فقد أرادَ جلَّ جلالُهُ أن يرتقيَ إيمانُ أبي بكرٍ عنِ النّفسِ وطلباتِها ويسموَ، ليرى يدَ اللهِ الفاعلةَ في الأمورِ كلِّها سبحانَه وتعالى، ولو ارتقى إيمانُنا بهذا المستوى لما حقدَ أحدٌ على أحدٍ، ولا دعا أحدٌ على أحدٍ، هذا الرّقيّ هو أعلى درجةٍ في المسامحةِ الّتي تدرّجَ اللهُ بها في الآيةِ الكريمةِ ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [1] والآية الكريمة : ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [2].

هذا السُّموُّ قد يبدو للوهلةِ الأولى صعبَ التّحقُّقِ، نادرَ الفعلِ، لكنّهُ ليسَ كذلكَ! حتّى أنا نفسي ظننْتُ ذلكَ وكنتُ أقولُ أنَّ أخلاقَ الصّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم مِنَ الصّعبِ تحقيقُها.. لكنّي تفكّرْتُ وأنا أرصُدُ خلالَ قراءَتي للسّيرةِ كيف يُبنى الإيمانُ، فوصلْتُ إلى قناعةِ أنَّ هذا ليسَ خياليّاً بل هو واقعيٌّ ممكنُ الحدوثِ، وذلكَ عندما يرتقي إيمانُ المرءِ فيرى يدَ اللهِ فاعلةً في كلِّ شيءٍ، ويتمثّلُ بقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: (يا غلامْ إنّي أعلمُكَ كلماتٍ، احفظِ اللهَ يحفظْكَ، احفظِ اللهَ

---

[1]- سورةُ آلِ عمران :١٣٤

[2]- سورةُ فصلت : ٣٤

تجـدْهُ تجاهَـكَ، إذا سـألتَ فاسـألِ اللّهَ، وإذا اسـتعنْتَ فاسـتعنْ بـاللّهِ، واعلمْ أنَّ الأُمّةَ لـو اجتمعَـتْ علـى أنْ ينفعـوكَ بشـيءٍ لم ينفعُـوكَ إلا بشيءٍ قـد كتبَـهُ اللهُ لـكَ، ولـو اجتمعُـوا علـى أنْ يضـرّوكَ بشـيءٍ لم يضـرّوكُ إلا بشـيءٍ قـد كتبَـهُ اللهُ عليـكَ ، رُفِعَـتِ الأقـلامُ وجفّـتِ الصُّحفُ)[1] . فمِنْ أسماءِ اللهِ الحُسنى أنّهُ هو الضّارُّ والنّافعُ، أي بقدرتِـهِ فقط.

هذا الإيمانُ يـريحُ الـنّفسَ مـنْ عنـتٍ[2] أشـدّ، فشـعورُ المرءِ بـأنَّ فلانـاً يستطيعُ ضرّي أو منعَ الخيرِ عنّي ولا قدرةَ لي عليهِ، شديدُ الوقعِ على النّفْسِ، يزجُّ بها في بئرِ اليأسِ الـذي لا مخـرجَ منـه إلا الإيمـانُ بقـدرةِ اللهِ. فالإيمانُ بأنَّ اللهَ هو المخطِّطُ للأحداثِ وأنَّ العبـادَ مجـرّدُ منفّـذِين لأمرِهِ يبعثُ في النّفسِ الإشراقَ والرَّاحةَ، لأنَّ الذي خطّطَ وأمرَ عبادَهُ هو اللهُ الحنَّانُ، اللهُ الرّحمنُ... اللهُ الرَحيمُ... اللهُ القادرُ... اللهُ الـودودُ الّذي بيدِه كلُّ شيءٍ وإنّما أمرُه كنْ فيكونُ. وعنـدما ينظـرُ المـرءُ إلى أنَّ ما يحدثُ للإنسانِ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ هو اختبارٌ منَ اللهِ، وتعلـيمٌ مِـنَ الرّحمنِ، عندئذٍ يستقبلُ السّراءَ أو الضّراءَ بعـينٍ راضـيةٍ تحـاولُ معرفـةَ الرّسالةِ الّتي أُرسلَتْ إليهِ منَ الرّبِّ الرّحيمِ الحكيمِ العليمِ. وفي الوقـت

[1] - حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. سننُ التّرمذيّ، الجامعُ الصّحيحُ، حديث : ٢٥٠٠
[2] - عَنت : أي شدّة و ضيق.

ذاتهِ تعلمُ أنَّ اللهَ سينتصرُ لهُ إنْ كانَ مظلوماً ولـو بعـدَ حـينٍ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾[1]

عندئذٍ تطيبُ النّفْسُ وتأنسُ ولا تجزعُ، فالذي وقعَ عليها منَ الضّرِ آتٍ منْ حبيبٍ عادلٍ ورحيمٍ، وهُنا فقط يمكنُ للمرءِ أنْ يسامحَ ويحسنَ لمنْ أساءَ إليهِ، لأنّهُ مجرّدُ عبدٍ منفّذٍ لأمرِ اللهِ، واللهُ حاكمٌ عادلٌ، وسيأخذُ كلٌّ منّا نصيبَهُ مِنَ الجزاءِ والعقابِ.

أما التحدّثُ بأعراضِ النّاسِ ونقلِها قبلَ التثبّتِ منها فذاكَ أمرٌ عظيمٌ لا ينبغيْ للمجتمعِ المسلمِ أنْ يقعَ في مثلِ هذهِ المحاذيرِ، فقد قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾[2].

تنهدتُ.. وما أكثرَ ما تنهدتُ وأنا اقرأُ هذا الكتابَ، ربّما لأوسّعَ للنورِ كي يدخلَ قلبي، ويتفاعلَ مع أفكاري ومعتقداتي ونظرتي للكونِ والمجتمعِ، وعلاقاتي معَ العبادِ وردودِ أفعالي. فأرى نفسي أحياناً ترتقي وتقاربُ تلك المعاني، وأحياناً أخرى تُهزمُ وتبتعدُ عنها. لعلّها طبيعةُ النّفسِ والإيمانِ الذي يزيدُ وينقصُ، فعندما ترتفعُ

---

[1] - سورةُ الحجّ : ٣٨

[2] - سورةُ النّور : ١٥

مؤشراتُ الإيمانِ في القلبِ، وتنفعلُ الجوارحُ بالعباداتِ والطّاعاتِ، يسهلُ على النّفسِ الرّقيُّ والصّعودُ في تلكَ المدارجِ الرفيعةِ، أمّا إذا انخفضَ هذا المؤشّرُ فقد يهبطُ بسلوكِ الإنسانِ عنْ مثلِ تلكَ المعاني الرفيعةِ.

تنهدت مرّةً أخرى لكنّها ليست تنهيدةً تحملُ في طيّاتِها اليأسَ، بل عزماً على مجاهدةِ النّفسِ حتّى ألويَ عنقَها، وأقودَها إلى الحضرةِ الإلهيّةِ، لتذوقَ معانيَ الحُبِّ، عندَها تسهلُ كلُّ مجاهدةٍ للنّفسِ أو كلُّ عَنَتٍ وتعبٍ.. فالمطلوبُ غالٍ والمهرُ لابدَّ أنْ يُؤدّى، ولا يمكنُ أنْ أفرّطَ في تتبّعِ معاني محبّةِ اللهِ ورسولِهِ بعدَ أنْ تيقّنْتُ أنّهُ سرُّ رقيِّ الصّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم و تفانيهم وأعمالِهم وإنجازاتِهم.

غزوةُ الخندقِ (شوّالُ السّنةِ الخامسةِ للهجرةِ) :

– سببُها : أنَّ نفراً منْ زعماءِ اليهودِ مِنْ بني النّضيرِ خرجُوا حتّى قدِمُوا مكّةَ، فدعَوا قريشاً إلى حربِ رسولِ اللهِ ﷺ وقالُوا:" سنكونُ معكم حتّى نستأصلَهُ، وقالُوا لهم إنَّ ما أنتمْ عليهِ خيرٌ منْ دينِ محمّدٍ ﷺ" ففيهم نزلَ قولُ اللهِ تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾[١] .

فاتّفقُوا معَ قريشٍ على حربِ المسلمين، وتواعدُوا لذلكَ. ثمَّ خرجَ أولئكَ النفرُ مِنَ اليهودِ حتّى جاؤُوا غطفانَ فدعَوهم إلى مثلِ ما دعَوا قريشاً إليهِ، ولم يزالُوا بهم حتّى وافقُوهم على ذلكِ ثمَّ التقَوا ببني فزارةَ وبني مرّةَ، وتمَّ لهم معَ هؤلاءِ جميعاً تواعدٌ في الزّمانِ والمكانِ لحربِ رسولِ اللهِ ﷺ[٢] .

– تهيؤُ المسلمِين للحربِ : فلمّا بلغَ رسولُ اللهِ ﷺ الخبرَ، وسمعَ بخروجِهم منْ مكّةَ، ندبَ النّاسَ وأخبرَهم خبرَ عدوِّهم وشاورَهم في الأمرِ، فأشارَ عليهِ سلمانُ

---

[١]– سورةُ النّساءِ : ٥١ – ٥٢

[٢]– سيرةُ ابنِ هشامٍ وطبقاتُ ابنِ سعدٍ باختصار .

الفارسيُّ بالخندقِ، فأعجبَ ذلكَ المسلمِينَ (والخندقُ ممّا لم يكنْ يعلمُهُ العربُ مِنْ وسائلِ الحربِ) فخرجُوا مِنَ المدينةِ وعسكرَ بهم رسولُ اللهِ ﷺ في سفحِ جبلِ سلعٍ، فجعلوهُ خلفَهم، ثمَّ هبُّوا جميعاً يحفرُون الخندقَ بينَهم وبينَ العدوِّ. كانَ المسلمون يومئذٍ ثلاثةَ آلافٍ، وعددُ ما اجتمعَ منْ قريشٍ و الأحزابِ والقبائلِ الأخرى عشرةُ آلافٍ[1].

- مشاهدُ منْ عملِ المسلمينَ في حفرِ الخندقِ: روى البخاريُّ عنِ البراءِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ:" لمّا كانَ يومُ الأحزابِ وخندقَ رسولُ اللهِ ﷺ رأيتُهُ ينقلُ مِنْ ترابِ الخندقِ حتّى وارى عنّي التُّرابُ جلدةَ بطنِهِ وكانَ كثيرَ الشّعرِ"، وروي عنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ الأنصارَ والمهاجرين كانُوا يرتجزُون وهمْ يحفرُون الخندقَ وينقلُونَ التّرابَ على متونِهم:

نحنُ الذينَ بايعوا محمّداً   على الإسلامِ ما بقيْنا أبداً

فيجيبُهم النّبي ﷺ :" اللّهمَّ إنّهُ لا خيرَ إلا خيرُ الآخرة فباركْ في الأنصارِ والمهاجرةْ"[2].

---

[1] - طبقاتُ ابنِ سعدٍ وسيرةُ ابنِ هشامٍ

[2] - البخاريّ :٥/٤٦ وروى مسلمٌ عنِ البراءِ نحوَه بألفاظٍ قريبةٍ ٦/ ١٨٧

وروى البخاريُّ أيضاً في صحيحهِ عنْ جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: "إنّا يومَ الخندقِ نحفرُ فعرضَتْ كُدْيةٌ شديدةٌ، فجاؤُوا النّبيَّ ﷺ فقالُوا هذهِ كُديةٌ عرضَتْ في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذَ النّبيُّ ﷺ المعولَ فضربَ، فعادَ كثيباً أهيل (أو أهيم) فقلت: يارسولَ اللهِ ائذنْ لي إلى البيتِ، فقلْتُ لامرأتي: رأيتُ بالنّبيِّ ﷺ شيئاً ما كانَ لي في ذلكَ صبرٌ، فعندكِ شيءٌ؟ قالَتْ: عندي شعيرٌ وعَنَاق[1]. فذبحتُ العَناقَ وطحنْتُ الشّعيرَ حتّى جعلْنا اللّحمَ في البُرْمَةِ[2]، ثمَّ جئْتُ النّبيَّ ﷺ والعجينُ قد انكسرَ والبُرمةُ بينَ الأثافيّ[3] قد كادَتْ أنْ تنضجَ، فقلْتُ: طعيّمٌ لي، فقمْ أنتَ يارسولَ اللهِ ورجلٌ أو رجلان. قالَ: كم هو؟ فذكرتُ لهُ، قالَ: كثيرٌ طيّبٌ، فقلْ لها لا تنزعِ البُرمةَ ولا الخبزَ مِنَ التّنورِ حتّى آتي. ثمَّ نادى المهاجرِينَ والأنصارَ فقالَ لهم قومُوا.. (وفي طريقٍ أُخرى) فصاحَ النّبيُّ ﷺ يا أهلَ الخندقِ، إنَّ جابراً قد صنعَ سُوراً[4] فحيَّ هلاً بكم. فلمّا دخلَ جابرٌ على امرأتِهِ قالَ: ويحكِ جاءَ النّبيُّ

---

[1]- هي الأنثى منَ المعزِ .

[2]- البُرمة : القِدر.

[3]- الأثافيّ : الحجارةُ الّتي توضَعُ عليها القدرُ .

[4]- السُّور: بضمّ السين بدونِ همزةٍ يطلقُ على الصّنيعِ العامِّ مِنَ الطّعامِ .

بالمهاجرين والأنصارِ ومنْ معهم! . . قالَتْ: هل سألَك كم طعامُك؟ قالَ: نعمْ، قالَتْ: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ. ثمَّ جاءَ النّبيُّ ﷺ فقالَ: ادخلُوا، ولا تضاغطُوا. فجعلَ يكسرُ الخبزَ ويجعلُ عليهِ اللّحمَ ويخمّرُ البُرمةَ والتنورَ إذا أخذَ منهُ، ويقرّبُ إلى أصحابهِ ثمّ ينزعُ، فلم يزلْ يكسرُ الخبزَ ويغرفُ حتّى شبعُوا وبقيَ بقيّةٌ! قالَ: كُلي هذا و أهدِي، فإنَّ النّاسَ أصابتْهم مجاعةٌ (وفي روايةٍ أخرى) فأقسمُ باللهِ لقدْ أكلُوا حتّى تركُوا وانصرفُوا، وإنَّ بُرمتنا لتغطُّ كما هي، وإنَّ عجينَنا ليُخبَزُ كما هو"[1].

- موقفُ المنافقِينَ مِنَ العملِ في الخندقِ : روى ابنُ هشامٍ أنّهُ أبطأَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وعنِ المسلمِينَ في عملِهم في الخندقِ رجالٌ مِنَ المنافقِين، وجعلُوا يورّون بالضعيفِ مِنَ العملِ، ويتسلّلونَ إلى أهلِهم بغيرِ علمٍ منْ رسولِ اللهِ ﷺ، وكانَ الرّجلُ مِنَ المسلمِينَ إذا نابتْهُ النّائبةُ مِنَ الحاجةِ الّتي لا بدَّ لهُ منها يستأذنُه في اللّحوقِ بحاجتِهِ فيأذنُ لهُ، فإذا قضى حاجتَهُ رجعَ إلى ما كانَ فيه من عملِهِ. وفي ذلكَ نزلَ قولُهُ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ

---

[1] - صحيحُ البخاريّ ٤٦/٦ وانظرْ في فتحِ الباري ٢٧٩/٧ و٢٨٠

جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

-نقضُ بني قريظةَ للعهدِ: وخرجَ حييٌّ بنُ أخطبَ النّضريّ حتّى أتى كعباً بنَ أسدٍ القرظيّ فأغراهُ بنقضِ العهدِ مع رسولِ الله ﷺ ،وقالَ لهُ: "جئتُكَ بقريشٍ على قادتِها وسادتِها حتّى أنزلتَهم بمجتمعِ الأسيالِ منْ رومةَ، وبغطفانَ على قادتِها وسادتِها حتّى أنزلتَهم بذنبِ نقمي إلى جانبِ أحدٍ، قد عاهدُوني وعاقدُوني على أنْ لا يبرحُوا حتّى نستأصلَ محمّداً ومَنْ معَهُ. فقالَ لهُ كعبٌ: جئتَني واللهِ بذلِّ الدّهرِ. . ويحكَ يا حُيَيّ فدعْني و ما أنا عليهِ، فإنّي لم أرَ مِنْ محمدٍ إلا صدقاً و وفاءً. و لم يزلْ حُيي بكعبٍ حتّى أقنعَهُ بالخيانةِ ونقْضِ العهدِ" . وانتهى الخبرُ إلى رسولِ الله ﷺ فأرسلَ سعداً بنَ معاذٍ ليتحقّقَ مِنَ الخبرِ، وأوصاهُ أنْ يلحنَ لهُ بإشارةٍ يفهمُها إذا كانَ الخبرُ حقّاً، وأنْ لا يفتَّ في أعضادِ النّاسِ وإنْ كانَ كذباً فليجهرْ بهِ في النّاسِ. فلمّا استطلعَ سعدٌ الخبرَ ورآه حقّاً عادَ إلى رسولِ اللهِ

[1]- سورةُ النّورِ :٦٢

ﷺ فقالَ لَهُ: "عضلٌ والقارة"، أي كغدرِ عضلٍ و القارة، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "اللهُ أكبرُ، أبشروا يا معشرَ المسلِمين"[1] .

- ما آلَ إليهِ حالُ المسلِمينَ إذْ ذاكَ : بلغَ المسلِمينَ خبرُ نقضِ بني قريظةَ للعهدِ، وذرَّ قرن[2] المنافقين بينَهم يفتّونَ في عضدِ المسلِمين، وجاءَهم العدوُّ منْ فوقِهم ومنْ أسفلَ منهم، وراحَ المنافقُون يرجفُون في المدينةِ حتّى إنَّ أحدَهم ليقول:"كانَ محمّدٌ يعدُنا أنْ نأكلَ كنوزَ كسرى وقيصرَ، و أحدُنا اليومَ لا يأمنُ على نفسِهِ أنْ يذهبَ إلى الغائطِ" . ولمّا وجدَ الرّسولُ ﷺ الأمرَ كذلكَ وأنَّ البلاءَ قدِ اشتدَّ بالمسلِمينَ بعثَ على سعدٍ بنِ معاذٍ وسعدٍ بنِ عبادةَ فاستشارَهما في أنْ يصالحَ قبيلةَ غطفانَ على ثلثِ ثمارِ المدينةِ كي ينصرفُوا عنْ قتالِ المسلِمين، فقالا لهُ:" يا رسولَ الله، أهوَ أمرٌ تحبُّهُ فنصنعُه، أم شيءٌ أمرَكَ بِهِ اللهُ، أم شيءٌ تصنعُهُ لنا ؟ قالَ: بل شيءٌ أصنعُهُ لكم كي أكسرَ عنكم مِنْ شوكتِهم. وحينئذٍ قالَ له سعدٌ بنُ معاذٍ: واللهِ ما لنا بهذا من حاجةٍ، واللهِ لا نعطيهم إلا السيفَ حتّى يحكمَ اللهُ بيننا وبينَهم.

[1] - طبقاتُ ابن سعد وسيرة ابن هشام .

[2] - بالمعجم : ذرّ قرنُ الشّمس : أي طلعَ وظهرَ قليلٌ منها. والمقصودُ هنا أي ظهرَ قليلٌ مِنْ قولِ المُنافقين بينَ المسلمين ليوهِنوا بقولهم أمرَ المسلمين ويضعفوهم، واللهُ أعلمُ.

فتهلّلَ وجهُ رسولِ الله ﷺ وقالَ لهُ: فأنتَ وذاكَ". قالَ ابنُ إسحاقَ يروي عنْ عاصمٍ بنِ عمروٍ بنِ قتادةَ وعنْ محمّدٍ بنِ مسلمٍ بنِ شهابٍ الزّهريّ: "ولمْ تقعْ الشهادةُ ولا عزيمةُ الصّلحِ (أي بينَ المسلمِين وغطفان) إلا المراوضةُ[١] في ذلك".

أمّا المشركُون فقد فوجئُوا بالخندقِ حينما وصلوا إليه، وقالُوا إنَّ هذهِ لمكيدةٌ ما كانتِ العربُ تكيدُها. فعسكرُوا حولَ الخندقِ يحاصرُونَ المسلمِينَ، ولم يحدثْ قتالٌ غيرَ أنَّ بعضَ المشركِين أخذُوا يتيمّمون مكاناً ضيّقاً منَ الخندقِ فاقتحموا منه، فأخذَ عليهم المسلمون الثّغرةَ الّتي اقتحموا منها، فارتدَّ بعضُهم وقُتلَ البعضُ.

وكانَ ممّنْ قتِلوا إذْ ذاكَ عمرو بنُ ودّ، قتلَهُ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ.

هزيمةُ المشركِينَ بدونِ قتالٍ: وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ فهزمَ جموعَ المشركِين بوسيلتَين لا دخلَ للمسلمين فيهما. أمّا أُولاهُما فرجلٌ مِنَ المشركين اسمهُ نُعيمٌ بنُ مسعودٍ أتى رسولَ الله ﷺ مُسلماً وعرضَ عليه تنفيذَ أيّ أمرٍ يريدُهُ النّبيُّ ﷺ فقالَ لهُ:" إنّما أنتَ رجلٌ واحدٌ فينا ولكنْ خذّلْ عنّا إنِ استطعْتَ، فإنَّ الحربَ خدعةٌ". فخرجَ نعيمٌ بنُ مسعودٍ، فأتى بني قريظةَ فأقنعَهم ـوهم يحسبونهُ لا يزالُ

---

[١] – راوضه على الأمر: داراه وخدعه ولاطفه حتى يدخله فيه. المعجم الرائد

مشركاً _ أنْ لا يتورّطوا معَ قريشٍ في قتالٍ حتّى يأخذُوا منهم رهائنَ، كي لا يُولُّوا الأدبارَ، فيبقَوا وحدَهم في المدينةِ دونَ نصيرٍ لهم على محمّدٍ وأصحابِه، فقالُوا لهُ: إنّه لَلرَّأيُ! . . ثمَّ خرجَ حتّى أتى قريشاً فأنبأَهم أنَّ بني قريظةَ قد ندمُوا على ما صنعُوا وأنَّهم قد اتّفقُوا خفيةً مع رسولِ الله ﷺ على أنْ يختطفُوا عدداً مِنْ أشرافِ قريشٍ وغطفانَ فيسلّموهم لهُ ليقتلَهم، فإنْ أرسلَتْ إليكم يهودُ يلتمسونَ منكم رُهُناً مِنْ رجالِكم فإيّاكم أنْ تسلّموهم رجلاً منْكم. ثمَّ خرجَ حتّى أتى غطفانَ فقالَ لهم مثلَ الذي قالَ لقريشٍ. وهكذا تألّبَ بعضُهم على بعضٍ، واختفَتِ الثّقةُ ممّا بينَهم، وأصبحَ كلُّ فريقٍ منهم يتّهمُ الفريقَ الآخرَ بالغدرِ والخيانةِ.

أمّا الوسيلةُ الثّانيةُ، فهي ريحٌ هوجاءُ مخيفةٌ في ليلةٍ مظلمةٍ باردةٍ، جاءَتْ فقلبَتْ قدورَهم واقتلعَتْ خيامَهم، وقطعَتْ أوتادَهم، وذلكَ بعدَ بضعةِ عشَرَ يوماً مِنَ المحاصرةِ الّتي ضربَها المشركون على المسلمِينَ. روى مسلمٌ بسندِه عنْ حذيفةَ بنِ اليمانِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ:" لقد رأيتَنا معَ رسولِ الله ﷺ ليلةَ الأحزاب، وأخذتْنا ريحٌ شديدةٌ وقرٌّ، فقالَ رسولُ الله ﷺ : ألا رجلٌ يأتيني بخبرِ القومِ جعلَهُ اللهُ معي يومَ القيامةِ، فسكتْنا فلم يجبْهُ منّا أحدٌ، ثمَّ قالَ: ألا رجلٌ يأتْينا بخبرِ القومِ جعلَهُ

اللهُ معي يومَ القيامةِ، فسكتْنا فلم يجبْه منّا أحدٌ، (ردّدَ ذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ ثلاثاً) ثمَّ قالَ: قُمْ يا حذيفةُ فأتِنا بخبرِ القومِ، فلم أجدْ بُدّاً إذْ دعاني باسمي أنْ أقومَ. قالَ: اذهبْ فأتِني بخبرِ القومِ ولا تذعرْهم عليَّ. فلمّا ولّيْتُ منْ عندِه جعلْتُ كأنّما أمشي في حمّامٍ، حتّى أتيتُهم، فرأيتُ أبا سفيانَ يُصْلي ظهرَهُ بالنّار، فوضعْتُ سهماً في كبدِ القوسِ، فأردْتُ أنْ أرميَهُ، فذكرْتُ قولَ رسولِ اللهِ ﷺ: ولا تذعرْهم عليّ، ولو رميتُه لأصبْتُه، فرجَعْتُ وأنا أمشي في مثلِ الحمّامِ. فلمّا أتيتُه فأخبرتُهُ بخبرِ القومِ وفرغْتُ، فألبسَني رسولُ اللهِ ﷺ منْ فضلِ عباءةٍ كانَتْ عليهِ يصلّي فيها، فلم أزلْ نائماً حتّى أصبحْتُ، قالَ: قُمْ يا نومان"[1]. .و رواهُ ابنُ إسحاقَ بزيادةٍ: فدخلْتُ في القومِ، والرّيحُ وجنودُ اللهِ تفعلُ بهم ما تفعلُ لا تُقرُّ لهم قِدراً ولا ناراً ولا بناء، فقامَ أبو سفيانَ فقالَ: يا معشرَ قريشٍ لينظرِ امرؤٌ مَنْ جليسُهُ؟ قالَ حذيفةُ: فأخذْتُ بيدِ الرّجلِ الذي إلى جانبي فقلْتُ لهُ مَنْ أنتَ؟ قالَ: فلانٌ بنُ فلان. ثمّ قالَ أبو سفيانٍ: يا معشرَ قريشٍ، إنّكم واللهِ ما أصبحْتُم بدارِ مقامٍ، لقد

[1] - رواهُ مسلمٌ : ٥/١٧٧.وروايةُ البخاريِّ توهِمُ أنّ الذي خرجَ إنّما هو الزبيرُ ، غيرَ أنَّ ذلكَ يتعلّق بحادثةٍ أخرى، فقدْ أرسلَهُ النّبيّ ﷺ ليعلمَ له علماً عنْ بني قريظةَ. أمّا الذي خرجَ إلى الأحزابِ فهو حذيفةُ كما نصّ على ذلكَ عامّةُ علماءِ السّيرةِ، وانظرْ عيونَ الأثرِ لابنِ سيد النّاس وفتحَ الباري لابنِ حجر .

هلكَ الكراعُ و الخفُّ، وأخلفتْنا بنو قريظةَ، وبلغَنا عنهمُ الذي نكرهُ، ولقيْنا مِنْ شدّةِ الرّيحِ ما ترون. . فارتحِلُوا فإنّي مرتحلٌ"[1] . وفي صباحِ اليومِ الثّاني، كانَ المشركون كلّهم قد ولّوا الأدبارَ، وعادَ رسولُ اللهِ ﷺ وصحبُهُ إلى المدينةِ. وكانَ لا يفتُرُ ﷺ طيلةَ هذهِ الأيامِ والليالي عنْ الاستغاثةِ والتّضرّعِ والدُّعاءِ للهِ تعالى أنْ يُؤتي المسلمِينَ النّصرَ. وكانَ مِنْ جملةِ دعائِهِ ﷺ في ذلكَ: "اللّهمَّ منزلَ الكتابِ سريعَ الحسابِ اهزمِ الأحزابَ، اللّهمَّ اهزمْهم وزلزلْهم"[2] .

وفي هذهِ الغزوةِ فاتتِ النّبيَ ﷺ الصلاةُ في وقتِها فقضاها بعدَ خروجِ الوقتِ، فقد وردَ في الصحيحَينِ أنَّ عمرَ بنَ الخطّابِ جاءَ يومَ الخندقِ بعدما غربَتِ الشّمسُ فجعلَ يسبُّ كفّارَ قريشٍ، فقالَ: "يا رسولَ اللهِ، ما كدتُ أصلّي العصرَ حتّى كادَتِ الشّمسُ تغربُ! قالَ النّبيُّ ﷺ: واللهِ ما صلّيتها، فقمْنا إلى بُطحانَ فتوضّأَ للصّلاةِ وتوضّأْنا لها، فصلّى العصرَ بعدما غربَتِ الشّمسُ، ثمّ صلّى بعدَها المغربَ"[3] وزادَ مسلمٌ على هذا حديثاً آخرَ أنّهُ ﷺ قالَ يومَ الأحزابِ: "شغلُونا عنِ

---

[1]- سيرةُ ابنِ هشام :٢/٢٣١
[2]- رواهُ البخاريّ.
[3]- متّفقٌ عليه واللفظُ للبُخاريّ .

الصّلاةِ الوسطى صلاةِ العصرِ، ملأَ اللهُ بيوتَهم وقبورَهم ناراً، ثمّ صلاها بينَ العشاءَينِ: المغربِ والعِشاءِ".

حقّاً إنّ مَنْ يقرأُ السّيرةَ يتعجّبُ بما أحدثَهُ الإسلامُ في عقلِ العربِ من تحوّلاتٍ فكريّةٍ جذريّةٍ صاغتْ منهم أناساً مختلفِين عمّا عُرفوا بهِ.
كانَ عقلُ العربيّ قد تحجّرَ مِنْ عبادتِهِ لحجرٍ، فغيّرَ الإسلامُ تكوينَهُ، جعلَ تفكيرَهُ مرناً، يقبلُ الرّأيَ الآخرَ، يسمعُه حتّى النّهايةِ، بقلبٍ واعٍ وعقلٍ مفتوحٍ، ثمَّ يختارُ بميزانِ الإسلامِ ما يناسبُ فكرَهُ ومبادئَهُ.
إنّهُ تغييرٌ جذريٌّ لا يقوى على صنعِهِ إلا دينٌ مِنْ صنعِ ربِّ السّماءِ، ورسولٍ ملَكَ القلوبَ والعقولَ.
إنَّ المُصلحِينَ الاجتماعيّينَ عبرَ التّاريخِ ومَنْ قامُوا بإحداثِ تغيُّراتٍ عبرَ العصورِ ما استطاعَ أحدٌ منْهم أنْ يغيّرَ في مجتمعٍ ما تغيّراً فكريّاً واجتماعيّاً بهذا الحجمِ وبذلكَ العمقِ. فلو شاءَ اللهُ لجعلَ النّصرَ مِنْ غيرِ خندقِ سلمانَ الذي اقترحَهُ فارسيٌّ وليس عربيّ... لقد أرادَ اللهُ ورسولُهُ ﷺ أنْ يعلّمُوا الصّحابةَ والمسلمِينَ منْ بعدِهم أنْ يقبلُوا جميعَ الآراءِ، ثُمّ يقلّبُوها على وجهِها ليرَوا إيجابيّاتِها وسلبيّاتِها، ثم يعطُوا رأيَهم قَبولاً أو غيرَه... أرادَ جلَّ وعلا أنْ تكونَ الحكمةُ والحقّ

ضالَّتهم يبحثُون عنها في كلِّ مكانٍ وعندَ جميعِ الأشخاصِ، فلا تمـايُزاً عرقيَّاً أو عصبيّاً أو شخصيّاً يحدُّ التّفكيرَ.

ثمَّ تأتينا صورةٌ رائعةٌ... مشهٌد مذهلٌ... القائدُ يحملُ التّـرابَ ويجهـدُ في العملِ... وكلُّ صخرةٍ كؤودٍ لا يفتّتُهـا إلا هـذا القائـدُ العظـيمُ... فكيفَ لا ينشطُ الصّحابةُ؟ ومَن ذلكَ الّـذي سـيتقاعسُ بعـدُ إذاً؟!... وهو يشاهد القائد بـل الرسـول الأعظـم يعمـل بجـدٍ وتفـانٍ منقطِعـي النّظيرِ... إنّهُ لا يضعُ حجرَ الأساسِ ويدعُهم يحفرون ويبنُونَ إنّه يحفـرُ ويبني معَهم...

ما أعظمَكَ يا سيّدي يا رسولَ اللهِ ! لا عجـبَ إنْ قـالَ الكفـارُ:" مـا رأينا أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحابِ محمّـدٍ محمّـداً". لا غـروَ فلـيسَ ذلكَ غلوّاً منْهم، إنّهُ الجذبُ الطبيعـيُّ لتلـكَ الشخصـيّةِ القائـدةِ الفـذّةِ الّـتي يصـيبُها مِـنَ الجـوعِ مثـلَ مـا أصـابَهم، حتّـى إذا دعـاهُ أحـدُهم للطّعامِ، لم يفضّلْ نفسَهُ علـى أحـدٍ مـنهم، بـلْ لم يـرضَ حتّـى يأكـلَ الجميعُ معَه. فليسَ هناكَ تمايزٌ طبقيٌّ أو وظيفيٌّ في الإسلامِ يجعلُ النّاسَ تتكبّرُ أو تعلو، ثـمَّ كانَ نشيدُ الحماسِ بيـنَهم، والـذي يـذكّرُ بالهـدفِ الأسمى، ويرفعُ درجـةَ الحمـاسِ والتّفاعـلِ إلى أقصـى الـدّرجاتِ، فـلا يبقى أمامَ مَـنْ ضـعفَتْ نفسُـهُ أو فـترَتْ مِـنَ التّعـبِ إلا أنْ تسـتجيبَ وتستعيدَ نشاطَها بصوتٍ هادرٍ يضمُّ صوتَها إلى صوتِ القائدِ الحبيبِ

(اللّهمّ إنّهُ لا خيرَ إلا خيرُ الآخرةِ فباركْ في الأنصارِ والمهاجرةِ).

أتعبْتَ مَنْ جاءَ بعدَكَ يا رسولَ اللهِ ....

إنَّ نظريّاتِ القيادةِ الناجحةِ يمكنُ أنْ تُصاغَ مِنْ أفعالِ رسولِ اللهِ ﷺ، فما مِنْ أحدٍ أحبَّ أحداً، سواءً رآهُ أم لم يرَهُ، أكانَ في عصرِه أم لا، مثلَ محبّةِ رسولِ اللهِ ﷺ الّتي سكنَتْ قلوبَ مَنْ سمعَ عنْ أفعالِهِ وأقوالِهِ ناهيكَ عمّنْ رآهُ وخالطَهُ...ليسَ فقط لأنّهُ الرّسولُ بل لأنّهُ سطّرَ بأعمالِهِ وأخلاقِهِ ما يحبُّ كلُّ إنسانٍ أنْ يراه في بطلِهِ...

إنّهُ ﷺ جمعَ الخصالَ الحميدةَ كلَّها وكلَّ ما يحتاجُهُ القائدُ كي يقودَ بنجاحٍ. فما على القادةِ إلا التّمثلُ بأخلاقِهِ وفِعالهِ حتّى ينجحَ كلُّ قائدٍ في مؤسّستِهِ أو فريقِهِ ويصلَ بالفريقِ إلى أهدافِهِ. فإنْ تحدّثوا في علمِ القيادةِ الحديثِ عنْ نظريّةِ القيادةِ بالقيَمِ فقيادتُهُ ﷺ تحقّقُ ذلكَ، وإنْ تكلّمُوا عنْ نظريّةِ القيادةِ الخادمةِ ذلكَ أنَّ القائدَ يخدُمُ أتباعَهُ ويشاركُهم العملَ فقد ضربَ ﷺ أروعَ الأمثلةِ لذلكَ...وتلكَ هي أحدثُ نظريّاتِ القيادةِ الّتي يفخرُ بها الغربُ، لو أنَّ أحداً منَ المسلمِينَ نهلَ مِنْ شخصِ رسولِ اللهِ ﷺ، ووضعَ نظريّاتٍ حديثةً للقيادةِ لَسبقَ الغربَ جميعاً.

صلّى اللهُ عليكَ وعلى آلِكَ وسلّمَ .

أمّا قصّةُ سيّدِنا جابرٍ! فلا أستطيعُ أنْ أصفَ مشاعرِي لو كنْتُ

مكانَهُ!

ما ألطفَكَ و أقربَكَ وأرقَّكَ يا رسولَ اللّهِ !

تفكّرُ وتعملُ ما تراه رفيقاً بهم، فقد قمْتَ بالمفاوضاتِ مع قريشٍ منْ أجلِ الأنصارِ الّذينَ حُوصِرُوا الآنَ في مدينتِهم، أردتَ صلّى اللهُ عليكَ وسلمَ أنْ تخفّفَ عنهم وتكسِرَ شوكةَ الحصارِ، فما كانَ مِنْ أولئكَ الأخيارِ إلا أنْ أراحُوا قائدَهم فكانُوا في غايةِ الشّفافيةِ والصّدقِ والأدبِ والحبِّ (يارسولَ اللّهِ، أهوَ أمرٌ تحبُّهُ فنصنعُهُ، أم شيءٌ أمرَكَ به اللهُ، أم شيءٌ تصنعُهُ لنا).

بعدَ كلِّ هذا التّعبِ والجوعِ والاجتهادِ والحُبِّ والإخلاصِ... لابدَّ للقدرِ الإلهيِّ أنْ يستجيبَ لصبرِهم وثباتِهم ومحبّتِهم وولائِهم..

لابدَّ للأكوانِ أنْ تصبحَ مُسخّرةً بيدِ أولئكَ الّذينَ صدقُوا وما زادَ تخويفُ الناسِ لهم إلا إيماناً وتسليماً، لا بدَّ للرّيحِ أنْ تغدوَ خدماً لهم، وللبشرِ أنْ يصبحُوا جنوداً لهم، وإنْ كانُوا أعداءً لهم. هذا هو مصداقُ الآيةِ الكريمةِ :﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾[1]، قد غيّرُوا رضوانُ اللّهِ عليهم أنفسَهم، وها هو جلَّ جلالُهُ يغيّرُ الكونَ مِنْ حولِهم، وعمّا قريبٍ يتغيّرُ وجهُ الأرضِ وهيئةُ الخلقِ.

[1]- سورةُ الرّعد :١١

وكانَ دعاءُ النّبيِّ ﷺ لا يفترُ في كلِّ لحظةٍ.. في مناجاةِ المؤمنِ الواثقِ بخالقهِ... المتقرّبِ إلى ربِّهِ بعبوديّتِهِ والافتقارِ إليهِ، ولعلَّ أحدَنا قد يزايدُ على الصّحابةِ عندما طلبَ الرّسولُ ﷺ منهم أنْ يذهبَ رجلٌ ويأتيَهِ بخبرِ القومِ ويجعلَ ثوابَ ذلكَ العملِ البطوليِّ - في مثلِ هذهِ الظّروفِ الصّعبةِ مِنْ جوعٍ وتعبٍ وإرهاقٍ وليلٍ مُظلمٍ وريحٍ هوجاءَ...- صحبتَهُ ﷺ يوم القيامةِ، ثمّ لا يقوى أحدٌ أنْ يبادرَ؛ معَ ما عُرِفَ عنِ الصّحابةِ منْ محبّتِهم للرسولِ ﷺ وشجاعتِهم!... قد نستغربُ لأوّلِ وهلةٍ، لكنَّ الظّروفَ صعبةٌ للغايةِ، فالظّلامُ دامسٌ والرّيحُ تقلعُ الخيامَ، وقد أصابَ جسمَهم الوهنُ والضّعفُ بعدَ تعبِ الحفرِ المستمرِّ والحصارِ الطّويلِ وقلّةِ الطّعامِ وعدمِ النّومِ والخوفِ... ما أظنُّ أنَّ أحداً يستطيعُ، ولو كانَ هناكَ أحدٌ يمكنُه ذلكَ لكانَ الصّحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم.

ثمَّ كانَ اختيارُ سيّدِنا حذيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ وامتثالُه لأوامرِ الرّسولِ ﷺ والمعونةُ الّتي كافأَهُ اللهُ بها، إذْ ذهبَ عنهُ بردُهُ وخوفُهُ فورَ بدايةِ المَهمّةِ ثمَّ عادَ إليه قرُّهُ عندَ انتهاءِ المَهمّةِ، وذلكَ ليعلّمَ الجميعُ أنَّ معَ الامتثالِ المباشرِ للأمرِ الإلهيِّ والشّرعيِّ تأتي معونةُ اللهِ للعبدِ في تنفيذِ هذا الأمرِ وتسهيلِهِ عليهِ. فالمطلوبُ مِنَ العبدِ فقط أنْ يستجيبَ لأمرِ اللهِ ويبدأَ العملَ، ثمَّ يأتي القدرُ الإلهيُّ بالتيسيرِ والمثوبةِ.. فما علينا

سوى الهمّةُ والمسارعةُ في بدءِ العملِ والتّغييرِ ثمَّ تأتي الثّمارُ مِنْ عندِ ربِّ الأكوانِ مصداقاً لقولِهِ تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾[1].

أمّا نقضُ بني قريظةَ للعهدِ فهي الرّسالةُ الثّالثةُ الّتي يرسلُها اليهودُ للمسلمِينَ قائلِينَ بأفعالِهم الخائنةِ الغادرةِ: إيّاكم أنْ تأمنُونا...

إنْ كانتْ غزوةُ الخندقِ تمثّلُ مرحلةً جديدةً في الدّعوةِ الإسلاميّةِ، وبدايةً لانطلاقِ المسلمِينَ خارجَ مدينتِهم ليعمَّ النّورُ الجزيرةَ العربيّةَ والعالَمَ أجمعَ.

وهيَ تمثّلُ لي بدايةَ عهدٍ جديدٍ في حياتي... عهدٍ سأتلُوه أمامَ رسولِ الرّحمةِ.. أو لعلّها مبايعةٌ عندَ قبرِهِ الشّريفِ علّها تحظى بيدِهِ الشّريفةِ مبايِعةً ومبارِكةً، عهدِ التزامٍ بأمرِكَ يا رسولَ اللهِ ﷺ في فكرِيْ ولباسي ومعاشي وسيَرِ حياتِيْ.

لا بدَّ أنْ أصوغَ حياتي وفقَ الهدفِ الأسمى(رضا اللهِ ورسولِهِ وخدمةِ دينهِ)، فأهدافي وأحلامي وعلمي وجهدي وعملي وحياتِي لابدَّ أنْ تتحوّلَ، وتنصبغَ جميعاً بهذا الهدفِ ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ

---

[1] – سورةُ مريم : ٢٥

وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

لا بدَّ لها أنْ تسيرَ في فلكِهِ، وتتّحدَ جميعاً لتحقيقِهِ، وتكونَ عربونَ وفاءٍ لرسولِ الحقِّ والنّورِ، الذي أعطى كلَّ شيءٍ منْ أجلِنا نحنُ، كي يصلَ الحقُّ إلى مسامعِنا. فما تُرانا فاعلين ؟

أغلقْتُ الكتابَ ثمَّ أطلقْتُ بصري نحوَ السّماءِ متمتِماً: ما أروعَ الإسلامَ وما أروعَ رسولَه الكريم... أجدُ قلبي مشتاقاً للقياهُ، أعدُّ السّاعاتِ ليقعَ بصري على قبرِه الشّريفِ، و تتباركَ قدمايَ بلمسِ أرضٍ لامسَتْ قدمَهُ الشّريفةَ منذُ ألفٍ وأربعمِئةِ سنةٍ و نيّفٍ في روضتِهِ المباركةِ.

[1]- سورةُ الأنعام :١٦٢

غزوةُ بني قريظةَ :

جاءَ في الصّحيحَينِ أنَّ النّبيَّ ﷺ لمّا رجعَ مِنَ الخندقِ و وضعَ السّلاحَ واغتسلَ، أتاهُ جبريلُ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ، فقالَ:" قد وضعْتَ السّلاحَ ؟ واللهِ ما وضعناهُ، فاخرجْ إليهم قالَ: فإلى أينَ؟ قالَ: ههنا ، وأشارَ إلى بني قريظةَ، فخرجَ النّبيُّ ﷺ إليهم"[١] .

ونادى ﷺ في المسلمِينَ: "ألا لا يصلّينّ أحدٌ العصرَ إلا في بني قريظةَ، فسارَ النّاسُ، فأدركَ بعضُهم العصرَ في الطّريق، فقالَ بعضُهم: لا نصلّي حتّى نأتيَها ، وقالَ بعضُهم: بل نصلّي، ولم يُردْ منّا ذلكَ فذكرُوا ذلكَ للنّبيّ ﷺ، فلم يعنّفْ أحداً منهم"[٢] . و حاصرَ رسولُ اللهِ ﷺ بني قريظةَ (وهم متحصّنون في حصونِهم) خمساً وعشرين ليلةً و قيلَ خمسةَ عشرَ يوماً[٣] حتّى جهدَهم الحصارُ وقذفَ اللهُ في قلوبِهم الرّعبَ. روى ابنُ هشامٍ أنّ كعباً بنَ أسعدَ قالَ لليهودِ: لمّا رأى أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ غيرُ منصرفٍ عنهم:" يا معشرَ يهودَ، قد نزلَ بكم مِنَ الأمرِ ما ترون، وإنّي

---

[١]- متّفقٌ عليهِ و اللّفظُ للبخاريّ.

[٢]- رواهُ البخاري.

[٣]- الذي رواهُ ابنُ هشامٍ أنَّ مدّةَ الحصارِ كانتْ خمسةً وعشرين يوماً. وجزمَ ابنُ سعدٍ في طبقاتِهِ أنّها كانتْ خمسةَ عشرَ فقط .

عارضٌ عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئْتم. قالُوا: فما هي؟ قالَ: تتابعُ هذا الرجلَ ونصدّقُه، فو اللهِ لقد تبيّنَ لكم أنّهُ لنبيٌّ مرسلٌ، وأنّهُ للذي تجدونه في كتابِكم، فتأمنون على دمائِكم وأبنائِكم ونسائِكم. قالُوا: لا نفارقُ حكمَ التّوراةِ أبداً، قالَ: فهلمّ فلنقتلْ أبناءَنا ونساءَنا، ثمَّ نخرجُ إلى محمّدٍ وأصحابِه رجالاً مصلَتين بالسّيوفِ، لم نتركْ وراءَنا ثقلاً حتّى يحكمَ اللهُ بيننا وبينَ محمّدٍ، فإنْ نهلكْ لم نتركْ وراءَنا نسلاً نخشى عليه، قالُوا: فما ذنبُ المساكين؟ قالَ: فإنْ أبيْتم هذه أيضاً فإنَّ الليلةَ ليلةُ السّبتِ، وإنّه عسى أنْ يكونَ محمّدٌ وأصحابُه قد أمِنونا فيها، فانزلُوا لعلّنا نصيبُ منهم غرّةً، فأبَوا ذلكَ أيضاً" ثمّ إنّهم نزلوا على حكمِ رسولِ اللهِ ﷺ _فيهم، وقد كانَتْ بنو قريظةَ حلفاءَ للأوسِ_ فأحبَّ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يكلَ الحكمَ عليهم إلى واحدٍ منْ رؤساءِ الأوسيّين، فجعلَ الحكمَ فيهم إلى سعدٍ بنِ مُعاذٍ، وكانَ قد أُصيبَ بسهمٍ في الخندقِ، فكانَ يُداوى في خيمةٍ هناكَ فلمّا حكَّمَهُ رسولُ اللهِ ﷺ في بني قريظةَ وأرسلَ إليهِ بذلكَ، أتى على حمارٍ. فلمّا دنا من المسجدِ،[1] قالَ للأنصارِ: قومُوا إلى سيّدِكم أو خيرِكم ثمَّ قالَ: إنَّ هؤلاءِ نزلُوا

[1]- ليسَ المرادُ به مسجدَ رسولِ اللهِ ﷺ في المدينةِ بل مكانٌ اختطّه ﷺ في بني قريظةَ للصّلاةِ فكانَ مسجداً كما قالَ شُرّاحُ الحديث.

على حكمِكَ. قالَ: تقتلُ مقاتلَهم وتسبي ذريّتَهم، فقالَ له النّبيُّ ﷺ: قضيْتَ بحكمِ اللهِ تعالى[١] .ثمَّ قالَ سعدٌ رضيَ اللهُ عنهُ: اللّهمّ إنّكَ تعلمُ أنّهُ ليسَ أحدٌ أحبَّ إليّ أنْ أجاهدَهم فيكَ مِنْ قومٍ كذّبُوا رسولَكَ ﷺ، وأخرجُوهُ. اللّهمَّ فإنّي أظنُّ أنّك قد وضعْتَ الحربَ بينَنا وبينَهم، فإنْ كانَ بقيَ مِنْ حربِ قريشٍ شيءٌ فأبقِني لهُ حتّى أجاهدَهم فيكَ، وإنْ كنتَ وضعْتَ الحربَ فافْجُرْها، واجعلْ موتيَ فيها. فانفجرَتْ من لبّتهِ، فلم يَرُعْهُم وفي المسجدِ خيمةٌ منْ بني غفارٍ إلا الدّمُ يسيلُ إليهم. فقالُوا: يا أهلَ الخيمةِ ما هذا الّذي يأتِينا منْ قِبَلِكُم؟ فإذا سعدٌ يغذُو جرحُهُ دماً، فماتَ منها رضيَ اللهُ عنهُ[٢]، وفي روايةِ أحمدَ أنَّ جرحَهُ حينما انفجرَ كانَ قد برئَ إلا مثلُ الخرصِ (حلي يوضعُ في الأذن) أي إلا شيءٌ يسيرٌ قد بقيَ منهُ. ثمَّ استنزلَ اليهودَ منْ حصونهم فسِيْقوا إلى خنادقَ في المدينةِ، فقُتلَ مقاتلُهم(أي رجالُهم) وسُبي ذراريْهم. وكانَ في جملةِ مَنْ سيقَ إلى القتلِ فقُتِلَ: حُيي بنُ أخطبَ الذي كانَ قد سعى حتّى أقنعَ بني قريظةَ بالغدرِ ونقضِ العهدِ. روى ابنُ إسحاقَ أنّه جيءَ بهِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ويداه مجموعتان إلى عنقهِ بحبلٍ،

---

[١]- متّفقٌ عليه.

[٢]- متّفقٌ عليهِ واللّفظ للبخاريّ.

فلمّا نظرَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: أما واللهِ ما لمتُ نفسي في عداوتكَ، ولكنّه مَنْ يخذلِ اللهَ يُخذلْ، ثمّ جلسَ فضُرِبَتْ عُنقُهُ".

كانَ لا بدَّ للخيانةِ الكُبرى مِنْ عقابٍ... فهنا تعدّتِ التّآمرَ على شخصِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى التّآمرِ على الأمّةِ الإسلاميّةِ والدّولةِ الفتيّةِ، للقضاءِ عليها جميعاً... فقد جُمعَتِ القوى، وأَوهنَتْ مِنَ الدّاخلِ ونشرَتِ الرُّعبَ بنقضِها الميثاقَ والدُّستورَ الذي وقّعتْهُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ، واللهِ إنّي لأعجبُ كيفَ يدركون نبوّةَ الرّسولِ الكريمِ ﷺ ثمَّ يتآمرون عليهِ وعلى دينِ اللهِ ؟!... أيَّ دينٍ يتّبعُون؟!

ثمَّ هذا التّفويضُ النّبويُّ بالحكمِ إلى سيّدِنا سعدٍ بنِ معاذٍ الّذي كانَ يمثّلُ آخرَ شخصٍ يمكنُ أنْ يرفُقَ باليهودِ -كما ظنَّ اليهودُ- لأنّهُ سيّدُ الأوسِ وكانَ بنو قريظةَ موالي الأوسِ قبلَ الإسلامِ.

ولكنْ هيهاتَ فالولاءُ أوّلاً للهِ و لرسولهِﷺ... لا للمصالحِ أو العلاقاتِ الشّخصيّةِ، وهؤلاءِ كادوا يستأصلون الإسلامَ، ويقتلون المسلمِينَ كافّةً بتآمرِهم وجمعِهمُ الجموعَ مِنَ القبائلِ العربيّةِ وقريشٍ.

إنَّ عشَرةَ آلافٍ أمامَ عددِ المسلمِينَ البالغِ ثلاثةَ آلافٍ يعتبرُ في

الحساباتِ الحربيّةِ إبادةً جماعيّةً للمسلمِينَ، رغمَ ما بينَهم مِنَ العهودِ والمواثيقِ مِنَ الدُّستورِ! فاستحقُّوا ذاكَ الحكمَ بعدلٍ و قسطٍ، غيرَ مأسوفٍ عليهم.

الفصلُ السّادسُ

الفتحُ : مُقدّماتُه ونتائجُهُ

مرحلةٌ جديدةٌ منَ الدّعوة

صلحُ الحديبيةِ :

كانَ في شهرِ ذي القعدةِ، آخرَ سنةِ ستّةٍ للهجرةِ. وسببُها أنَّ النّبيﷺ أعلنَ في المسلمِينَ أنهُ متوجّهٌ إلى مكّةَ معتمراً، فتبعَهُ جمعٌ كبيرٌ مِنَ المهاجرِينَ والأنصارِ بلغَ عددُهم ألفاً وأربعَ مئةٍ تقريباً . وأحرمﷺبالعمرةِ في الطّريقِ، وساقَ معهُ الهديَ ليَأمنَ النّاسَ منْ حربهِ وليعلمُوا أنّهُ إنّما خرجَ زائراً البيتَ ومعظّماً لهُ. وأرسلَ ﷺ وهو عندَ ذي الحليفةِ عيناً لهُ مِنْ قبيلةِ خُزاعةَ اسمهُ بشرٌ بنُ سفيانَ ليأتيَه بخبرِ أهلِ مكّةَ، وسارَ النّبيُّ ﷺ حتّى وصلَ إلى غديرِ الأشطاطِ، فأتاه العينُ الذي كانَ قد أرسلهُ، فقالَ لهُ:" إنَّ قريشاً جمعَتْ لكَ جُموعاً، وقد جمعُوا لكَ الأحابيشَ، وهم مقاتلُوكَ وصادُّوكَ عنِ البيتِ ومانعوكَ، فقالَ: أشيرُوا أيّها النّاسُ. . فقالَ لهُ أبو بكرٍ: يا رسولَ اللهِ، خرجْتَ عامداً لهذا البيتِ لا تريدُ قتلَ أحدٍ ولا حربَ أحدٍ، فتوجّهْ لهُ، فمَنْ صدّنا عنهُ قاتلْناهُ. قالَ: امضُوا على اسمِ اللهِ. ثمَّ قالَ:

مَنْ رجلٌ يخرجُ بنا على طرقٍ غيرِ طريقِهم الّتي همْ بها؟ فقالَ لهُ رجلٌ مِنْ بني أسلمَ: أنا يا رسولَ الله. فسلكَ بهم طريقاً وَعْراً بينَ الشّعابِ، وسارَ النّبيّ ﷺ وأصحابُهُ حتّى إذا كانُوا في ثنيّةِ المرارِ (وهي طريقٌ في الجبلِ تشرفُ على الحديبيةِ) بركَتْ به راحلتُه فقالَ النّاسُ: حَلْ، حَلْ (اسمُ صوتٍ كانوا يزجرُونَ بهِ الجمال) فلم تتحركْ، فقالُوا: خلأَتِ[1] القصواءُ، فقال ﷺ: ما خلأَتْ، وما ذاكَ لها بخُلقٍ، ولكنْ حبسَها حابسُ الفيلِ، ثمّ قالَ: والّذي نفسي بيدِه، لا يسألوني خطّةً يعظّمونَ فيها حرماتِ اللهِ إلا أعطيتُهم إيّاها، ثمّ زجرَها فوثبتْ، فعدلَ حتى نزلَ بأقصى الحديبيةِ على حُفيرةٍ قليلةِ الماءِ، فلم يلبثِ النّاسُ حتّى نزحُوه، وشكَوا إلى رسولِ اللهِ العطشَ، فانتزعَ سهماً مِنْ كنانتِهِ ثمَّ أمرَهم أنْ يجعلُوه فيهِ، فواللهِ مازالَ يجيشُ لهمْ بالرّيِّ حتّى صدرُوا عنهُ[2]، فبينما همْ كذلكَ إذْ جاءَ بديلُ بنُ ورقاءَ الخزاعيّ في نفرٍ معهُ، فقالَ: إنّي تركتُ كعباً بنَ لؤيٍّ وعامراً بنَ لؤيٍّ نزلوا مياهَ

---

[1] – خلأت الناقة : حَرَنت وبرَكت من غير علة. القصواء : اسم ناقة رسول الله ﷺ .

[2]- هذهِ منْ روايةِ البخاريِّ في كتابِ الشّرطِ وابنِ إسحاقَ وغيرِهما. وقد ذكرَ البخاريُّ في كتابِ المغازي هذا الحديثَ. وقالَ: إنّهُ جلسَ على البئرِ ثمّ دعا بإناءٍ فمضمضَ ودعا اللهَ ثمّ صبّه فيها. ثمّ قالَ دعوْها ساعةً ، ثمّ إنّهم ارتوَوا بعدَ ذلك. قالَ الحافظُ بنُ حجرٍ في الفتحِ : ويمكنُ الجمعُ بينَهما بأنْ يكونَ الأمران واقعَين معاً. وأمّا حديثُ أنّهُ ﷺ وضعَ يدَهُ في ركوةِ ماءٍ فجعلَ الماءُ يفورُ منْ بينِ أصابعِه فتلكَ واقعةٌ أخرى غيرُ هذه. وكلّ ذلكَ ثابتٌ صحيحٌ .

الحديبيةِ ومعهم العوذُ المطافيلُ[1]، وهم مقاتلُوكَ وصادّوكَ عنِ البيتِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنّا لم نجِئْ لقتالِ أحدٍ، ولكنْ جئنا معتمرينَ، وإنَّ قريشاً قد نهكتْهُمُ الحربُ وأضرَّتْ بهم، فإنْ شاؤُوا مادَدْتُهم مدّةً ويخلّوا بيني وبينَ النّاسِ، فإنْ أظْهَرْ فإنْ شاؤُوا أنْ يدخلُوا فيما دخلَ فيه النّاسُ فعلوا وإلا فقد جمُّوا (أي استراحوا)، وإنْ هُم أبَوا فوالّذي نفسي بيدِه لأقاتلنَّهم على أمري هذا حتّى تنفردَ سالفتي، ولينفذنَّ اللهُ أمرَهُ. فقالَ بديلٌ: سأُبلّغُهم ما تقولُ. فانطلقَ بديلٌ فحدَّثَ قريشاً بما سمِعَه منْ رسولِ اللهِ ﷺ. فقامَ عروةُ بنُ مسعودٍ يعرضُ على المشرِكينَ أنْ يأتيَ النّبيَّ ﷺ فيكلّمَه في تفصيلِ ما جاءَهم بِه بديلٌ بنُ ورقاءَ. فقالُوا لهُ: دونكَ فاذهبْ. فذهبَ، فكلّمَهُ النّبيُّ ﷺ بمثلِ ما كلَّم بِه بديلاً، فقالَ لهُ عروةُ: أرأيتَ إنْ استأصلْتَ أمرَ قومِكَ هل سمِعْتَ بأحدٍ مِنَ العربِ اجتاحَ أهلَهُ قبلَكَ، وإنْ تكنْ الأخرى، فإنّي واللهِ لا أرى وجوهاً، وإنّي لأرى أَشْواباً منَ النّاسِ(أي أخلاطاً منهم) خليقاً أنْ يفرّوا ويدَعُوكَ. فقالَ لهُ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ: امصصْ بظرِ اللاتِ أنحنُ نفرُّ عنهُ وندعُه!.. فالتفتَ قائلاً: مَنْ ذا؟ قالُوا: أبو بكرٍ. فقالَ: أمَا

---

[1]- العوذُ جمعُ عائذٍ، وجمعُ النّاقةِ ذاتِ اللبنِ والمطافيل الأمهات من النوقِ إذا كانَ معها أطفالُها. يريدُ أنّهم خرجُوا بكلِّ ما يحتاجون حتّى لا يرجعُوا إلا بعدَ أنْ يمنعُوا المسلمِين مِنْ دخولِ مكّةَ.

إنه لولا يدٌ كانَتْ لكَ عندي لم أجزِكَ بها، لأجبْتكَ.[1]

ثمَّ جعلَ يكلّمُ النّبيَّ ﷺ فكلّما تكلّمَ أخذَ بلحيتِه، والمغيرةُ بنُ شعبةَ قائمٌ على رأسِ النّبيِّ ﷺ ومعهُ السّيف وعليه المِغْفَرُ، فكلّما أهوى عروةُ بيدهِ إلى لحيةِ النّبيِّ ﷺ .ضربَ يدَهُ بنعلِ السّيفِ، وقالَ لهُ أخّرِ يدكَ عنْ لحيةِ رسولِ اللهِ ﷺ. فرفعَ عروةُ رأسَهُ فقالَ: مَنْ هذا؟ قالَ: المغيرةُ بنُ شعبةَ، فقالَ: أي غُدَرُ وهل غسلْتَ سوأَتكَ إلا بالأمسِ[2]؟ ثمَّ إنَّ عروةَ جعلَ يرمِقُ أصحابَ النّبيِّ ﷺ بعينَيْه، قالَ: فو اللهِ ماتنخّمَ رسولُ اللهِ ﷺ نخامةً إلا وقعَتْ في كفّ رجلٍ منهم فدلكَ بها وجهَهُ وجلدَهُ، وإذا أمرَهم ابتدرُوا أمرَهُ، وإذا توّضأَ كادُوا يقتتلونَ على وضوئِه، وإذا تكلّموا خفضُوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدّون إليهِ النّظرَ تعظيماً لهُ. فرجَعَ عروةُ إلى أصحابِهِ فقالَ: أي قوم واللهِ لقد وفدتُ على الملوكِ ووفدْتُ على قيصرَ وكسرى والنّجاشيّ، واللهِ ما رأيتُ ملكاً قطُّ يعظّمُهُ أصحابُه ما يعظّمُ أصحابُ محمّدٍ ﷺ محمّداً!.. وإنّهُ قد عرضَ عليكُم خطّةَ رشدٍ فاقبلُوها. ثمَّ إنّهم أرسلُوا إليهِ

[1] – اليدُ النعمة، واليد التي يقصدها عروة، أن عروة كان تحمّل دية فأعانه أبو بكر فيها بعون حسن.

[2] – أرادَ عروةُ بذلكَ أنَّ المغيرةَ بنَ شعبةَ قتلَ قبلَ إسلامِهِ ثلاثةَ عشرَ رجلاً فوَدَى لهُ عروةُ المقتولِين

سهيلاً بنَ عمرٍو ممثّلاً عنهم ليكتبَ بينَهم وبينَ المسلمِينَ كتاباً بالصّلحِ، فلمّا جلسَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: هاتِ أكتبْ بينَنا وبينَكم كتاباً . فدعا النّبيُّ ﷺ الكاتبَ (وكانَ الكاتبُ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ- فيما رواهُ مسلمٌ) فقالَ النّبيُّ ﷺ: اكتبْ "بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ" فقالَ سهيلٌ: أمّا "الرّحمنُ" فواللهِ ما أدري ما هيَ، ولكنْ اكتب باسمكَ اللّهمّ، فقالَ المسلمونَ: واللهِ لا نكتبُ إلا بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ، فقالَ النّبيُّ ﷺ :اكتبْ باسمكَ اللّهمَّ .ثمّ قالَ: هذا ما قاضى عليه محمّدٌ رسولُ اللهِ. فقالَ سهيلٌ: واللهِ لو كنّا نعلمُ أنّكَ رسولُ اللهِ ما صدَدْناكَ عنِ البيتِ و لا قاتلناكَ، ولكنِ اكتبْ "محمّدٌ بنُ عبدِ اللهِ" فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: واللهِ إنّي لرسولُ اللهِ و إنْ كذّبتُموني ! . . اكتبْ محمدٌ بنُ عبدِ اللهِ .(في روايةٍ مسلمٍ: فأمرَ علياً أنْ يمحوَها ، فقالَ عليٌّ لا واللهِ لا أمحوها ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: أرِني مكانَها ، فأراهُ مكانَها فمحاها) ، فقالَ لهُ النّبيّ ﷺ: على أنْ تُخلّوا بيننَا وبينَ البيتِ فنطوفَ بِه، فقالَ سهيلٌ: واللهِ ، لا تتحدّثُ العربُ أنّا أُخذْنا ضُغْطَةً، ولكنْ ذلكَ منَ العامِ القادمِ وليسَ مع المسلِمينَ إلا السّيوفُ في قرابِها . فكتبَ. فقالَ سهيلٌ: وعلى ألا يأتيَكَ منّا رجلٌ وإنْ كانَ على دينِكَ إلا رددْتَهُ إلينا ، و مَنْ جاءَ منكم لم نردَّهُ

عليكم، فقالَ المسلمون: سبحانَ اللهِ، كيفَ يُردُّ إلى المشركِينَ وقد جاءَ مسلماً؟! (والتفتُوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ يسألُونه: أنكتبُ هذا يارسولَ اللهِ؟! قالَ: نعم، إنّهُ مَنْ ذهبَ منّا إليهم فأبعدَهُ اللهُ، ومَنْ جاءَنا منهم فسيجعلُ اللهُ له فرجاً ومخرجاً)[1]. وكانَتْ مدّةُ الصّلحِ بناءً على هذهِ الشّروطِ –على ما رواهُ ابنُ إسحاقَ وابنُ سعدٍ والحاكمُ – عشْرَ سنينَ لا إسلالَ فيها ولا إغلالَ (أي لا سرقة ولا خيانة) وأنّه مَنْ أحبَّ أنْ يدخلَ في عقدِ قريشٍ وعهدِهم دخلَ فيه. فتواثبَتْ خزاعةُ فقالُوا: "نحنُ في عقدِ محمّدٍ وعهدِه". وتواثبَتْ بنو بكرٍ فقالُوا:" نحنُ في عقدِ قريشٍ وعهدِهم". ولمّا فرغَ مِنَ الصّلحِ والكتابةِ، أشهدَ على الكتابِ رجالاً مِنَ المسلمِينَ ورجالاً مِنَ المشركِينَ. وفي الصّحيحَينِ أنَّ عمرَ بنَ الخطّابِ قالَ:" فأتيتُ نبيَّ اللهِ ﷺ فقلْتُ ألسْتَ نبيَّ اللهِ حقاً؟ قالَ: بلى، قلْتُ: ألستَ على حقٍّ وعدوُّنا على باطلٍ؟ قالَ: بلى، قلتُ: أليسَ قتلانا في الجنّةِ وقتلاهُم في النّارِ؟ قالَ: بلى، قلتُ: فلماذا نعطي الدّنيّةَ في دينِنا إذن؟ قالَ: إنّي رسولُ اللهِ ولسْتُ أعصيهِ وهو ناصري. قلتُ: أولسْتَ كُنتَ تحدّثنا أنّا سنأتي البيتَ فنطوفَ بهِ؟

[1] – ما بينَ القوسين تفصيلٌ لروايةِ مسلمٍ. والحديثُ بطولهِ مِنْ لفظِ البخاريِّ معَ زياداتٍ لمسلم.

قال: بلى، أفأخبرتُكَ أنّكَ تأتِيه عامَكَ هذا ؟ قلتُ: لا، قالَ: فإنّكَ آتيهِ ومُطوّفٌ بهِ. فلم يصبرْ عمرُ حتّى أتى أبا بكرٍ رضي اللهُ عنهُ فسألَهُ مثلَ ما سألَ النّبيَّ ﷺ، فقالَ لهُ: يا بنَ الخطّابِ، إنّهُ رسولُ اللهِ ولن يعصيَ ربّهُ ولن يضيّعَهُ اللهُ أبداً. فما هو إلا أنْ أُنزلتْ سورةُ الفتحِ على رسولِ اللهِ ﷺ ، فأرسلَ إلى عمرَ فأقرأَهُ إيّاها. فقالَ: يا رسولَ اللهِ، أوَ فتحٌ هو ؟ . . . قالَ: نعم ، فطابَتْ نفسُهُ"[١]. ثمَّ إنَّ النّبيَّ ﷺ أقبلَ على أصحابِهِ فقالَ لهم:" قومُوا فانحروا ثمَّ احلقُوا – وكرّرَ ذلكَ ثلاثاً– فوجمَ جميعُهم و ما قامَ منهم أحدٌ، فدخلَ على زوجتِهِ أمِّ سلمةَ، وذكرَ لها ما لقيَ مِنَ النّاسِ، فقالَتْ لهُ: يا رسولَ اللهِ أتحبُّ ذلكَ؟ اخرجْ لا تُكلّمْ أحداً منهم كلمةً حتّى تنحرَ بُدنَكَ وتدعوَ حالقَكَ فيحلقكَ. فخرجَ فلم يكلّم أحداً منهم حتّى فعلَ ذلكَ. نحرَ بُدنهُ ودعا حالقَهُ فحلقَهُ، فلمّا رأَوا ذلكَ قامُوا فنحرُوا وجعلَ بعضُهم يحلقُ بعضاً، حتّى كادَ بعضُهم يقتلُ الآخرَ لفرطِ الغَمّ. ثمَّ جاءَ نسوةٌ مؤمناتٌ (بعدَ انصرافهِ إلى المدينةِ) مهاجراتٌ بدينهنّ، بينهنّ أمُّ كلثومَ بنتُ عقبةَ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ

---

[١]- متفق عليه .

﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾[1] . فأبى رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يردَّهنَّ بدينهنَّ إلى الكفّارِ "[2] .

ما انفككتُ مِنْ قراءةِ هذهِ الفِقْرةِ إلا وتحرّكتْ شفتاي بالحمد والشّكر للهِ...

حقبةٌ جديدةٌ تُسدلُ السّتارَ على زمنِ الهجومِ على الدّولةِ الإسلاميّةِ مِنْ قِبلِ قريشٍ أو القبائلِ الأخرى، ونقلةٍ نوعيّةٍ في العلاقاتِ بينَ الدّولةِ الإسلاميّةِ الفتيّةِ وبينَ قريشٍ... فهو اعترافٌ رسميٌّ مِنْ قِبَلِ قريشٍ بالمسلمِينَ باعتبارِهم دولةً توقّعُ العقودَ ويدخلُ في حلفِها مَنْ يريدُ مِنَ القبائلِ لتزدادَ قوّتُها، وينتشرَ أمرُها ، كما إنّه تنبيهٌ لقريشٍ في أنَّ الكعبةَ المشرّفةَ ليسَتْ حكراً على أوثانِهم، بلْ لهم الحقُّ فيها.

كما تعطي القائدَ المسلمَ مرونةً في علاقاتِهِ معَ الأعداءِ، إذ يمكنُ أنْ يوقّعَ معهم هدنةً بشروطٍ وضمنَ مدّةٍ محدّدةٍ.

وهي مقدّماتٌ لفتحٍ كما أخبرَ النّبيّ ﷺ،إذِ استطاعَ المسلمون في فترةِ الهدنةِ نشرَ الإسلامِ في القبائلِ الأُخرى بعدَ أنْ أمِنوا قريشاً الّتي

---

[1]- سورةُ الممتحنة : ١٠

[2]- صحيحُ البُخاريّ .

أرهقَتْهم في الحروبِ الواحدةِ تلوَ الأُخرى، فلم يستطعِ المسلمون التفرّغَ للدّعوةِ إلى اللهِ قبلَ ذلكَ. فدخلتْ قبائلُ كثيرةٌ في الإسلامِ واستردَّ المسلمونَ أنفاسَهم. أدَّوا مَهمّتهم الكبرى في التّبليغِ والهدايةِ، فازدادتْ مساحاتُ النّورِ في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ.

وهي خطوةٌ استراتيجيّةٌ فذّةٌ مناسبةٌ في توقيتِها وفي عمقِ معناها، حقاً لقد بهرتني هذه الخطوةُ الاستراتيجيّةُ.. بالفعلِ إنّ مَنْ يمشي بمعيّةِ اللهِ يكونُ مسدَّدَ الخُطا... فالمسلمونَ ينتقلونَ إلى مرحلةٍ جديدةٍ منْ مراحلِ دولتِهم.. مرحلةٌ عالميّةٌ الدّعوةُ والتّبليغُ. فبعدَ الخندقِ بدأَتِ القبائلُ تعيدُ حساباتِها منْ جديدٍ، وتفتحُ عقلَها لسماعِ العقيدةِ، ولكنْ بغيرِ الآذانِ الّتي سمعتْها منْ قبلُ، عندما كانَ رسولُ اللهِ ضعيفاً يعرضُ عليهم الإسلامَ ليحمُوهُ حتّى يبلّغَ دعوتَهُ فأبَوا، ورفضُوا .. أمّا الآنَ فقد تغيّرّتْ موازينُ القوى وخارطةُ العالمِ القديمِ .. فيعرضُ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ ما عرضَهُ سابقاً عليهم بمنتهى اللّينِ والرّفقِ كيلا ينشغلُوا بالدّفاعِ عنْ أنفسِهم، بلْ يتفرّغُوا لسماعِ الفكرةِ بعيداً عنِ النّفسِ والتّعصّبِ لها، لنتعلّمَ منهُ ﷺ كيفَ يعرضُ الإنسانُ فكرتَهُ لتصلَ إلى الآخرِ بعيداً عنِ الأهواءِ وحظوظِ النّفسِ.

واستطاعَ المسلمون بهذهِ الهدنةِ أنْ يتفرّغوا للقوى المعاديةِ الأُخرى مثلُ الرّوم الّتي كانَتْ تدسُّ بينَ المسلمِينَ مُوالِينَ لها وتستغلَّ المنافقِينَ،

وتتّصلَ بهم، وتخطّطَ معهم لهدمِ الإسلامِ مِنْ داخلِ صفوفهِ كعادةِ أعداءِ الدّينِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

واستوقفني ما لمحتُه في موقفِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ والمسلمين وامتعاضِهم منْ بعضِ بنودِ الصّلحِ، إذ شَعَروا أنَّ في بعضِ بنودِهِ تنازُلاً للمشركِينَ، كما إنّهم يتطلّعون شوقاً إلى مكّةَ بعدَ زمنٍ طويلٍ مِنَ البُعدِ عنِ الأرضِ والدّيارِ وفي هذا الصّلحِ لم يستشرْ رسولُ اللهِ ﷺ أصحابَهُ كما كانَ يفعلُ!

لكنّ جوابُ رسولِ اللهِ ﷺ لعمرَ: (إنّي رسولُ اللهِ ولستُ أعصيْهِ وهو ناصري) وجوابُ الصّدّيقِ لعمرَ : (يا بنَ الخطّابِ إنّهُ رسولُ اللهِ، ولنْ يعصيَ ربّهُ، ولن يضيَّعهُ اللهُ أبداً)، يعني أنّه أمرٌ إلهيٌّ، ليكشفَ لسيدِنا عمرَ الغمامةَ عنِ الحقيقةِ الّتي لا يجوزُ أنْ ينساها أحدٌ!

نعم ... فلتعملِ العقولُ، وتفكّرْ، وتجتهدْ، ولا حدَّ لها إلا أمرُ اللهِ... عندها يقفُ العقلُ سامعاً ومطيعاً لأمرِ اللهِ، لأنَّ العقلَ مهما كانَ عظيماً فهو محدودٌ أمامَ عظمةِ اللهِ وقدرتِهِ وعلمِهِ. وهنا لا مكانَ لاجتهادِهِ، فإنِ اجتهدَ فسيكونُ قاصراً عنْ إدراكِ حكمةِ اللهِ العليمِ الخبيرِ.

إنّه الحدُّ الوحيدُ لفكرِكَ أيّها المسلمُ عندَهُ تقفُ. ولكنْ لا لتظنَّ نفسكَ قد حدّدتَ فكركَ، بلْ ليتّحدَ فكرُكَ ضمنَ حكمةِ اللهِ وقدرتِهِ اللامحدودةِ فتجني الخيرَ كلَّهُ بفكرِكَ المحدودِ الّذي اتّحدَ وانصاعَ معَ حكمةِ اللهِ وعلمهِ اللّامحدودَينِ فجاءَ الفتحُ المبينُ .

أمّا قصّةُ أمِّ سلمةَ... فليوسعْ لهذهِ القصّة صدارةَ المجالسِ التي تتكلّمُ عنْ حقوقِ المرأةِ وأهميّتِها... قائدٌ عظيمٌ يبثُّ همّهُ لامرأتِهِ، ثمَّ يستمعُ لاقتراحِها، وينفّذهُ، في مجتمعٍ كانَ إلى عهدٍ قريبٍ يعتبرُ المرأةَ متاعَ الرّجلِ، ليسَ لها حقوقٌ ولا ميراثَ.

فلا مزايداتٍ على الإسلامِ مِنْ حيثُ مكانةِ المرأةِ فيهِ وحقوقِها، فقد أعطاها أفضلَ الحقوقِ والامتيازاتِ الّتي تجعلُها ملكةً في بيتِها، فاعلةً في مجتمعِها، مشاركةً للرّجالِ في المُلمّاتِ والأعمالِ، داعمةً ومُساندةً لنجاحاتِ مجتمعِها وأنشطتِهِ المختلفة في علاقةٍ وِدّيّةٍ حميميّةٍ بينَ الرّجلِ والمرأةِ ضمنَ أسرةٍ متكاملةٍ متحابّةٍ، لا ندّيّةٍ تشوبُها المنازعةُ والاعتدادُ بالرّأيِ أو إثباتٌ للحقوقِ... فقد أعطاها الإسلامُ حقوقَها دونَ أنْ تطلبَها أو تقيمَ مِنْ أجلِها المؤتمراتِ والنّدواتِ أو النّزاعاتِ! فظلّتْ عزيزةً مُكرّمةً، يسعى الزّوجُ والأبُ والأخُ في تأمينِ ما يريحُها ويعينُها على وظيفتِها الكبرى في تخريجِ جيلٍ يكونُ خليفةَ اللهِ في الأرضِ، بينما يقومُ الرّجلُ بالزّراعةِ والصّناعةِ والتّجارةِ والتّعاملِ معَ الحديدِ

والتّرابِ منْ أجلِ أنْ تقومَ هي بصنعِ الرّجالِ الذينَ بهم تُقامُ الأمّةُ، وتُصنعُ الحضاراتِ. فأيّهما إنتاجهُ أهمّ! كلا الدّورَينِ هامّان، بلْ هي أدوارٌ مُتكاملةٌ.

فالمرأةُ مشاركةٌ في اتّخاذِ القرارِ في الأسرةِ، ولكنّها في الوقتِ نفسهِ تعي تماماً أنَّ قائدَ الأسرةِ هو الّذي سيتّخذُ القرارَ النّهائيّ، وعليها أنْ تكونَ نائبتُهُ في البيتِ والعاملةُ على تنفيذِ القرارِ بأفضلِ وجهٍ. فليستْ هناكَ ندّيّةٌ في المكانةِ. كلٌّ يعملُ وفقَ اختصاصِهِ ودورِهِ، لكنِ القيادةُ بيدِ ربِّ الأسرةِ، وعليها هي أنْ تساندَ هذا القائدَ وتدعمَهُ كي يقودَ الأسرةَ إلى الخيرِ والأمانِ. هذهِ هي نظرةُ الإسلامِ إلى المرأةِ... فلا حاجةَ إلى قوانينَ جديدةٍ أو أصواتٍ متعاليةٍ تدعو إلى حقِّ المرأةِ .فقد أخذتْهُ منذُ أكثرَ مِنْ ألفٍ وأربعِمئةِ سنةٍ وإنْ ظهرَ خطأٌ في التّطبيقِ فذاكَ يعودُ إلى الأفرادِ أنفسِهم وكيفيّةِ تطبيقِهم لقوانينِ الإسلامِ في حياتِهم أمّا ما يدعُونهُ الآنَ بالمساواةِ فإنّي أجدُ أنَّ هذهِ الدّعوى قد جرّدَتِ المرأةَ منْ حُنوّ الرّجلِ وشهامتِهِ، فلم تعطِ هذهِ الدّعوى إلا صورةً لا ترغبُ المرأةُ بها. فقد صارَتْ المرأةُ تقفُ في طابورِ الرّجالِ نفسِهِ!... وغدَتْ تعملُ في الشّارعِ بأعمالِ بناءٍ أو تنظيفٍ!... وباتَتْ تنوءُ بحملِ الأشياءِ دونَ أنْ يتحرّكَ رجلٌ واحدُ أو شابٌّ صغيرٌ

لمساعدتِها!...

إنْ كانَتْ هذه المساواة، وتلكَ هي حقوقُ المرأةِ، فأنا أوّلُ الكافِرينَ بها!

وهُنا تذكّرتُ صورةً كنتُ قد رأيتُها في أحدِ مواقعِ التّواصلِ الاجتماعيّ بينَ طفلين ينظران أعلى السّورِ، الأول قصير، يمنعه قصر طوله عن رؤية ما وراء السور، والثاني أطولُ منه يستطيعُ أنْ يرى ما وراءَ السور، فأُعطي الأول كرسيّاً ليعلوَ فوقه حتّى يتمكّنَ مِنْ رؤيةِ ما وراءَ السّورِ، ثمّ تمّ تذييلُ الصّورةِ بعبارة : العدلُ ليسَ هو المساواة!.

بيعةُ الرّضوانِ :

وكانَ قدْ أرسلَ النّبيُّ ﷺ عثمانَ بنَ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ إلى قريشٍ قبلَ كتابةِ الصّلحِ ليكلّمهم في الأمرِ، فاحتبستهُ قريشٌ عندها مدّةً، وبلغَ رسولُ اللهِ ﷺ إذْ ذاكَ أنّ عثمانَ بنَ عفانَ قد قُتلَ، فقالَ لا نبرحُ حتّى نناجزَ القومَ، فدعا رسولَ اللهِ ﷺ إلى البيعةِ، فكانتْ بيعةُ الرّضوانِ تحتَ شجرةٍ هنالكَ. فكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يأخذُ بيدِ أصحابهِ الواحد منهم تلوَ الآخرَ يبايعونهُ على ألا يفرّوا . و أخذَ رسولُ اللهِ ﷺ بيدِ نفسهِ وقالَ: "هذهِ عنْ عثمانَ" . ولمّا تمّتِ البيعةُ، انتهى إلى رسولِ اللهِ ﷺ أنّ الّذي بلغَهُ مِنْ مقتلِ عثمانَ باطلٌ.

سألْتُ نفسي لـمَ سُمّيتْ بيعةَ الرّضوان؟ أو لماذا كانَتْ سبباً في رضاءِ اللهِ تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1] .

لمْ أجدْ جواباً إلا الرّضا والتّسليمَ قلباً وقالباً لأمرِ اللهِ فيما يقضي ويحكمُ. و هما السّمتانِ البارزتانِ في أحداثِ بيعةِ الرّضوانِ وصلحِ

[1] – سورةُ الفتح : ١٨

الحديبيةِ لذلكَ استحقُّوا رضا اللهِ مِنْ سابعِ سماءٍ، يسجّلُهُ التّاريخُ قرآناً يُتلى ويُكتَبُ. نريدُ المسالمةَ... سالْمنا.. بشروطِهم... سمعْنا... نريدُ مناجزةَ القومِ مِنْ أجلِ عثمانَ نبايعُ... خذْ ما تحبُّ وافعلْ ما تحبُّ كما تريدُ نكونُ.

هذا حالُ الصّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم معَ خالقِهم ورسولِهِ، فكيفَ لايحظَوا برضا اللهِ ومحبّتِهِ وقد برهنُوا بتسليمِهم وسلوكِهم هذا على محبّتِهمُ الصّادقةِ!... لا قولاً بلْ فِعلاً وعملاً ..فأينَ نحنُ منهم! ومنْ صدقِ محبّتِهم ؟؟

غزوةُ خيبرَ (محرّم السّنةِ السّابعةِ للهجرةِ) :

ثمّ سارَ النّبيُّ ﷺ إلى خيبرَ، في أواخرِ المحرّمِ للسّنةِ السّابعةِ مِنَ الهجرةِ، وخيبرُ مدينةٌ كبيرةٌ ذاتُ حصونٍ ومزارعَ تقعُ على بُعدِ مئةِ ميلٍ شمالَ المدينةِ جهةَ الشّامِ. وكانَ مع النّبيِّ ﷺ في هذهِ الغزوةِ ألفٌ وأربعُمئةِ مقاتلٍ ما بينَ فارسٍ وراجلٍ. قالَ ابنُ هشامٍ: "فلمّا أشرفَ النّبيُّ ﷺ على خيبرَ قالَ لأصحابهِ قفُوا، ثمّ قالَ: "اللّهمّ ربَّ السّمواتِ وما أظلّلْن، و ربَّ الأرضِينَ وما أقللْن، وربَّ الشّياطِينِ وما أضللْن، وربَّ الرّياحِ وما أذرَين، فإنّا نسألكَ خيرَ هذهِ القريةِ وخيرَ أهلِها وخيرَ ما فيها، ونعوذُ بك مِنْ شرّها وشرِّ أهلِها وشرِّ ما فيها . اقْدمُوا بسمِ اللهِ" وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا غزا قوماً، لم يُغرْ عليهم حتّى يصبحَ، فإنْ سمعَ أذاناً أمسكَ، و إنْ لم يسمعْ أذاناً أغارَ، فباتَ رسولُ اللهِ ﷺ وأقبلَ، فرآهُ عمّالُ خيبرَ وقد خرجُوا بمساحِيهم و فؤوسِهم و مكاتِلهم، يقصِدُون مزارعَهم، فلمّا رأَوه ﷺ صاحُوا: محمّدٌ والخميس[1]، ثمّ ولّوا هاربِين فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : "اللهُ أكبرُ، خربَت خيبرُ، إنّا إذا نزلْنا بساحةِ قومٍ فساءَ صباحُ المنذَرين"[2] . قالَ ابنُ سعدٍ: "فوعظَ رسولُ اللهِ ﷺ

---

[1] – الخميس: الجيش، أي جاء محمد والجيش معه.

[2] – متّفقٌ عليهِ

النّاسَ وفرّقَ بينهمُ الرّاياتِ، وابتدأَتِ المعاركُ بينَ رسولِ اللهِ ﷺ، وأهلِ خيبرَ– وقد تحصّنُوا بحصونهم– وأخذَ المسلمونَ يفتحُونَها حصناً حصناً :" إلا الحصنَينِ الأخيرَينِ: الوطيحَ، والسُّلالمَ، فقد حاصرَهما رسولُ اللهِ ﷺ بضعَ عشْرةَ ليلةً" .

روى أحمدُ والنّسائيُّ وابنُ حبّانَ والحاكمُ منْ حديثِ بريدةَ بنِ الخطيب، قالَ:" لمّا كانَ يومُ خيبرَ أخذَ أبو بكرٍ اللّواءَ، فرجعَ ولمْ يُفتَحْ لهُ، فلمّا كانَ الغداةَ أخذَهُ عمرُ، فرجعَ ولمْ يُفتَح له، فقالَ النّبيّ ﷺ لأدفعنّ لوائي غداً إلى رجلٍ يفتحُ اللهُ على يديهِ، يحبُّ اللهَ و رسولهُ، قالَ: فباتَ النّاسُ يَدُوكون ليلتَهم (أيْ يتساءَلون ويختلفُون): أيّهم يُعطاها ، فلمّا أصبحَ النّاسُ ،غدَوا على رسولِ اللهِ ﷺ كلُّهم يرجو أنْ يُعطاها فقالَ: أينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ؟ فقيلَ هو يا رسولَ اللهِ يشتكي عينيْه، قالَ فأرسلُوا إليهِ، فأُتي بهِ، فبصقَ رسولُ اللهِ ﷺ في عينيهِ ودعا ، فبَرأَ، حتّى كأنْ لم يكنْ بهِ وجعٌ. فأعطاه الرّايةَ، فقالَ عليٌّ يا رسولَ اللهِ، أقاتلُهم حتّى يكونوا مثلَنا (أي مسلمِين) ؟ فقالَ ﷺ:" انفذْ على رِسْلِكَ حتّى تنزلَ بساحتِهم، ثمَّ ادعُهم إلى الإسلامِ، وأخبرْهم بما يجبُ عليهم منْ حقِّ اللهِ فيه، فو اللهِ لأنْ يهديَ اللهُ بكَ

رجُلاً واحداً خيرٌ لكَ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ". ثمَّ خرجَ فقاتلَ، فكانَ الفتحُ على يديهِ[١]، وغنمَ المسلمُون كلَّ ما في تلكَ الحصونِ مِنَ الأموالِ. أمّا ذانِكَ الحصنانِ، فقد ظلَّ المسلمُون يحاصرونَهما، حتّى إذا أيقنَ مَنْ فيهِ بالهلاكِ، سألوه ﷺ أنْ يخرجَهم ويُجليَهم ويحقنَ دماءَهم ويتركُوا لهُ الأموالَ، فوافقَهم رسولُ اللهِ ﷺ على ذلكَ. ثمَّ إنَّهم سألُوا رسولَ اللهِ ﷺ أنْ تبقى خيبرُ تحتَ أيديْهم يعملون فيها ويزرعُونها لأنهم أعرفُ بأراضيهم وأعمرُ لها. ولهم شطرُ ما يخرجُ منها، فصالحَهم رسولُ اللهِ ﷺ على ذلكَ وقالَ لهم: على أنا إنْ شئْنا أنْ نُخرجَكم أخرجْناكم"[٢]. قالَ ابنُ إسحاقَ "فلمّا اطمأنَّ رسولُ اللهِ ﷺ، أهدَتْ لهُ زينبُ بنتُ الحارثِ امرأةُ سلامٍ بنِ مشكمَ، شاةً مصليّةً (مشويّة) وكانَتْ قد سألَت أيُّ عضوٍ منَ الشّاةِ أحبُّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ؟ فقيلَ لها: الذّراعُ، فأكثرَتْ فيها السُّمّ ثمّ سمّمَتْ سائرَ الشّاةِ، ثمّ جاءَت بها، فلمّا وضعتْها بينَ يدي رسولِ اللهِ ﷺ، تناولَ الذراعَ فلاكَ مضغةً فلم يسغْها، ومعهُ بشرٌ بنُ البراءِ بنِ معرورٍ، قد أخذَ منها كما أخذَ رسولُ اللهِ ﷺ فأمّا بشرٌ فأساغَها، وأمّا رسولُ اللهِ فلفظَها. ثمَّ قالَ: إنَّ هذا العظمَ ليخبرُني أنّهُ

[١] – الحديثُ متّفقٌ عليهِ ابتداءً منْ قولهِ لأدفعنّ لوائي غداً ....الخ

[٢] – متفقٌ عليه

مسمومٌ، ثم دعا بها فاعترفَتْ، فقالَ ما حملَكِ على ذلكَ؟ قالَتْ: بلغْت مِنْ قومي مالم يخفَ عليكَ، فقلْتُ إنْ كانَ ملكاً استرحْتُ منهُ، وإنْ كانَ نبيّاً فسيخبَرُ فتجاوزَ عنها رسولُ اللهِ ﷺ وماتَ بشرٌ منْ أكلتهِ"[1] .والذي جزمَ بهِ الزّهريّ وسليمان التيميّ في مغازيهِ أنّها أسلمَتْ. واختلفُوا بعدَ ذلكَ ، هل قتلَها النّبيُّ ﷺ قصاصاً عنِ بشرٍ أم لا ، فأخرجَ ابنُ سعدٍ بأسانيدَ متعدّدةٍ أنّهُ ﷺ دفعَها إلى أولياءِ بشرٍ فقتلُوها ، غيرَ أنَّ الصّحيحَ ما رواهُ مسلمٌ أنّ النّبيّ ﷺ قالَ لها:" ما كانَ اللهُ ليسلّطكِ على ذاكَ (أي على قتلي)، قالُوا: ألا نقتلُها يا رسولَ اللهِ؟ قال: لا" . وقسمَ رسولُ اللهِ ﷺ غنائمَ خيبرَ بينَ المسلمِينَ، للرّاجلِ سهمٌ وللفارسِ سهمان، وفسّرَ ذلكَ نافعٌ رضيَ اللهُ عنهُ، فيما رواهُ البخاريّ، بأنهُ إذا كانَ مع الرّجلِ فرسٌ فله ثلاثةُ أسهمٍ، فإنْ لم يكنْ فلهُ سهمٌ واحدٌ. – وكانتْ صفيّةُ بنتُ حيي بنِ أخطبَ – زعيمُ اليهودِ– بينَ مَنْ أُسرَ مِنْ نساءِ خيبرَ، فأعتقَها رسولُ اللهِ ﷺ– بعدَ أنْ أسلمَتْ وتزوّجَها ، وجعلَ مَهرها عتقَها[2] .

---

[1]- سياقُ القصّةِ بهذهِ الصّيغةِ لابنِ إسحاقَ والقصّةُ متّفقٌ عليها عندَ البخاريّ ومسلم.

[2]- متّفق عليه.

استوقفَني قولُ رسولِ اللهِ ﷺ :" انفذْ على رِسْلِكَ حتّى تنزلَ بساحتِهم، ثمَّ ادعُهم إلى الإسلامِ، وأخبرْهم بما يجبُ عليهم مِنْ حقِّ اللهِ فيه، فو اللهِ لأنْ يهدي اللهُ بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لكَ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ"، فالمجاهدُ أثناءَ القتالِ قد تدفعُهُ الحماسةُ ورؤيةُ الدّماءِ إلى التفكيرِ فقط في التّغلّبِ على خصمِهِ، فقد ينسى الهدفَ الّذي منْ أجلهِ يقاتلُ، فلا يحرصُ على هدايةِ الطّرفِ الآخرِ، وهذا ما يجبُ على المسلمِ صاحبِ العقيدةِ والفكرةِ أنْ ينتبه إليه، فلا يتحرّكَ قيدَ أنْمُلةٍ إلا وهدفُهُ معه، في قلبهِ وعقلهِ، يحرِّكُه صوبَ تحقيقِ هدفِ هدايةِ الخلقِ ورحمتِهم مِنْ دخولِ جهنّمَ..

ثمَّ ﷺ يأخذُ بنا إلى معنىً آخرَ، يسمو بأيِّ إنسانٍ ..فها هو ﷺ إنّهُ لا يغفلُ عنِ الدّعاءِ لربّهِ، ليوجّهَ القلوبَ إلى الفاعلِ الحقيقيّ والمتصرّفِ الوحيدِ للكونِ، ولا يألو جهداً في توجيهِ العيونِ والعقولِ إلى الهدفِ الأسمى والغايةِ وراءَ هذه الأعمال جميعِها.

فقد يبدأُ الإنسانُ أعمالَه مخلصاً لهدفهِ ثمَّ تزدحمُ الأحداثُ حولَهُ حتّى تكادُ تنسيهِ هدفَهُ ونيّتَهُ، فتحرفُهُ عنْ وجهتِهِ ويبتعدُ عنِ الخطِّ القويمِ دونَ أنْ يدري..

قدومُ جعفرَ بنِ أبي طالبٍ منَ الحبشةِ :

وقدمَ على رسولِ اللهِ ﷺ منَ الحبشةِ وهو في خيبرَ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ ومَنْ معهُ وهم ستةَ عشَرَ رجُلاً وامرأةٌ وجمعٌ آخرُ كانوا في اليمنِ. فأسهمَ لهم رسولُ اللهِ منَ الغنائمِ، بعدَ أنِ استأذنَ في ذلكَ المسلمِين. قالَ ابنُ هشامٍ:" فلمّا قدمَ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ على رسولِ اللهِ ﷺ قبّلَ رسولُ اللهِ ﷺ بينَ عينيهِ والتزمَهُ، وقالَ: ما أدري بأيّهما أسرُّ، بفتحِ خيبرَ أم بقدومِ جعفرَ"[1]، ولمّا قفلَ رسولُ اللهِ ﷺ عائداً إلى المدينةِ استعملَ على خيبرَ رجلاً مِنَ الأنصارِ قيلَ إنّه سوادٌ بنُ غَزَيّةَ، منْ بني عديّ. فجاءَهُ منها بتمرٍ جنيبٍ[2]، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ:" أكُلُّ تمرِ خيبرَ هكذا ؟ فقالَ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ إنّا لنأخذُ الصّاعَ منْ هذا بالصّاعَينِ، بالثّلاثةِ، فقالَ: لا تفعلْ، بِعْ الجمعَ بالدّراهمِ ثمَّ ابتعْ بالدّراهمِ جنيباً"[3] .

وقفْتُ هنيهةً .. وما أكثرَ ما توقّفْتُ وأنا أقرأُ الكتابَ ..توقفْتُ عندَ

---

[1] - خبرُ قدومِ جعفرَ بنِ أبي طالبٍ واشتراكِه في الغنائمِ من روايةِ البخاريّ وغيرِه ، وليس في البخاريّ تفصيلُ كيفيّةِ استقبالِهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم له.

[2] - التمرُ الجنيبُ : هو التّمرُ الجيّد

[3] - رواهُ البخاريّ وانظرْ فتحَ الباري ٣٤٧/٧

عبارةِ :(فأسهمَ لهم رسولُ اللهِ منَ الغنائمِ، بعدَ أنِ استأذنَ في ذلكَ المسلمِين)!

أتعجّبُ حقّاً كيفَ يعلّمُ ﷺ صحابتَهُ على القيادةِ و مهاراتِها! فساعةً يشاورُهم في أحدٍ وينزلُ على رأيِهم رغمَ عدمِ قناعتهِ بذلكَ، دونَ أن يوبِّخَهم أو يقولَ لهم بعدَ خسارتِهم : ألمْ أقلْ لكم! لقد نبّهتُ وحذرّتُ...الخ.. توبيخاً و تقريعاً!

منتهى الرقيّ في التّعاملِ حقّاً! أينَ المنادُون باسمِ الدّيمقراطيّةِ والتّحضّر، هلمّوا و خذُوا درساً مِنْ نبيّنا الذي لم يتخرّجْ منْ كليّاتِ السّياسةِ، و لم يخضعْ لدوراتِ القيادةِ! وعاشَ في بيئةٍ لا تحدُّ الملكَ أو رئيسَ القبيلةِ في سلطتهِ... فعلّمَ ﷺ وسنَّ القوانينَ وأعطى دروساً عمليّةً في الواقعِ للقائدِ الفذِّ النّاجحِ.

أمّا خيبرُ ومكرُهم، فقد كانَ لها دوراً في تأليبِ القبائلِ على المسلمِين وجمعِهم في غزوةِ الخندقِ، وكانَ لحيي بنِ الأخطبِ مهامٌ هامّةٌ في ذلكَ، لذا فإنَّ خيبرَ أصبحَتْ معقِلاً لليهودِ، يتآمرون على الإسلامِ ويضعونَ فيها الخططَ والتدابيرَ، وإن قصصَ مؤامراتِهم حتّى آخرِ لحظةٍ وبعدَ سقوطِ حصونِهم (قصّةُ امرأةِ سلامٍ بنِ مشكمَ والشّاةُ المصليّةُ) شاهدٌ على أنَّ الغدرَ مجبولٌ فيهم، شبّوا عليهِ و تربَّوا، إلا من رحم ربي واستطاع أن ينجو بصدقه وعقله من برمجة مجتمعه.

ثمَّ تأتي حادثةُ معرفةِ رسولِ اللهِ ﷺ بوحيٍ منَ اللهِ أمرَ الشّاةِ

المسمومةِ، وكذلكَ تفلُهُ في عينِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ، وقد كانَ يشتكي منها فبرَأَتْ في الوقتِ نفسهِ كأنْ لم يكنْ بهِ وجعٌ... كلُّ ذلكَ منْ دلائلِ ومعجزاتِ النّبيّ ﷺ تأتي مثبتة لإيمانِ منْ أسلمَ حديثاً، ومرسّخةً لصلةِ النّبيّ ﷺ بربّهِ عزَّ وجلَّ وبوظيفتهِ كنبيٍّ ورسولٍ.

أمَّا قدومُ سيّدنا جعفر وقولهِ ﷺ لهُ : (ما أدري بأيّهما أسرُّ بفتحِ خيبرَ أم بقدومِ جعفرَ) فقد تبسّمتُ عندما قرأتُها، وتخيّلتُ فرحةَ سيّدِنا جعفرَ بتلكَ الكلماتِ المنسابةِ مِنْ شفتَيْ رسولِ اللهِ ﷺ بعدَ طولِ الفِراقِ وبُعدِ المكانِ. إنّها لَتمسحُ عناءَ ما مضى وما فاتَهُ مِنْ حلاوةِ صُحبةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

ولعلَّ موقفَ سيّدِنا جعفرَ أمامَ النّجاشيّ عندما جاءَ وفدُ قريشٍ ليتآمرُوا على المسلمِينَ؛ ليبرزُ إلى المخيّلةِ عندَ قراءةِ هذا الإطراءِ والثّناءِ والودِّ والحبِّ الذي نالَهُ سيّدِنا جعفرُ عندَ قدومِهِ.

فالمواقفُ العظيمةُ لا تولدُ مباشرةً، إنّها حصيلةُ عباداتٍ وأعمالٍ صالحةٍ، ثمَّ يجيءُ التّتويجُ مِنْ ربِّ العبادِ بعملٍ وموقفٍ متميّزٍ، مقبولٍ في الأرضِ والسّماءِ.

سرايا الرسول إلى القبائلِ . . وكتبه إلى الملوكِ (محرّم، العامُ السّابعُ للهجرةِ) :

ثمّ أخذَ رسولُ اللهِ ﷺ يبعثُ السّرايا منْ أصحابِهِ إلى مختلفِ قبائلِ الأعرابِ المنتشرةِ في الجزيرةِ العربيّةِ لتقومَ بوظيفةِ الدّعوةِ إلى الإسلامِ، فإنْ لم يستجيبُوا قاتلُوهم على ذلكَ. ولقد كانتْ هذهِ السّرايا خلالَ العامِ السّابعِ للهجرةِ، وتبلغُ عدّتُها عشْرةَ سرايا أرسلَها النّبيُّ ﷺ بإمرةِ مختلفِ الصّحابةِ. وفي هذهِ الفترةِ نفسِها، بدأَ النّبيُّ ﷺ يبعثُ كتباً إلى مختلفِ ملوكِ ورؤساءِ العالمِ يدعُوهم فيها إلى الإسلامِ ونبذِ ما هم عليهِ منَ الأديانِ الباطلةِ. روى ابنُ سعدٍ في طبقاتهِ: "أنّهُ ﷺ لمّا رجعَ مِنَ الحديبيةِ في ذي الحجّةِ سنةَ ستٍّ، أرسلَ الرّسلَ إلى الملوكِ يدعُوهم إلى الإسلامِ وكتبَ إليهم كُتباً، فقيلَ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الملوكَ لا يقرؤُون كتاباً إلا مختُوماً. فاتّخذَ رسولُ اللهِ ﷺ يومئذٍ خاتماً من فضّةٍ نقشُهُ ثلاثةُ أسطرٍ: محمّدٌ رسولُ اللهِ، وختمَ بهِ الكتبَ. فخرجَ ستّةُ نفرٍ في يومٍ واحدٍ، وذلكَ في المحرّمِ سنةَ سبعٍ، وكانَ كلُّ رجلٍ منهم يتكلّمُ بلسانِ القومِ الذينَ بعثَهُ إليهم. فكانَ أوّلُ رسولٍ بعثَهُ رسولُ اللهِ ﷺ عمرو بنُ أميّةَ الضّمريّ إلى النجاشيّ فأخذَ كتابَ رسولِ اللهِ ﷺ فوضعَهُ على عينيهِ ونزلَ منْ سريرِه، فجلسَ على الأرضِ تواضُعاً ثمَّ أسلمَ

وشهدَ شهادةَ الحقّ، وقالَ: لو كنتُ أستطيعُ أنْ آتيَهُ لأتيتُهُ"[1] . وبعثَ رسولُ اللهِﷺ دحيةَ بنَ خليفةَ الكلبيِّ إلى هرقلَ ملكِ الرومِ، فدفعَ دحيةُ بكتابِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى عظيمِ بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقلَ، فقرأَهُ وكانَ فيهِ" بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ، منْ محمّدٍ رسولِ اللهِ إلى هرقلَ عظيمِ الرّومِ، سلامٌ على مَن اتّبعَ الهُدى أمّا بعدُ فإنّي أدعوكَ بدعايةِ الإسلامِ، أسلمْ تسلمْ، وأسلمْ يؤتِكَ اللهُ أجرَكَ مرّتينِ، وإنْ تولّيتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأريسيّين[2]، و يا أهلَ الكتابِ تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينكم أنْ لا نعبدَ إلا اللهَ ولا نشركَ بهِ شيئاً ولا يتّخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً منْ دونِ اللهِ، فإنْ تولّوا فقولُوا اشهدُوا بأنّا مسلمون"[3] .

قالَ ابنُ سعدٍ في طبقاتهِ: "فقالَ هرقلُ بعدَ أنْ قرأَ الكتابَ لجمعٍ مِنْ عظمائِهِ وحاشيتِهِ: يا معشرَ الرّومِ هل لكمْ في الفلاحِ والرّشدِ وأنْ يثبتَ لكمْ ملكُكم وتتبعونَ ما قالَ عيسى بنُ مريمَ، قالَتِ الرّومُ: وما ذاك أيُّها الملكُ؟ قالَ: تتبعون هذا النّبيَّ العربيَّ. قالوا فحاصُوا حيصةَ حُمُرِ الوحشِ، وتناجزُوا، ورفعُوا

---

[1] – طبقاتُ ابنِ سعدٍ : ٢/٢٣ باختصار.

[2] – الأريسيّين، قالَ ابنُ حجرٍ : جمعُ أريسيّ وهو منسوبٌ إلى أريسَ، وهو الفلاحُ والمقصودُ بالكلمةِ الأتباعُ وعامّةُ الشّعبِ .

[3] – متّفقٌ عليهِ عندَ البخاريّ ومسلم .

الصّليبَ. فلمّا رأى هرقلُ ذلكَ منهم يئسَ مِنْ إسلامِهم وخافَ على نفسهِ وملكهِ، فسكّتَهم ثمَّ قالَ: إنّما قلْتُ لكم ما قلتُ لأختبرَكم، لأنظرَ كيفَ صلابتُكم في دينِكم، فقد رأيتُ منكمُ الّذي أحبُّ. فسجدُوا لهُ.

وبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ عبدَ اللهِ بنَ حذافةَ السّهميّ إلى كسرى يدعُوهُ إلى الإسلامِ، وأرسلَ معهُ إليهِ كتاباً، قالَ: فدفعْتُ إليه الكتابَ، فقُرِئَ عليهِ، ثمَّ أخذهُ فمزّقهُ، فلمّا بلغَ ذلكَ الرّسولَ ﷺ، قالَ: مزّقَ اللهُ ملكَهُ. وكتبَ كسرى إلى باذانَ عاملَهُ على اليمنِ أن ابعثْ مِنْ عندِكَ برجلَينِ جلْدَينِ إلى هذا الرّجلِ فليأتياني بهِ، فبعثَ إليه برجلَينِ جلدَينِ، وكتبَ إليهِ معهما كتاباً، فقدِما المدينةَ ودفعا كتابَ باذانَ إلى النّبيّ ﷺ، فتبسّمَ رسولُ اللهِ ﷺ وقالَ: ارجعَا عنّي يومَكُما هذا حتّى تأتياني الغدَ فأخبرَكُما بما أريدُ. فجاءاهُ مِنَ الغدِ فقالَ لهما: "أبلغا صاحبَكما أنَّ ربّي قد قتلَ ربّهُ كسرى في هذهِ اللّيلةِ لسبعِ ساعاتٍ مضَتْ منها" _قالَ ابنُ سعدٍ_ وهي ليلةُ الثّلاثاءِ لعشرِ ليالٍ مضيْنَ مِنْ جمادى الأولى سنةَ سبعٍ "وأنَّ اللهَ تباركَ وتعالى سلّطَ عليهِ ابنَهُ شيرويه فقتَلَهُ"، فرجَعا إلى باذانَ بذلكَ، فأسلمَ هو والأبناءُ الّذينَ

باليمنِ"[1]. وبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ الحارثَ بنَ عُميرٍ الأزديّ إلى عظيمِ بصرى مِنْ قِبلِ الرّومِ (شرحبيل بنُ عمرٍو الغسّانيّ)، فأوثقهُ رباطاً وقتلَهُ، قالُوا ولمْ يُقتلْ لرسولِ اللهِ ﷺ رسولٌ غيرُهُ[2]. وبعثَ ﷺ برسلٍ وكتبَ أخرى كثيرةً إلى كثيرٍ مِنَ الأمراءِ العربِ المتفرّقينَ في مختلفِ المناطقِ، فأسلمَ منهمُ الكثيرُ، وعاندَ البعضُ منهم. وفي هذهِ الفترةِ أيضاً تلاحقَتِ الوفودُ تفدُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ مختلفِ الجهاتِ تعلنُ إسلامَها وتدخُلُ في دينِ اللهِ تعالى. وممّنْ أسلمَ في هذهِ الفترةِ مِنْ كبارِ العربِ وقادتِهم: خالدٌ بنُ الوليدِ وعمرُو بنُ العاص".

روى ابنُ إسحاق، عنْ عمرِو بنِ العاصِ قالَ:" خرجْتُ عامداً إلى رسولِ اللهِ ﷺ فلقيْتُ خالداً بنَ الوليدِ، وذلكَ قبلَ الفتحِ، وهو مقبلٌ منْ مكّةَ. فقلْتُ: أينَ تريدُ يا أبا سليمانَ؟ قالَ: أذهبُ واللهِ لأسلمَ، فحتّى متى؟! قلتُ لهُ: وما جئْتُ إلا

[1]- خبرُ كتابِ رسولِ اللهِﷺ إلى كسرى بهذا التّفصيلِ منْ روايةِ ابنِ سعدٍ في طبقاتهِ وقد ذكرَ ذلكَ البخاريّ أيضاً مختصراً، وفيه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دعا عليهم –لمّا بلغَهُ أنّهُ مزّقَ كتابهُ – أن يمزَّقوا كلَّ ممزّقٍ ، وقد أسندَ الشيخُ ناصرٌ في تعليقاتهِ على كتابِ فقهِ السّيرةِ للغزاليّ إلى ابنِ سعدٍ ، زيادةً على ما ذكرتُه ، لم أجدْها في طبقاتهِ، وهي: أنَّ النّبيّ ﷺ رأى شواربَهما (أي الرجلان اللذان أرسلهما إليه باذان) مفتولةً وخدودُهما محلوقة فأشاحَ عنهما وقال : ويحكما، من أمركما بهذا ؟ قالا : أمرَنا ربنا : يعنيان كسرى. فهذه الزّيادةُ لم أجدْها في روايةِ سعدٍ ، وإنّما هي منْ روايةِ ابنِ جريرٍ.

[2]- رواهُ الواقديّ ، عنْ عمرَ بنِ الحكمِ ، قالَ ابنُ حجرٍ : وذكره أيضاً ابنُ شاهين منْ طريقِ محمّدٍ بنِ يزيد.

لأسلمَ، فقدِمْنا جميعاً، فتقدّمَ خالدٌ فأسلمَ وبايعَ، ثمَّ دنوتُ فبايعتُهُ" .

عندما شهدَ خالدٌ بالإسلامِ قال لهُ ﷺ : الحمدُ للهِ الذي هداكَ قد كنتُ أرى لكَ عقلاً رجوتُ ألا يسلمَكَ إلا إلى خيرٍ.

أفرحَتْني هذهِ السّابقةُ، إنّها تَضعُ عنواناً جديداً لمرحلةِ الدّعوةِ الإسلاميّةِ، فهنا إعلانٌ لعالميّةِ الإسلامِ، وأنّهُ دينٌ جاءَ للعالمِ أجمعَ ليس قصراً على العربِ دونَ غيرِهم ولا شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ دونَ بقيّةِ الأماكنِ. وكأنّ الرّسولَ الكريمَ قد هيّأَ أسبابَ هذهِ الدّعوةِ فقد جهّزَ لكلِّ قومٍ من يتكلّم بلغتهم مراعياً تقاليدَ كلِّ بلدٍ... في رسالةٍ مفادها أنَّ الدّاعية إلى اللهِ يجبُ أنْ يطّلعَ على طبائعِ وتقاليدِ المجتمعِ الذي يدعو فيهِ، وأنْ يدركَ طبيعةَ تفكيرِهم ليتسنّى لهُ محاورتَهم بأنجعِ السّبلِ المقنعةِ. أمّا قصّةُ إسلامِ خالدٍ ففيها مِنْ ذكاءٍ وحكمةِ الرّسولِ الكريمِ ﷺ ما جعلَ العقولَ والقلوبَ تقبلُ على الإسلامِ. فمخاطبةُ كلِّ إنسانٍ وفقَ قدراتِهِ وذكائهِ ومركزِهِ هي منْ أهمِّ الأمورِ الّتي يجبُ أنْ يراعيَها الدّاعي إلى اللهِ. فالاعترافُ للموهوبِ بموهبتهِ يُقبلُ بقلبهِ وأذنهِ مستمعاً منصِتاً.

إنّ شيوعَ الأمنِ بعيداً عنْ توتّرِ الحربِ وشدّتها على النّفسِ وما يثيرُهُ

الدّمُ منْ حميّةٍ تُبعدُ العقلَ عنِ التّفكيرِ السّليمِ، كلُّ ذلكَ يُهيىءُ الفرصةَ للعقلِ في أنْ يفكّرَ بشكلٍ موضوعيٍّ بعيداً عـنِ التّعصّـبِ أو التحيّـزِ.. وما عُرِضَ الإسلامُ على العقلِ إلا كسبَ الجولةَ، وقادهُ إلى الإيمانِ .

- عمرةُ القضاءِ (جمادى الأولى السّنةَ الثّامنةُ للهجرةِ) :

ثمّ إنَّ الرّسولَ ﷺ خرجَ في ذي القعدةِ منَ السّنةِ السّابعةِ قاصداً مكّةَ، وهو الشّهرُ الذي صدّهُ فيهِ المشركون عنْ دخولِها، فاعتمرَ عمرةَ القضاءِ. وذكرَ ابنَ سعدٍ في طبقاتهِ: "أنَّ المعتمرين بها معهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ كانوا ألفينِ، وهمْ أهلُ الحديبيةِ ومنِ انضافَ إليهم، و لم يتخلفْ عنها منْ أهلِ الحديبيةِ إلا مَنْ ماتَ أو استُشهدَ بخيبرَ"[1] .قالَ ابنُ إسحاقَ:" وتحدّثتْ قريشٌ بينها بأنَّ محمّداً وأصحابهُ في عسرةٍ وجهدٍ وشدّةٍ. قالَ: فصفَّ لهُ المشركونَ عندَ دارِ النّدوةِ، لينظرُوا إليهِ وإلى أصحابِهِ، فلمّا دخلَ رسولُ اللهِ ﷺ المسجدَ اضطبعَ بردائهِ، وأخرجَ عضدَهُ اليمنى ثمَّ قالَ: رحمَ اللهُ امرأً أراهُمُ اليومَ منْ نفسهِ قوةً. ثمَّ استلمَ الركنَ و خرجَ يهرولُ ويهرولَ أصحابهُ معهُ، حتّى هرولَ كذلكَ ثلاثةَ أطوافٍ. ومشى سائرَها . قالَ: فكانَ ابنُ عبّاسٍ يقولُ: كانَ النّاسُ يظنّون أنّها ليستْ عليهم (أي ليستْ سُنّة عامة) وذلكَ أنَّ الرّسولَ إنّما صنعَها لهذا الحيِّ مِنْ قريشٍ للذي بلغهُ عنهم، حتّى إذا حجَّ حجّةَ الوداعِ فلزمَها، فمضتِ السُّنّةُ بها"[2] .

---

[1] - طبقاتُ ابنِ سعدٍ ١٦٧/٣

[2] - سيرةُ ابنِ هشام: ٣٧٠/٢ ومضمونُ ذلكَ متفقٌ عليهِ برواياتٍ متقاربةٍ عندَ الشيخَين

غزوةُ مؤتةَ (جمادى الأُولى السّنةُ الثّامنةُ للهجرةِ):

وقد كانتْ في شهرِ جمادى الأولى سنةَ ثمانٍ منَ الهجرةِ. ومؤتةُ قريةٌ على مشارفِ الشّامِ، وهي الّتي تُسمّى اليومَ (الكرك) . وسببُها ما ذكرناهُ منْ مقتلِ الحارثِ بنِ عميرٍ الأزديّ، رسولُ رسولِ اللهِ ﷺ إلى ملكِ بصرى، ولم يقتلْ لرسولِ اللهِ ﷺ رسولٌ غيرُه. فندبَ الناسَ لخروجٍ على الشّامِ، وسرعانَ ما اجتمعَ مِنَ المسلمِينَ ثلاثةُ آلافِ مقاتلٍ قد تهيّؤوا للخروجِ إلى مؤتةَ. ولم يخرجِ النّبيُّ ﷺ معهم، وبذلكَ نعلم أنّها في الحقيقةِ ليست بغزوةٍ وإنّما هي سريةٌ، ولكنَّ عامّةَ علماءِ السّيرةِ أطلقُوا عليها اسمَ الغزوةِ لكثرةِ عددِ المسلمِينَ فيها، ولما كانَ لها مِنْ أهميّةٍ بالغةٍ. وقالَ لهم رسولُ اللهِ ﷺ:" أميرُ النّاس زيدٌ بنُ حارثةَ، فإنْ قُتِلَ فجعفرُ بنُ أبي طالبِ، فإنْ قُتِلَ فعبدُ اللهِ بنُ رواحةَ، فإنْ قُتلَ فليرتضِ المسلمونَ منهم رجلاً فليجعلُوهُ عليهم[1] . وأوصاهُم ﷺ أنْ يدعُوا مَنْ هناكَ إلى الإسلامِ، فإنْ أجابُوا، وإلا استعانُوا عليهم باللهِ وقاتلوهم" .

قالَ ابنُ إسحاق :" ودَّعَ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ المسلمِينَ وأمراءَهم عندَ

[1] رواهُ البخاريُّ وأحمدُ وابنُ سعدٍ في طبقاتِهِ ،ولكنْ ليسَ في البخاريّ : فإنْ قتلَ فليرتضِ المسلمونَ منهمْ رجلاً

خروجُهم منَ المدينةِ، وفي تلكَ الأثناءِ بكى عبدُ الله بنُ رواحةَ ، فقالُوا لهُ: ما يبكيكَ؟ قالَ: أما واللهِ ما بي حبُّ الدّنيا و لا صبابةٌ بكم ولكنّي سمعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقرأُ آيةً منْ كتابِ اللهِ تعالى يذكرُ فيها النّارَ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[1] فلستُ أدري كيفَ لي بالصّدرِ بعدَ الورودِ. وناداهم المسلمون وهم يسيرونَ: صحبكمُ اللهُ، ودفعَ عنكم، وردَّكم إلينا صالحينَ. فقالَ عبدُ الله بنُ رواحةَ :

لكنّني أسألُ الرّحمــــنَ مغفــرةً وضربةً ذاتَ فرعٍ تقذفُ الزّبــَدا
أو طعنــةً بيديْ حرّانَ مُجهزةً بحربةٍ تنفذُ الأحشاءَ والكبــــدا
حتّى يُقالَ إذا مرُّوا على جدَثي أَرْشَدَهُ اللهُ منْ غازٍ، وقدْ رَشدَا

ولمّا فصلُوا منَ المدينةِ سمعَ العدوُّ بمسيرِهم، فجمعُوا لهم: جمعَ هرقلُ لهم أكثرَ منْ مئةِ ألفِ مقاتلٍ مِنَ الرّومِ، وجمعَ شرحبيلُ بنُ عمرٍو مئةَ ألفِ مقاتلٍ آخرَ منْ قبائلِ لخمَ وجُذامَ والقينِ وبهراء .

وسمعَ المسلمونَ بذلكَ فأقامُوا في معانَ ليلتَينِ يفكّرونَ في أمرِهم، وقالُوا: نكتبُ إلى

[1] سورة مريم :٧١

رسولِ اللهِ ﷺ فنخبرَهُ بعددِ عدوّنا . فشجّعَهم عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ وقالَ لهم: ياقوم، واللهِ إنَّ الّتي تكرهُون للّتي خرجْتُم تطلبون (الشّهادَة) . وما نقاتلُ النّاسَ بعددٍ ولا قوّةٍ ولا كثرةٍ، وما نقاتلُهم إلا بهذا الدّينِ الّذي أكرمَنا اللهُ به، فانطلِقُوا فإنّما هي إحدى الحسنَيَينِ إمّا ظهورٌ أو شهادةٌ.

والتقى المسلمونَ بأعدائِهم قبيلَ الكركِ، وقد اجتمعَ منهم ما لا قِبلَ لأحدٍ بهِ مِنَ العددِ والسّلاحِ والعتادِ، فأخذَ اللواءَ زيدٌ بنُ حارثةَ فقاتلَ وقاتلَ المسلمون معهُ حتّى قُتلَ رضيَ اللهُ عنهُ طعناً بالرّماحِ، ثمَّ أخذَ اللواءَ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ فأبلى بلاءً عظيماً، حتّى إذا ألحمَهُ القتالُ نزلَ عنْ فرسِهِ فعقرَها ثمّ انطلقَ يشتدُ في قتالِ الرّومِ وهو يرتجزُ :

يا حبّــذا الجنّـةُ واقــترابُها | طيبةً وباردٌ شرابُـها
والرّومُ رومٌ قد دنا عذابُها | كـافرةٌ بعيدةٌ أنسابُها

عليَّ إذ لاقيتُها ضِرابُها

وظلَّ يقاتلُ حتّى قُتلَ رضيَ اللهُ عنهُ، ضربهُ رجلٌ مِنَ الرّومِ فقدّهُ نصفَينِ، فوُجدَ

في جسمهِ خمسون طعنةً، ليس منها شيءٌ في ظهرهِ [1]!

ثمَّ أخذَ اللواءَ عبدُ الله بنُ رواحةَ وانطلقَ يرتجزُ قائلاً:

أقسمْتُ يـــا نفسُ لتَنزلَنَّه   لتنزلن أو لتُكْرَهِنّـــــه

إنْ أجلبَ النّاسُ وشدّوا الرّنّة   مالي أراكِ تكرهينَ الجنَّة

قد طالَ ما قد كنتِ مطمئّنّة   هل أنتِ إلا نطفةٌ في شنَّة

ولم يزلْ يقاتلُ حتّى قُتلَ رضيَ اللهُ عنهُ. ثمّ اتّفقَ النّاسُ على إمرةِ خالدٍ بنِ الوليدِ فأخذَ اللواءَ، وقاتلَ المشركين حتّى انهزمُوا، فانحازَ بجيشهِ حينئذٍ عائداً إلى المدينة".

روى البخاريّ عنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النّبيَّ ﷺ نعى زيداً وجعفرَ وابنَ رواحةَ للنّاسِ قبلَ أنْ يأتيهم خبرُهم، فقالَ:" أخذَ الرّايةَ زيدٌ فأُصيبَ، ثمّ أخذَ الرّايةَ جعفرُ فأُصيبَ، ثمّ أخذَ الرايةَ ابنُ رواحةَ فأصيبَ _وعيناهُ تذرفانِ_ حتّى أخذَ الرّايةَ سيفٌ منْ سيوفِ الله، حتّى فتحَ اللهُ عليهم.

وهذا الحديثُ يدلُّ كما ترى على أنَّ اللهَ أيّدَ المسلمينَ بالنّصرِ أخيراً، وليسَ كما

[1] – رواهُ البخاريّ.

قالَ بعضُ رواةِ السِّيرةِ أنّ المسلمينَ انهزمُوا وتفرّقُوا، وعادُوا بعدَ ذلكَ إلى المدينةِ. ولعلّ مقصودُ الّذينَ قالُوا هذا، أنَّ المسلِمينَ لم يتبعُوا الرّومَ ومَنْ معهم في هزيمتِهم، واكتَفوا بانكشافِهم عن مواقعِهم، خوفاً على المسلِمين، وانقلبُوا عائدين إلى المدينةِ، ولا شكَّ أنه تدبيرٌ حكيمٌ منْ خالدٍ بنِ الوليدِ، رضيَ اللهُ عنهُ.

قالَ ابنُ حجرٍ: وقعَ في المغازي لموسى بنِ عقبةَ ـ وهي أصحُّ المغازي ـ قولُهُ: "ثمَّ أخذَهُ (يعني اللواءَ) عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ فقُتلَ، ثمَّ اصطلحَ المسلمون على خالدٍ بنِ الوليدِ، فهزمَ اللهُ العدوَّ وأظهرَ المسلمينَ". قال العمادُ بنُ كثيرٍ: "ويمكنُ الجمعُ بأنّ خالداً حازَ المسلمين وباتَ، ثمّ أصبحَ وقد غيّرَ هيأةَ المعسكرِ فجعلَ الميمنةَ ميسرةً والميسرةَ ميمنةً، ليتوهّمِ العدوُّ أنَّ مَدَداً قد جاءَ المسلمين. فحملَ عليهم خالداً فولَّوا فلم يتبعْهم ورأى الرّجوعَ بالمسلمينَ هي الغنيمةُ الكبرى[1]. ولمّا دنَوا مِنَ المدينةِ، تلقّاهم رسولُ اللهِ ﷺ ولقيَهم الصّبيانُ يسرعون، فقالَ: خذُوا الصّبيانَ فاحملُوهم، وأعطُوني ابنَ جعفرَ! .فأُتيَ بعبدِ اللهِ فأخذَهُ فحملَهُ بينَ يديهِ.. وجعلَ النّاسُ يصيحون بالجيشِ: يا فرّار، فررْتم في سبيلِ اللهِ.. فيقولُ رسولُ اللهِ

[1] – انظرْ فتحَ الباري: ٧/٣٦١ و ٣٦٢

ﷺ: ليسُوا بالفرّارِ، ولكنّهم الكُرّارُ إنْ شاءَ اللهُ".

كانَ عددُ المسلمِينَ لا يتجاوزُ ثلاثةَ آلاف[1] . . .

لكأنَّ الصّورةَ بدا ألُمها أمامَ ناظرَيّ. فهناكَ عددٌ قليلٌ ينتصرُ على الكثرةِ الغالبةِ وهُنا نسبةُ عددِ المسلمِينَ إلى عددِ الرّومِ نسبةٌ لا يمكنُ تصوّرُها، ثلاثةُ آلافٍ إلى أكثرَ منْ مئتَي ألفٍ...! نقطة صغيرة وسط بحر...! بأيّ قلب قاتل المسلمون أمامَ هذهِ الجحافلِ؟ وبأيِّ قوّةٍ انتصرُوا وقُذفَ في قلوبِ الرّومِ الرّعبُ؟

إنّهُ قلبٌ متّصلٌ بخالقِهِ، امتلأَ إيماناً وتسليماً وثقةً باللهِ ... وإنّها قوّةٌ استمُدّتْ عزيمتُها وصلابتُها مِنَ الخالقِ العظيمِ الذي بيدِهِ كلُّ شيءٍ الذي بيدِهِ قلبُ الموازين ووضعُ نواميسَ حربٍ جديدةٍ، فالنّصرُ ليسَ في صفِّ مَنْ يملكُ الدّهاءَ والحكمةَ والخبرةَ الأكثرَ في الحربِ... فالواقعُ والعلمُ في علمِ الحربِ لا يشيرُ إلى إمكانيّةِ النّصرِ بتاتاً... لكنَّ علمَ اللهِ وقانونَهُ الغالبُ يقلبُ هذهِ المفاهيمَ والعلومَ رأساً على عقب.. فالّذي دبَّ الرّعبَ فيهِ ليس القلّةُ إنّما الكثرة!

[1] طبقاتُ ابنِ سعدٍ: ١٧٥/٢ وسيرةُ ابنِ هشامٍ ٣٧٥/٢

إذاً.. قانونُ النّصرِ الإلهيّ لا يتطلّبُ العددَ والعدّةَ يطلبُ فقط (مااستطعْتُم)، وما دمتُم قد قدّمتُم كلَّ ما تستطيعُون فأقدمُوا، وثقُوا باللهِ ولا تخافُوا ولا تحزنُوا. إنّما النّصرُ مِنْ عندِ اللهِ العزيزِ الحكيمِ... هذا هو درسُ مؤتةَ.

إنَّ إنزالَ قوانينِ اللهِ و سنتَّهُ مع عبادِهِ منْ نزعٍ للملكِ أو تمكينٍ، نصرٍ أو هزيمةٍ، تكريمٍ أو تقريعٍ، تأديبٍ أو ترفيعٍ.. هذهِ القوانينُ الّتي نراها في القرآنِ و ترجمتْها سيرةُ رسولِ اللهِ عملاً و أثراً يُرى بالعينِ، إنّ إنزالَها منزلَ العقيدةِ في القلبِ والعقلِ هي أهمُّ الأسُسِ الّتي يجبُ أنْ نبنيَ عليها دولةَ الإسلامِ في قلوبِنا و مجتمعِنا.

حقاً لابدَّ أنْ أعودَ إلى القرآنِ الكريمِ تدبُّراً وفهماً، و تتبُّعاً لهذهِ القوانينِ حتّى أتيقّنَ أنّي بنيتُ بناءَ الإيمانِ في قلبي وفقَ قوانينِ اللهِ وسنّتِهِ في تصريفِ أفعالِهِ وأقدارِهِ، عندئذٍ أطمئنُّ حقّاً أنّي سأعيشُ سعيداً، لاتفتكُ بي مصيبةٌ أو تفتنني شدّةٌ كما عاشَ الصّحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم على هدىً ونورٍ، وطمأنينةً وسكينةً.

أمّا قولُ المسلمِينَ لهم: يا فُرّارُ فهم ليسُوا كذلكَ وإنّما سببُها فقط أنّهم لم يتتبّعُوا عدوّهمُ جيشَ الرُّومِ عند هروبهِ، حيثُ اكتفى سيّدُنا خالدٍ بالعودةِ إلى المدينةِ حفاظاً على هيبةِ المسلمِين في أفئدةِ الرّومِ.

وهذهِ أوّلُ معركةٍ يشتركُ فيها سيّدُنا خالدٌ بعدَ إسلامِهِ. و لم يُؤَمِّره

رسولُ اللهِ بلْ أمّرَ منْ سبقَهُ بالإيمـانِ، لأنَّ المعركـةَ معركـةُ إيمـانٍ ضـدَّ كفّارٍ والنّصرُ للمؤمنِينَ وللقلوبِ المتّصلةِ بخالقِها، وهو لا يزالُ جديـدَ عهدٍ بالإيمانِ، إلا أنّي لأتـذوقُ تماماً حـلاوةَ تلقيـبِ رسـولِ اللهِ ﷺ لسيدنا خالدٍ بأنّهُ سيفٌ مِـنْ سـيوفِ اللهِ..لا شـك أنّـه سـيفتحُ عهـداً جديداً لسيّدنا خالدٍ سيّما بعدَ رؤيتِهِ لفعلِ الإيمانِ في الجيوشِ في قانونٍ جديدٍ لم يعهّدْهُ منْ قبلُ، ولم يَخْبُرْهُ في حروبِهِ السّابقةِ!

إنّهُ قانونُ اللهِ وسنّتهُ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ ﴾[1]

[1] – سورةُ الفتحِ : ٢٣

فتحُ مكّةَ (رمضانُ السّنةِ الثّامنةِ للهجرةِ) :

وكانَ ذلكَ في شهرِ رمضانَ سنةَ ثمانٍ منْ هجرةِ النّبيّ ﷺ إلى المدينةِ .

وسببُها أنَّ أُناساً مِنْ بني بكرٍ، كلّمُوا أشرافَ قريشٍ في أنْ يعينُوهم على خزاعةَ بالرّجالِ و السّلاحِ، (وخزاعةُ كانَتْ قد دخلَتْ في عهدِ المسلمِينَ)، فأجابُوهم إلى ذلكَ، وخرجَ حشْدٌ مِنْ قريشٍ متنكّرينَ متنقّبينَ، فيهم صفوانُ بنُ أميّةَ وحويطبُ ابنُ عبدِ العزّى ومكرزٌ بنُ حفصٍ، فالتقَوا مع بني بكرٍ في مكانٍ اسمُهُ الوتيرُ، وبيّتُوا خزاعةَ ليلاً وهم مطمئّنون آمنونَ، فقتلُوا منهم عشرِينَ رجلاً. وعندئذٍ خرجَ عمروٌ بنُ سالمٍ الخزاعيّ في أربعينَ راكباً مِنْ خزاعةَ، فقدِمُوا على رسولِ اللهِ ﷺ يخبرونَه بما أصابَهم، فقامَ وهو يجرُّ رداءَه قائلاً: "لا نُصرْتُ إنْ لم أنصُرْ بني كعبٍ، ممّا أنصرُ منهُ نفسي"، وقالَ:" إنّ هذا السّحابَ ليُستهلُّ بنصرِ بني كعب"[1] .

وندمَتْ قريشٌ على ما بدرَ منها، فأرسلَتْ أبا سفيانَ بنَ حربٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ليجدّدَ الهدنةَ ويمادِدْها . وقدِمَ أبو سفيانَ على رسولِ اللهِ ﷺ فكلّمَهُ فلم يردَّ عليهِ شيئاً، فذهبَ إلى أبي بكرٍ فكلّمَهُ أنْ يكلّمَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ ،فقالَ:" ما أنا

[1] – روى ذلكَ ابنُ سعدٍ وابنُ إسحاقَ وهذا النّصّ منْ روايةِ ابنِ سعدٍ . قالَ ابنُ حجرٍ : ورواهُ البزّارُ والطّبرانيّ وموسى بنُ عقبةَ، وغيرِهم..

بفاعلٍ" ثمّ أتى عمرُ بنُ الخطّابِ فكلّمَهُ فقالَ:" أأنا أشفعُ لكم إلى رسولِ الله ﷺ؟ فو الله لو لم أجدْ إلا الذرّ لجاهدتُكم بهِ (والذرُّ صغارُ النّملِ)" . وانطلقَ أبو سفيانَ عائداً إلى مكّةَ خائباً، لم يأتِ بشيءٍ! . . وتجهّزَ رسولُ الله ﷺ وقد أخفى أمرَهُ، وقالَ:" اللّهمّ خذْ على أبصارِ قريشٍ فلا يرَوْني إلا بغتةً"[1] . ولمّا أجمعَ النّبيُّ ﷺ المسيرَ، كتبَ حاطبٌ بنُ أبي بلتعةَ إلى قريشٍ يحذّرُهم منْ غارةٍ عليهم مِنَ المسلمين. قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه: "فبعثّني رسولُ الله ﷺ أنا والزّبيرِ والمقدادُ، فقالَ: انطلقُوا حتّى تأتُوا (روضةَ خاخ)، فإنّ بها ظعينةً (امرأة) معها كتابٌ فخذُوه منها . قالَ: فانطلقْنا تعادى بنا خيلُنا، حتّى أتينا الروضةَ، فإذا نحنُ بالظّعينةِ. قلنا لها: أخرجي الكتابَ، قالتْ: ما معي كتابٌ. فقلْنا: لتُخرجنَّ الكتابَ أو لنلقَينّ الثيابَ. قالَ: فأخرجتْهُ مِنْ عِقاصِها[2] . فأتَيْنا بهِ رسولَ الله ﷺ، فإذا فيهِ: منْ حاطبِ بنِ أبي بلتعَةَ إلى ناسٍ بمكّةَ مِنَ المُشركين يخبرُهم ببعضِ أمرِ رسولِ الله ﷺ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: ياحاطبُ ما هذا؟ قالَ: يا رسولَ الله، لا تعجلْ عليَّ، إنّي كُنتُ امرءاً مُلصقاً في قريشٍ ـ أي كنتُ حليفاً لهم ولسْتُ منهم ـ

[1] – رواهُ ابنُ إسحاقَ وابنُ سعدٍ بألفاظٍ مُتقاربةٍ .

[2] – عقاص : خيط تشد بها أطراف « الذؤابة »، والذؤابة : هي شعر في مقدم الرأس. جمعها : عقص.

وكانَ مَنْ معكَ مِنَ المهاجرِين لهم قراباتٌ يحمُونَ أهليهم و أموالَهم، فأحببْتُ إذ فاتني ذلكَ مِنَ النّسبِ فيهم، أنْ أتّخذَ عندَهم يداً يحمُون قَرابتي، ولم أفعلْهُ ارتداداً عنْ ديني و لا رضاً بالكفرِ بعدَ الإسلامِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنّه قد صدَقكم، فقالَ عمرُ: يا رسولَ اللهِ دعْني أضربْ عنقَ هذا المنافقِ، فقالَ: إنّهُ قد شهدَ بدراً و مايدرِيْكَ لعلَّ اللهَ اطّلعَ على مَنْ شهدَ بدراً فقالَ: اعملُوا ما شئْتُم قد غفرْتُ لكم. فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ . . ﴾ إلى قولِهِ تعالى:﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ[1] ﴾[2]واستخلفَ رسولُ اللهِ ﷺ على المدينةِ كلثوماً بنَ حسينٍ، وخرجَ يومَ الأربعاءِ لعشرِ ليالٍ خلونَ منْ شهرِ رمضانَ بعدَ العصرِ، وأرسلَ ﷺ إلى مَنْ حولَهُ مِنَ العربِ: أسلمَ وغفارٍ ومزينةَ، وجهينةَ وغيرِهم، فالتقى كلُّهم في الظّهرانِ ـمكانٌ بين مكّةَ و المدينةَـ وقد بلغَ عددُ المسلمِينَ عشْرةُ آلافٍ. ولم تكنِ الأنباءُ قد وصلَتْ قريشاً بعدُ، ولكنّهم كانُوا يتوقّعون أمراً بسببِ فشلِ أبي سفيانَ فيما جاءَ بهِ إلى المدينةِ، فأرسلُوا أبا سفيانَ وحكيماً بنَ حزامٍ وبديلاً بنَ ورقاءَ

---

[1] – سورةُ الممتحنة : ١

[2] – متّفقٌ عليهِ واللّفظ للبخاريّ .

ليلتمسوا الخبرَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، فأقبلُوا يسيرونَ، حتّى دنَوا إلى مرِّ الظّهرانِ فإذا هم بنيرانٍ عظيمةٍ، فبينما همْ يتساءلُونَ فيما بينَهم عنْ هذهِ النّيرانِ، إذا رآهم أناسٌ منْ حرسِ رسولِ اللهِ ﷺ فأتَوا بهم رسولَ اللهِ ﷺ فأسلمَ أبو سفيانَ"[1] قالَ ابنُ إسحاقَ يروي عنِ العبّاسِ تفصيلَ إسلامِ أبي سفيانَ: "فلمّا أصبحَ، غدوْتُ بهِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فلمّا رآهُ رسولُ اللهِ ﷺ قالَ: ويحكَ يا أبا سفيانَ، ألم يأنِ لك أنْ تعلمَ أنّهُ لا إلهَ إلا اللهُ؟ قالَ : بأبي أنتَ وأمّي ما أحلمَكَ وأكرمَكَ وأوصلكَ! . . واللهِ لقد ظننْتُ أنْ لو كانَ معَ اللهِ إلهٌ غيرُهُ لقد أغنى عنّي شيئاً بعد . وقالَ: ويحَكَ يا أبا سفيانَ، ألم يأنِ لك أن تعلمَ أنّي رسولُ اللهِ؟ قالَ : بأبي أنتَ وأمّي ما أحلمَكَ وأكرمَكَ وأوصلَكَ ،أمّا هذهِ واللهِ، فإنَّ في النّفسِ منها حتّى الآنَ شيئاً . فقالَ له العباسُ: ويحكَ! . . أسلمْ واشهدْ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنّ محمّداً رسولُ اللهِ قبلَ أن تُضربَ عنقُكَ. قالَ: فشهدَ شهادةَ الحقّ فأسلمَ. قالَ العبّاسُ: فقلْتُ يا رسولَ اللهِ، إنّ أبا سفيانَ رجلٌ يحبُّ الفخرَ فاجعلْ له شيئاً،

[1] – إلى هُنا منْ روايةِ البخاريّ، وليس فيها كما ترى إشارةٌ إلى إسلامِ صاحبَيه أيضاً . والّذي ذكرهُ علماءُ السّيرةِ ،و في مُقدّمتِهم موسى بنُ عقبةَ، أنَّ بديلاً وحكيماً أسلما بمجرّدِ دخولِهما على رسولِ اللهِ ﷺ ،وتأخّرَ أبو سفيانَ بإسلامِه حتّى أصبحَ. فلذلكَ عنيَتْ روايةُ البخاريّ بذكرِ أبي سفيانَ وأهملَتْ ذكرَ صاحبيْهِ .

قالَ: نعم، مَنْ دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ، ومَنْ أغلقَ عليهِ بابَهُ فهو آمنٌ، و مَنْ دخلَ المسجدَ فهو آمنٌ. فلمّا أرادَ رسولُ اللهِ ﷺ المسيرَ مُقبلاً إلى مكّةَ، قالَ العباسُ: احبسْ أبا سفيانَ بمضيقِ الوادي حتّى تمرَّ بهِ جنودُ اللهِ فيراها قالَ: فخرجْتُ فحبستهُ عندَ مضيقِ الوادي حيثُ أمرني رسولُ اللهِ ﷺ أنْ أحبسَهُ، ومرَّتِ القبائلُ عليها راياتُها، كلّما مرّتْ قبيلةٌ، قالَ: ياعباسُ مَنْ هذهِ؟ فأقولُ: سليمٌ فيقولُ: مالي ولسليم؟.. وهكذا، حتّى مرَّ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ في كتيبةٍ فيها المهاجرون والأنصارُ، لا يرى منهم إلا الحدقَ مِنَ الحديدِ، فقالَ: سبحانَ اللهِ ياعبّاسُ، مَنْ هؤلاءِ؟ قلْتُ: هذا رسولُ اللهِ ﷺ في المهاجرين والأنصارِ!.. قالَ: ما لأحدٍ بهؤلاءِ قِبَلٌ ولا طاقةٌ، واللهِ يا أبا الفضلِ لقد أصبحَ ملكُ ابنِ أخيكَ الغداةَ عظيماً!.. فقالَ: يا أبا سفيانَ إنّها النّبوّةُ، قالَ: نعم إذاً"[١]. ثمّ قالَ لهُ العباسُ: "النجاةَ إلى قومِكَ!.. فأسرعَ أبو سفيانَ حتّى دخلَ مكّةَ قبلَ أنْ يصلَها رسولُ اللهِ، وصرخَ بأعلى صوتِهِ: يا معشرَ قريشٍ، هذا محمّدٌ قد جاءَكم فيما لا قِبَلَ لكم بهِ، فمَنْ دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ. فأقبلتْ عليهِ امرأتُه هندُ بنتُ

[١] – رواهُ ابنُ سعدٍ و ابنُ إسحاقَ وابنُ جريرٍ، وروى نحوَه البخاريّ، و الألفاظُ متقاربةٌ

عتبةَ، فأخذَتْ بشاربِهِ وهي تقولُ: اقتلوا الحُميْتَ الدّسمَ الأحمسَ، قُبّحَ مِنْ طليعةِ قومٍ! . فقالَ: ويلكُم لا تغرّنكم هذهِ مِنْ نفوسِكم، فإنّهُ قد جاءَكم ما لا قبلَ لكم بِهِ، فمنْ دخلَ بيتَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ. قالُوا: قاتلكَ اللهُ، وما تُغني عنّا دارُكَ؟ قالَ: ومَنْ أغلقَ عليهِ بابهُ فهو آمنٌ، و مَنْ دخلَ المسجدَ فهو آمنٌ. فتفرّقَ النّاسُ إلى دورِهم وإلى المسجدِ". [1]وبلغَ رسولَ اللهِ ﷺ أنّ سعداً بنَ عبادةَ قالَ لأبي سفيانَ عندما رآهُ في مضيقِ الوادي:" اليومَ يومُ الملحمةِ، اليومَ تُستحلُّ الكعبةُ، فلم يرضَ ﷺ بقولِهِ هذا، وقالَ: بلِ اليومَ يومُ الرّحمةِ، اليومَ يعظّمُ اللهُ الكعبةَ. وأمرَ قادةَ جيوشِهِ ألا يقاتلُوا إلا منْ قاتلَهم"[2]

إلا ستّةَ رجالٍ وأربعةَ نسوةٍ، أمرَ بقتلِهم حيثما وجدُوا، وهم: عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ وهبّارُ بنُ الأسودِ وعبدُ اللهِ بنُ سعدٍ بنِ أبي سرحٍ ومقيسُ بنُ صبابةَ الليثيّ والحويرثُ بنُ نُقَيْدٍ وعبدُ اللهِ بنُ هلالٍ وهندُ بنتُ عتبةَ وسارةُ مولاةُ عمرو بنُ هشامٍ وفرتنى وقرينة (وكانتا جاريتَين تتغنّيان دائماً بهجاءِ النّبيّ ﷺ)[3]، ودخلَ

[1] – ابنُ إسحاقَ

[2] – رواهُ البخاريّ وابنُ إسحاقَ وغيرُهما.

[3] – رواهُ ابنُ سعدٍ وابنُ إسحاقَ ، قالَ ابنُ حجرٍ : وقد جمعَتْ أسماءُ هؤلاءِ الرّجالِ السّتّةِ و النّسوةِ الأربعِ مِنْ متفرّقاتِ الأخبارِ .

النّبيّ ﷺ مكّةَ مِنْ أعلاها (كداء) وأمرَ خالداً بنَ الوليدِ أنْ يدخلَ بمَنْ معهُ منْ أسفلِها :(كدى) . فدخلَ المسلمون مكّةَ منْ حيثُ أمرَهم، ولم يجدْ أحدٌ منهم مقاومةً، إلا خالدٌ بنُ الوليدِ، فقد لقيَه جمعٌ مِنَ المشركِين فيهم عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ، وصفوانُ بنُ أميّةَ، فقاتلَهم خالدٌ فقتلَ منهم أربعةً و عشرين مِنْ قريشٍ، وأربعةَ نفرٍ مِنْ هذيلٍ ورأى رسولُ اللهِ ﷺ بارقةَ السّيوفِ من بعيدٍ، فأنكرَ ذلكَ، فقيلَ لهُ: إنّهُ خالدٌ قوتلَ فقاتلَ، فقالَ:" قضاءُ اللهِ خيرٌ"[1] .روى ابنُ إسحاقَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ أبي بكرٍ والحاكمِ عن أنسٍ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا انتهى إلى ذيْ طوى وقفَ على راحلتِهِ مُعْتجرا (متعمّما) بشقّةِ بردٍ حَبرَة، وإنّ رسولَ اللهِ ﷺ ليضعُ رأسَهُ تواضعاً للهِ حينَ رأى ما أكرمَهُ اللهُ بهِ مِنَ الفتحِ، حتّى إنّ عثنونهُ ليكادُ يمسُّ واسطةَ الرّحلِ.

وروى البخاريُّ عنْ معاويةَ بنِ قرةَ قالَ: سمعتُ عبدَ اللهِ بنَ مغفلٍ يقولُ:" رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يومَ فتحِ مكّةَ على ناقتِهِ وهو يقرأُ سورةَ الفتحِ، يرجّعُ، وقالَ: لولا أنْ يجتمعَ النّاسُ حولي لرجّعتُ كما رجّعَ. ودخلَ ﷺ مكّةَ متّجهاً إلى البيتِ، وحولَهُ

[1] – رواهُ ابنُ سعدٍ في الطّبقاتِ ، وروى ابنُ حجرٍ عنْ موسى بنِ عقبةَ نحوَهُ ، وفي سيرةِ ابنِ هشامٍ أنّ الذين قتلُوا منَ المشركِين ثلاثةَ عشرَ أو أربعةَ عشرَ. والحديثُ رواهُ البخاريّ باختصار، راجع فتح الباري : ٨/٨ و٩

ثلاثمئةٍ وستّون صنماً، فجعلَ يطعنُها الواحدةَ تلوَ الأخرى بعودٍ في يدِهِ، وهو يقولُ:" جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطلُ، جاءَ الحقُّ و ما يبدئُ الباطلُ وما يعيدُ"[١] . وكانَ في جوفِ البيتِ آلهةٌ أيضاً، فأبى أنْ يدخلَ وفيهِ الآلهةُ، وأمرَ بها فأُخرجَتْ وأُخرجَتْ صورٌ لإبراهيمَ وإسماعيلَ في أيديهما الأزلامُ. فقالَ النّبيُّ ﷺ:" قاتلَهم اللهُ لقد علمُوا ما استقسما بها قطُّ. ثمّ دخلَ البيتَ فكبّرَ في نواحي البيتِ وخرجَ ولم يصلِّ فيه"[٢]، وكانَ قد أمرَ ﷺ عثمانَ بنَ طلحةَ (وهو من حَجَبَةِ البيتِ) أنْ يأتيَهُ بالمفتاحِ، فجاءَهُ بهِ، ففتحَ البيتَ، ثمَّ دخلَ النّبيُّ ﷺ البيتَ، ثمَّ خرجَ فدعا عثمانَ بنَ طلحةَ فدفعَ إليه بالمفتاحِ، وقالَ لهُ: خذوها خالدةً مخلّدةً، إنّي لم أدفعْها إليكم (أي حجابةُ البيتِ)ولكنَّ اللهَ دفعَها إليكم ولا ينزعُها منكم إلا ظالمٌ. يشيرُ بقولِهِ هذا إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[٣].[٤]

وأمرَ رسولُ اللهِ بلالاً فصعدَ فوقَ ظهرِ الكعبةِ فأذّنَ للصلاةِ. وأقبلَ النّاسُ كلّهم

---

[١] – متّفقٌ عليه

[٢] –رواهُ البخاريّ وروى مسلمٌ أنّه ﷺ دخلَ البيتَ فصلّى فيه، وسنذكرُ تحقيقَ ذلكَ في التّعليقِ إنْ شاءَ اللهُ .

[٣] – سورةُ النّساءِ : ٥٨

[٤] – رواهُ الطّبرانيّ منْ مرسلِ الزّهريّ وابنِ أبي شيبةَ وابنِ إسحاقَ وانظرْ في فتحِ الباري ٨/ ١٤.

يدخلون في دينِ اللهِ أفواجاً .

قالَ ابنُ إسحاقَ: وأمسكَ النّبيُّ ﷺ بعضادتَي بابِ الكعبةِ وقدِ اجتمعَ النّاسُ مِنْ حولِهِ ما يعلمونَ ماذا يفعلُ بهم، فخطبَ فيهم قائلاً: "لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، صدقَ وعدَهُ ونصرَ عبدَهُ وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ، ألا كلُّ مأثرةٍ أو دمٍ أو مالٍ يُدّعى فهو تحتَ قدميَّ هاتَين، إلا سدانةَ البيتِ وسقايةَ الحاجّ. . يا معشرَ قريشٍ إنَّ اللهَ قد أذهبَ عنكمْ نخوةَ الجاهليّةِ وتعظّمَها بالآباءِ . النّاسُ منْ آدمَ، وآدمُ مِنْ ترابٍ، وتلا قولَهُ تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [١]، ثمّ قالَ: يا معشرَ قريشٍ، ما ترون أنّي فاعلٌ بكم؟ قالُوا: خيراً، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ. فقالَ: اذهبُوا فأنتمُ الطلقاءُ" [٢] .

وروى الشّيخانِ عنْ أبي شُريحٍ العدويّ أنّهُ ﷺ قالَ فيما خاطبَ بهِ النّاسَ يومَ الفتحِ: " إنَّ مكّةَ حرَّمَها اللهُ، ولمْ يحرِّمْها أناسٌ، ولا يحلُّ لامرئٍ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أنْ يسفكَ دماً أو يعضِدَ بها شجراً، فإنْ أحدٌ ترخّصَ لقتالِ رسولِ اللهِ ﷺ

[١] – سورةُ الحجراتِ : ١٣

[٢] – وروى نحوهُ ابنُ سعدٍ أيضاً في طبقاتِهِ

فيها ، فقولُوا له: إنّ اللهَ أذنَ لرسولِه و لم يأذنْ لكم، وإنّما أذنَ له فيهِ ساعةً مِنْ نهارٍ، وقد عادتْ حرمتُها اليومَ كحرمتِها بالأمسِ، وليبلغِ الشّاهدُ الغائبَ" . ثمّ إنَّ النّاسَ اجتمعُوا بمكّةَ لمبايعةِ رسولِ اللهِ ﷺ على السّمعِ والطّاعةِ للهِ ورسولِه، فلمّا فرغَ ﷺ منْ بيعةِ الرّجالِ بايعَ النّساءَ، واجتمعَ إليهِ نساءٌ منْ نساءِ قريشٍ، فيهنّ هندُ بنتُ عتبةَ متنقبةً متنكّرةً لما كانَ مِنْ صنيعِها بحمزةَ رضيَ اللهُ عنها ، فلمّا دنونَ منه ليبايعنه قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: تبايعنَني على ألاّ تشركْنَ باللهِ شيئاً ، فقالتْ هندُ: واللهِ إنّك لتأخذُ علينا أمراً ما أخذْتَهُ على الرّجالِ، وسنؤتيْكهُ، قالَ: ولا تسرِقْنَ. قالت : واللهِ إنْ كنتُ لأصيبُ من مالِ أبي سفيانَ الهنةَ والهنةَ[1]، وما أدري أكانَ ذلكَ حلاً لي أم لا؟ فقالَ أبو سفيانَ، وكانَ شاهداً لما تقولُ : أمّا ما أصبْتِ فيما مضى فأنتِ منهُ في حلٍّ. فقالَ ﷺ: وإنكِ لهندُ بنتُ عتبةَ؟ فقلت: أنا هندُ بنتُ عتبةَ، فاعفُ عمّا سلفَ عفا اللهُ عنكَ. قالَ: ولا تزنينّ، قالَتْ: وهل تزني الحرّةُ! قالَ: ولا تقتلْنَ أولادكنّ، قالت: قد ربيّناهم صغاراً وقتلتَهم يومَ بدرٍ كباراً ، فأنتَ وهم أعلمُ. فضحكَ عمرُ منْ قولها حتّى استغربَ. قالَ: ولا

[1] – و في رواية (والله إني لأصيب من أبي سفيان الهنات) ، و الهنات في المعجم :خصلات شرّ ، والهنة : ما يستقبح ذكره. أو الهنة بمعنى الشيء.

تأتِيْنَ ببهتانٍ تفترينهُ بينَ أيديكن وأرجلكن، فقالَتْ: واللهِ إنّ إيتانَ البهتانِ لقبيحٌ، ولبعضُ التّجاوزِ أمثل. قال: ولا تعصيْنني في معروفٍ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ لعمرَ: بايعهنّ واستغفرْ لهنّ رسولَ اللهِ، فبايعَهن عمرُ. وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ لا يصافحُ النّساءَ ولا يمسُّ امرأةً ولا تمسّهُ، إلا امرأةٌ أحلَّها اللهُ له"[1].

وروى البخاريّ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، قالَتْ:"كانَ النّبيُّ ﷺ يبايعُ النّساءَ بالكلامِ بهذهِ الآيةِ: لا يشركْنَ باللهِ شيئاً، قالتْ: وما مسّتْ يدُ رسولِ اللهِ ﷺ يدَ امرأةٍ إلا امرأةً يملكُها".

وروى مسلمٌ عن عائشةَ بنحوِه[2]. وأجارَتْ أمُّ هانئٍ بنتُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنها، يومَ الفتحِ، رجلاً مِنَ المشركِينَ، وكانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يريدُ قتلَهُ، قالَتْ: فجئْتُ إلى النّبيِّ ﷺ فوجدْتهُ يغتسلُ، وفاطمةُ بنتُهُ تسترهُ بثوبٍ، قالَتْ: فسلّمْتُ عليهِ، فقالَ: مَنْ هذهِ؟ فقلْتُ: أمُّ هانئٍ بنتُ أبي طالبٍ. فقالَ: مرحباً بأمِّ هانئٍ. فلمّا فرغَ مِنْ غِسلهِ قامَ فصلّى ثماني ركعاتٍ ملتحفاً ثوباً واحداً، ثمّ انصرفَ. فقلْتُ: يا رسولَ اللهِ، زعمَ ابنُ أمّي عليّ أنهُ قاتلَ رجُلاً أجرْتَه، فلانٌ:

---

[1] – رواهُ ابنُ إسحاقَ وابنُ جريرٍ

[2] – انظرْ البخاريّ : ٨/١٣٥ ومسلم ٦/ ٢٩

ابنُ هبيرةَ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ قد أجرْنا مَنْ أجرْتِ يا أمَّ هانئ"[١]، وأمّا أولئكَ النّفرُ الذينَ كانَ رسولُ اللهِ قد هدرَ دمَهم، فقد قُتلَ بعضُهم وأسلمَ الآخرون: قُتلَ الحويرثُ وعبدُ اللهِ بنُ خطلَ ومقيسُ بنُ حبابةَ، وقُتلَتْ إحدى الجاريتَين المغنّيتَين وأسلمَتِ الأُخرى. وشفعَ في عبدِ اللهِ بنِ أبي سرحٍ وحَسُنَ إسلامُهُ، وأسلمَ عكرمةُ، وهبّارُ وهندُ بنتُ عتبةَ. روى ابنُ هشامٍ أنّ فُضالةَ بنَ عميرٍ اللّيثيّ[٢] أرادَ قتلَ النّبيّ ﷺ وهو يطوفُ بالبيتِ عامَ الفتحِ، فلمّا دنا منهُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:" أَفُضالةُ؟ قالَ: نعم، فضالةُ يا رسولَ اللهِ، قالَ: ماذا كُنْتَ تُحدّثُ بهِ نفسَكَ؟ قالَ: لاشيء، كنتُ أذكرُ اللهَ. فضحكَ النّبيّ ﷺ ثمّ قالَ: استغفرِ اللهَ. ثمّ وضعَ يدَهُ على صدرِه فسكنَ قلبُهُ. فكانَ فضالةُ يقولُ : واللهِ ما رفعَ يدهُ عنْ صدري حتّى ما مِنْ خلقِ اللهِ شيءٌ أحبُّ إليَّ منهُ". ومرَّ فضالةُ عائداً إلى بيتِهِ بامرأةٍ كانَ يميلُ إليها ويتحدّثُ معها، فقالَتْ له هلمَّ إلى الحديثِ، فانبعثَ يقولُ:

قالتْ: هلـمَّ إلى الحديثِ فقلْتُ:لا ... يأبى عليَّ اللهُ والإسـلامُ

لـو مـا رأيتُ محمّـداً وقبيلـهُ ... بالفتحِ يومَ تكسّرِ الأصنـامِ

---

[١] متّفقٌ عليه

[٢] ذكرَ هذهِ القصّةَ ابنُ هشامٍ في سيرتهِ، وأوردَها ابنَ القيّم في زادِ المعادِ

لـرأيتِ دينَ اللهِ أَضـــــحى بيّنــاً   والشركُ يغشى وجهَهُ الإظلامُ

وأقامَ النّبيُّ ﷺ فيما رواهُ البخاريّ عنِ ابنِ عباسٍ ، تسعةَ عشَرَ يوماً يقصرُ فيها الصّلاةَ: يصلّي ركعتين.

بأبي أنتَ وأمّي يا رسـولَ اللهِ... أبعـدَ كـلِّ هـذا العنـادِ مِـنْ قـريشٍ، وكلِّ الإيذاءِ والقتالِ والمنعِ والصّدِّ عنْ مكّةَ... أبعدَ كـلِّ هـذا العَنَـتِ الّذي أصابَكَ وأصابَ المسلمينَ مِنْ تكبُّـرهم وعنـادِهم تصـفحُ عـنهم بعدَ أنْ أمكنكَ اللهُ منهم !...

أيُّ نصوعٍ للهدفِ! وأيُّ إخلاصٍ للرّسالةِ والمبدأِ! وأيّ بُعدٍ عن هوىً أو اقتصاصٍ للنفس!... صلّى اللهُ عليكَ وسلّمَ ... أيُّ صـفاءِ سـريرةٍ! ونقاوةِ قلبٍ! قلبكَ يا سيّدي يا رسولَ اللهِ!

أرادَ ﷺ أنْ يكونَ دخولُه إلى مكّةَ لا دمـاءَ فيـه، لـذلكَ أرادَ مبـاغتتَهم رغمَ خيانتِهم ونقضِهم للعهدِ!

ثمَّ تراهُ ﷺ يعفو عمّنْ أهـدرَ دمَـهُ ويقبـلُ إسـلامَهُ بكـلِّ بسـاطةٍ، بعـدَ ماضٍ مِنَ الكفرِ والإيذاءِ والعملِ على القضاءِ على الإسلامِ وأهلِهِ.

اذهبُوا فأنتمُ الطّلقاءُ!

لو دخلَ جنرالٌ بلدةً كانتْ عاتيةً وظالمةً بمثلِ هذا الدّخولِ المظفّرِ تُرى كيفَ سيفعلُ بأهلِ البلدةِ؟؟ وكيفَ ستكونُ هيْئَتهُ عندَ دخولهِ منتصراً!

لقد وضعَ ﷺ قوانينَ جديدةً في الحروبِ، ذلكَ لأنَّ أسبابَ الحربِ تختلفُ عندَ المسلمِينَ عمّنْ سواهم... فهم لا يقاتلون تعصّباً أو طلباً لدمٍ فائرٍ أو تشفّياً أو طمعاً في غنيمةٍ أو نهباً لخيراتِ الشّعوبِ مِنْ نفطٍ وغيرِها.

هم لا يقدمُون على الحربِ إلا لإزالةِ سلطةٍ غاشمةٍ منعتِ النّاسَ مِنْ سماعِ كلمةِ الحقِّ سِلْماً.. أمّا لو سمحتْ للدُّعاةِ أن يوصِلوا كلمةَ الحقِّ ولم تمارسْ أيَّ ضغطٍ على حريّةِ اعتناقِ الدّينِ والفكرِ، فلتظلّ على عرشِها كما تريدُ، فالحربُ عندَ المسلمِينَ آخرُ الدّواءِ ـ إذا لم تفلحِ الأدويةُ السّابقةُ ـ لذا فإنّ رسولَ اللهِ ﷺ يدخلُ مكّةَ متسربلاً بعبوديّتهِ للهِ عزَّ وجلَّ، شاكراً نعمةَ اللهِ وفضلَهُ، موقناً أنّ ما بهِ مِنْ نعمةٍ فمنْ فضلِ اللهِ وكرمِهِ... فما فتْحُ مكّةَ إلا بقدرةِ اللهِ.

إنّهُ يطبّقُ الدّرسَ عمليّاً أمامَ الصّحابةِ، يثبتُها في التّاريخِ ليعلمَ مَنْ بعدَهُ أنّ الفضلَ للهِ، وعلى القائدِ أنْ يستشعرَ عبوديّتَهُ لخالقِهِ ويعيدَ الفضلَ لأهلِهِ وهو في قمّةِ نشوةِ النّصرِ. وإنْ فقدَ المُسلمُ هذه الصّلةَ وهذا

الشّعورَ الصّحيحَ للقلبِ السّليمِ فلنْ يكونَ ذاكَ المسلمُ الذي بعبوديّتهِ يدحرُ جحافلَ العدوِّ، بلْ سيكونُ جبّاراً ومتكبّراً في الأرضِ، ويفقِدُ معها كلَّ قوّتهِ، لأنّهُ ببساطةٍ يكونُ قدِ انفصلَ عنْ مصدرِ قوّتهِ وعزّتهِ.

أمّا حادثةُ حاطبٍ بنِ أبي بلتعةَ، فقد أثارَتْ في نفسي معانيَ دقيقةً. فقد مررْتُ بأحداثٍ قريبةٍ منها أو تشبهُها في الجوهرِ .مررْتُ بأشخاصٍ ينتمون إلى مجتمعٍ إيمانيٍّ، فآلمتني صورٌ عديدةٌ لضعفِ النّفسِ وتزعزعٍ في المبادئِ والقيمِ، ربّما لأنّي رسمْتُ صوراً مثاليّةً فإذا بتلكَ الصّورِ تُخدشُ أو تنكسرُ.. وها أنا ذا في مجتمعِ رسولِ اللهِ ﷺ، وما أظنُّ أنَّ مجتمعاً في زمانٍ سيقاربُهُ في المستوى الإيمانيِّ والأخلاقيِّ، وإذا بي بصحابيٍّ حضرَ بدراً يقومُ بمثلِ هذا العملِ الّذي يُقاربُ الخيانةَ، وكأنّهُ جلَّ جلالُهُ أرادَ أنْ يُفهمَنا طبيعةَ البشرِ ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾[1].

لقد أرادَ سبحانهُ وتعالى أنْ تكتملَ النّظرةُ لدينا.. فلا نغالي في المثاليّةِ.. ولا نهبطُ إلى واقعٍ هزيلِ الأخلاقِ، بل أرادنا أنْ ننظرَ إلى النّاسِ والمجتمعِ بواقعيّةٍ. فلا يخيبُ أملُنا إنْ ضعفَ أحدٌ عن بلوغِ القيمِ

[1] – سورةُ النّساءِ : ٢٨

العُليا، بلْ نحنو عليـهِ ونمسـكُ بيـدهِ، ليعـودَ إلى الهـدفِ النّبيـلِ والقـيمِ الخالدةِ.

أرادنا جلَّ وعلا ألاّ نتعاملَ مع الأخطاءِ منْ علوّ، فكلُّ ابنِ آدمَ خطّـاءٌ وخيرُ الخطّائين التّوابون[1].

فكأنَّ هذهِ الحادثةُ جاءَتْ لتعلّمَنا نحن، سيّما أنّنـا عنـدما نقـرأُ السّـيرةَ الشّريفةَ ونـرى عظـيمَ فِعـالِ كبـارِ الصّـحابةِ. فقـد يخطـرُ في بالنـا أنَّ الجميعَ قد بلغَ المستوى الإيمانيِّ نفسَهُ، فتفاجئُنا مثلُ هذهِ الحوادثِ بينَ الحينِ والآخر، لنعلمَ أنّ طبيعةَ النّفوسِ واخـتلافَ درجـاتِ الإيمـانِ في المجتمـعِ الإسـلاميِّ أمـرٌ بـديهيّ، فتلـكَ هـي طبـائعُ النّـاسِ واخـتلافُ درجاتِهم.

ثمّ ينبّهنا إلى أنّهُ أمرٌ متوقّعٌ يجبُ الحرصُ منه، حتّى لا يتمكّنَ ضـعافُ النّفوسِ أو مَنْ ضَعُفَ إيمانُه أمـامَ محنـةٍ أنْ يؤثـّـر علـى إنجـازِ وأهـدافِ الجماعةِ الإسلاميّةِ، بل يجبُ أخذُ مبدأِ الحيطةِ دائماً.

أمّا خُطبتُهُ الشّريفةُ الأولى لأهلِ مكّةَ فهـي ترسـمُ أوّلَ مَعْلَـمٍ يجـبُ أنْ يُهدَمَ في حياةِ أهلِ مكّةَ؛ ألا وهوَ استعلاءُ طبقةٍ على طبقةٍ. وهو معلمٌ أساسيٌّ يجبُ أنْ يُرسَّخَ بشـكلٍ سـليمٍ وواضـحٍ في المجتمـعِ الإسـلاميِّ

[1] - " كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ " : سنن الترمذي، (٢٤٢٣)

الجديدِ، فلا امتيازاتٌ لطبقةٍ دونَ أخرى، تحقيقاً لمبدأ وقانونِ العدلِ الّذي بهِ قامتِ السّمواتُ والأرضُ ولأجلهِ أُرسلتِ الرّسلُ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾[١]، و ينبغي أن يكون هذا المبدأُ هو الأساسُ للبناءِ الإيمانيّ للفردِ والدّولةِ.

جاءَ ﷺ ليهزَّ الأذهانَ ويعيدَ تشكيلَ عقولِهم منْ جديدٍ، فأوضحَ ذلكَ بقوّةٍ: "إنّ اللهَ قد أذهبَ عنكم نخوةَ الجاهليّةِ وتعظّمَها بالآباءِ، النّاسُ منْ آدمَ وآدمُ مِنْ ترابٍ".

ثمّ أعادَ ﷺ لمكّةَ هيبتَها وحُرمتَها، ولعلّهُ ﷺ يراعي التدرّجَ في إيمانِ الإنسانِ وعافيتهِ مِنَ الأمراضِ الّتي تفتكُ بالقلبِ مثلِ العُجبِ وحبِّ الرّئاسةِ والمديحِ والتّفاخرِ. فقد أعطى لأبي سفيانَ ما يحبُّ منَ التّفاخرِ ليعينهُ على تقبُّلِ الدّينِ الجديدِ وهو حديثُ عهدٍ بهِ... (من دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ) رغمَ أنّ دارهُ لن تسعَ أهلَ مكّةَ، لكنّها مفخرةٌ لأبي سفيانَ، أنْ خصَّه رسولُ اللهِ بشيء.

إنّهُ تدرُّجٌ تربويٌّ وسيكتملُ درسُ أبي سفيانَ فيما بعدُ... وستتغيّرُ

[١] – سورةُ الحديدِ : ٢٥

طريقةُ تفكيرِهِ كلّما أوغلَ في الإسلامِ وعاينَ حقيقتَهُ، ورأى تطبيقاً عمليّاً لمبادئهِ السّاميةِ وقيَمِهِ النّبيلةِ مِنْ قِبَلِ الرّسولِ ﷺ وصحابتِهِ رضوانُ اللهِ عليهم أجمعين.

ولعلَّ كلمةَ العبّاسِ رضيَ اللهُ عنهُ: إنّها النبوّةُ، في الرّدِّ على قولِ أبي سفيانَ: "لقد أصبحَ ملكُ أخيكَ الغداةَ عظيماً"، لتسلّطَ الضّوءَ حتّى لا ينسى أحدٌ هذهِ الحقيقةَ، فليسَتْ قوّةُ المسلمين في ملكِهم وعتادِهم وهيمنتِهم، فهو ليسَ مُلكاً يسعَونَ إليه. فلم يسعَ النّبيُّ ﷺ إلى المُلكِ ولو كانَ كذلكَ لقبلَ بمفاوضاتِهم لهُ في مكّةَ قبلَ الهجرةِ. ألم يعطوهُ المُلكَ إذا أرادَ؟

لكنّها النبوّةُ! إنّها إظهارُ دينِ اللهِ وتبليغُ الرّسالةِ... هذهِ الحقيقةُ لا يجبُ أنْ تغيبَ عنِ الأذهانِ، وهيَ الّتي تميّزُ الجماعةَ المسلمةَ عنِ الأحزابِ السّياسيةِ أو المعارضةِ أو الثوريّةِ، فهي لا تسعى لملكٍ أبداً، فليستْ هذه غايتُها ولا وسيلتُها في نشرِ دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتبليغِهِ للنّاسِ.

أمّا إجارةُ أمِّ هانئٍ لمشركٍ أرادَ عليٌّ قتلَه، وإجارةُ النّبيّ ﷺ لهُ (قد أجرْنا مَنْ أجرْتَ) أي إنّها أجارَت لاجئاً أو محكوماً عليهِ بالإعدامِ، وهي امرأةٌ ليس لها منصبٌ في الدّولة... مجرّدُ مواطنةٍ... ألا فليلقي مدَّعو حقوقِ المرأةِ والمنافحِينَ عنها أوراقَهم ومحاضراتهم وندواتِهم

ومؤتمراتِهم في سلّةِ المُهملاتِ، فلن يبلغُوا في مطالبِهم هذا الحقَّ الذي أعطاهُ رسولُ الرّحمةِ ﷺ للمرأةِ دونَ عناءٍ أو احتجاجٍ أو مظاهرةٍ!

ثمّ تذكّرْتُ أنّهُ ﷺ دخلَ مكّةَ وهو يقرأُ سورةَ الفتحِ، فتناولتُ مصحفي وبدأْتْ يداي تبحثُ عنها، ثمَّ بدأتُ قراءَتها بتمعّنٍ وبصوتٍ خافتٍ (إنّا فتحْنا لكَ فتحاً مُبيناً) .. وقفْتُ ثمّ أعدْتُ قراءَتَها مِنْ جديدٍ (إنّا) تملّكَني شعورٌ غريبٌ! لم أستطعْ أنْ أتجاوزَها.. (إنّا) ..جلَّ جلالكَ يا اللهُ ... انتابتْني خشيةٌ واستشعارٌ لعظمةِ اللهِ فبكيتُ و بكيتُ ... و بصوتٍ متهدّجٍ ناديْتُ : يا اللهُ افتحْ مغاليقَ قلبي كي يبصرَ النّورَ المستمدّ منكَ.. ذاكَ النّورُ الّذي رآهُ حبيبُكَ المُصطفى ﷺ فغدا إمامَ العاشقِينَ والمُحبّينَ، تسربلَ بمقامِ عبوديّةِ حبّكَ، فرسمَ بخطواتهِ وأفعالهِ سلوكاً يصعبُ تتبُّعهُ إلا مَنِ ارتشفَ منَ الكأسِ ذاتهِ.. كأسِ محبَّتكَ حتّى ارتوى قلبُهُ بمدامِ حبّكَ. شعورٌ غريبٌ سرى في قلبي وصدري.. شعورٌ لم أعتدْهُ مِنْ قبلُ. ما أحلاهُ مِنْ شعورٍ.. إنّهُ الّذي أنتظرُهُ.. شعورُ قلبٍ أُحيِيَ مِنْ جديدٍ. فالمضغةَ الّتي كانَتْ تنبضُ لتضخَّ الدّمَ تضخُّ الحبَّ الآنَ.. حبّاً أستشعرُ مرورَهُ في شراييني. ما أرحمَكَ يا اللهُ بعبادِك.

كنْتُ بعيداً .. أتحرّكُ كالآلةِ الصّماءِ، أو الصّخرةِ الصّلدةِ الّتي لا يؤثّرُ

فيها شيءٌ، كنْتُ كالجبالِ في قسوةِ قلبي أو لعلّهُ أشدُّ، ثمّ ما كانَ منكَ إلا أنْ تغمّدتني برحمتِكَ عندَما قصدتكَ بإخلاصٍ.

سبحانكَ ما أبعدَنا عنكَ بقلّةِ إخلاصِنا وصدقِنا في طلبِكَ، و ما أقربَكَ منّا عندما نُقبلُ بقلوبِنا إليكَ. إلهي وسيّدي ومولايَ زدْني بكَ حُبّاً ولا تحرمْني، فهذهِ رشفةٌ مِنْ كأسِ حبّكَ فعلَتْ بي هذا! فكيفَ لو تخلّلَ حُبُّكَ كلَّ خليّةٍ بي فغدَتْ قلباً ينبِضُ بحبّكَ!

كنتُ أستهزئُ أو أستغربُ كلامَ العشّاقِ وشعراءِ الحبِّ الإلهيّ، وأحسُبُ كلّ شيءٍ بالعقلِ والقلمِ !

ما أبعدني عنِ الفهمِ وقتَذاكَ !!! كم كنْتُ بعيداً عنكَ!!

ما ألطفَكَ وما أكرمَك وما أبهى عطاءَكَ وما أجملَ صفاتِكَ!

لا أدري كم مِنَ الوقتِ مضى وأنا أسبحُ في ملكوتٍ مختلفٍ، وتفيضُ بيَ العبراتُ والابتهالاتُ ومعاني الحُبِّ الدّفّاقةُ. إلا أنّي ازدَدتُ تصميماً على إكمالِ الكتاب. فعدتُ إليه، أجولُ بنظري إلى الأحداثِ إلى أنْ وقعتُ على مبايعةِ رسولِ اللهِ ﷺ النّساءَ.. فلم يكتفِ ﷺ ببيعتِهِ للرجالِ، و لم يجعل الرّجلَ ينوبُ عن امرأتهِ في ذلك، بلْ خصَّ النّساءَ بالبيعةِ فكلّ امرأةٍ يجبُ أنْ تبايعَ.

لماذا ؟ ما معنى البيعة ؟ ولماذا لم يبايعِ الرّجلَ عنْها ؟

البيعةُ تمثّلُ العهدَ أو الميثاقَ الّذي يتعهّدُ الشّخصُ الالتزامَ بهِ مدى

الحياةِ، وسيكونُ هذا الشّخصُ مسؤولاً عنهُ يوم القيامةِ أمامَ الخالقِ الباري.

لذا فالعهدُ يجبُ أنْ يبرمَهُ صاحبُهُ، لأنّهُ هو المسؤولُ الوحيدُ عنْ تنفيذهِ والوفاءِ بهِ. وهو الدّينُ الذي يبنيهِ الإنسانُ في علاقتِهِ معَ ربّهِ عزَّ وجلَّ. وكلُّ إنسان – ذكرٍ أو أنثى– مسؤولٌ عنْ هذا الدّينِ وهذا العهدِ، فعلى كلٍّ منهما أنْ يسعى في تمتينِ هذا الدّينِ والوفاءِ بالبيعةِ. فالمرأةُ مسؤولةٌ عن دينِها كيفَ تزيدُ في إيمانِها؟ وتبني صلتَها بخالقِها وتزدادَ قرباً منهُ... فعليها تقعُ مسؤوليةُ تعلّمِ شؤونِ دينِها وتسلكُ كلَّ السّبلِ الممكنةِ للتّزوّدِ بالعلومِ الدينيّةِ والدنيويّةِ الّتي تبعدُها عنْ مكامنِ الكيدِ وأساليبِهِ لدى أعداءِ الإسلامِ الذينَ يتربّصون بهِ. ولتتمكنَ عندئذٍ من الوفاءِ بالعهدِ وتنفيذِ البيعةِ، ومنْ صورةِ مبايعتهِ ﷺ نلمحُ صورةَ الاختلاطِ المسموحِ بهِ.

فرؤيةُ المرأةِ الأجنبيةِ للرّجلِ ليستْ بعورةٍ وكذلكَ صوتُها، على ألا تخضعَ بالقولِ فتليّن كلامَها، أو تجعلَ فيه من الدّلالِ واللّحنِ ما يفسدُ عليها دينَها.

لم تمسَّ يدُ رسولِ اللهِ ﷺ يدَ امرأةٍ أجنبيّةٍ لا تحلُّ له، فمِنَ الأولى ألاّ تصافحَ المرأةُ الرّجلَ. حتّى إذا تعاملَ الرّجلُ مع المرأةِ في ظروفِ دراسةٍ أو عملٍ أو مؤسّسةٍ حكوميّةٍ أو ما شابهَ مِنْ أوجهِ الاضطرارِ،

تكونُ طاهرةً لا غايةَ منها سوى إتمامِ تلكَ المَهمّةِ دونَ الخروجِ إلى معانٍ هي في غنىً عنها... عندئذٍ يحترمُها الرّجلُ إذا تكلّمَتْ لعقلِها ولا يطمعُ فيها لجمالٍ أو صوتٍ أو مطمعٍ آخرَ. عندَها فقط تكونُ المرأةُ محترمةً لذاتِها، وهذا أقدرُ لها وأفضلُ. فالإسلامُ عندما يضعُ هذهِ الضوابطَ في كلامِ المرأةِ مع الرّجلِ، أو يضيّقُ أوجهَ الاختلاطِ، فإنّهُ يريدُ للمرأةِ العلوَّ والرّفعةَ والنّزاهةَ في التّعاملِ، فإنْ كانتْ في مكانٍ للتّداولِ في علمٍ وعقلٍ، فحشمتُها والتزامُها بالضّوابطِ الشّرعيّةِ يجعلُ الرّجلَ لا يفكّرُ إلا فيما تطرحُهُ مِنْ علمٍ وأفكارٍ دونَ أنْ يلفتَ انتباهَهُ ما يشوّشُ هذه النّديّةُ في مناقشةِ العقلِ والفكرِ بعيداً عن شهوةٍ أو مطمعٍ. فيسودُ جوُّ الاحترامِ المتبادَلِ الذي تطمحُ إليه كلُّ عاقلةٍ راشدةٍ تطرحُ فكراً وعقلاً. وهذا ما كفلهُ لها الإسلامُ عند التزامِها بالضّوابطِ الشّرعيّةِ.

أفقْتُ مِنْ تلكَ المعاني على صوتِ أخي الّذي بدا مستغرباً: لم تنمْ ؟!

نظرْتُ إليهِ بابتسامةٍ: لا.

بادرَني بالسّؤالِ: لماذا؟ ولِمَ لم تذهبْ معنا للسّلامِ على رسولِ اللهِ ﷺ بعدَ صلاةِ الفجرِ؟ ألا تريدُ أنْ تسلِّمَ على رسولِ اللهِ ﷺ.

اغرورقَتْ عيناي بالدّموعِ ثمّ أردفْتُ قائِلاً: نعمْ.. أريدُ أنْ أسلّمَ عليهِ

لكنّي قطعْتُ عهداً على نفسي ألا أسلّمَ عليهِ إلا بعدَ أنْ أنهيَ قراءةَ سيرتهِ الشّريفةِ.

آهِ لو تعلمُ يا عمرُ ماذا أحدثَتْ سيرتُهُ الشّريفةُ في نفسي منذُ البارحةِ حتّى اليومَ، كنْتُ لا أعرفُه.... لا أحسُّ بصِلتي بهِ... أعلمُ أنّهُ الرّسولُ وأؤمنُ بنبوّتهِ لكنْ لا علاقةَ قلبيّةً تربطُني بهِ فإنْ صلّيتُ عليهِ لم يخالجْني أيُّ شعورٍ... أيُّ شعورٍ... لا شيءَ البتّة...

أمّا الآنَ فالأمرُ قد تغيّرَ كثيراً... وكأنّي بُدّلتُ شخصاً آخرَ، أريدُ أنْ يعرفَني ﷺ بهذا الشّخصِ الجديدِ، لا هيئةَ الشّخصِ الذي كانَ يسافرُ بالطّائرةِ إلى المدينةِ وهو لا يعلمُ أصلاً سبباً لسفرِهِ سوى مرافقةِ أهلِهِ!

الآنَ فقط يا عمرُ أحسسْتُ أنَّ لي قلباً يشتاقُ للحبيبِ المُصطفى ﷺ.. الآنَ فقط يمكنُ أنْ أقولَ: إنّي أعرفُ رسولي، بلْ وأحبّهُ، وأشتاقُ للقياهُ.

- هيّا إذاً.. قالَها أخي بحنوّ وقد دمعَتْ عيناه.

- ليسَ بعدُ يا عمرُ بقيَ القليلُ مِنْ سيرتِهِ ﷺ، لقد عاهدتُ نفسي وأنا الآنَ أعي تماماً ما معنى العهدِ وما معنى البيعةِ، أريدُ أنْ أكونَ أهلاً لمبايعتِهِ ﷺ في أوّلِ لقاءٍ لي معه.

-انتظرْ قليلاً ربّما أستطيعُ بعدَ صلاةِ العصرِ أن أُنهيَ سيرَتَهُ الشّريفةَ وأكونَ أهلاً للمبايعةِ.

- ألا تريدُ أنْ تأكلَ؟

سألني عمرُ وملامحُ الحنانِ والحبِّ باديةٌ على وجههِ.

- لا .. أريدُ أنْ أفيَ بوعدي ولا أريدُ أنْ أؤخرَ اللقاءَ إلى غدٍ.. أنا مشتاق...

همهمَ عمرُ بكلماتٍ لم أسمعْها لكنّي أظنّهُ قد دعا لي. فقد رأيْتُ ابتسامةَ رضاً لم أعهدْها منه .

عدتُ فوراً إلى الكتابِ... أسابقُ الزّمنَ.

غزوةُ حُنين (شوالُ السّنةِ الثّامنةِ للهجرةِ) :

سببُها أنّ اللهَ جلّ جلالُهُ، حينما فتحَ على رسولِهِ مكّةَ، ودانَتْ له قريشٌ بعدَ بغيِها وعدوانِها ، مشَتْ أشرافُ هوزانَ وثقيفٍ بعضُها إلى بعض، وقد توغّرت صدورُهم للنّصر الذي آتاهُ اللهُ رسولَهُ والمؤمنين. فحشدُوا حشودًا كبيرةً ، وجمعَ أمرُهم مالكٌ بنُ عوفٍ سيّدُ هوزانَ، وأمرَهم فجاؤوا معهم بأموالِهم ونسائِهم وأبنائِهم، حتّى نزلوا بأوطاسَ (مكانٌ بينَ مكّةَ و الطّائف) وإنّما أمرَهم بذلكَ حتّى يجدَ كلٌّ منهم ما يحبسُهُ عنِ الفرارِ، وهو الدّفاعُ عنِ الأهلِ والمالِ والولدِ ! . . وأجمعُوا المسيرَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ . فخرجَ إليهم ﷺ لستّ ليالٍ خلونَ منْ شوّالَ[1] في اثنَي عشرَ ألفاً منَ المسلمِينَ، عشَرةُ آلافٍ منْ أهلِ المدينةِ، وألفين منْ أهلِ مكّةَ[2] . وبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ عبدَ اللهِ بنَ أبي حدردَ الأسلميّ ليذهبَ فيدخلَ بينَ المشركِينَ ويقيمَ فيهم ويعلمَ أخبارَهم ثمّ يعودُ بذلكَ إليهِ ﷺ . فانطلقَ حتّى دخلَ بينَهم وطافَ بمعسكرِهم ثمّ جاءَهُ بخبرِهم . وكانَ قد ذُكرَ لرسولِ اللهِ ﷺ أنّ عندَ صفوانَ بنَ أميّةَ أدراعاً وأسلحةً، فأرسلَ إليهِ ـ وهو يومئذٍ مشركٌ ـ فطلبَ

---

[1] – طبقاتُ ابنِ سعدٍ :٤/٢٠٠

[2] – طبقاتُ ابنِ سعدٍ :٤/٣٠٠ وسيرةُ ابنِ هشامٍ

منهُ تلكَ الدّروعِ و الأسلحةِ. فقالَ صفوانُ: أغصبًا يا محمّدُ؟!..

قالَ: بلْ عاريةً، وهي مضمونةٌ حتّى نؤدّيها إليكَ. فأعطاهُ مئةَ درعٍ بما يكفيْها مِنَ السّلاحِ"[1]. وعلمَ مالكٌ بنُ عوفٍ بمقدمِ الرّسولِ ﷺفعبّأَ أصحابَهُ في واديْ حُنينٍ، وانتشروا يكمُنون في أنحائِهِ، وأوعزَ إليهم أنْ يحملُوا على محمّدٍ ﷺ وأصحابِهِ، حملةً واحدةً. ووصلَ المسلمون إلى وادي حُنينٍ، فانحدرُوا فيه في غبشِ الصّبحِ، فما راعهم إلا الكتائبُ خرجَتْ إليهم منْ مضايقِ الوادي وشعبِهِ، وقد حملُوا حملةً واحدةً على المسلمينَ، فانكشفتِ الخيولُ وانشمرَ النّاسُ راجعين لا يلويْ أحدٌ منهم على آخرَ. وانحازَ رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ اليمينِ، ثمّ نادى في النّاسِ:" إليَّ يا عبادَ اللهِ، أنا النّبيُّ لا كذبْ، أنا ابنُ عبدِ المطّلب". روى مسلمٌ عنِ العبّاسِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ:" شهدتُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ يومَ حُنينٍ، فلزمتُه أنا وأبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ المطلبِ ولم نفارقْهُ، وهو على بغلةٍ له بيضاءَ، فلمّا التقى المسلمونَ والكفارُ ولّى المسلمون مدبرين، فطفقَ رسولُ اللهِ ﷺ يركضُ بغلته قبلَ الكفارِ. قالَ العبّاسُ: وأنا آخذٌ بلجامِ بغلةِ رسولِ اللهِ ﷺ أكفّها، إرادةَ ألّا تسرعَ، وأبو

[1] – رواهُ ابنُ اسحاقَ بسندٍ صحيحٍ ، ورواهُ عنْ طريقهِ ابنُ جريرٍ وابنُ سيّدِ النّاسِ

سفيانَ آخذٌ بركابِ رسولِ الله ﷺ فقالَ ﷺ :نادِ أصحابَ السّمُرة[1] (وكانَ رجلاً صيّتاً) فقلتُ بأعلى صوتي يا أصحابَ السّمُرة، قالَ: فو الله لكأنَّ عطْفتهم حينَ سمعُوا صوتي عطفةُ البقرِ على أولادِها، فقالُوا: يا لبّيكَ، يا لبّيكَ. . وأقبلوا يقتتِلون معَ الكفارِ، وكانَ النداءُ: يا للأنصارِ، وأشرفَ رسولُ الله ﷺ ينظرُ إلى قتالِهم قائلاً: الآنَ حميَ الوطيسُ. ثمَّ أخذَ حصيّاتٍ مِنَ الأرض فرمى بهنَّ وجوهَ الكفّارِ، ثمّ قالَ: انهزمُوا وربّ محمّدٍ"[2]. وقذفَ اللهُ في قلوبِ المشركينَ الرّعبَ، فانهزمُوا لا يلوي واحدٌ منهم على أحدٍ، واتّبعَ المسلمُون أقفاءَهم يقتلونَ ويأسِرونَ، فما رجعَ الناسُ إلا والأسرى مجندلةٌ بينَ يديْ رسولِ الله ﷺ. وفي هذهِ الغزوةِ أعلنَ رسولُ الله ﷺ قائلاً: "من قتلَ قتيلاً له عليهِ بيّنة فله سلبُهُ"[3]، فروى ابنُ إسحاقَ وغيرِه عن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ، قالَ: لقد استلبَ أبو طلحةَ يومَ حُنينٍ عشرين رجلاً وحدَهُ، هو قتلَهم. وروى ابنُ إسحاقَ وابنُ سعدٍ بسندٍ صحيحٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ التفتَ فرأى أمَّ سليمٍ بنتَ ملحانَ، وكانَتْ معَ زوجِها

[1] – هي الشّجرةُ التي كانتْ عندَها بيعةُ الرّضوانِ عامَ الحديبيةِ.

[2] – رواهُ مسلمٌ وروى نحوَه باختصارِ البخاريّ أيضاً، وترويهِ بتفصيلٍ كلُّ كتبِ السّيرةِ .

[3] – متّفقٌ عليه

أبي طلحةَ، فقالَ لها: رسولُ اللهِ ﷺ:" أمّ سليم!.. قالَتْ: نعمْ بأبي أنتَ وأمّي يارسولَ الله، أقتلُ هؤلاءِ الذين ينهزمُون عنكَ كما تقتلُ الّذينَ يقاتلونَك؟_ وكانَ معها خنجرٌ_ فقالَ لها أبو طلحةَ: ما هذا الخنجرُ معكِ يا أمَّ سليمٍ؟ قالَتْ: خنجرٌ أخذتُهُ إنْ دنا منّي أحدٌ مِنَ المشركِين بعجْتُهُ بهِ". ومرَّ رسولُ الله ﷺ بامرأةٍ وقد قتلَها خالدٌ بنُ الوليدِ، والنّاسُ مجتمعون عليها، فقالَ ما هذا؟ قالُوا امرأةٌ قتلها خالدٌ بنُ الوليدِ. فقالَ رسولُ الله ﷺ لبعضِ مَنْ معهُ: أدركْ خالداً فقُلْ لهُ إنّ رسولَ اللهِ ينهاكَ أنْ تقتلَ وليداً أو امرأةً أو عسيفاً"[1]. و فرَّ مالكٌ بنُ عوفٍ ومَنْ معهُ مِنْ رجالاتِ قومِهِ حتّى وصلُوا إلى الطّائفِ، فامتنعُوا بحصنِها، وقد تركُوا وراءَهم مغانمَ كثيرةً. "وأمرَ رسولُ الله ﷺ بالغنائمِ كلّها فحُبسَتْ في الجعرانةِ، وجعلَ عليها مسعوداً بنَ عمرو الغفاريّ، واتّجهَ ﷺ بمَنْ معهُ إلى الطّائفِ فحاصرُوها، وأخذَتْ ثقيفٌ تقذفُ المسلمِينَ مِنْ حصونِها بالنّبالِ، فقُتِلَ بذلكَ ناسٌ منهم، وظلَّ رسولُ الله ﷺ في حصارِهِ للطائفِ بضعةَ عشَرَ يوماً، وقيلَ بضعةً وعشرين يوماً، ثمَّ بدا لهُ أنْ يرتحلَ. روى عبدُ اللهِ بنُ عمروٍ أنّهُ ﷺ أعلنَ في

[1] – أخرجهُ أبو داودَ وابنُ ماجه، وروى الشّيخان بمعناهُ، و العسيفُ: الأجيرُ و العبدُ

أصحابِهِ: إنّا قافلون إنْ شاءَ اللهُ، فقالَ بعضُ أصحابِهِ: نرجعُ ولم نفتحْهُ؟ فقالَ لهم: اغُدوا على القتالِ- أي فقاتلوا إنْ شئْتم - فغدَوا عليهِ، فأصابَهم جراحٌ فقالَ لهم رسولُ اللهِ ﷺ : إنّا قافلون غداً، فأعجبَهم ذلكَ، فضحكَ رسولُ اللهِ ﷺ"[1] . ولمّا قفلَ رسولُ اللهِ ﷺ عائداً، قالَ لأصحابِهِ: قولوا" آيبونَ، تائبون، عابدون، لربّنا حامدون"، وقالَ لهُ بعضُ الصّحابةِ: يا رسولَ اللهِ ادعُ اللهَ على ثقيفٍ، فقالَ: "اللهمّ اهدِ ثقيفاً وأْتِ بهم"[2]. قلتُ: وقد هدى اللهُ ثقيفاً بعدَ ذلكَ بقليلٍ، فقد جاءَ وفدُهم إلى رسولِ اللهِ ﷺ بالمدينةِ لإعلانِ إسلامِهم.

أمرُ الغنائمِ وكيفيّةُ تقسيمِ رسولِ اللهِ لها:

وعادَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى الجعرانةِ، وفيها السّبيُ والغنائمُ الّتي أُخذَتْ منْ هوزانَ في غزوةِ حنينٍ، فقسمَ السّبيَ هناكَ، ثمَّ قدمَ عليهِ وفدٌ منْ هوزانَ مسلمين، وسألوهُ أنْ يردَّ إليهم أموالَهم وسبيَهم، فقالَ لهم رسولُ اللهِ ﷺ: "معي مَنْ ترونَ، وأحبُّ الحديثِ إليَّ أصدقهُ، فاختارُوا إحدى الطّائفتَين: إمّا السبيَ وإما المالَ، وقد كنتُ

[1] - متّفقٌ عليه

[2] - رواه ابنُ سعدٍ في الطّبقاتِ، وأخرجهُ التّرمذيّ في سننهِ ، و قد رواهُ ابنُ سعدٍ عنْ عاصمٍ الكلابي عنِ الأشهبِ عنِ الحسنِ

استأنيْتُ بكم (أيْ أخّرتُ قسمَ السّبيِ و الغنائمِ آملاً إسلامَكم) . وكانَ النّبيّ ﷺ قد أنظرَهم بضعَ عشْرةَ ليلةً حينَ رجعَ مِنَ الطّائفِ. فقالُوا: يا رسولَ اللهِ خيّرتَنا بينَ أحسابِنا وأموالِنا فالحسبُ أحبُّ إلينا ، فقامَ رسولُ اللهِ ﷺ في المسلمين، فأثنى على اللهِ بما هو أهلُهُ ثمَّ قالَ: أمّا بعدُ، فإنَّ إخوانَكم قد جاؤوا تائبينَ، وإنّي رأيتُ أنْ أردَّ إليهم سبيَهم، فمَنْ أحبَّ منكم أنْ يطيّبَ ذلكَ فليفعلْ، ومَنْ أحبَّ منكم أنْ يكونَ على حظّهِ حتّى نعطيَهُ إياهُ مِنْ أوّلِ ما يفيءُ علينا فليفعلْ[1] . فنادى النّاسُ جميعاً: قد طيّبَنا ذلكَ يا رسولَ اللهِ، فقالَ ﷺ : إنّا لا ندري مَنْ أذنَ منكم في ذلكَ ممّنْ لم يأذنْ فارجعُوا حتّى يرفعَ إلينا عرفاؤُكم أمرَكم، فرجعَ النّاسُ فكلّمَهم عرفاؤُهم، ثمَّ رجعُوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ فأخبرُوه أنّهم قد طيّبُوا ، وأذنُوا"[2] . فأُعيدَ إلى هوزانَ سبيُها .

وسألَ رسولُ اللهِ ﷺ وفدَ هوزانَ ـ فيما رواهُ ابنُ إسحاقَ ـ عنْ مالكِ بنِ عوفٍ ما فعلَ؟ فقالُوا بالطّائفِ معَ ثقيفٍ، فقالَ لهم: "أخبرُوه أنّه إنْ أتى مسلماً رددتُ عليهِ أهلَهُ ومالَهُ وأعطيتُه مئةً منَ الإبلِ، فأُخبرَ مالكٌ بذلكَ، فجاءَ يلحقُ برسولِ

[1] – أي بأنْ يردَّ السّبيَ بشرطِ أنْ يعطى عوضَهُ فيما بعدُ

[2] – رواهُ البخاريّ، ورواهُ الطّبريّ والبيهقيّ وابنُ سيّدِ النّاس، كلُّهم عنْ طرقِ ابنِ إسحاقَ بمزيدٍ منَ التّفصيلِ .

اللهِ ﷺ حتّى أدركَهُ فيما بينَ الجعرانةِ ومكّةَ، فردّ عليهِ أهلَهُ ومالَهُ، وأعطاهُ مئةً مِنَ الإبلِ، وأسلمَ فحسُنَ إسلامُهُ".

وخصَّ النّبيُّ ﷺ المؤلّفةَ قلوبُهم ـ وهم أهلُ مكّةَ ـ بمزيدٍ مِنَ الغنائمِ و الأُعطياتِ يتألّفُ قلوبَهم على الإسلامِ، فوجدَ بعضُ الأنصارِ في نفوسِهم منْ ذلكَ وقالُوا: " يغفرُ اللهُ لرسولِ اللهِ يعطي قريشاً ويتركُنا وسيوفُنا تقطرُ منْ دمائِهم[1].. !" فبلغَ ذلكَ رسولَ اللهِ ﷺ ،فأرسلَ إلى الأنصارِ فاجتمعُوا في مكانٍ أُعدَّ لهم، و لمْ يدعْ معهم أحداً غيرَهم، ثمّ قامَ فيهم، فحمدَ اللهَ وأثنى عليهِ بمَا هو أهله ثمّ قالَ:" يامعشرَ الأنصارِ، مقالةٌ بلغتني عنكم؟ ألمْ آتكمْ ضُلالاً فهداكمُ اللهُ بي، وكنتُم متفرّقين فألّفكُم اللهُ بي، وكنتُم عالةً فأغناكمُ اللهُ بي"،(كلّما قالَ لهم شيئاً قالُوا بلى، اللهُ ورسولُهُ أمنُّ وأفضلُ)، ثمّ قالَ: ألا تجيبوني يا معشرَ الأنصارِ؟" قالُوا: بما نُجيبُكَ يارسولَ اللهِ؟ للهِ ولرسولِهِ المنُّ والفضلُ. فقالَ ﷺ: "أما واللهِ لو شئتُمْ لقلتُم، فلصدقْتُم و لصُدّقتم: أتيتَنا مكذَّباً فصدّقْناك، ومخذولاً فنصرْناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسَيْناك"، فصاحُوا: بلِ المنُّ علينا للهِ ورسولِهِ. ثمَّ تابعَ رسولُ

[1] - متّفقٌ عليه

اللهِ ﷺ قائلاً:" أوجدتُم يا معشرَ الأنصارِ في أنفسِكم مِنْ أجلِ لُعاعَةٍ[1] مِنَ الدّنيا تألّفتُ بها قوماً ليسلمُوا ووكَلْتكم إلى إسلامِكم! ألا ترضَون يا معشرَ الأنصارِ أنْ يذهبَ النّاسُ بالشّاةِ والبعيرِ وترجعوا برسولِ اللهِ إلى رحالِكم؟ فو اللهِ لَما تنقلبون بهِ خيرٌ ممّا ينقلبون بهِ، والّذي نفسُ محمّدٍ بيدهِ لولا الهجرةُ لكنتُ امرءاً مِنَ الأنصارِ، ولو سلكَ النّاسُ شعباً وسلكتِ الأنصارُ شعباً، لسلكْتُ شعبَ الأنصارِ. وإنّكم ستلقَونَ أثرةً مِنْ بعدي فاصبرُوا حتّى تلقَوني على الحوضِ، اللّهمّ ارحمِ الأنصارَ وأبناءَ الأنصارِ وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ" .

فبكى القومُ حتّى اخضلّتْ لحاهم، وقالُوا: رضيْنا باللهِ ورسولِهِ قسماً و نصيباً[2].

وتبعهُ ﷺ ناسٌ مِنَ الأعرابِ يسألونهُ مزيداً مِنَ العطاءِ، حتى اضطروه إلى سمرة تعلّق بها رداؤُه، فالتفتَ إليهم قائلاً:" أعطُوني ردائي أيّها النّاسُ، فو اللهِ أنْ لو كانَ لكم بعددِ شجرِ تهامةَ نعَماً لقسمتُهُ عليكم، ثمّ لا تجدونَني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً[3]، أيّها النّاسُ واللهِ مالي مِنْ فيئِكم إلا الخُمسُ، و الخمسُ مردودٌ عليكم"[4].

---

[1] – اللّعاعة : بقلةٌ خضراءُ تستهوي العينَ ، شبّهَ بها الدّنيا..

[2] – رواهُ البخاريُّ ومسلم، وابنُ إسحاقَ وابنُ سعدً بنصوصٍ متقاربةٍ في الزّيادةِ و النّقصانِ

[3] – رواهُ البخاريّ

[4] – هذهِ الزّيادةُ أخرجَها أبو داودَ و النّسائيّ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرو.

وأدركهُ أعرابيٌّ فجذبهُ ﷺ جذبةً شديدةً مِنْ بُردِه، وكانَ عليهِ بُردٌ نجرانيٌّ غليظٌ، حتّى أثّرتْ حاشيةُ الرداءِ في صفحةِ عنقهِ، وقالَ لهُ، مُرْ لي مِنْ مالِ اللهِ الّذي عندكَ، فالتفتَ إليه فضحكَ، ثمَّ أمرَ لهُ بعطاءٍ. قالَ ابنُ إسحاقَ: ثمَّ خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الجعرانةِ معتمراً، فلمّا فرغَ انصرفَ راجعاً إلى المدينةِ، واستخلفَ على مكةَ عتّابَ بنَ أسيدٍ.

قلتُ في نفسي يا اللهِ.. في غزوةِ بدرٍ كانَ العددُ قليلاً لكنَّ ثباتَهم وصبرَهم جعلَهم أهلاً للنّصرِ. وهذهِ القاعدةُ الأولى الّتي تعلّمَها الصّحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم أجمعين، أمّا الآنَ فالوضعُ مغايرٌ تماماً، عددُ المسلمين كثيرٌ ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ﴾[1] لكنهم بهذا الشّعورِ فقدُوا شرطَ النّصرِ لأنّهم ببساطةٍ فقدُوا معيّةَ اللهِ ويدَهُ النّاصرةَ والغالبةَ عندما نسبُوا النّصرَ للعددِ والعدّةِ، عندما ربطوها بأنفسِهم.

وحتّى تتضحَ القوانينُ الإلهيّةُ أكثرَ سيّما بعدَ دخولِ أعدادٍ كثيرةٍ في

---

[1] - سورة التوبة : ٢٥

الإسلامِ بعدَ اعترافِ قريشٍ بـه، كـانَ لا بـدَّ مِـنْ درسٍ عميـقِ الأثـرِ، يثبتُ القانونَ الإلهيّ، ويسلّطُ الضّوءَ على مفتاحِ النّصرِ... لستُم أنـتم مَنْ تحرزون النّصرَ، إنّما هو اللهُ القادرُ الغالبُ النّاصرُ الفتّاحُ...

الشّـرطُ فقـط أنْ تقـدّمُوا كـلّ مـا تسـتطيعونه، وقلـوبُكم تتطلّـعُ إلى خالقِها، تطلبُ النّصرَ والتأييدَ منـه.. تفتقـرون إلى اللهِ وتتـبرّؤون مِـنْ حولِكم وقوّتِكم، عندَها لا يضرُّكم قوّةُ عدوّكم وعتادُه ...فاللهُ أكبرُ وأجلُّ وأعلى مِنْ كلِّ قوّةٍ في الوجودِ، لأنّها في ملكِهِ وتحـتَ سـيطرتِهِ والجميعُ عبادُه، هذا ببساطةٍ درسُ حُنين.

حتّى إذا آبتِ القلوبُ إلى خالقِها وأُعيدَتْ النّعمةُ لصاحبِها :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾[1]

قَلَبَ اللهُ كفّةَ الموازين، بمئتَي شخصٍ لا أكثرَ التفتُوا حـولَ رسـولِ اللهِ ﷺ ، ولكنَّ قلوبَهم مشربةٌ بالإيمانِ المطلوبِ والمحقِّقِ للنّصـرِ... عندئـذٍ فقط يتنزّلُ نصرُ اللهِ ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[2].

أمّا أمرُ الغنائمِ وقولُ الأنصارِ فيها فـلا أخفـي سـراً إنْ قلـتُ إنّـي قـد استغربتُ في بدايـةِ الأمـرِ !! أو لأقُـلْ: لم أتوقّعْهُ ..لكـني الآن عنـدما تأمّلتُ الموقفَ وبعد قراءتي لأحداثِ السّيرةِ اليومَ أدركتُ أنّ اللهَ أرادَ

[1] - سورةُ النّساء : ١٤٧

[2] - سورةُ آلِ عمران : ١٢٦

أنْ تظلَّ تلكَ الفئةُ النقيّةُ الّتي ناصرَتِ اللّهَ ورسولَهُ ﷺ وبذلَتْ وأعطَتْ دونَ مَنٍّ وطلبٍ للعونِ، هذهِ الفئةُ الّتي عشقَتْ رسولَ اللّهِ ﷺ والّتي كانَ هاجسُها الوحيدُ: هل سيحِنُّ الرّسولُ ﷺ إلى أهلهِ وبلدتهِ ويتركُهم؟ الفئةُ التي خافَتْ أنْ تكونَ هذهِ الغنائمُ الّتي قسّمَها بينَ قريشٍ والقبائلِ الأخرى و لم يأخذُوا منها نصيباً، أنْ تكونَ مؤشّراً لشوقِهِ إلى أهلهِ وبلدتهِ، فيتركَهم ويمضي! لقد أرادَ اللّهُ ورسولُهُ أنْ تكونَ هذه الفئةُ نقيّةَ القلبِ، عفيفةَ اليدِ، مخلصةَ العملِ.

لذا جاءَ جوابُ رسولِ اللّهِ ﷺ مجيباً لهذا الهاجسِ. (ألا ترضَون يا معشرَ الأنصارِ أنْ يذهبَ النّاسُ بالشّاةِ والبعيرِ وترجعُوا برسولِ اللّهِ إلى رحالِكم ؟) إنّي لأكادُ أجيبُ عنهم يا رسولَ اللّهِ.. بلى!!

ثمّ يزفُّ لهم رسولُ المحبّةِ ﷺ بشرى الحبيبِ لمحبّيْه، فأيُّ بشرى أعظمُ منَ انتماءِ الحبيبِ لحبيبِهِ وانحيازهِ معهم؟ (لو سلكَ النّاسُ شُعباً وسلكَتِ الأنصارُ شُعباً، لسلكتُ شُعبَ الأنصارِ)

فبكَوا رضوانُ اللّهِ عليهم، وحقَّ لهم أنْ يرقصُوا أو يبكُوا فرحاً لقولِ رسولِ اللّهِ ﷺ ذلك. وكيف لا يرضى المُحبُّ مِنْ حبيبِهِ أنْ يكونَ هو نصيبُهُ وقسمتُهُ؟...فما أظنُّ أنَّ هناك هديةً أعظمَ يمكنُ أنْ يُهدِيَها الحبيبُ لأحبابهِ مِنْ إعلانِهِ الانتماءَ لهم وأنّهُ واحدٌ منهم، وأنَّ أيَّ مكانٍ يذهبُون إليهِ سيكونُ معهم. فهو كما وعدَهم هناكَ في العقبةِ

قبلَ أكثرَ مِنْ عشْرِ سنواتٍ :" المَحيا مَحياكُم والمماتُ مماتُكم".

صدقَ بأبي و أمّي رسولُ اللهِ ﷺ .

كفكفْتُ دمعي وفي نفسي مشاعرُ المحبّةِ للأنصارِ، واستشعارٌ لعمقِ محبّتِهم وإخلاصهم.

هنيئاً لكم يا أهلَ المدينةِ، قدّمتُم مِنَ المشاعرِ والأقوالِ ما يعجزُ الشّعراءُ أنْ يقومُوا بهِ، كلامٌ يذهبُ بلبِّ مَنْ ذاقَ طعمَ المحبّةِ الخالصةِ.

صلّى اللهُ عليكَ يا رسولَ اللهِ ، لستَ قائداً فذّاً في ميادينِ الحربِ فحسب، بل إمامُ المحبِّينَ يتضاءلُ العاشقونَ أمامَ عمقِ مشاعرِكَ وصدقِ كلماتِكَ.

غزوةُ تبوكَ (رجبُ السّنةِ التّاسعةِ للهجرةِ) :

سببُها على ما رواهُ ابنُ سعدٍ وغيرِه، أنّه بلغَ المسلمِين مِنَ الأنباطِ الذينَ كانوا يتنقلونَ بينَ الشّامِ والمدينةِ للتّجارةِ، أنّ الرومَ قد جمعَتْ جموعاً وأجلبَتْ إلى جانبِها لخمٌ وجذامُ وغيرُهم مِنْ نصارى الذينَ كانوا تحتَ إمرةِ الرّومِ، ووصلَتْ طلائعُهم إلى أرضِ البلقاءِ. فندبَ النّبيُّ ﷺ الناسَ إلى الخروجِ، وروى الطّبرانيّ مِنْ حديثِ ابنِ حصينٍ أنّ جيشَ الرّومِ كانَ قوامُهُ أربعين ألفِ مقاتلٍ[1]. وكانَ ذلكَ في شهرِ رجبٍ سنةَ تسعٍ مِنَ الهجرةِ، وكانَ الفصلُ صيفاً، وقد بلغَ الحرُّ أقصاهُ، والنّاسُ في عسرةٍ من العيشِ، وكانتْ ثمارُ المدينةِ _ في الوقتِ نفسهِ _ قد أينعَتْ وطابتْ، فمِنْ أجلِ ذلكَ أعلنَ رسولُ اللهِ ﷺ عنِ الجهةِ الّتي سيتّجهون إليها، وذلكَ على خلافِ عادتهِ في الغزواتِ الأخرى. قال كعبٌ بنُ مالكٍ:" لم يكنْ رسولُ اللهِ ﷺ يريدُ غزوةً إلا ورّى بغيرِها حتّى كانتْ تلكَ الغزوةُ، غزاها رسولُ اللهِ ﷺ في حرٍّ شديدٍ واستقبلَ سفراً ومفازاً وعدوّاً كثيراً، فجلّى للمسلمِين أمرَهم ليتأهّبُوا أهبةَ غزوهم"[2]. وهكذا، فقدْ كانتِ الرّحلةُ في هذهِ الغزوةِ ثقيلةً على النّفسِ، فيها

---

[1] – انظرْ طبقاتِ ابنِ سعد :٣/٢١٨ ، وفتحَ الباري : ٨/٨٧

[2] – متفقٌ عليه

أقسى مظاهرِ الابتلاءِ والامتحانِ، فأخذَ نفاقُ المنافقين يعلنُ عن نفسهِ هُنا وهناك، على حينَ أخذَ الإيمانُ الصّادقُ يعلنُ عن نفسهِ في صدورِ أصحابهِ. أخذَ أقوامٌ منَ المنافقين يقولون لبعضِهم: لا تنفرُوا في الحرِّ. وجاءَ آخرُ[1] يقولُ لرسولِ اللهِ: ائذنْ لي ولا تفتنِّي، فو اللهِ لقد عرفَ قومِي أنهُ ما مِنْ رجلٍ بأشدَّ عجباً بالنّساءِ منّي، وإنّي أخشى إنْ رأيتُ نساءَ بني الأصفرِ أنْ لا أصبرَ. فأعرضَ عنهُ رسولُ اللهِ ﷺ وأذنَ لهُ فيما أرادَ[2]. وعسكرَ عبدُ اللهِ بنُ سلولٍ في ضاحيةٍ بالمدينةِ مع فئاتٍ منْ أصحابهِ وحلفائهِ، فلمّا سارَ النّبيُّ ﷺ تخلّفَ بكلِّ مَنْ معهُ! وممّا نزلَ في ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴾[3]، وقولهُ تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[4]،

---

[1] – هو الجدّ بنُ قيسٍ

[2] – رواهُ ابنُ إسحاقَ وابنُ مردويه منْ طريقِ الضّحاكِ عنِ ابنِ عبّاسٍ، ورواهُ عبدُ الرّزاقِ عن معمرٍ عنْ قتادة، وانظر الإصابة :١/٢٣٠

[3] – سورةُ التوبة : ٨١

[4] – سورةُ التوبة :٤٩

أمّا المؤمنون فأقبلُوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ كلِّ صوبٍ، وكانَ قد حضَّ أهلَ الغنى على النّفقةِ وتقديمِ ما يتوفّرُ لديهم مِنَ الدّوابّ للرّكوب، فجاءَ الكثيرون منهم بكلِّ ما أمكنَهم مِنَ المالِ والعدّةِ، وجاءَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنه بثلاثِمئةِ بعيرٍ بأحلاسِها وأقتابِها[1] وبألفِ دينارٍ نثرها في حجرِه، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: " لا يضرُّ عثمانَ ما فعلَ بعدَها"[2]. وجاءَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بكلِّ مالِه، وجاءَ عمرُ بنصفِ مالِه. روى التّرمذيُّ عنْ زيدٍ بنِ أسلمٍ عن أبيهِ قالَ: "سمعْتُ عمرَ بنَ الخطّابِ يقولُ: أمرَنا رسولُ اللهِ ﷺ أنْ نتصدّقَ ووافقَ ذلكَ عندي مالاً، فقلْتُ اليومَ أسبقُ أبا بكرٍ، إنْ سبقتُه يوماً. قالَ: فجئْتُ بنصفِ مالي فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ما أبقيتَ لأهلكَ؟ قلتُ: مثله. وأتى أبو بكرٍ بكلِّ ما عندَهُ، فقالَ: يا أبا بكر ما أبقيْتَ لأهلكَ؟ فقالَ: أبقيْتُ لهم اللهَ و رسولَهُ، قلتُ: لا أسبقُهُ إلى شيءٍ أبداً"[3].

---

[1]– رواهُ الطبرانيّ وأخرجه التّرمذيّ و الحاكمُ و الإمامُ أحمدُ منْ حديثِ عبدِ الرحمنِ بنِ خباب ، و الأحلاسُ جمعُ حلس وهو الكساءُ الذي يوضعُ على ظهرِ البعيرِ

[2]– رواهُ التّرمذيّ في سننهِ و الإمامُ أحمدُ في مسندهِ من حديثِ عبدِ الرحمنِ بنِ سمرة

[3] – رواهُ التّرمذيّ و الحاكمُ وأبو داودَ .وفي سندهِ هشامٌ بنُ سعدٍ عنْ زيدٍ بنِ أسلمَ وقد ضعفَه الإمامُ أحمدُ و الكسائيّ .واعتبرَهُ الحافظُ ابنُ حجرٍ مِنَ المرتبةِ الخامسةِ ،فقالَ عنهُ: صدوقٌ له أوهامٌ إلا أنَّ الذهبيّ نقلَ عنْ أبي

وإذا صحَّ هذا الحديثُ فلا بدَّ أنْ يكونَ هذا النّدبُ بمناسبةِ غزوةِ تبوكَ كما قالَ ذلكَ فريقٌ منَ العلماءِ. وأقبلَ رجالٌ منَ المسلمِينَ أُطلقَ عليهم (البكاؤون) يطلبون منْ رسولِ اللهِ ﷺ ظهوراً يركبونها للخروجِ إلى الجهادِ معه، فقالَ لهم:" لا أجدُ ما أحملكُم عليه". فتولّوا وأعينُهم تفيضُ مِنَ الدّمعِ حزناً ألّا يجدُوا لديهم ما ينفقونَهُ في أسبابِ خروجهم للغزوِ. وخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ فيما يقاربُ ثلاثين ألفاً مِنَ المسلمين[١]، وتخلّفَ عنه نفرٌ مِنَ المسلِمين عنْ غيرِ شكٍّ ولا ارتيابٍ. منهم كعبُ بنُ مالكٍ، ومرارةُ بنُ الرّبيعِ، وهلالٌ بنُ أميّةَ، وأبو خيثمةَ. وكانوا _كما قالَ ابنُ إسحاقَ_ نفرَ صدقٍ لا يتّهمُ في إسلامِهم. غيرَ أنَّ أبا خيثمةَ لحقَ برسولِ اللهِ ﷺ في تبوكَ.روى الطّبراني وابنُ إسحاقَ والواقديّ أنّ أباخيثمةَ رجعَ، بعدَ أنْ سارَ رسولُ اللهِ ﷺ بعدّةِ أيامٍ، إلى أهلهِ في يومٍ حارٍّ، فوجدَ امرأتين لهُ في عريشَين (أي خيمتَين) لهما في بستانٍ له، قد رشّتْ كلُّ واحدةٍ منهما عريشَها، وبرّدَتْ لهُ ماءً فيهِ وهيأتْ له فيهِ طعاماً، فلمّا دخلَ قامَ على بابِ العريشِ فنظرَ إلى امرأتْيه وما

=داودَ أنّه أثبتُ الناسِ إذا روى عن زيدٍ بنِ أسلمٍ كما في هذا الحديثِ ونقلَ عنِ الحاكمِ أنّ مسلماً أخرجَ له في الشّواهدِ

[١] – روى ذلكَ ابنُ سعدٍ وابنُ إسحاقَ وغيرهما

صنعَتا له، فقالَ: "رسولُ اللهِ ﷺ في الشمسِ والرِّيحِ والحرّ، وأبو خيثمةَ في ظلٍّ باردٍ وطعامٍ مهيّأٍ وامرأةٍ حسناءَ في مالِهِ مقيمٌ؟! ما هذا واللهِ بالنَّصَفِ. ثمّ قالَ: واللهِ لا أدخلُ عريشَ واحدةٍ منكما حتّى ألحقَ برسولِ اللهِ ﷺ فهيأتا لهُ زاداً، ثمّ قدّمَ ناضحهُ فارتحلَه وخرجَ في طلبِ رسولِ اللهِ ﷺ حتّى أدركهُ حينَ نزلَ تبوكَ، ولمّا دنا أبو خيثمةَ مِنَ المسلمِين قالُوا: هذا راكبٌ على الطّريقِ مقبلٌ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "كنْ أبا خيثمةَ"! فقالُوا: يا رسولَ اللهِ، هو واللهِ أبو خيثمةَ، فلمّا أناخَ أقبلَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ لهُ ﷺ: أولى لكَ يا أباخيثمةَ!.. ثمّ أخبرَ رسولَ اللهِ ﷺ فدعا لهُ ﷺ بخيرٍ". وعانى المسلمون في هذهِ المرحلةِ جهوداً شاقّةً وأتعاباً جسيمةً. روى الإمامُ أحمدُ وغيرُه أنَّ الرّجلين والثّلاثةَ كانُوا يتعاقبُون على بعيرٍ واحدٍ، وأصابَهم عطشٌ شديدٌ حتّى جعلُوا ينحرُون إبلَهم لينفضُوا أكراشَها ويشربوا ماءَها[1].

وروى الإمامُ أحمدُ في مسندِهِ، عنْ أبي هريرةَ قالَ:" لمّا كانتْ غزوةُ تبوكَ أصابَ النّاسَ مجاعةٌ، فقالُوا: يا رسولَ اللهِ، لو أذنْتَ لنا فنحرْنا نواضحَنا فأكلْنا وادّهنّا،

---

[1] – و رواهُ ابنُ سعدٍ في طبقاتِهِ ٣/٢٢٠

فقالَ لهم رسولُ اللهِ ﷺ: افعلُوا، فجاءَ عمرُ فقالَ: يا رسولَ اللهِ إنّهم إنْ فعلُوا قلَّ الظّهرُ، ولكنِ ادعهم بفضلِ أزوادِهم ثمَّ ادعُ لهم بالبركةِ لعلَّ اللهَ أنْ يجعلَ فيهِ ذلكَ، فدعا ﷺ بنطعٍ فبسطهُ، ثمّ دعاهم بفضلِ أزوادِهم، فجعلَ الرجلُ يجيءُ بكفِّ الذُّرةِ، والآخرُ بكفِّ التّمرِ و الآخرُ بالكسرةِ حتّى اجتمعَ على النّطعِ منْ ذلكَ شيءٌ يسيرٌ، ثمّ دعا عليهِ بالبركةِ، ثمَّ قالَ لهم: خذُوا في أوعيتِكم، قالَ: فأخذُوا في أوعيتِهم حتّى ما تركُوا منَ المعسكرِ وعاءً إلا ملؤُوه وأكلُوا حتّى شبعُوا، وفضلَتْ منهُ فضلةٌ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنّي رسولُ اللهِ، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرُ شاكٍّ فتحجبُ عنه الجنّة"[١] .

و لما انتهَوا إلى تبوكَ، لم يجدُوا هناكَ كيداً ولا قتالاً، فقدِ اختفى وتفرّقَ أولئكَ الذين كانُوا قد تجمّعُوا للقتالِ. ثمّ أتاهُ يوحنّه حاكمُ (أيلةَ) فصالحَ رسولَ اللهِ ﷺ على الجزيةِ، وأتاهُ أهلُ جرباءَ وأذرحَ فأعطَوهُ أيضاً الجزيةَ، وكتبَ رسولُ اللهِ ﷺ بذلك لهم كتاباً . ومرَّ الجيشُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ بالحِجْرِ (وهي منازلُ ثمودَ) فقالَ لأصحابِهِ: لا تدخلُوا مساكنَ الذينَ ظلمُوا أنفسَهم، أنْ يصيبَكم ما أصابَهم، إلا أنْ

[١] – رواهُ أحمدُ في مسندِه، و أوردهُ الحافظُ ابنُ كثيرٍ في تاريخهِ ، ثمّ قالَ : ورواهُ مسلمٌ عنْ أبي كريبٍ عنْ أبي معاويةَ عنِ الأعمشِ .

تكونُوا باكِين، ثمّ قنّعَ رأسهُ وأسرعَ السيرَ حتّى أجازَ الوادي"[١].

ثمَّ إنَّ النّبيَّ ﷺ قفلَ راجعاً إلى المدينةِ، فلمّا أشرفُوا على المدينةِ قالَ ﷺ لأصحابِهِ: "هذهِ طابةٌ، وهذا أحدٌ جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه[٢]"، وقالَ لأصحابِهِ: "إنَّ بالمدينةِ أقواماً ما سرتُم مسيراً ولا قطعْتم وادياً إلا كانُوا معكُم". قالُوا: يا رسولَ اللهِ وهم بالمدينةِ؟ قالَ:" وهم بالمدينةِ، حبسَهم العذرُ"[٣].

وقدِمَ المدينة ﷺ في رمضانَ مِنَ السّنةِ نفسِها، فيكونُ قد غابَ قرابةَ شهرين.

أمرُ المُخلّفِين:

ولمّا دخلَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ بدأَ بالمسجدِ، فصلّى فيهِ ركعتَين، ثمّ جلسَ للنّاسِ فجاءَهُ المخلّفون وطفقُوا يعتذرُونَ إليهِ ويحلفون لهُ، وكانُوا بضعةً وثمانينَ رجلاً. فقبلَ منهم علانيتَهم واستغفرَ لهم، وأرجأَ أمرَ كعبٍ بنِ مالكٍ وصاحبَيْهِ إلى أنْ نزلَتْ آياتٌ بقبولِ توبتِهم. وقد روى كعبٌ رضيَ اللهُ عنهُ في ذلكَ ــ في حديثٍ طويلٍ رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ ــ و جاءَ فيهِ قولُهُ:" كانَ من خبرِي أنّي لم

[١]- متّفقٌ عليه
[٢]- متّفقٌ عليه
[٣]- متّفقٌ عليهِ ، البّخاريّ :٥/١٣٦ ومسلمٌ :ز/٤٩

أكنْ قطُّ أقوى ولا أيسرَ منّي حينَ تخلفْتُ عنهُ في تلكَ الغزاةِ. . . وطفقْتُ أغدو لكي أتجهّزَ مع المسلمِينَ، فأرجعُ ولم أقضِ شيئاً، فأقولُ في نفسي: أنا قادرٌ عليهِ (أي لنْ يعوقُني شيءٌ عنْ سرعةِ التّجهيزِ) فلم يزلْ يتمادى بي حتّى اشتدَّ بالنّاسِ الجِدُّ ولم أقضِ مِنْ جهازي شيئاً. ولم يزلْ بي حتّى أسرعُوا وتفارطَ الغزوُ (أي خرجُوا وفاتُوا) وهمَمْتُ أنْ أرتحلَ فأُدرِكَهم - وليتني فعلْتُ - فلم يُقدّرْ لي ذلكَ.

فكُنْتُ إذا خرجْتُ في النّاسِ بعدَ خروجِ رسولِ اللهِ ﷺ فطفتُ بهمْ، أحزَنني أنّي لا أرى إلا رجلاً مغموساً بنفاقٍ أو رجلاً ممّن عذرَ اللهُ مِنَ الضّعفاءِ. ولمّا بلغَني أنّهُ توجّهَ قافلاً حضرَني همّي. فطفقْتُ أتذكّرُ الكذبَ، وأقولُ بماذا سأخرجُ مِنْ سخطِهِ غداً ؟!. . واستعنْتُ على ذلكَ بكلِّ ذي رأيٍ مِنْ أهلي، ولمّا قيْلَ إنّ رسولَ اللهِ ﷺ قد أقبلَ، زاحَ عنّي الباطلُ وأجمعْتُ أنْ أصدُقَهُ، فجئْتُهُ فلمّا سلّمْتُ عليهِ تبسَّمَ تبسُّمَ المُغضبِ، ثمَّ قالَ: تعالَ، فجئْتُ أمشي حتّى جلسْتُ بينَ يديهِ، فقالَ لي: ما خلّفَكَ؟ ألم تكنْ قد ابتَعْتَ ظهرَكَ؟ فقلْتُ: بلى، إنّي واللهِ لو جلسْتُ عندَ غيرِكَ مِنْ أهلِ الدّنيا لرأيتُ أنْ سأخرجُ مِنْ سخَطِهِ بعذرٍ، ولقد أُعطيْتُ جدَلاً، ولكنّي واللهِ لقد علمْتُ لَئنْ حدّثْتُكَ اليومَ حديثَ كذبٍ ترضى

بِهِ ليوشكنّ اللهُ أنْ يُسخِطَكَ عليَّ، ولَئنْ حدّثْتُكَ حديثَ صدقٍ تجدُ عليَّ فيهِ، إنّي لأرجو فيهِ عفوَ اللهِ. واللهِ ما كانَ لي مِنْ عذرٍ، واللهِ ما كُنْتُ أقوى ولا أيسرَ منّي حينَ تخَلّفْتُ عنكَ! فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: أمّا هذا فقدْ صدقَ، فقمْ حتّى يقضيَ اللهُ فيكَ. فقمْتُ، وثارَ رجالٌ مِنْ بني سلمةَ فاتّبعُوني يؤنّبونَني (أي يعتِبُون عليه أنّهُ لم يعتذرْ كالآخرين) فقلْتُ لهم: هل لقيَ هذا معي أحدٌ؟ قالُوا: نعم رجُلانِ قالا مثلَ ما قلْتَ فقيلَ لهما مثلَ ما قيلَ لكَ، فقلْتُ: مَنْ هما؟ فقالُوا: مُرارةُ بنُ الرّبيعِ وهلالُ بنُ أميّةَ. فذكرُوا لي رجلَينِ صالحَين شهِدا بدراً لي فيهما أسوةٌ.. ونهى رسولُ اللهِ ﷺ المسلمِينَ عنْ كلامِنا أي الثّلاثةُ مِنْ بينِ مَنْ تخَلّفَ عنهُ، فاجتنبَنا النّاسُ وتغيّرُوا لنا حتّى تنكّرَتْ لي الأرضُ فما هي بالّتي أعرِفُها فلبثْنا على ذلكَ خمسِينَ ليلةً، فأمّا صاحبايَ فاستكانا وقعدا في بيوتِهما يبكيانِ، وأمّا أنا فكُنْتُ أشبَّ القومِ وأجلدَهم، فكُنْتُ أخرجُ فأشهدُ الصّلاةَ مع المسلمِينَ وأطوفُ في الأسواقِ ولا يكلّمُني أحدٌ، وآتي رسولَ اللهِ ﷺ فأسلّمُ عليهِ وهو في مجلِسِهِ بعدَ الصّلاةِ فأقولُ في نفسي: هل حرّكَ شفتَيْهِ بردّ السّلامِ عليَّ أم لا؟ ثمَّ أصلّي قريباً منهُ أسارقُهُ النّظرَ، فإذا أقبلْتُ على صلاتِيْ أقبلَ إليَّ، وإذا التفتُّ

نحوَهُ أعرضَ عنّي. وبينَما أنا أمشي بسوقِ المدينةِ إذا نبطيٌّ مِنْ أنباطِ أهلِ الشّامِ مِمّنْ قدمَ بالطّعامِ يبيعُهُ بالمدينةِ، يقولُ: مَنْ يدلّني على كعبِ بنِ مالكٍ؟ فطفقَ النّاسُ يشيرون لهُ حتّى إذا جاءَني دفعَ إليّ كتاباً مِنْ ملكِ غسّانٍ؟ فإذا فيهِ:" أمّا بعدُ فإنّهُ قد بلغَني أنّ صاحبَكَ قد جفاكَ، ولم يجعلْكَ اللهُ في دارِ هوانٍ ولا مضْيَعةٍ، فالحقْ بنا نواسِكَ". فقلْتُ لمّا قرأْتُها: وهذا أيضاً مِنَ البلاءِ، فتيمّمْتُ بها التّنورَ فسجرْتُهُ بها. حتّى إذا مضَتْ أربعون ليلةً مِنَ الخمسِين إذا رسولُ رسولِ اللهِ ﷺ يأتيني فقالَ: إنّ رسولَ اللهِ ﷺ يأمرُكَ أنْ تعتزلَ امرأتَكَ، فقلْتُ: أطلّقُها أم ماذا أفعلُ؟ قال: لا بلِ اعتزلْها ولاتقربْها، وأرسلَ إلى صاحبيَّ بمثلِ ذلكَ. فقلْتُ لامرأَتي: الحقي بأهلِكِ فكوني عندَهم حتّى يقضيَ اللهُ في هذا الأمرَ. فلبثْتُ بعدَ ذلكَ عشْرَ ليالٍ حتّى كملَتْ خمسون ليلةً مِنْ حينِ نهى رسولِ اللهِ ﷺ عنْ كلامِنا. فلمّا صلّيْتُ صلاةَ الفجرِ صبحَ خمسِينَ ليلةً وأنا على ظهرِ بيتٍ مِنْ بيوتِنا. فبينا أنا جالسٌ على الحالِ الّذي ذكرَ اللهُ (قد ضاقَتْ عليَّ نفسي وضاقَتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ) سمعْتُ صوتَ صارخٍ أوفى على جبلِ سلعٍ بأعلى صوتهِ: ياكعبُ بنُ مالكٍ أبشرْ. فخررْتُ ساجداً، وعرفْتُ أنّهُ قد جاءَ فرجٌ، وآذنَ رسولُ

اللهِ بتوبةِ اللهِ علينا حينَ صلّى صلاةَ الفجرِ، فذهبَ النّاسُ يبشّرونَنا، وذهبَ قِبَلَ صاحبيَّ مبشّرُون.. ولمّا جاءَنِي الّذي سمعْتُ صوتَهُ يبشّرُني نزعْتُ ثوبَيَّ فكسَوتُهُ إيّاهما ببشراهُ، واللهِ ما أملكُ غيرَهما يومئذٍ، واستعرْتُ ثوبَينِ فلبسْتُهما، وانطلقْت إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فتلقّاني النّاسُ فوجاً فوجاً يهنّئوني بالتّوبةِ. ودخلْتُ المسجدَ فإذا رسولُ اللهِ ﷺ جالسٌ حولَهُ النّاسُ، فقامَ إليَّ طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ يهرولُ حتّى صافحَني وهنّأني، واللهِ ما قامَ إليَّ رجلٌ مِنَ المهاجرينَ غيرُهُ ولا أنساها لطلحةَ، قالَ كعبٌ: فلمّا سلّمْتُ على رسولِ اللهِ ﷺ قالَ وهو يبرُقُ وجهُهُ مِنَ السّرورِ: أبشرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليكَ منذُ ولدتْكَ أُمُّكَ. قالَ: قلْتُ: أمِنْ عندِكَ يا رسولَ اللهِ أم مِنْ عندِ اللهِ؟ قالَ: لا بل مِنْ عندِ اللهِ. فقلْتُ: يا رسولَ اللهِ! إنَّ مِنْ توبتي أنْ أنخلعَ مِنْ مالي صدقةً إلى اللهِ ورسولِهِ. قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: أمسكْ عليكَ بعضَ مالِكَ فهو خيرٌ لكَ. فقلْتُ: يا رسولَ اللهِ إنّما نجّانيَ الصّدقُ، وإنّ مِنْ توبتي أنْ لا أُحدّثَ إلا صِدْقاً ما بقيتُ. وأنزلَ اللهُ تعالى على رسولِهِ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا

رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[1].[2]

أجلْتُ نظري في الغرفةِ، فتوقّفْتُ عندَ منظرِ الفرنِ والنّارُ تتوهّجُ تحتَ آنيةِ المعدنِ. حقّاً عندما تشتدُّ الحرارةُ على المعدنِ النّفيسِ يزدادُ ألقَاً، ويظهرُ المعدنُ الخسيسُ ويتميّزُ عنِ النّفيسِ. هذا مثلُ الأحداثِ الثّقيلةِ على النّفسِ الّتي مِنْ شدّتِها تُخرِجُ ما في النَّفْسِ مِنْ كَدَرٍ، حتّى إذا تخلّصَتْ منها النّفْسُ عادَ إليها وهجُها ونورُها.

وهذا سرُّ قدرِ اللهِ في النّاسِ، فهو ربُّهم، أيْ يربّيْهم ويزكّيْ نفوسَهُم. فتتناوبُ الشّدائدُ والفتوحُ النّصرُ والهزيمةُ، بما يُصلحُ أمرَ السّائرين إلى اللهِ تعالى، الّذينَ يتلقّفُون إشاراتِ اللهِ، ويفهمُونَ ما يريدُهُ منهم، فيزدادُونَ قُرباً مِنَ اللهِ.

هذه الغزوةُ كانَ فيها مِنَ الشّدَّةِ ما يميّزُ الخبيثَ مِنَ الطّيّبِ، المُنافقَ مِنَ المؤمنِ.

[1] – سورة التوبة : ١١٧

[2] – البخاري ومسلم ، باختصار

ثمّ رسّخَتْ درساً عظيماً في مداخلِ الشّيطانِ إلى عبادِ اللهِ المؤمنِين، إلى الضّعفِ الّذي يمكنُ أنْ يتسرّبَ إلى نفوسِهم، فيبطئُ مسيرَهم إلى اللهِ. فأمامَ تألّقِ العطاءِ مِنْ أبي بكر وعمرَ وعثمانَ رضوانُ اللهِ عنهم أجمعِينَ نجدُ قصصاً كانَتْ مثالاً لمداخلِ الشّيطانُ إلى نفوسِ المؤمنِينَ. فمنهم مَنْ قطعَ على الشّيطانِ طريقَهُ، ونفضَ عنهُ وسوستَهُ ولحقَ بالرّكبِ، ومنهم مَنْ سقطَ في حبالِ الشّيطانِ وتسويفِهِ، إلا أنَّ حبلَ المحبّةِ قد أنقذَهُ مِنَ الهلاكِ، فأبو خيثمةَ مدَّ لهُ الشّيطانُ حبلَ التّسويفِ، وإنّهُ لَحبلُ الشّيطانِ الّذي يقعُ أغلبُنا فيهِ أو يكادُ. لكنّ المحبّةَ الّتي عمّرَتْ قلبَهُ استطاعَتْ إنقاذَهُ مِنْ براثِنِ الشّيطانِ في اللّحظةِ المناسبةِ وحملَتْهُ على اللّحاقِ بركبِ الحبيبِ المُصطفى ﷺ.

أمّا قصّةُ سيدِنا كعبٍ بنِ مالكٍ فقد أمكنَ الشّيطانُ عقدَ حبلِهِ، ومدَّ له في حبلِ التّسويفِ حتّى فاتَهُ الرّكبُ.. فتيقّظَتْ فيهِ معاني الإيمانِ والمحبّةِ، فأخذَتْ تلسعُهُ بألسنةِ النّدمِ، حتّى إذا بلغَتْ منهُ كلَّ مبلغٍ وبرزَ شعورُ الخجلِ مِنَ الحبيبِ المُصطفى ﷺ، وكبُرَتْ عليهِ فعلتُهُ حتّى عظمُتْ كالجبالِ، طفقَ يبحثُ عنْ مخرجٍ، فلم يجدْ بُدّاً مِنَ الاعترافِ بحقيقةِ جُرمهِ وذنبِهِ، وهنا جاءَتِ المِحنةُ الأشدُّ لكنّها سبيلُ النّجاةِ أيضاً. فقد يظنُّ الإنسانُ أنَّ قليلاً مِنَ الكذبِ أو المواربةِ لا يضرّان صاحبهما، بل تخرجُهُ مِنْ تأنيبِ الحبيبِ، وقد يكونُ استعظامُ

تأنيبِ وغضبِ الحبيبِ أكبرُ في النّفسِ من ذنبِ الكذبِ والمُواربةِ.. فتسوّلُ لهُ نفسُهُ الكذبَ للخروجِ من غضبِ مَنْ يحبُّ وتلكَ أيضاً مَكيدةٌ أخرى من مكائدِ الشّيطانِ الّتي يضعُ فيها عمامةَ الشّيخِ على رأسهِ ويُفتي بها مبرهناً عليها مِنْ نصوصِ الأحاديثِ وأقوالِ المشايخِ، وقد يجدُ فيمَنْ حولَهُ مَنْ يؤكّدُ لهُ سلامةَ تلكَ الفُتيا !...

لكنّ طوقَ النّجاةِ كانَ في صدقِ سيّدِنا كعبٍ، رغمَ أنّها جرَّتْ عليهِ مِنَ الضّنكِ في الهجرِ... هجرِ الأحبّةِ مدّةَ خمسينَ يوماً... واشتدَّ عليهِ ذلكَ حتّى ضاقَتْ عليهِ الأرضُ بما رحُبَتْ، ثمَّ جاءَ فرجُ اللهِ.

وفي أثناءِ هذهِ المحنةِ تعرّضَ أيضاً لمحنةٍ أخرى... هي محنةُ الأعداءِ المتربّصِينَ الّذين حاولُوا أنْ يفتنُوهُ عَنْ دينِهِ ويوهمُوهُ أنّ صاحَبهُ أيْ رسولُ اللهِ ﷺ لم يعرفْ قدرَهُ، وهم يدركُون قيمتَهُ ومنزلتَهُ، ويعرفونَ فضلَهُ، فإنْ أقبلَ عليهم أكرمُوهُ وأنزلُوهُ قدرَهُ.

ما أشدَّ تربّصَ الأعداءِ... كيف عرفُوا بهذهِ السّرعةِ؟ لا بدَّ أنّ في داخلِ مجتمعِ المدينةِ مَنْ لهُ صلةٌ بالرّومِ... يتحيّنون الفُرصَ فإنِ استطاعُوا أنْ يفتنوا واحداً مِنْ أصحابِ محمّدٍ ﷺ فتلكَ غنيمةٌ كبيرةٌ وفوزٌ عظيمٌ، ولكنْ هيهاتَ لقلبٍ صادقٍ مؤمنٍ... فرغمَ أنّهُ في لحظةِ ضعفٍ هوى في مكيدةِ الشّيطانِ، إلا أنّ خطّاً أحمرَ لا يمكنُ تجاوزُهُ تحتَ أيِّ ظرفٍ، فلا يمكنُ أنْ يبيعَ ولاءَهُ بمالِ الدّنيا، وإنْ تنكّرَ الآنَ

له أحبابُهُ، لكنّهمُ يبقَونَ الأحبابَ وإنْ جارُوا. كما أنّهُ ﷺ الحبيبُ وحاشاهُ أنْ يظلمَ أو يجورَ، هو على ثقةٍ أنّهُ تلميذُ المُصطفى ﷺ الّذي أخطأَ، وعليه أنْ يتعلّمَ كي لا يقعَ مرّةً أخرى، فليس هناكَ مجالٌ للمقايضةِ على الولاءِ والحبِّ.

وتراني أعجبُ بحبِّ كعبٍ للنّبيّ ﷺ وهو في أشدِّ أزمتِهِ إذ يدخلُ المسجدَ فيسلّمُ ثمَّ يسترقُ النّظرَ هل ردَّ عليهِ حبيبُهُ ﷺ السّلامَ.

لا أجدُ كلماتٍ تعبّرُ عَنْ هذا الموقفِ الرّائعِ : الحبيبُ غاضبٌ ثمَّ يتلمّسُ المحبُّ هل ما زالَ الودُّ رغمَ عِظَمِ الذّنبِ؟ هذا الّذي يشغلُ بالَهُ ويزيدُ ألَمَهُ! ولعلَّ المحبِّينَ لا يَعجبُونَ مِنْ تلكَ اللفتاتِ، فتلكَ أماراتُ المحِّبينَ ودلالةُ صدقِ محبَّتِهم، إنّها في ديوانِ المحبِّينَ وقواميسُ الحبِّ معروفةٌ وبديهيّةٌ.

كما أنَّ محبّةَ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ محبّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فإنْ رضيَ المُصطفى ﷺ فذاكَ علامةُ رضى اللهِ تباركَ وتعالى.

رضيَ اللهُ عنكَ يا سيّدَنا كعبٍ ضربْتَ لنا مثلاً عظيماً في الصّدقِ، صدقِ اللّسانِ وصدقِ الولاءِ، وصدقِ المحبّةِ وأدبِ المحبِّ، فلم تجمحْ نفسُكَ وتقولُ لكَ: أيحدثُ لكَ كلُّ ذلكَ لأنّكَ صدقْتَ وينعمُ أولئكَ المنافقُونَ بكذبِهم وتُهجرُ أنتَ بسببِ صدقكَ!... لم تستطعْ نفسُهُ أنْ تؤنّبَهُ بتلكَ المقولةِ، لأنَّها على قدرٍ مِنَ التأدّبِ والمحبّةِ يجعلانِها أرقى

مِنْ تلكَ الكلماتِ.

رضيَ اللهُ عنكَ وعنِ المخلَّفِينَ معكَ الّذين أنزلتْ توبتُهم وقُبلَتْ مِنَ السّماءِ السّابعةِ وكُتبَتْ ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ ﴾[1] لتنبّهَ المسلمِينَ والمؤمنِينَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى معنيَين هامّين :

- إيّاكم والتّسويفَ، فإنّهُ حبلُ الشّيطانِ الّذي يُهلكُ بهِ الكثيرينَ.
- إيّاكم والكذبَ، فلا يزالُ العبدُ يكذبُ حتّى يُكتبَ عندَ اللهِ كذّاباً، ولا يزالُ يصدقُ حتّى يُكتبَ صدّيقاً.

وهنيئاً لكَ يا سيّدنا كعبٍ مرتبةَ الصّديقِين. فهُنا يُمتحَنُ الصّادقُ، وفي الأحداثِ الجليلةِ يُصقَلُ المعدنُ النّفيسُ ليذهبَ عنهُ ما شابهُ مِنْ كدرٍ، ويعودَ بريقُهُ لامعاً في نورِ الشّمسِ والحقيقةِ. فها هي الخمسون يوماً تنقضي رغمَ شدّتِها وألمِها، لكنّها بصدقِكَ أعادَتْ لكَ إشراقَكَ ورفعتَكَ مكاناً عليّاً مع الصدّيقِينَ، بينما لو اخترْتَ الكذبَ فلا أدري على أيِّ حالٍ ستنكشفُ المدّةُ!...

[1]- التّوبة:١١٧

حقّاً قد يظنُّ المرءُ أنَّ القليلَ مِنَ الكذبِ لا يضرُّ، وقد يوفّرُ عليهِ آلاماً ومتاعبَ.. غيرَ أنّ الحقيقةَ عكسُ ذلكَ... إنْ كانَ ذاكَ الشّخصُ راغباً في دربِ اللهِ وطامعاً برضاهُ وقربِه، وإلا فالأمرُ عنده سيّان !

- حجُّ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بالنّاسِ سنةَ تسعٍ :

لمّا قفلَ رسولُ اللهِ ﷺ عائداً مِنْ تبوكَ، أرادَ الحجَّ، ثمّ قالَ:" إنّما يحضرُ المشركُون فيطوفُون عُراةً فلا أحبُّ أنْ أحجَّ حتّى لا يكونَ ذلكَ" . فأرسلَ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنه وأردفَهُ بعليٍ رضيَ اللهُ عنهُ، ينهيان المشركِينَ عنِ الحجِّ بعدَ ذلكَ العامِ، ويعطيانِهم مِهلةً للدّخولِ في الإسلامِ أربعةَ أشهرٍ، ثمَّ ليس بينَهم وبينَ المسلمِينَ إلا القتالُ. روى البخاريّ في كتابِ المغازي عنْ أبي هريرةَ أنّ أبا بكرٍ الصّديقَ رضيَ اللهُ عنهُ بُعثَ في الحجّةِ الّتي أمَّرَهُ عليها النّبيُّ ﷺ، قبلَ حجّةِ الوداعِ يومَ النّحرِ في رهطٍ يؤذّنُ في النّاسِ: "لا يحجُّ بعدَ العامِ مشركٌ ولا يطوفُ بالبيتِ عريانٌ" .

وروى محمّدٌ بنُ كعبٍ القرظيّ وغيرِه أنَّ النّبيَّ ﷺ بعثَ أبا بكرٍ أميراً على الموسمِ سنةَ تسعٍ مِنَ الهجرةِ، وبعثَ عليّاً بنَ أبي طالبٍ بثلاثينَ أو أربعينَ آيةٍ مِنْ (براءة)، فقرأَها على النّاسِ، يؤجّلُ المشركِينَ _ أيْ يُمهلُهم _ أربعةَ أشهرٍ يسيحونَ في الأرضِ، فقرأَها عليهم يومَ عرفةَ، أجّلَهم عشرين مِنْ ذي الحجّةِ، والمحرّمِ، وصفرَ، وشهرِ ربيعِ الأوّلِ، وعشراً منْ ربيعِ الآخرَ، وقرأَها عليهم في منازِلهم وقالَ: "لا يحجّنَّ بعدَ عامِنا مشركٌ، ولا يطوفَنّ بالبيتِ عُريان" . وروى الإمامُ أحمدُ عنْ

محرزِ بنِ أبي هريرةَ عنْ أبيهِ قالَ:" كنْت مع عليٍ بنِ أبي طالبٍ حينَ بعثهُ رسولُ اللهِ ﷺ إلى أهلِ مكّةَ ببراءة، فقالَ: ما كنتُم تنادُون؟ قال: كنّا ننادي أنّهُ لا يدخلُ الجنّةَ إلا نفسٌ مؤمنةٌ، ولا يطوفُ بالبيتِ عُريان، ومَنْ كانَ بينَهُ وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ عهدٌ فإنّ أجلَهُ أو مدّتَهُ أربعةُ أشهرٍ، فإذا مضَتِ أربعةُ أشهرِ فإنَّ اللهَ بريءٌ مِنَ المشرِكِينَ ورسولُهُ، ولا يحجُّ هذا البيتَ بعدَ عامِنا هذا مشركٌ، قالَ: فكنْتُ أنادي حتّى صحَلَ[1] صوتي". فذلكَ هو المقصودُ بقولهِ تعالى:﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣ ﴾[2]

وروى ابنُ سعدٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ عندما استعملَ أبا بكرٍ على الحجّ، خرجَ في ثلاثِمئةِ رجلٍ مِنْ أهلِ المدينةِ، وبعثَ معه رسولُ اللهِ ﷺ بعشرِين بَدنةٍ قلّدَها وأشعرَها.

[1] – صحل صوته: أي بُحَّ.

[2] – سورةُ التّوبةِ : ٣

يمثّلُ هذا آخرَ إعلانٍ لنهايـةِ الكفـرِ ومظـاهرِه، والكـافرِينَ ووجـودِهم في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ.

مسجدُ الضّرارِ (السّنةُ التّاسعةُ للهجرةِ) :

روى ابنُ كثيرٍ عنْ جبيرٍ وقتادةَ وعروةَ وغيرِهم أنّهُ كانَ في المدينةِ رجلٌ مِنَ الخزرجِ اسمُهُ أبو عامرٍ الرّاهبُ، وكانَ قد تنصّرَ في الجاهليّةِ ولهُ مكانةٌ كبيرةٌ في الخزرجِ. فلمّا قدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ واجتمعَ المسلمون عليهِ وصارَتْ للإسلامِ كلمةٌ عاليةٌ، شرقَ أبو عامرٍ بريقِهِ وأظهر العداوةَ لرسولِ اللهِ ﷺ، ثمّ خرجَ فارّاً إلى كفّارِ مكّةَ مِنْ مُشركي قريشٍ يمالئُهم على حربِ رسولِ اللهِ ﷺ. ثمّ إنّهُ لمّا رأى أمرَ رسولِ اللهِ ﷺ في تقدّمٍ وارتفاعٍ، ذهبَ إلى هرقلَ ملكِ الرّومِ يستنصرُهُ على النّبيِّ ﷺ، فوعدَهُ ومنّاهُ، فأقامَ عندَهُ وكتبَ إلى جماعةٍ مِنْ قومِهِ مِنْ مُنافقي المدينةِ يعدُهم بما وعدَهُ به هرقلُ، وأمرَهم أنْ يتّخذُوا له مَعقِلاً يقدمُ عليهم فيهِ مَنْ يقدمُ مِنْ عندهِ لأداءِ كتبه، ويكونُ مرصداً له إذا قدمَ عليهم بعدَ ذلكَ. فشرعُوا في بناءِ مسجدٍ قريبٍ مِنْ مسجدِ قباءٍ، فبنَوهُ وأحكمُوهُ وفرغُوا منهِ قبلَ خروجِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى تبوكَ، و جاؤُوا فسألُوا رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يأتيَ إليهم فيصلّي في مسجدِهم

ليحتجّوا بصلاتِهِ فيه على تقريرِه وإثباتِهِ. وذكرُوا أنّهم إنّما بنَوهُ للضّعفاءِ منهم وأهلِ العلّةِ في الليلةِ الشاتيةِ، فعصمَهُ اللهُ مِنَ الصلاةِ فيهِ وقالَ:" إنّا على سفرٍ ولكنْ إذا رجَعنا إنْ شاءَ اللهُ"، فلمّا قفلَ ﷺ راجعاً إلى المدينةِ منْ تبوكَ ولم يبقَ بينَهُ وبينَها إلا يومٌ أو بعضُ يومٍ، نزلَ عليهِ جبريلُ بخبرِ مسجدِ الضّرارِ، وما اعتمدَهُ بانوهُ مِنَ الكفرِ والتّفريقِ بينَ جماعةِ المؤمنينَ، فبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى ذلكَ المسجدِ مَنْ هدمَهُ قبلَ مقدمِهِ إلى المدينةِ[1]. ونزلَ قولُهُ تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾[2] ومعنى قولِهِ تعالى (ضرارا) أنّهم إنّما بنَوهُ ضراراً لمسجدِ قباءٍ. وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن

---

[1] – تفسيرُ ابنِ كثيرٍ :٢/٣٨٧ و٣٨٨، ورواهُ ابنُ هشامٍ في سيرتهِ على نحوٍ قريب في : ٢/ ٣٢٢

[2] – سورةُ التّوبة : ١٠٧

يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ [1] إشارةٌ إلى مسجدِ قباءٍ .

يا إلهي .... كيفَ تفتّقتْ أذهانُ أعداءِ الإسلامِ إلى حربِ المسلمِينَ مِنَ الدّاخلِ ! في بناءِ مؤسّسةٍ تمثّلُ الإسلامَ بكلِّ مناحي الحياةِ ليجعلُوا منها بؤرةَ النّفاقِ و الكيدِ للإسلامِ ...

لا عجبَ إنْ رأينا الآنَ جماعاتٍ باسمِ الإسلامِ تدكُّ وتقتلُ ....!

[1] – سورةُ التّوبة:١٠٨

وفدُ ثقيفٍ ودخولُهم في الإسلامِ :

وروى ابنُ إسحاقَ أنّهُ ﷺ قدِمَ المدينةَ منْ تبوكَ في شهرِ رمضانَ، وفي ذلكَ الشّهرِ قدِمَ عليهِ وفدُ ثقيفٍ. وكانُوا قد تشاورُوا بينَهم، ورأَوا أنّهُ لا طاقةَ لهم بحربِ مَنْ حولَهم مِنَ العربِ، وقد بايعَ كلُّهم وأسلمُوا . فأرسلُوا وفداً منهم يرأسُهم كنانةُ بنُ عبدِ ياليل، فلمّا دنَوا مِنَ المدينةِ لقيَهم المغيرةُ بنُ شعبةَ _ وهو منهم _ فاستقبلَهم وعلّمَهم كيفَ يحيُّون رسولَ اللهِ ﷺ عندَ دخولِهم عليه، ولكنّهم لم يفعلُوا إلا بتحيّةِ الجاهليّةِ. وأنزلَ رسولُ اللهِ ﷺ وفدَ ثقيفٍ في المسجدِ وبنى لهُم خياماً لكي يسمعُوا القرآنَ ويرَوا النّاسَ إذا صلُّوا، ومكثَ الوفدُ أيّاماً عديدةً يختلفُون إلى رسولِ اللهِ ﷺ ويختلفُ إليهم وهو يدعُوهم إلى الإسلامِ[1] .روى ابنُ سعدٍ:" أنّهُ ﷺ كانَ يأتيْهم كلَّ ليلةٍ بعدَ العشاءِ، فيقفُ عليهم يحدّثُهم حتّى يراوحَ بينَ قدميْهِ" (أي يقومُ على كلِّ قدمٍ مرّةً مِنَ التّعبِ[2]) . روى موسى بنُ عقبةَ في مغازيه:" أنَّ عثمانَ ابنَ أبي العاصِ كانَ في ذلكَ الوفدِ، وكانَ أصغرَهم، فكانُوا إذا ذهبُوا إلى مجلسِ رسولِ اللهِ ﷺ خلفُوهُ على رحالِهم، فكانَ عثمانُ كلّما رجعَ الوفدُ، وقالُوا في

[1] – ابنُ هشامٍ :٢/٣٢٤

[2] – طبقاتُ ابنِ سعدٍ : ٢/٧٨

الهاجرةِ، عمدَ فذهبَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فسألَهُ عنِ الدّينِ، واستقرأَهُ القرآنَ، واختلفَ إليهِ عثمانُ على ذلكَ مِرارا حتّى فَقُهَ في الدّينِ، وكانَ إذا وجدَ رسولَ اللهِ ﷺ نائماً عمدَ فذهبَ إلى أبي بكرٍ، وكانَ يكتُمُ ذلكَ مِنْ أصحابِهِ، فأعجبَ ذلكَ منهُ رسولَ اللهِ ﷺ ، وأحبّهُ. وأخيراً دخلَ الإسلامُ أفئدتَهم، ولكنّ كنانةَ بنَ عبدِ ياليل قالَ لرسولِ اللهِ ﷺ: أفرأيتَ الزّنى، فإنّا قومٌ نغتربُ ولا بدّ لنا منهُ، قالَ: هو عليكم حرامٌ، فإنّ اللهَ يقولُ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[1]. قالُوا: أفرأيتَ الرّبا، فإنهُ أموالنا كلّها، قالَ: لكمْ رؤوسُ أموالِكم، إنّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2]. قالُوا: أفرأيتَ الخمرَ، فإنّهُ عصيرُ أرضِنا لابدّ لنا منها، قالَ: إنَّ اللهَ حرّمَها، وقرأَ آيةَ تحريمِ الخمرِ[3]. قالَ ابنُ إسحاقَ: وسألوهُ أيضاً أنْ يضعَ عنهم الصّلاةَ فقالَ ﷺ لهم: لا خيرَ في دينٍ بلا صلاةٍ. فخلا بعضُهم إلى بعضٍ يتشاورُونَ في الأمرِ ثمّ عادُوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ وقد خضعُوا لذلكَ كلّهِ، ولكنّهم

---

[1] – سورةُ الإسراءِ : ٣٢

[2] – سورةُ البقرةِ : ٢٧٨

[3] – انظرْ زادَ المعادِ:٣/٢٦ ، ٢٨

سألوه أنْ يدعَ لهم وثنهم الّذي كانُوا يعبدونَهُ (اللات) ثلاثَ سنين لا يهدمُها، فأبى رسولُ الله ﷺ ذلكَ، فما برِحُوا يسألونهُ سنةً سنةً ويأبى عليهم، حتّى سألوهُ شهراً واحداً بعدَ مقدمِهم، فأبى عليهم أنْ يدعَها إلى أيِّ أجلٍ. قالَ ابنُ إسحاقَ: وإنّما أرادُوا بذلكَ أنْ يتخلّصُوا مِنْ أذى سفهائِهم ونسائِهم وذراريهم، وكراهيةٍ منهم أنْ يردعُوا قومَهم بهدمِها حتّى يدخلَ الإسلامُ قلوبَهم.

فقالُوا لرسولِ الله ﷺ: فتولَّ أنت إذاً هدمَها، فأمّا نحنُ فإنّا لا نهدمُها أبداً. فقالَ لهم: فسأبعثُ لكم مَنْ يكفيْكم ذلكَ. ثمّ استأذُنوا رسولَ اللهِ ﷺ فأذِنَ لهم، وأكرمَهم وحيَّاهم، وأمَّر عليهم عثمانَ بنَ أبي العاصِ لما رأى مِنْ حرصِهِ على الإسلامِ، وكانَ قد تعلّمَ سوراً مِنَ القرآنِ قبلَ أنْ يخرجَ. وبعثَ رسولُ الله ﷺ إليهم وفداً على أثرِهم أمَّرَ عليهم خالداً بنَ الوليدِ وفيهم المغيرةُ بنُ شعبةَ وأبو سفيانَ بنُ حربٍ، فعمدُوا إلى اللاتِ فهدمُوها، وخرجَتْ نساءُ ثقيفٍ حُسَّراً يبكين عليها ويرثينَها، وكلّما ضربَها المغيرةُ بفأسهِ قال أبو سفيانَ: واهاً لك، آهاً لك[1]!.. يسخرُ منهُ ويصانعُ حزنَ تلكَ النّسوةِ اللاتي يندُبنَ ويبكينَ عليه".

[1] – السيرة النبوية لابنُ هشام: ٢/٣٢٧

قالَ ابنُ سعدٍ في طبقاتِهِ ـيروي عَنِ المغيرةِ رضيَ اللهُ عنهُـ فدخلَتْ ثقيفٌ في الإسلامِ، فلا أعلمُ قوماً مِنَ العربِ، بني أبٍ ولا قبيلةٍ، كانُوا أصحَّ إسلاماً، ولا أبعدَ أنْ يوجدَ فيهم غشٌّ للهِ ولكتابهِ، منهم[١].

يا سبحانَ اللهِ جاءَتْ ثقيفٌ راغمةً... ماذا كان يضرُّها لو قبلَتْ برسولِ اللهِ ﷺ وأحسنَتْ وفادَتهُ لَّما جاءَها مستنصِراً؟

صورةُ رسولِ اللهِ ﷺ وهو عائدٌ مِنَ الطّائفِ وقد أغرَوا صبيانَهم فأدمَوا قدمَ رسولِ اللهِ ﷺ حتّى لجأَ عليهِ السّلامُ إلى حائطٍ وهناكَ ناجى ربَّهُ بأعذبِ مناجاةٍ على وجهِ البسيطةِ. ثمَّ هاهم قد أتَوا... فيبذلُ في سبيلِ إقناعِهم ودعوتِهم إلى اللهِ جهدَهُ. كلَّ يومٍ يقفُ عندَهم يحدّثُهم حتّى يراوحَ بينَ قدمَيْهِ مِنْ شدّةِ التّعبِ ﷺ... مادعوتَ على قومٍ مهما آذوكَ.. ما كانَتْ دعواكَ إلا: اللّهمّ اهدِ وأتِ بهم مؤمنِينَ ... صلّى اللهُ عليكَ يا نبيَّ الرّحمةِ، كيفَ استطعْتَ ذلكَ؟

---

[١] – طبقاتُ ابنِ سعدٍ :٧٨/٢

إنّهُ وضوحُ الهدفِ وصدقُ الإخلاصِ فيـهِ، وكـذلكَ المـؤمنُ المخلـصُ لدينـهِ وربّـهِ، الّـذي لا يغيـبُ عنـهُ هدفُـهُ، لا يـدعُ الـنّفسَ ومكائـدَ الشّيطانِ تسيطرُ على حركتـهِ... مـا يحرّكـهُ هـو شـيءٌ واحـدٌ... أيُّ حركةٍ ترضي ربّهُ وتقرّبُ إليهِ هدفَهُ... مهما كانَ الثمنُ ولا يهمّـهُ في ذلكَ شيءٌ ولا تكبرُ عليهِ نفسُهُ، عندئذٍ فقط لا يوجـدُ للحقـدِ مكـانٌ ولا لطلباتِ النّفسِ ورعوناتِها، وعنـدَها فقـط تـأتي يـدُ اللهِ مسـانِدةً ومـؤازِرةً ومنافِحـةً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾[1]

ليسَ ذلكَ بالشّيءِ السّهلِ.

آه... ما أحوجَنا في هذهِ الآيةِ مِنْ أنْ نتمثّلَ هُداكَ يا سيّدي يا رسولَ اللهِ.

لو اتّبعناكَ حقّاً لسادَ الأمنُ والسّلامُ، و تنعّمَ النّاسُ بالخيرِ والصّفاءِ.

---

[1] – سورة الحج : ٣٨

تتابعُ وفودِ الإسلامِ ودخولُهم في دينِ اللهِ (السّنةُ التّاسعةُ للهجرةِ) :

قالَ ابنُ إسحاقَ: لمّا افتتحَ رسولُ اللهِ ﷺ مكّةَ وفرغَ مِنْ تبوكَ وأسلمتْ ثقيفٌ وبايعَتْ، ضربَتْ إليهِ وفودُ العربِ مِنْ كلّ وجهٍ، وإنّما كانَتِ العربُ تتربّصُ بالإسلامِ أمرَ هذا الحيِّ مِنْ قريشٍ، إذ كانُوا إمامَ النّاسِ وأهلَ البيتِ والحرمِ، وصريحَ ولدِ إسماعيلَ عليهِ السلامُ وقادةَ العربِ. فلمّا افتتحَتْ مكّةُ ودانَتْ لهُ قريشٌ ودوّخَها الإسلامُ، عرفَتِ العربُ أنهُ لا طاقةَ لهم بحربِ رسولِ اللهِ ﷺ ولا عدوانِه، فدخلُوا في دينِ اللهِ تعالى أفواجاً، كما قالَ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[1] ونحنُ لا نرى حاجةً ـ في هذا المجالِ ـ إلى سردِ تفاصيلِ هذهِ الوفودِ وأخبارِها، إذ لا يوجدُ كبيرُ غرضٍ لنا في هذا التّفصيلِ .

خبرُ إسلامِ عديِّ بنِ حاتمٍ :

كانَ عديُّ بنُ حاتمٍ نصرانيّاً، وهو ابنُ حاتمٍ الجوادِ المشهورِ، وكانَ امرءاً شريفاً في قومِهِ، وكانَ يأخذُ مِنْ قومِهِ المِرْباعَ، (وهو ربعُ ما يصلهم منْ غنائمِ الحروبِ. كان العربُ يجعلون ذلكَ للرّئيسِ منهم) فلمّا سمعَ برسولِ اللهِ ﷺ ودعوتُهُ، كرهَ دعوتَهُ،

[1] سورةُ النّصر :١-٢-٣

وتركَ قومَهُ ولحقَ بنصارى الشّامِ.

قالَ عديٌّ:" فكرهْتُ مكاني هناكَ أشدَّ مِنْ كراهتي لهُ (أي لرسولِ اللهِ ﷺ) فقلْتُ: لو أتيتُهُ فإنْ كانَ ملكاً أو كاذباً لم يخفَ عليَّ، وإنْ كانَ صادقاً اتّبعتُهُ. فخرجْتُ حتّى أقدمَ على رسولِ اللهِ ﷺ المدينةَ، فدخلْتُ عليهِ وهو في مسجدِهِ، فسلّمْتُ عليهِ، فقالَ: مَنِ الرّجلُ؟ فقلْتُ:عديٌّ بنُ حاتمٍ! فقامَ رسولُ اللهِ ﷺ فانطلقَ بي إلى بيتِهِ، فواللهِ إنّه لعامدٌ بي إليهِ (أي قاصدٌ بي إلى الدّار) إذ لقِيَتْهُ امرأةٌ ضعيفةٌ كبيرةٌ فاستوقفَتْهُ، فوقفَ لها طويلاً، تكلّمُهُ في حاجتِها فقلْتُ في نفسي: واللهِ ما هذا بملكٍ! ثمَّ مضى بي رسولُ اللهِ ﷺ حتّى إذا دخلَ بيتَهُ، تناولَ وسادةً من أَدَمٍ محشوّةً ليفاً فقذفَها إليَّ فقالَ: اجلسْ على هذهِ، قلْتُ: بل أنتَ فجلسَ عليها. فقالَ: بل أنتَ فجلستُ عليها، وجلسَ رسولُ اللهِ ﷺ على الأرضِ. فقلتُ في نفسي: واللهِ ما هذا بأمرِ ملكٍ. ثمَّ قالَ: إيهِ ياعديّ بنِ حاتمٍ، هل تعلمُ مَنْ إلهٌ سوى اللهِ؟ قلتُ: لا. ثمَّ قالَ: هل تعلمُ شيئاً أكبرَ مِنَ اللهِ؟ قلتُ:لا. قالَ: ألم تكنْ ركُوسيّاً؟ (قومٌ لهم دينٌ بينَ النّصارى والصّائبةِ) قلْتُ:بلى. قال: أولم تكنْ تسيرُ في قومِكَ بالمرباعِ؟ قلتُ:بلى. قالَ: فإنَّ ذلكَ لم يكنْ يحلُّ في

دينكَ. قلتُ: أجلْ واللهِ. ثمّ قالَ: لعلّكَ يا عديُّ إنّما يمنعُكَ مِنْ دخولٍ في هذا الدّينِ ما ترى مِنْ حاجةِ أهلِهِ، فواللهِ ليوشكنَّ المالُ أنْ يفيضَ فيهم حتّى لا يوجدُ مَنْ يأخذُهُ، ولعلّك إنّما يمنعُكَ مِنْ دخولٍ فيهِ ما ترى مِنْ كثرةِ عدوّهم وقلّةِ عددِهم، فواللهِ ليوشكنَّ أنْ تسمعَ بالمرأةِ تخرجُ مِنَ القادسيّةِ على بعيرِها حتّى تزورَ هذا البيتَ لا تخافُ، ولعلّكَ إنّما يمنعُكَ مِنْ دخولٍ فيهِ أنّكَ ترى أنّ المُلْكَ والسّلطانَ في غيرِهم، وايمُ اللهِ ليوشكنَّ أنْ تسمعَ بالقصورِ البيضِ منْ أرضِ بابلَ قد فُتِحتْ عليهم !... قالَ: فأسلمْتُ. قالَ عديٌّ: فرأيتُ اثنتَينِ: الظّعينةُ، وكنتُ في أوّلِ خيلٍ أغارَتْ على كنوزِ كسرى، وأحلفُ باللهِ لتجيئَنَّ الثّالثةُ"[1] .

تدرُّجٌ رائعٌ في عرضِ الإسلامِ على عديٍّ بنِ حاتمٍ .

كانَ في ﷺ حياتِهِ الطّبيعيّةِ غيرِ المتكلّفةِ دليلاً على نبوّتِهِ لتواضعِهِ ورقّةِ شعورِهِ وتفاعلِهِ مع الآخرين والشّعورِ بحاجاتِهم ومشكلاتِهم. والّتي يعجزُ عنها الملوكُ. أمّا طريقتُهُ في عرضِ الإسلامِ لإقناعِ عديّ فقد

[1] – رواهُ ابنُ إسحاقَ و الإمامُ أحمدُ، والبغويّ في معجمِهِ بألفاظٍ متقاربةٍ ، وانظرِ الإصابةَ للحافظِ بنِ حجر : ٤٦١/٢ وترتيبِ مسندِ الإمامِ أحمدَ : ٢١/ ١٠٨

اتّسمَتْ بالتّسلسلِ مِنَ الأمورِ البديهيّةِ المتوافقةِ مع فكرِ عديٍّ ومعتقداتهِ (هل تعلمُ مِنْ إلهٍ سوى اللّٰه)...الخ. وهذا ما يسمّونهُ في العلومِ الحديثةِ: البدايةُ مِنْ نقاطِ الاتّفاقِ.

ثمّ سألهُ أسئلةً تنمُّ عنْ فَهمٍ ومعرفةِ رسولِ اللّٰهِ ﷺ بأمورِ دينهِ وسلوكهِ فيه. أمّا المرحلةُ الثّالثةُ فكانَتْ: إزالةَ الحواجزِ والهواجسِ الّتي تمنعُهُ مِنْ دخولِ الإسلامِ، فبنّدَها بنداً بنداً وأجابَ عنها، فلم يدعْ لحاتمٍ عُذراً في عدمِ إسلامهِ، وإنَّ العقلَ المفكّرَ إذا توافرَتْ لهُ حريّةٌ في التّأمّلِ وكانَ بعيداً عنْ جوٍّ التّحيّزِ أو التّوتّرِ أو المعاندةِ فإنّهُ لا بدَّ عندَما يُعرضُ عليهِ الإسلامُ من أنْ يقبلَهُ لأنّهُ دينٌ واضحٌ، لا لبْسَ فيه، يقنعُ العقلَ، ويجيبُ عنْ أسئلتهِ، ويلبّيْ حاجاتِ القلبِ والرّوحِ. أمّا إذا فُقدَتْ حريّةُ التّفكيرِ وحُوصِرَتْ ببيئةٍ يملؤُها الحقدُ والكراهيةُ فلن ينبتَ في الفكرِ إلا الضلالُ ولن ينجوَ مِنَ العمى !

بعوثُ رسولِ اللّٰهِ ﷺ إلى النّاسِ لتعليمِهم مبادئَ الإسلامِ :

وكما أقبلتِ الوفودُ تسعى إلى رسولِ اللّٰهِ ﷺ لإعلانِ إسلامِها : فقد أخذَ هو أيضاً يبعثُ رسلَهُ يتفرّقون في شتّى الجهاتِ، وخاصّةً في جنوبِ الجزيرةِ، لتعليمِ النّاسِ مبادئِ الإسلامِ وأحكامِهِ. فقد انتشرَ أمرُ الإسلامِ في الجزيرةِ ومختلفِ أطرافِها، وأصبحَتِ الحاجةُ داعيةً إلى معلّمينَ ودعاةٍ ومُرشدين يشرحُون للنّاسِ حقائقَ

الإسلامِ، حتّى يستقرَّ في قلوبِهم بعدَ أنِ انتشرَ في ربوعِهم.

فأرسلَ ﷺ خالداً بنَ الوليدِ إلى نجرانَ ليدعوَ مَنْ هُناكَ إلى الإسلامِ ويعلِّمَهم مبادئَهُ وأحكامَهُ، كما أرسلَ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ إلى اليمنِ[1]، وأرسلَ ﷺ أبا موسى الأشعريِّ ومعاذَ بنَ جبلٍ إلى اليمنِ أيضاً بثَّ كلاًّ منهما إلى طرفٍ مِنْ أطرافِها، ووصّاهُما قائلاً: "يسّراو لا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعا"[2]وقالَ لمعاذ: "إنّكَ ستأتي قوماً مِنْ أهلِ الكتابِ، فإذا جئتَهم فادعُهم إلى أنْ يشهدُوا أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنّ محمّداً رسولُ اللهِ، فإنْ هم أطاعُوا لكَ بذلكَ فأخبرْهم أنَّ اللهَ قد فرضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فإنْ هم أطاعُوا لكَ بذلكَ فأخبرْهم أنَّ اللهَ قد فرضَ عليهم صدقةً تؤخذُ مِنْ أغنيائِهم فتردُّ على فقرائِهم فإنْ هم أطاعُوا لكَ بذلكَ فإيّاكَ وكرائمَ أموالِهم، واتّقِ دعوةَ المظلومِ فإنّهُ ليسَ بينَها وبينَ اللهِ حجابٌ"[3]، وفي مسندِ الإمامِ أحمدَ أنّهُ ﷺ خرجَ معَ معاذٍ إلى ظاهرِ المدينةِ يوصيهِ ومعاذٌ راكبٌ ،ورسولُ اللهِ ﷺ يمشي تحتَ راحلتِهِ. ثمَّ قالَ: يامُعاذُ، إنّكَ عسى أنْ لا

[1] – طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام ،وفي البخاري :أرسل خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب إلى اليمن ، انظر صحيح البخاري:١١٠/٥

[2] – متفق عليه

[3] – متفق عليه

تلقاني بعدَ عامي هذا ! ولعلّكَ أنْ تمرَّ بمسجدي هذا وقبري" فبكى معاذٌ لفراقِ رسولِ اللهِ ﷺ[1] .

لا أدري لماذا أحسسْتُ بدقّاتِ قلبِ مُعاذِ بنِ جبلَ رضيَ اللهُ عنهُ وهو يغادرُ المدينةَ بعدَ إخبارِهِ ﷺ (إنّكَ عسى أنْ لا تلقاني بعدَ عامي هذا...) أُحسُّ بأنَّ قلبي قد خُلِعَ مِنْ مكانهِ.

لم أكنْ معكَ يا سيّدَنا معاذ، وما شاهدتُ الرَّسولَ الكريمَ ﷺ وما رأيْتُ روعةَ وبهاءَ هذا النّورِ العظيمِ، غيرَ أنّي قرأْتُ عنهُ، فكيفَ بكَ أنتَ؟!

أشعرُ بشعورِكَ واضطرابِكَ، فأنتَ بينَ أمرَين: إحساسٌ بالمسؤوليّةِ المُناطةِ بكَ وواجبِكَ تجاهَ ذلكَ، وبينَ حبِّكَ وخشيتِكَ ألا تلقى الحبيبَ.

ما رأيْتُ حبّاً عظيْماً يلهبُ الجوارحَ عملاً ودأْباً مثلَ حبِّ الصّحابةِ رضوانُ اللهِ عنهم، لم يكنْ حبّاً كثُرتْ فيهِ أشعارُ الحُبِّ والغزلِ، بل كانَ حُبَّاً مترجَماً بالأفعالِ لا بالأقوالِ...

[1]- مسندُ الإمامِ أحمد: ٢١/٢١٤

حبّاً يُشعلُ روحَ صاحبهِ عملاً وحُرقةً على بلوغِ الهدفِ والرّؤيةِ الّتي رسَمَها المُصطفى ﷺ وحفرَها في قلوبِهم، لم تكنْ فيهِ سلبيّةُ المُحبِّ في الجلوسِ مع حبيبِهِ والترّنمِ بمعشوقهِ وتركِ ساحاتِ العملِ!... بل كانَ الإنجازُ عنوانَ الحبِّ ودليلَهُ. فاختصرُوا المراحلَ. احترقَتْ نفوسُهم وأمراضُها حتّى فنيَتْ في رضا المحبوبِ، فما أحسّتْ بكثيرِ المُجاهدةِ، فنارُ الحبِّ خفَّفتْ مِنْ وطأةِ النّفسِ وطلباتِها، فاختصرَتِ المسافاتِ وطارَتْ إلى المحبوبِ بجناحِ الحبِّ مع العملِ والعلمِ، فوصلَتْ بأقصرِ السّبلِ وأسهلِها على النّفْسِ. وهذا سرُّ سرعةِ بلوغِ الصّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم أرقى المنازلِ بأقصرِ زمنٍ وأقلِّ تكاليف.

اللّهم ارزقْنا حبّكَ وحُبَّ نبيّكَ كمحبّةِ الصّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم أجمعِين.

- حجّةُ الوداعِ وخطبتُها :

روى الإمامُ مسلم بسندِهِ عنْ جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ:" مكثَ رسولُ اللهِ ﷺ بالمدينةِ المنوّرةِ تسعَ سنين لم يحجّ، ثمّ أذّنَ في النّاسِ في العاشرةِ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ حاجٌّ، فقدمَ المدينةَ بشرٌ كثيرٌ كلُّهم يلتمسُ أنْ يأتمَّ برسولِ اللهِ ﷺ ويعملَ مثلَ عملِهِ. وخرجَ ﷺ مِنَ المدينةِ لخمسِ ليالٍ بقِينَ منْ ذي القعدةِ[1]، قالَ جابرٌ: فلمّا استوتْ بهِ ناقتُهُ في البيداءِ، نظرتُ إلى مدِّ بصري بينَ يديْ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ راكبٍ وماشٍ، وعن يمينهِ مثلُ ذلك، وعنْ يسارهِ مثلُ ذلكَ، ومِنْ خلفهِ مثلُ ذلك، ورسولُ اللهِ ﷺ بينَ أظهُرنا، وعليهِ ينزلُ القرآنُ". واختلفَ الرّواةُ، فأهلُ المدينةِ يروُون أنّهُ ﷺ أهلَّ بالحجِّ مُفْرداً، ويروي غيرُهم أنّه قرنَ مع حجّتِهِ عمرةً، وروى بعضُهم أنّهُ دخلَ مكّةَ متمتّعاً بعمرةٍ ثمّ أضافَ إليهِ حجّةً. ودخلَ مكّةَ مِنْ أعلاها مِنْ طريقِ (كَداء) حتّى انتهى إلى بابِ بني شيبةَ، فلمّا رأى البيتَ قالَ:" اللّهم زدْ

[1]- اختلفَ الرُّواة في اسمِ اليومِ الذي خرجَ فيهِ ﷺ، فقد ذكرَ ابنُ حزمٍ أنّهُ كانَ يومَ الخميسِ، ونقلَ آخرون أنّهُ كانَ يومَ الجمعةِ، والصّحيحُ ما رواهُ ابنُ سعدٍ في طبقاتهِ أنَّ ذلكَ كانَ يومَ السّبتِ. وهو ما جزمَ بهِ ابنُ حجرٍ في الفتحِ. وقد كانَ يوم الخميسِ هو أوّلُ ذي الحجّةِ، فيكونُ شهرُ ذي القعدةِ على ذلك تسعةً وعشرين. ويحملُ قولَ مَنْ روى أنَّ خروجَه ﷺ كانَ لخمسِ ليالٍ بقينَ مِنْ ذي القعدةِ على ظنّ أنّ الشّهر سيكونُ ثلاثين .

هذا البيتَ تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابةً وزدْ مَنْ عظّمهُ ممّن حجَّهُ واعتمرَهُ تشريفاً وتكريماً ومهابةً وتعظيماً وبرّاً"[1] .ثمّ مضى رسولُ اللهِ ﷺ في حجّهِ، فعلّمَ النّاسَ مناسكَهم، وبيّنَ لهم سننَ حجّهم[2] . وألقى رسولُ اللهِ في يومِ عرفةَ خطبةً جامعةً في جموعِ المسلمِين الّذين احتشدوا حولَهُ في الموقفِ، هذا نصُّها:

" أيّها النّاسُ : اسمعُوا قولِي، فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكُم بعدَ عامي هذا بهذا الموقفِ أبداً . أيّها النّاسُ ، إنّ دماءَكم وأموالَكم حرامٌ عليكم كحرمةِ يومِكم هذا في شهرِكم هذا . ألا وإنَّ كلَّ شيءٍ مِنْ أمرِ الجاهليّةِ تحتَ قدمي موضوعٌ ودماءُ الجاهليّةِ موضوعةٌ وإنَّ أوّلَ دمٍ أضعُ مِنْ دمائِنا دمُ ابنِ ربيعةَ بنِ الحارثِ وربا الجاهليّةِ موضوعٌ، وأوّلُ رباً أضعُ ربا العبّاسِ بنِ عبدِ المطّلبِ، فإنّهُ موضوعٌ كلُّه. أيّها النّاس، إنَّ الشّيطانَ قد يَئسَ مِنْ أنْ يُعبَدَ بأرضِكم هذهِ أبداً ، ولكنّه إنْ يُطَعْ فيما سوى ذلكَ فقد رضيَ بِهِ ممّا تحقِرون مِنْ أعمالِكم، فاحذرُوهُ على دينِكم. أيّها النّاسُ، إنَّ النسيءَ زيادةٌ في الكفرِ يضلُّ بِهِ الّذين كفرُوا يُحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطؤوا عدّةَ ما حرّمَ اللهُ فيحلّوا ماحرّمَ اللهَ ويحرّموا ما أحلّ اللهُ. وإنّ

[1] - رواهُ الطّبرانيّ . وابنُ سعدٍ

[2] - انظرْ حديثَ حجّة رسولِ اللهِ ﷺ من روايةِ جابرٍ في صحيحِ مسلمٍ :٣٧/٤

الزمانَ قد استدارَ كهيئَته يومَ خلقَ اللهُ السّمواتِ والأرضَ. السّنةُ اثنا عشَرَ شهراً، منها أربعةٌ حرُمٌ، ثلاثٌ متوالياتٌ: ذو القَعدةِ و ذو الحجّةِ والمحرّم ورجبُ مُضَر الذي بينَ جُمادى وشعبانَ.

اتّقوا اللهَ في النّساءِ، فإنكم إنّما أخذتمُوهنَّ بأمانِ اللهِ واستحلَلْتُم فروجَهنّ بكلمةِ اللهِ. إنَّ لكم عليهنَّ حقّاً ولهنَّ عليكم حقّاً: لكم عليهنَّ ألاّ يوطِئْنَ فُرشكم أحداً تكرهُونه[1]، فإنْ فعلنَ ذلكَ فاضربوهنَّ ضرباً غيرَ مبرِّحٍ، ولهنَّ عليكُم رزقُهنّ وكسوتُهنّ بالمعروفِ.

فاعقِلوا أيّها النّاس قَولِي فإنّي قد بلغْتُ، وقد تركْتُ فيكم ما لنْ تضلّوا بعدَهُ إنْ اعتصمْتُم بهِ: كتابَ اللهِ وسنةَ رسولِه.

يا أيها النّاسُ، اسمعُوا وأطيعُوا وإنْ أُمّرَ عليكُم عبدٌ حبشيّ مجدّعٌ ما أقامَ فيكم كتابَ اللهِ تعالى.

أرقّاءَكم أرقّاءَكم... أطعمُوهم ممّا تأكلونَ، واكسُوهم ممّا تلبسون، وإنْ جاؤوا

---

[1]- المقصودُ بذلكَ أنْ لا يأذنَ لأحدٍ ممّنْ يكرهون دخولَهُ عليهنّ، وليس وطءُ الفراشِ كنايةً عنِ الزّنا كما قد يُتوهّم.

بذنبٍ لا تريدون أنْ تغفرُوه، فبيعوا عبادَ اللهِ ولا تعذّبوهم[1]. أيّها النّاسُ، اسمعُوا قَولي واعقِلوه، تعلمُنّ أنّ كلَّ مسلمٍ أخٌ للمسلمِ ، وأنّ المسلمين إخوةٌ، فلا يحلُّ لامرئٍ من أخيهِ إلاّ ما أعطاهُ عنْ طيبِ نفسٍ منهُ ، فلا تَظلمنَّ أنفسَكم، اللّهم هلْ بلّغتُ؟ وستلقَون ربّكم فلا ترجعُوا بعدي ضُلالاً يضرِبُ بعضُكم رقابَ بعضٍ، ألا يبلِّغ الشّاهدُ الغائبَ، فلعلَّ بعضَ مَنْ يبلّغُهُ أنْ يكونَ أوعى لهُ مِنْ بعضِ مَنْ سمعَهُ، وأنتم تسألُون عنّي فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهدُ أنّكَ قد بلّغْتَ وأدّيتَ ونصحْتَ. فقالَ بأصبعِهِ السّبّابةِ، يرفعُها إلى السّماءِ، ويَنكتُها إلى النّاسِ: اللّهمَّ اشهدْ (ثلاثَ مراتٍ)"[2]،ثمّ لم يزل النّبيُّ ﷺ في عرفاتَ حتّى غربَتِ الشّمسُ، وحينئذٍ دفعَ بمَنْ معهُ إلى المزدلفةِ، وهو يشيرُ بيدِهِ اليُمنى قائلاً:" أيّها النّاسُ، السّكِينةَ، السّكِينةَ" ، فصلّى في المُزدلفةِ المغربَ والعشاءَ جمعَ تأخيرٍ، وباتَ تلكَ الليلةَ في المزدلفةِ ثمّ دفعَ قبلَ أنْ تطلعَ الشّمسُ إلى مِنى فرمَى جمرةَ العقبةِ بسبعِ حصيّاتٍ يكبّرُ مع كلِّ حصاةٍ منها ، ثمّ انصرفَ إلى

[1] – هاتانِ الفِقرتانِ جاءَتا في روايةِ ابنِ سعدٍ في الطّبقاتِ

[2] – نقلنا نصّ هذهِ الخِطبةِ مِنْ صحيحِ مسلمٍ ، وأضفنا إليها زيادةً جاءَتْ في البخاريّ هي : (وستلقَون ربّكم) " إلى (مَن سمِعَه) كما أضفنا إليها زياداتٍ بسيطةً أخرى وردت في ابنِ إسحاقَ وطبقاتِ ابنِ سعدٍ وغيرِهما .

المنحرِ، فنحرَ ثلاثاً وستّين بدنةً، ثمّ أعطى عليّاً فنحرَ ما غبرَ (أي تتمّة المئةِ) .
ثمّ ركبَ رسولُ اللهِ ﷺ فأفاضَ إلى البيتِ، فصلّى بمكّةَ الظُّهرَ، وأتى بني عبدِ المطّلبِ وهم يسقُون على زمزمَ فقال: "افزعُوا بني عبدِ المطّلبِ ، (فلولا أنْ يغلِبَكمُ النّاسُ على سقايتِكم لنزعْتُ معكم) فناولُوه دلواً فشربَ منهُ[1] . ثمّ قَفَلَ رسولُ اللهِ ﷺ عائداً إلى المدينةِ.

حقّاً خطبةٌ بليغةٌ لا تتجاوزُ عشْرَ الدّقائقِ إلا أنّها تحملُ مِنَ القراراتِ الحاسمةِ والعناوينِ الرئيسةِ الهامّةِ الّتي لا ينبغي لأحدٍ مِنَ المسلمين أنْ يجهلَها، و هي ما يجعلُها وقايةً للمجتمعِ الإسلاميِّ مِنْ أيِّ فتنةٍ.

فها هو يعلنُ رسميّاً أمامَ الجميعِ ولأوّلِ مرّةٍ عنْ قُربِ موتِهِ ﷺ..
ما أظنُّ أنّها أخطأَتْ سمعَ الصّحابةِ رضوانُ اللهِ عنهم، لكنّ المُحبَّ لايريدُ أنْ يسمعَ العبارةَ الّتي تدلُّ على إمكانيّةِ فقدانهِ للحبيبِ، تلكَ طبيعةُ المُحبِّ... إنّهُ قد يتناساها، أو يكذّبُ أذنَهُ.
يا سبحانَ اللهِ.. كيفَ تغيّرَ القلبُ؟ أشعرُ الآنَ بحزنٍ لسماعِ تلكَ

[1] - منْ حديثِ جابرٍ في صفةِ حجّتهِﷺ ، رواهُ مسلمٌ وغيرهُ

العبارةِ، وكأنّي أعيشُ هذهِ اللّحظةَ مع الصّحابةِ، رغمَ أنّي ما رأيتُه ﷺ حتّى أفقدَهُ.

إنّها سيرتُكَ يا رسولَ اللهِ تحملُ مِنْ عبقِ حُبّكَ ما يشعلُ حبّكَ ولو بعدَ ألفِ سنةٍ أو يزيدُ.

ثمّ يُعلنُ عليهِ السّلامُ بعدَ هذا التّنبيهِ في قربِ وفاتِهِ، إلى أهمِّ الأمراضِ والعيوبِ الّتي يمكنُ أنْ تفتكَ بالأمّةِ الإسلاميّةِ :

أوّلُ عنوانٍ رئيسيٍّ في الخُطبةِ : الجاهليّةُ

(ألا وإنَّ كلَّ شيءٍ مِنْ أمرِ الجاهليّةِ تحتَ قدميَّ موضوعٌ).

ما معنى الجاهليّة؟ هي ليستْ فترةً زمنيّةً قبلَ الإسلامِ وانتهَتْ وإلا لما سمعْنا رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ لأحدِهم إنّكَ امرؤٌ فيكَ جاهليّةٌ. فما معناها إذاً ؟

كلُّ أمرٍ يوزَنُ بغيرِ ميزانِ الإسلامِ وأحكامِهِ جاهلي. فمثلاً معيارُ التّمايزِ بينَ النّاسِ ليسَ اللونُ أو الجنسُ أو النّسبُ أو المالُ أو الجاهُ لا طبقاتِ في الإسلامِ، إنّما معيارُ التّمايزِ والتّفاضلِ بينَهم: التّقوى والعملُ الصّالحُ ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [1] (...ألا

[1] – سورةُ الحُجراتِ : ١٣

لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ، إلا بالتّقوى...)[1].

فالجاهليّةُ إذاً أنْ يكونَ معيارُنا للأمورِ بعيداً عن ميزانِ الإسلامِ وحكمِ الشريعةِ. أنْ نأخذَ معتقداتِنا ومبادئَنا حولَ الكونِ، وعلاقاتِ المجتمعِ وأسلوبِ حياتِنا مِنْ غيرِ مصدرِ الإسلامِ، فنأخذَ عادةً مِنْ هنا ومبدأً مِنْ هُناك دونَ أنْ نزنَهُ بمعيارِ الإسلامِ، فتصبحُ حياتُنا كالفسيفساءِ المرقّعةِ، أو كالثّوبِ حِيْكَ بقطعٍ منَ القماشِ المختلفِ، لا تناسقَ فيهِ ولا انسجامَ، قطعةٌ عليها صليبٌ وأخرى نجمةُ داودَ وثالثةٌ مِنْ عبادِ الشّياطِينِ وهكذا... ناهيكَ عمّا سيكونُ عليهِ قلبُ مَنْ كانَ هذا قالَبُه !

أمّا الموضوعُ الثّاني: **فهي مكايدُ الشّيطانِ للمسلمِين يحذّرُ ﷺ مِنْ صغائرِ الذّنوبِ الّتي قد نحقرُها ولا نلقي لها بالاً**، حتّى إذا تمكّنتْ في النّفسِ غدَتْ عتيّةً قويّةً يصعُبُ اقتلاعُها، وما زالتْ تكبَرُ حتّى تمنعَ صاحبَها مِنْ رؤيةَ الحقِّ وتوقعَهُ في الكبائرِ .

أمّا الموضوعُ الثّالثُ :**فقد أوصى الرّجالَ بأنْ يحسنُوا معاملةَ النّساءِ** ويؤدّوا لهنَّ حقوقَهنَّ وأمرَ النّساءَ كذلك، لأنَّ الأسرةَ هي نواةُ

[1] – مسندُ أحمدَ بنِ حنبل، حديثُ: ٢٢٨٦٤ . حديثٌ مرسل.

المجتمعِ، إنْ صلُحَتْ علاقاتُها فيما بينها صلُحَ المجتمعُ و سَعِدَ، وغدا بنّاءً و مُنتِجاً ومتماسكاً.

أمّا **الموضوعُ الرّابعُ** : فقد أوضحَ ﷺ أنَّ **ملاكَ العِصمةِ مِنَ الفِتنِ ومفاتِحَها هو التّمسُّكُ بكتابِ اللهِ وسُنّتِهِ.**

فكلُّ أمرٍ جديدٍ أو مستحدَثٍ أو قديمٍ لا بدَّ أنّنا سنجدُ جوابَهُ في هذين المصدرَين، كلُّ ما علينا أنْ نُعمِلَ فكرَنا بعقلٍ مُنفتحٍ وبقلبٍ واعٍ متّصلٍ بربِّ السّماءِ مُعترفٍ بمحدوديّتِه، مُتبرِّئٍ مِنْ حولهِ وقوّتهِ مستعينٍ بخالقِهِ، عندئذٍ لابدَّ أنْ يأتيْنا الجوابُ مِنْ أنوارِ القرآنِ الكريمِ والسُّنّةِ المطهّرةِ.

أمّا **الموضوعُ الخامسُ**: فهو رسالةٌ للشّعوبِ والحُكّامِ، **يطلبُ مِنَ الشّعبِ أنْ يسمعَ ويطيعَ لحاكمِهِ مادامَ قد أقامَ شرعَ اللهِ وكتابَه** الكريمِ، وفي هذا صمامُ أمانٍ للقلاقلِ أو الاضطراباتِ الّتي يمكنُ أنْ تحدثَ بينَ الشّعوبِ وحكّامِها.

أمّا **الموضوعُ السّادسُ**: **فقد أوصى بالأرقّاءِ والعبيدِ**.. مؤكّداً على إنسانيّةِ الإنسانِ وعدمِ امتهانهِ وإعطائِهِ حقوقَهُ في المَأكلِ والمَلبسِ ومساواتهِ بذلكَ مع السّيّدِ، فإنْ أتَوا بذنبٍ لا تريدون أنْ تغفرُوهُ فلا تعذّبُوهم وبيعُوهم.

أمّا **الموضوعُ السّابعُ**: فيوجّهُ القلبَ والعقلَ ليعيَهُ، وذلكَ لأهميّتِهِ،

المسلمُ أخو المسلم... فلا ينبغي لأحدٍ أنْ يأخذَ من أحدٍ شيئاً إلا عنْ طيبِ نفسٍ.. حتّى إنّنا رأينا رسولَ اللهِ ﷺ - وهو الحاكم- في غنائمِ هوزانَ يستأذنُ أصحابَهُ في ردِّ أموالِهم إلى ثقيفٍ بعدَ إسلامِهم، لأنّهُ بعدَ تقسيمِها غدَتْ مُلكاً لهم. ولم يرضَ بالجوابِ الجماعيّ (أنّهم رضُوا) بل طلبَ أنْ يُفصحَ كلٌّ منهم إلى وكلائِهم أو نوّابِهم ثمّ يأتُوه بالجوابِ، على الرّغمِ مِنْ أنّهُ أوّلاً رسولُ اللهِ، وثانياً الحاكمُ، ورغمَ تلكَ المكانةِ الّتي تسمحُ لهُ بأخذِ ما شاءَ منْ أموالِ المسلمِينَ لأنّهُ الرّسولُ فهو مشرِّعٌ، إلا أنّهُ لم يأخذْ شيئاً حتّى تأكّدَ مِنْ طيبِ خاطرِهم لأخذِها... صلّى اللهُ عليكَ وسلّمَ.

ثمّ أكّدَ ﷺ على **عدمِ اقتتالِ المسلمِينَ معَ بعضِهم**، و التّنازعِ فيما بينَهم لأنَّ فيهِ ذهابُ أمرِ الأمّةِ.

ولّما أرادَ التّأكّدَ مِنْ أنّ الجميعَ قد وعى وسمعَ، سألهم : (أنتم تسألون عنّي فما أنتم قائِلُون). قالوا: نشهدُ أنّكَ قد بلّغْتَ وأدّيْتَ ونصحْتَ... فأشارَ بسبّابتهِ ﷺ إلى السّماءِ قائلاً: اللّهمّ اشهدْ (ثلاثَ مرّاتٍ).

بأبي أنتَ وأمّي يا رسولَ اللهِ نشهدُ أنّك قد بلّغْتَ ونصحْتَ وأدّيْتَ الرّسالةَ، ثمّ أدّى الصّحابةُ رضوانُ اللهِ عنهم أجمعِين الرّسالةَ وبلّغُوا ونصحُوا، وكانُوا خيرَ خلَفٍ لخيرِ سلَفٍ على وجهِ الأرضِ.

فما ترانا نحنُ فاعلون؟

سؤالٌ أحسسْتُ فيه بعِظَمِ الأمانةِ المُلقاةِ على كاهلي..

ثمّ تذكّرْتُ.. هذا آذانُ الظّهرِ، قد اقتربَ موعدُ اللّقاءِ برسولِ الأمّةِ.. بالحبيبِ ﷺ.بماذا سأبايعُهُ؟ أتكفي بيعةُ النّساءِ؟

وهذهِ الأمانةُ الّتي أحسُّ بوطأتِها الآنَ، ما دوري فيها؟ هل سأفِدُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ بالتّوبةِ فقط؟ صحيحٌ أنَّ قلبيَ الآنَ قدِ امتزجَ بحبّهِ ﷺ.لكنْ ما دليلُ حبّي؟

أسئلةٌ كثيرةٌ أثقلَتْ رأسيَ فلم أجدْ بُدّاً مِنَ الهروبِ إلى الوضوءِ ثمّ الصلاةِ عسى أنْ أجدَ أجوبةً شافيةً لأسئلتي تلكَ.

هدّأَتِ الصّلاةُ مِنْ روعيَ إلا أنّي لم أجدِ البلسمَ الشّافي بعدُ.

قررْتُ المُتابعةَ في قراءةِ الكتابِ سيّما أنّي الآنَ على مشارفِ آخرِ فصلٍ فيهِ... ورغمَ خوفي مِنْ قراءتِهِ ووجلي مِنَ البدءِ بهِ، إلا أنّهُ يحدُونيَ الشّوقُ للقاءِ الرّسولِ ﷺ بعدَ صلاةِ العصرِ، وعليَّ أنْ أفيَ بوعدي وأكملَ قراءةَ سيرتهِ الشّريفةِ .

الفصلُ السّابعُ و الأخيرُ :

شكوى رسولِ اللهِ ﷺ ولحاقهِ بالرّفيقِ الأعلى

بعثُ أسامةَ بنِ زيدٍ إلى البلقاءِ:

ما إنْ عادَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى المدينةِ المنوّرةِ حتّى أمرَ المسلمِينَ بالتّهيُّؤِ لغزوِ الرّومِ، واختارَ رسولُ اللهِ ﷺ لإمرةِ هذا الغزوِ أسامةَ بنَ زيدٍ رضيَ اللهُ عنهُ، وكانَ رضيَ اللهُ عنهُ شابّاً حَدَثاً، فأمرَهُ ﷺ أنْ يسيرَ إلى موضعِ مقتلِ أبيهِ زيدٍ بنِ حارثةَ، وأنْ يوطئَ الخيلَ تخومَ البلقاءِ والداورمِ منْ أرضِ فلسطينَ، وذلكَ مع بدءِ شكواه ﷺ مِنْ مرضِهِ الذي توفّيَ فيهِ. ولكنّ المنافقينَ راحُوا يقولون مستنكِرِينَ: أمَّرَ غُلاماً حدَثاً على جلّةِ المهاجرِين والأنصارِ[1]، فخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى النّاسِ وقد عصبَ رأسَهُ وخطبَ فيهم قائلاً:

"إنْ تطعنُوا في إمارةِ أسامةَ بنِ زيدٍ فقد طعنتُم في إمارةِ أبيهِ مِنْ قبلهِ. وايَمُ اللهِ إنْ كانَ لَخليقاً بها، و ايمُ اللهِ إنْ كانَ لأَحبَّ النّاسِ إليَّ، وايمُ اللهِ إنَّ هذا لها لخَليقٌ ــيريدُ أسامةَ بنَ زيدٍــ وايمُ اللهِ إنْ كانَ لأحبّهم إليَّ مِنْ بعدِهِ فأوصيْكُم بهِ فإنّهُ مِنْ

[1] – كانَ أسامةُ إذ ذاكَ ابنَ ثماني عشْرةَ سنةٍ أو عشرين ، على اختلافٍ في ذلكَ

صالِحِيْكم"[١] . فتجهّزَ النّاسُ، وأوعبَ مع أسامةَ المهاجِرِينَ والأنصارَ، وخرجَ أسامةُ بجيشِهِ إلى ظاهرِ المدينةِ، فعسكرَ بالجرفِ (مكانٌ على فرسخٍ مِنَ المدينةِ) .

شكوى رسولِ الله ﷺ :

وفي هذِهِ الأثناءِ، اشتدّتْ برسولِ الله ﷺ شكواه الّتي قبضَهُ اللهُ فيها ، فأقامَ الجيشُ هناكَ، ينظرون ما اللهُ قاضٍ في هذا الأمرِ. وكانَ ابتداءُ شكواهُ ما رواهُ ابنُ إسحاقَ وابنُ سعدٍ عنْ أبي مُويهبةَ مولى رسولِ الله ﷺ، قالَ:" بعثني رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ جوفِ الليلِ، فقالَ: يا أبا مويهبةَ، قد أُمِرتُ أنْ أستغفرَ لأهلِ هذا البقيعِ، فانطلقَ معي. فانطلقْتُ معه، فلمّا وقفْنا عليهم قالَ: السّلامُ عليكم يا أهلَ المقابرِ، ليَهْنِ لكم ما أصبحْتم فيما أصبحَ النّاسُ فيه، أقبلتِ الفتنُ مثلَ قطعِ اللّيلِ المُظلمِ يتبعُ آخرُها أولاها، الآخرةُ شرٌّ مِنَ الأولى. ثمّ أقبلَ عليٌّ فقالَ: إنّي قد أُعطيتُ مفاتيحَ خزائنِ الدّنيا والخلدَ فيها، فخُيِّرتُ بينَ ذلكَ وبينَ لقاءِ ربّي والجنّةِ. فقلْتُ: بأبي أنتَ وأمّي، فخذْ مفاتيحَ خزائنِ الدّنيا وتخلّدُ فيها، ثمّ الجنّة. قالَ: لا واللهِ يا

---

[١] - مُتّفقٌ عليهِ واللّفظُ لمسلمٍ ١٣١/٧

أبا مُوَيْهبةَ، قد اخترتُ لقاءَ ربّي والجنّةَ. ثمّ استغفرَ لأهلِ البقيعِ ثمّ انصرفَ فابتدأَ رسولَ اللهِ ﷺ وجعُهُ الذي قُبِضَ فيهِ"[1] . وكانَ أولُ وجعِهِ ﷺ صداعاً شديداً يجدُهُ في رأسِهِ، فقد رُويَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنّهُ ﷺ لمّا رجعَ مِنَ البقيعِ استقبلَتهُ وهي تقولُ: وارأساهُ، فقالَ لها ﷺ" بل أنا واللهِ يا عائشةُ وارأساه"[2] . ثمّ ثقُلَ عليهِ الوجعُ فكانَ حُمّى شديدةً تنتابُهُ، وكانَ بدءُ ذلكَ في أواخرِ صفرَ مِنَ السّنةِ الحاديةَ عشْرةَ للهجرةِ وكانتْ عائشةُ ترقيهِ ﷺ خلالَ ذلكَ بمعوّذاتٍ مِنَ القرآنِ.

روى البُخاريُّ ومسلمٌ عنْ عروةَ أنّ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أخبرتْهُ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ إذا اشتكى نفثَ على نفسِهِ بالمعوّذاتِ ومسحَ عنهُ بيدِهِ، فلمّا اشتكى وجعَهُ الذي تُوفّيَ فيهِ، طفقْتُ أنفثُ على نفسِهِ بالمعوّذاتِ الّتي كانَ ينفثُ وأمسحُ

---

[1]- رواهُ ابنُ إسحاقَ وابنُ سعدٍ ، وأحمدُ في مسندِهِ وروى نحوهُ أبو داودَ و النّسائيّ وابنُ ماجه منْ حديثِ عائشةَ وأبي هريرةَ .وذلكَ كلّهُ غيرُ الحديثِ الذي رواه مسلمٌ ومالكٌ في الموطّأ في بابِ الطّهارةِ عنْ أبي هريرةَ رضيَ الله عنهُ أنّه ﷺ خرجَ إلى المقبرةِ فقالَ: السّلامُ عليكم دارَ قومٍ مؤمنِين .وإنّا إنْ شاءَ اللهُ بكم لاحقون، ودَدْتُ أنّي قد رأيتُ إخوانَنا فقالُوا : يا رسولَ اللهِ ألسنا بإخوانِك ؟قالَ: بل أنتم أصحابي...الحديثُ وربّما توهّم البعضُ أنّ هذا الذي رواه مسلمٌ ومالك ، هو ما رواه الآخرون عند قربِ وفاتِه ﷺ ،روَياهُ على نحوٍ آخر. وقد ثبُتَ أنّهُ ﷺ كانَ مِنْ عادتهِ أنْ يذهبَ كلّ ليلةٍ إلى البقيعِ يدعو ويستغفرُ لأهلِهِ .

[2]- رواهُ ابنُ إسحاقَ وابنُ سعدٍ وروى بنحوِهِ الإمامُ أحمدُ في حديثٍ طويلٍ .

بيدِ النّبيّ ﷺ عنهُ. وشعرَتْ نساؤُهُ ﷺ برغبتِهِ في أنْ يمرّضَ في بيتِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، لِما يعلمْنَ مِنْ محبّتِهِ لها وارتياحِهِ إليها، فأذِنَّ لهُ في ذلكَ، فخرجَ إلى بيتِها مِنْ عندِ ميمونةَ يتوكّأُ على الفضلِ بنِ العبّاسِ وعليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهما. وفي بيتِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها اشتدَّ بهِ وجعُهُ، وكانَ قد شعرَ بقلقِ أصحابِهِ وحزنِهم عليهِ، فقالَ:" أهرقُوا عليَّ مِنْ سبعِ قُربٍ لم تُحْلَلْ أُوكِيَتُهنَّ لعلّي أعهدُ إلى النّاسِ (أيْ أخرجُ إليهم لأُكلّمَهم "قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: فأجلسناهُ في مخضبٍ (ما يشبهُ الإجّانةَ يُغسَلُ فيها الثّيابُ) ثمّ طفقْنا نَصُبُّ عليهِ مِنْ تلكَ القُربِ حتّى طفقَ يشيرُ إلينا بيدِهِ أنْ قد فعلتُنَّ. ثمّ خرجَ إلى النّاسِ فصلّى بهم وخطبَهم[1]، خرجَ ﷺ عاصباً رأسَهُ، فجلسَ على المنبرِ، ثمّ كانَ أوّلَ ما تكلمَ بهِ أنْ صلّى على أصحابِ أُحدٍ واستغفرَ لهم ثمّ قالَ: "عبدٌ خيّرَهُ اللهُ بينَ أنْ يؤتيَهُ زهرةَ الدّنيا وبينَ ما عندَهُ، فاختارَ ما عندَهُ" فبكى أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ (إذْ علمَ ما يقصدُهُ النّبيُّ ﷺ) وناداه قائلاً :فديناك بآبائنا وأمّهاتنا. فقالَ ﷺ :"على رِسْلِكَ يا أبابكرٍ ، أيها النّاسُ إنّ أمنّ النّاسِ عليّ في مالهِ

[1] – رواهُ البخاري

وصُحبتِهِ أبو بكرٍ، ولو كنتُ متّخِذاً خليلاً لاتّخذْتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكنْ أخوّةُ الإسلامِ. لا تبقيَنّ في المسجدِ خوخةٌ إلا خوخةَ أبي بكرٍ[1]، وإنّي فَرَطٌ لكم وأنا شهيدٌ عليكم وإنّي واللهِ ما أخافُ أنْ تشركُوا مِنْ بعدي، ولكنّي أخشى عليكمُ الدّنيا أنْ تنافسُوا فيها"[2]. وعادَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى بيتِه، و ما هو إلا أنِ اشتدّ بهِ وجعُهُ، وثقُلَ عليهِ مرضُهُ. روَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ:" قالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ في مرضِهِ: ادعي لي أبابكرٍ أباكَ وأخاكَ، حتّى أكتبَ كتاباً، فإنّي أخافُ أنْ يتمنّى متمنٍّ ويقولَ قائلٌ: أنا أَولى، ويأبى اللهُ والمؤمنون إلا أبا بكرٍ"[3]. وروى ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ:" لمّا اشتدّ برسولِ اللهِ ﷺ المرضُ، قالَ لرجالٍ كانُوا في البيتِ: هلمّوا أكتبْ لكم كتاباً لا تضلّوا بعدَهُ، فقالَ بعضُهم: إنّ رسولَ اللهِ ﷺ قد غلبَهُ الوجعُ وعندَكم القرآنُ، حسبُنا كتابُ اللهِ. فاختلفَ أهلُ البيتِ واختصمُوا، فمنهم مَنْ يقولُ قرّبُوا يكتبْ لكم كتاباً لا تضلّوا بعدَهُ، ومنهم مَنْ يقولُ غيرَ ذلكَ، فلمّا أكثرُوا اللّغو والاختلافَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: قومُوا"[4]. ولم يعدْ رسولُ اللهِ ﷺ

---

[1]- هو البابُ الصغيرُ بينَ البيتين .والحديثُ إلى هنا متّفقٌ عليهِ واللّفظُ لمسلمٍ .

[2] – متّفقٌ عليه

[3] – رواهُ مسلمٌ في بابِ فضلِ أبي بكرٍ:١١٠/٧ وروى البُخاريّ نحوه

[4] – رواهُ البخاريّ في بابِ مرضِ النّبيّ و وفاتهِ :١٣٨/٥

يطيقُ الخروجَ إلى الصّلاةِ مع النّاسِ، فقالَ:" مُروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالنّاسِ " فقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: يا رسولَ اللهِ، إنَّ أبا بكرٍ أسيفٌ (رقيق) وإنّهُ إذا قامَ مقامَكَ لم يكدْ يُسمِعِ النّاسَ، فقالَ:" إنّكنّ صواحبُ يوسفَ، مُروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالنّاسِ"[١]. فكانَ أبو بكرٍ هو الّذي يصلّي بالنّاسِ بعدَ ذلكَ، وخرجَ النّبيّ ﷺ خلالَ ذلكَ مرّةً- وقد شعرَ بخفّة - فأتى فوجدَ أبا بكرٍ وهو قائمٌ يصلّي بالنّاسِ، فاستأخرَ أبو بكرٍ، فأشارَ إليهِ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ كما أنتَ، فجلسَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى جنبِ أبي بكرٍ، فكانَ أبو بكرٍ يصلّي بصلاةِ رسولِ اللهِ ﷺ وهو جالسٌ، وكانَ النّاسُ يصلّونَ بصلاةِ أبي بكرٍ[٢]، واستبشرَ النّاسُ خيراً بخروجهِ ﷺ إذ ذاكَ، ولكنّ البُرحاء اشتدّتْ عليه، وكانَ ذلكَ آخرَ مرةٍ يصلّي فيها مع النّاسِ.

---

[١] – مُتّفق عليه

[٢] – رواهُ البخاريُّ في كتابِ الصّلاةِ بابُ مَنْ أقامَ إلى جانبِ الإمامِ لعلّة، ومسلمٌ في كتابِ الصّلاة بابِ استخلافِ الإمامِ، ومالكٌ في الموطّأ كتابُ صلاةِ الجماعةِ بابُ صلاةِ الإمامِ وهو جالسٌ، وغيرهم .ومِنَ العجبِ أنّ الشيخَ ناصراً أخرجَ هذا الحديثَ في تخريجهِ لأحاديثِ كتابِ فقهِ السّيرةِ للغزالي، فعزاهُ إلى الإمامِ أحمدَ وابنِ ماجه فقط .وزادَ على هذا أنْ أخذَ يحقّقُ في نسبةِ ضَعفٍ إليه بسببِ أنّ فيهِ أبا إسحاقَ السبيعي.مع أنّ الحديثَ متّفقٌ عليهِ وله طرقٌ غيرُ هذا الذي اهتمَّ بتحقيقهِ! اللّهم إلا أنّ روايةَ أحمد وابنِ ماجه فيها (واستفتحَ من الآيةِ التي بلغَها أبو بكرٍ) وليسَ في روايةِ الشيخين هذهِ الجملة وعلى كلّ فالحادثةُ واحدةٌ والحديثُ واحدٌ ولا ينبغي عند التّخريجِ الاقتصارُ على ذكرِ الطّريقِ الضّعيفِ والسّكوتِ عنِ الطّريقِ الصّحيحِ أو المُتّفقِ عليه ،لما في ذلكَ من الإبهامِ الواضحِ الّذي يتحاشاه علماءُ الحديثِ .

روى ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ: دخلْتُ على رسولِ اللهِ ﷺ وهو يوعَكُ ، فمسَسْتهُ بيدي، فقلْتُ: يا رسولَ اللهِ، إنّكَ لَتوعَكُ وعْكاً شديداً، فقالَ ﷺ: أجلْ إنّي أُوعَكُ كما يُوعكُ رجلانِ منْكم، قالَ فقلْتُ : ذلكَ أنّ لكَ أجرينِ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : أجلْ ، ما مِنْ مسلمٍ يصيبهُ أذىً مِنْ مرضٍ فما سواهُ إلا حطَّ اللهُ بهِ سيئّاتهِ كما تحطُّ الشّجرةُ ورقَها"[١] . كانَ ﷺ أثناءَ ذلكَ يطرحُ خميصةً (غطاءً) له على وجههِ، فإذا اغتمّ وضايقهُ الألمُ كشفَها عنْ وجههِ فقالَ: "لعنةُ اللهِ على اليهودِ والنّصارى اتخذُوا قبورَ أنبيائهِم مساجد"[٢] . كأنه ﷺ يحذّرُ المسلمِينَ مِنْ أنْ يصنعُوا صنيعَهم بهِ.

رسولُ اللهِ ﷺ وسكرةُ الموتِ :

وذلكَ هو حكمُ اللهِ في عبادهِ كلّهم :﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[٣] فقد دخلَ فجرُ يومِ الاثنينِ ثاني عشرَ ربيع الأول مِنَ العامِ الحادي عشرَ للهجرةِ، وبينما النّاسُ في المسجدِ يصلّون خلفَ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ، إذا بالسّترِ المضروبِ على حُجرةِ

[١] - متّفقٌ عليهِ
[٢] - متّفقٌ عليهِ
[٣] - سورةُ الزّمرِ : ٣٠

عائشةَ قد كُشفَ، وبرزَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ ورائِهِ، فنظرَ إليهم وهمْ في صفوفِ الصّلاةِ، ثمَّ تبسّمَ يضحكُ، فنكصَ أبو بكرٍ على عقبِهِ ليصلَ الصّفَّ، فقد ظنَّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يريدُ أنْ يخرجَ إلى الصّلاةِ، وهمَّ المسلمون أن يُفتَنوا في صلاتِهم فرحاً برسولِ اللهِ ﷺ، فأشارَ إليهم بيدِهِ ﷺ أنْ أتمّوا صلاتَكم، ثمّ دخلَ الحجرةَ و أرخى السترَ"[1]. وانصرفَ النّاسُ مِنْ صلاتِهم، وهم يحسبونَ أنَّ النّبيَّ ﷺ قد نشطَ مِنْ مرضِهِ. ولكنْ تبيّنَ أنّها كانَتْ نظرةَ وداعٍ منهُ ﷺ إلى أصحابِهِ، فقد عادَ عليهِ ﷺ فاضطجعَ إلى حجرِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، وأسندَتْ رضيَ اللهُ عنها رأسهُ إلى صدرِها، وجعلَتْ تتغشّاهُ سكرةُ الموتِ، قالَتْ:" وكانَ بينَ يديهِ ركوةٌ فيها ماءٌ فجعلَ يُدخِلُ يديهِ في الماءِ فيمسحُ بها وجههُ ويقولُ: لا إلهَ إلا اللهُ، إنّ للموتِ سكراتٍ"[2]. وكانتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنها إذا رأَتْ منهُ ذلكَ قالَتْ:" واكربَ

---

[1] – رواهُ الشّيخان

[2] – رواهُ البخاريّ في بابِ مرضِ الرّسولِ ﷺ و وفاتِهِ، وفي بابِ سكرةِ الموتِ مِنْ كتابِ الرّقاقِ :١٩٢/٧. ورواهُ الترمذيّ و النّسائيّ وأحمدُ بطَريقٍ آخرَ بلفظِ: "اللّهمّ أعنّي على سكراتِ الموتِ" وقد خرّجهُ الشّيخُ ناصرٌ فقالَ : ضعيفٌ أخرجهُ التّرمذيّ وغيرهِ عنْ طريقِ موسى بنِ سرجسَ بنِ محمّدٍ عن عائشةَ ....الخ وإنّما هو ضعيفٌ بهذا اللفظِ فقط ، أمّا أصلُ الحديثِ فقد رواهُ البخاريُّ بطريقٍ صحيحٍ وإذا كانَ للحديثِ الواحدِ طريقان فلا ينبغي الاقتصارُ في تخريجِهِ على ذكرِ الضّعيفِ منهما لما فيهِ مِنَ الإبهامِ. كما سبقَ بيانهُ في صفحةِ (٤٩٤) ولا يضيرُ اختلافٌ يسيرٌ في اللّفظِ ما دامَتِ الحادثةُ واحدةً .

أباه؟ . . فيقولُ لها ﷺ : ليسَ على أبيكِ كَربٌ بعدَ هذا اليومِ"[١] . قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها:" إنّ اللهَ جمعَ بينَ ريقي وريقِهِ عندَ موتِهِ، ودخلَ عليٌّ عبدُ الرحمنِ وبيدِهِ السّواكُ وأنا مُسنِدةٌ رسولَ اللهِ ﷺ ، فرأيتُهُ ينظرُ إليهِ، وعرفْتُ أنّهُ يحبُّ السّواكَ، فقلْتُ: آخذهُ لكَ، فأشارَ برأسِهِ أنْ نعم، فتناولتُهُ فاشتدّ عليهِ، فقلت: ألَيّنُهُ لكَ؟ فأشارَ برأسِهِ أنْ نعم، فليّنتُهُ فأمرَّهُ، وبينَ يديهِ ركوةٌ فجعلَ يُدخلُ يديهِ في الماءِ فيمسحُ وجهَهُ ويقولُ : لا إلهَ إلا اللهُ إنّ للموتِ سكراتٌ. ثمّ نصَبَ يدَهُ فجعلَ يقولُ: بلِ الرّفيقُ الأعلى، حتّى[٢] قُبِضَ، ومالَتْ يدُهُ" . وانتشرَ خبرُ وفاتهِ ﷺ في النّاسِ، وأقبلَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ على فرسٍ منْ مسكنهِ في السُّنح (وكانَ قد ذهبَ إلى منزلِهِ هناكَ آملاً أنّهُ ﷺ قد عُوفيَ من وجعِهِ)، حتّى نزلَ فدخلَ المسجدَ، فلم يكلّمِ النّاسَ حتّى دخلَ على عائشةَ، فتيمّم رسولَ اللهِ ﷺ وهو مغشّىً بثوبِ حِبَرَة، فكشفَ عن وجهِهِ، ثمّ أكبّ عليهِ فقبّلَهُ. وبكى، ثمّ قالَ:" بأبي أنتَ وأمّي لا يجمعُ اللهُ عليكَ موتتَين ، أمّا الموتةُ الّتي كُتبتْ

[١] – رواهُ البخاريّ

[٢] – رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ، واللّفظ للبخاريّ

عليكَ فقد متّها"[١]، ثمّ خرجَ رضيَ اللهُ عنهُ، وعمرُ يكلّمُ النّاسَ أنّ رسولَ الله ﷺ لم يمُتْ، ولكنّهُ ذهبَ إلى ربهِ كما ذهبَ موسى بنُ عمرانَ وأنهُ ﷺ لا يموتُ حتّى يُفني اللهُ المنافقين: فأقبلَ أبو بكرٍ يقولُ له: على رِسْلِكَ يا عمرُ، أنصِتْ ولكنّهُ استمرَّ في كلامهِ مُهتاجاً، فلمّا رآهُ أبو بكرٍ لا ينصتُ أقبلَ على النّاس فأقبلُوا إليهِ وتركُوا عمرَ، فقالَ أبو بكرٍ: أمّا بعدُ أيّها النّاسُ، مَنْ كانَ منكم يعبدُ محمّداً ﷺ فإنّ محمّداً قد ماتَ، ومَنْ كانَ منكم يعبدُ اللهَ فإنّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ، قالَ اللهُ تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ ﴾[٢]، فكأنَّ النّاسَ لم يعلمُوا أنّ اللهَ نزّلَ هذهِ الآيةَ حتّى تلاها أبو بكرٍ، فتلقّاها منهُ النّاسُ كلُّهم، فما سمعَها بشرٌ مِنَ النّاسِ إلا وأخذَ يتلوها . قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ:" واللهِ ما هو إلا أنْ سمعْتُ أبا بكرٍ تلاها، فعَقِرْتُ ما تقلُّني رجلاي وحتّى أهويتُ إلى الأرضِ حينَ سمعتُهُ تلاها وعلمْتُ أنّ النّبيَّ ﷺ قد ماتَ"[٣]. وقد أجمعَ

[١] – رواهُ البخاريّ

[٢] – سورةُ آلِ عمران : ١٤٤

[٣] – رواهُ ابنُ إسحاقَ وغيرُه ،كما رواهُ البخاريّ أيضاً مع فرقٍ بسيطٍ في بعضِ الألفاظِ

الرُّواةُ وأهلُ العلمِ أنهُ ﷺ تُوفّيَ عنْ ثلاثةٍ وستّين عاماً مِنَ العمرِ، قضى أربعين منها قبلَ البَعثةِ، وثلاثةَ عشَرَ عاماً يدعو إلى اللهِ في مكّةَ وعشرَ سنين قضاها في المدينةِ بعدَ الهجرةِ. وكانتْ وفاتهُ في أوّلِ العامِ الحادي عشرَ. وروى البُخاريُّ عنْ عمرو ابن الحارثِ، قالَ:" ما تركَ رسولُ اللهِ ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمةً، إلا بغلتهُ البيضاءَ الّتي كانَ يركبُها وسلاحَهُ، وأرضاً جعلَها لابنِ السّبيلِ صدقةً".

طِبْتَ حيّاً وميْتاً يا رسولَ اللهِ.

ما زلْتَ حتّى آخرِ لحظةٍ حريصاً على أمّتكَ... تخافُ عليها الفتنَ الّتي ستقْبلُ بعدَ وفاتِكَ... وتنبّهنا إلى فتنةِ الدّنيا (أخشى عليكمُ الدّنيا أنْ تنافسُوها)، وهذا ما حصلَ يا سيّدي يا رسولَ اللهِ.

فبأيِّ وجهٍ أقدمُ عليكَ يا رسولَ اللهِ؟... ما هي الأخبارُ الّتي سأزفّها إليكَ عنْ أمّتِكَ؟... وعنِ الأمانةِ؟

ثمّ ثغرُكَ المبتسمُ ورضاكَ عنْ مشهدِ أمّتِكَ وهي تصلّي، أردتَ أنْ تكونَ هذهِ الصّورةُ آخرَ عهدٍ لأمّتِكَ بكَ.

الصّلاة ...

كفكفْتُ دمعي لكنْ عبَثاً، فقد أجهشْتُ بالبكاءِ حتّى دخلَ أخي فسألَني... فأشرْتُ إلى الكتابِ فقرأَ بضعَ أسطرٍ فدمعَتْ عيناه.

ثمّ قالَ لي: لا تحزنْ يا أخي أتعلمُ منذُ زمنٍ قرأْتُ سيرتَهُ ﷺ وقدْ أصابَني ما أصابكَ، ثمّ قفزَ سؤالٌ في ذهني : ترى أأرسلَ رسولُ اللهِ ﷺ سلامَهُ إلينا نحن؟ فبحثْتُ في كتبِ السّيرةِ حتّى وجدتُها... تعالَ لتقرأَها لقد كتبتُها في دفتريَ الّذي تعرفهُ:

عنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قال: لمّا ثقلَ رسولُ اللهِ ﷺ اجتمعْنا في بيتِ عائشةَ فنظرَ إلينا رسولُ اللهِ ﷺ فدمعَتْ عيناهُ، ثمّ قالَ لنا: قد دنا الفِراقُ ونعى إلينا نفسَهُ، ثمّ قالَ: مرحباً بكم حيّاكم اللهُ، هداكمُ اللهُ، نصركمُ اللهُ، نفعكمُ اللهُ، وفّقكمُ اللهُ، سدّدكمُ اللهُ، وقاكمُ اللهُ، أعانكمُ اللهُ، قبَلكُم اللهُ، أوصيكمْ بتقوى اللهِ، وأوصي اللهَ بكم وأستخلفُهُ عليكم، إنّي لكم منهُ نذيرٌ مبينٌ أنْ لا تعلوا على اللهِ في عبادِهِ وبلادِهِ فإنّ اللهَ قالَ لي ولكمْ ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1]، وقــــال: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[2]، قلْنا: فمتى أجلُكَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: قد دنا الأجلُ

[1] – سورةُ القَصص : ٨٣

[2] – سورةُ الزُّمر : ٦٠

والمنقلَبُ إلى اللهِ وسدرةِ المنتهى والكأسِ الأوفى والعرشِ الأعلى. قلنا: فمَنْ يغسِلكَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: رجالُ أهلِ بيتيَ الأدنى فالأدنى مع ملائكةٍ كثيرةٍ يرونَكم مِنْ حيثُ لا ترونَهم قلْنا: ففيمَ نكفّنكَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: في ثيابي هذهِ إنْ شئتُم أو في يمنيةٍ أو في بياضِ مصرَ. قُلنا: فمَنْ يصلّي عليكَ يا رسولَ اللهِ؟ فبكى وبكينا. وقالَ: مهلاً! غفرَ اللهُ لكم وجزاكم عَنْ نبيّكم خيراً إنْ غسّلتُموني وحنّطتُموني وكفّنتُموني فضعوني على شفيرِ قبري ثمّ اخرجُوا عنّي ساعةً، فإنّ أوّلَ مَنْ يصلّي عليَّ خليلايَ وجليسايَ جبريلُ وميكائيلُ ثمّ اسرافيلُ، ثمّ ملكُ الموتِ مع جنودٍ مِنَ الملائكةِ عليهمُ السّلامُ وليبدأْ بالصّلاةِ عليَّ رجالُ أهلِ بيتي ثمّ نساؤُهم ثمّ ادخلُوا عليَّ أفواجاً وفُرادى فُرادى ولا تؤذوني بباكيةٍ ولا برنّةٍ ولا بضجّةٍ. مَنْ كانَ غائباً مِنْ أصحابي فأبلغُوهُ منّي السّلامَ، وأُشهدُكم بأني قد سلّمْتُ على مَنْ دخلَ الإسلامَ ومَنْ تابعَني في ديني هذا منذُ اليومِ إلى يومِ القيامةِ[1].

الصّلاةُ والسّلامُ عليكَ يا حبيبَ اللهِ. لم تنسَ أُمّتَكَ الّتي ستأتي بعدَ

[1] – البدايةُ والنّهايةُ لابنِ كثيرٍ: مج ٣، ج٥، (٢٢٢)

قُرون. فدعوتَنا بإخوانِكَ ثمّ ها أنتَ تسلّمُ علينا، لأنّكَ تعلمُ يا طبيبَ القلوبِ و يا عالماً بأحوالِ المحبّين، تعلمُ شوقَ المحبِّ لسماعِ سلامٍ مِنْ حبيبِهِ، تعلمُ لهفتَهُ لمعرفةِ أنَّ حبيبَهُ لم ينسَهُ أبداً حتّى في آخرِ اللّحظاتِ وأحلكِها.

بعدَ كلِّ هذا الحبِّ والعطاءِ، كيفَ غفلَ مسلمٌ عنْ محبّتِكَ؟ وكيفَ هجركَ؟ وكيفَ تكاسلَ عنْ حملِ الأمانةِ؟

أما إنّهم لو عرفُوكَ ما غفلُوا عنكَ، لو قرؤُوا سيرتَكَ لأحبُّوكَ كما أحببتُكَ.

الجاهلُ هو الّذي لا يعشقُكَ، المجنونُ هو الذي لا يحبُّكَ.

نستغفرُكَ ياربُّ على تقصيرِنا بحقِّ نبيِّكَ.

هزّني أخي مِنْ ساعدي وربَّتَ على كتفي قائلاً: قمْ ولا تبتئسْ إنّ رحمةَ اللهِ قريبٌ مِنَ المُحسنين ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1]

هل تعلمُ يا أخي آيةَ الحُبِّ وشرطَها في القرآنِ؟

رددتُ: لا ، والدّمعُ ينهمرُ مِنْ عيني.. قالَ:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

[1] – سورةُ الزّمر : ٥٣

رَّحِيمٌ ﴾[1]

ثمّ تابعَ قائلاً: عليكَ يا أخي باتّباعِ النّبيِّ العظيمِ الّذي عرفتَهُ الآنَ وتنسّمْتَ ريحَ حبّهِ وعشقِهِ، فاتّبعْ أوامرَهُ، وافعلْ كما فعلَ، وتخلّقْ بأخلاقِهِ وامضِ على عهدِهِ، لعلّ قدماً تقعُ على قدمٍ.

قمْ يا أخي قد اقتربَ آذانُ العصرِ، أنتَ على موعدٍ مع الحبيبِ.. أتذكُرْ؟ قمْ فاغتسلْ ثمّ توضّأْ وهلمَّ بنا إلى روضةِ الحبيبِ ﷺ .

أسرعْتُ فاغتسلْتُ وتوضّأْتُ وتجمّلْتُ وتعطّرْتُ، ثمّ خرجْتُ مع أخي وضرباتُ قلبي كأنّها طبولٌ.

أسرعْتُ في شوارعِ المدينةِ وأنا أقولُ: لعلَّ قدَماً تقعُ على قدَمٍ، لعلّ هذا الموطنَ قد سارَ فيهِ رسولُ اللهِ ﷺ. فلو اختلفَتِ الهيئاتُ إلا أنّ الأرضَ هي نفسُها الّتي بوركَتْ بسيرِ رسولِ اللهِ ﷺ عليها.

لمِ أعِ ما حولي ولا حفظْتُ الطّريقَ مِنَ الفندقِ إلى المسجدِ، وكأنّي في عالمٍ آخرَ.

شعوري بالحزنِ لوفاةِ الرّسولِ ﷺ قد سيطرَ عليّ، وكأنّ الواقعةَ قد حدثَتِ الآنَ، ثمّ ينتابُني شعورٌ بتلهّفِ اللقاءِ.

لا أدري.. كلُّ ما أعلمُهُ أنّي الآنَ أحسُّ بشوقٍ كبيرٍ للقاءِ الرّسولِ

[1]- آلُ عمران :٣١

الكريمِ ﷺ.

شعورٌ لم أعهدْهُ منْ قبلُ.

وقفْتُ على بابِ المسجدِ لأخلعَ نعلي، وأخي يأخذُني بيدي كالطّفلِ الصّغيرِ الّذي لا يعي ما حولَه.

أسمعُ كلماتِهِ وتوجيهاتِهِ: ضعْ هُنا... تعالَ مِنْ هُنا، وكأنّي في كوكبٍ آخرَ.

أحمدُ اللهَ أنَّ أخي معي، يدلّني ويقودُني.. يقودُني إلى الحبيبِ ﷺ.

اقتربتُ لحظةَ مواجهتهِ ﷺ...

لم أعرفْ كيفَ وصلْتُ، لم أسمعْ سوى صوتِ أخي يقولُ: هذهِ الرّوضةُ... وهذا قبرُ حبيبِكَ... أجهشْتُ بالبكاءِ وتلمّسْتُ قبرَهُ، تلفّظْتُ بالسّلامِ والصّلاةِ:

الصّلاةُ والسّلامُ عليكَ يا سيّدي يا رسولَ اللهِ. فاختنقَتْ عباراتي، وذهبَ صوتي. لا أدري كم مِنَ الوقْتِ مضى وأنا أبكي، وكأنَّ الجميعَ قدِ ابتعدَ عنّي رأفةً بحالي، فأحسسْتُ أنّي وحيدٌ معه، أبكي وأُصلّي وأُسلّمُ عليهِ ثمّ أزدادُ بكاءً.

ثمّ حاولْتُ أنْ أتلفّظَ بكلمةِ أبايعُكَ يا رسولَ اللهِ لكنّي لا أكادُ أكملُها إذ تختنقُ بدموعي وبكائي. ثمّ أحسسْتُ ببردٍ في قلبي فغشيتني

السكينةُ وكفكفتُ دمعي، فكأنَّ صوتَ نبيِّ الرّحمةِ يقولُ لي هدّئ مِنْ روعِكَ، ويدَهُ الحانيةُ تمسحُ على قلبي فكستْهُ نوراً واطمئْناناً، فتحرّكَتْ شفتايَ قائلاً :

أبايعُكَ يا حبيبَ اللهِ على التّوبةِ مِنْ جميعِ الذّنوبِ وعلى السّمعِ والطّاعةِ في المنشطِ والمكرهِ، وأنْ تكونَ حياتي كلُّها للهِ ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1] وفي خدمةِ رسالتِكَ..علّي أفرحُكَ بعملٍ صالحٍ ينصرُ دينَ اللهِ و يُعلي رايةَ الإسلامِ عاليةً كما كانتْ.

ثمّ أحسستُ بيدِ أخي الحانيةِ تربّتُ على كتفي وتأخذُني لأصلي في الرّوضةِ الشّريفةِ رَكعتين، عسى أنْ تكونَا ركعتا قبولٍ ورضىً، ثمّ صلّينا العصرَ في جماعةٍ... وعندما خرجْتُ مِنَ المسجدِ كانتِ ابتسامةٌ مشرقةٌ قد رُسِمَتْ على وجهي وإشراقةٌ جديدةٌ في قلبي.

ثمّ تمتمتُ في نفسي: لقد فعلتُها ..! وفدتُ إلى الحبيبِ ولكنْ ليس كما كنتُ قبلَ أيّامٍ، بل بقلبٍ مُشتاقٍ، ملؤُهُ الحبُّ والخيرُ والعطاءُ وبعزمٍ ونيّةٍ وتجديدِ بيعةٍ.

قد وفيتُ بوعدي يا رسولَ اللهِ، صلّى اللهُ عليكَ وعلى آلكَ وسلم.

[1] - سورةُ الأنعامِ :١٦٢

كلُّ شخصٍ يمكنُهُ أنْ يفعلَ ما قمْتُ بهِ شرطَ أنْ يفتحَ قلبَهُ وعقلَهُ مع كلّ سكَنَةٍ مِنْ سكناتِ وحركاتِ الرّسولِ الكريمِ، عندها لابدَّ لليدِ الإلهيّةِ الرّحيمةِ أنْ تفيضَ عليهِ بعطاءٍ مِنْ لدنهُ سبحانهُ، فهذا عهدُهُ معَ مَنْ صدقَ وعزمَ على التّغييرِ وأخلصَ في الطّلبِ. جلّ جلالُكَ يا اللهُ.

همسةٌ في أذنِ كلِّ شابٍّ وشابةٍ...

بعدَ هذهِ الرّحلةِ الإيمانيّةِ الّتي تدرَّجَتْ بأحوالِ شابٍّ مِنْ عصرِك، قد شتّتَتْ كثرةُ الْملهياتِ ذهنَهُ، ففقدَ مع زحمةِ الحياةِ هدفهُ وروحهُ.

لكنّ شيئاً ما في داخلهِ ظلّ يلحُّ عليهِ .. يطرقُ قلبَهُ بصوتٍ خافتٍ، وعندما أصغى للصّوتِ، بدأَ الصّوتُ يزدادُ قوّةً، ثمّ مالبثَ أنْ لامسَ النّورُ عينَهُ وسمعَهُ وقلبَهُ، فسدَّ جميعَ المنافذِ مِنْ كلِّ شيءٍ إلا مِنْ ذاكَ النّورِ.

ثمّ فعلَ النّورُ فِعلَهُ السّاحرَ عندما يدخلُ إلى القلبِ، فقَلَبَ موازينَهُ، وغيّرَ خططَهُ، فغدا إنساناً جديداً.. صحيحٌ أنّ الوجهَ ذاتهُ، والعينَ نفسَها، لكنّ الفرقَ واضحٌ. بينَ عيونٍ كانَتْ ذابلةً، قد أرهقَها الركضُ وراءَ السّرابِ، وبينَ عيونٍ برّاقةٍ، تعرفُ هدفَها بدقّةٍ، وتسيرُ بثقةٍ نحوَهُ.

إنّكَ تستطيعُ أنْ تنالَ نصيبَكَ مِنْ هذهِ الرّحلةِ الإيمانيّةِ الرّائعةِ إذا أصغيْتَ لصوتِ الحقّ والنّورِ، وسدَدْتَ منافذَ الظُّلمةِ، وفتحْتَ نوافذَ قلبِكَ مُشرَعةً، ليدخلَ النّورُ الإلهيُّ.

آنَ لكَ أيّها الشّابُّ أنْ يتحرّكَ قلبُكَ حُبّاً ووفاءً لرسولِ الرّحمةِ.

آنَ لـكَ أنْ تفـتحَ عينيْـكَ لـترى الكـونَ بعيـونٍ جديـدةٍ، إنّهـا عيـونٌ صافيةٌ، لا ترى ما حـرّم اللهُ، ولا تعـرفُ الغـدرَ ، ولا خائنـةَ الأعـينِ. عيونٌ تبرقُ حُبّاً، ذكاءً، سعةً، وأُفقاً.

آنَ لكَ أنْ تسـمعَ بـأذنٍ جديـدةٍ، قـد نفضَـتْ عنهـا أدرانَ الكلمـاتِ الخليعةِ، وسمَتْ عنْ سماعِ الكلماتِ النّابيةِ، إنّهـا بعيـدةٌ عـنْ كـلِّ هـذا التّلوّثِ السّمعيّ الّذي يخلُّ بتـوازنِ الإنسـانِ وفهمِـهِ. حتّـى تـدرجَ في مـدارجِ الكمـالِ، فينسـابَ نـورُ القـرآنِ في صـيوانِها، وينتشـرَ فيبلـغَ القلبَ.

آنَ لكَ أنْ تشمَّ ريحاً جديـدةً. ريـحَ الصَّبا، لكـن لا يشـبهُ صَبا هـذا العصرِ الذي مُسخَ فيه الحبُّ فغدا شهوةً !

لقد آنَ لقلبكَ أنْ يعرفَ الحُبَّ الأصيلَ ويتنسّمَ أريجَـهُ العَطِـرَ، ويبصـرَ المحبوبَ الحقيقيّ.

آنَ للقلوبِ التّائهةِ أنْ تصلَ إلى برِّ الأمانِ. إلى الحبيـبِ الخالـدِ، الّـذي لا يموتُ ولا يفنى، إلى الحبيبِ الوفيِّ، الحبيبِ الكاملِ، إلى الّذي يعلـمُ السّرّ وأخفى، إلى الّذي لا يظلمُ عندهُ أحدٌ. إلى الّذي يعلـمُ همسـاتِ المحبّين وتأوّهَ المشتاقِين... إلى الّذي ينادي في كلِّ ليلةٍ : ألا مِـنْ تائـبٍ

فأغفر له.. إلى الّذي تقرّبَ إلى عبادِهِ وهو الغنيُّ عنهم و هم أحوجُ الخلقِ إليهِ.

أسرعْ واتخذْ قراراً نهائيّاً لا رجعةَ فيهِ، و التحقْ بمركبِ النّورِ، قبلَ أنْ يفوتَكَ، لتكونَ ممّنْ تمثّلوا :(وعجلتُ إليكَ ربِّ لترضى)

لقد آنَ للسّماءِ أنْ تسمعَ صوتَ العاشقين لربّهم بعدَ طولِ اشتياقٍ، آنَ للأرضِ أنْ تَردّدَ مع مزاميرِ المحبّين أنغامَ الحبِّ الخالدِ للحبيبِ الخالدِ..

لقد طالَ الشّوقُ لتلكَ الأيّامِ.. عندما تلاقى نورُ السّماءِ بقلبِ المؤمنِ الصّافي فساحَ في الأرضِ حُبّاً ينشرُ النّورَ والسّلامَ، والأمنَ والخيرَ في كلِّ مكانٍ حلَّ فيهِ.

آنَ للأذنِ أنْ تسمعَ صلصلةَ الجرسِ الأوّلِ، فتقرأَ القرآنَ كما تلاهُ جبريلُ، غضّاً طريّاً. وأنْ يشتعلَ الحُبُّ الحقيقيُّ في القلوبِ كما أشعلَ قلوبَ الأوّلين فملؤُوا الأرضَ نفعاً وسروراً.

فهلمّ معاً نعيدُ السّيرةَ الأولى، ونسترجعُ الكرّةَ مِنْ جديدٍ، لنعيدَ للكونِ جمالَهُ، وللحياةِ بهاؤُها.

وصلّى الله على إمامِ العاشقين وسيّدِ المُحبّين وعلى آلهِ وصحبهِ وسلّم.

فهرسُ الكتابِ